وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة يحيى فارس بالمدية

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم العلوم الانسانية- شعبة التاريخ

"التراث العمراني والفكري العثماني في البلاد المغاربية تونس وطرابلس الغرب بين القرنين (16- 19م)"

اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه – ل م د – في تاريخ المغرب العربي الحديث

إعداد الطالب:

أحمد زاوي

إشراف:

د. رشيد مياد

أعضاء لجنة المناقشة:

الإسم واللقب	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د. حكيم بن الشيخ	جامعة المدية	رئيسا
د. رشيد مياد	جامعة المدية	مقررا ومشرفا
د. حميد قريتلي	جامعة المدية	عضوا مناقشا
د. عبد الرزاق تومیات	جامعة المدية	عضوا مناقشا
أ.د. الصادق دهاش	جامعة البليدة2	عضوا مناقشا
د. مراد قبال	جامعة خميس مليانة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1444_1445هـ/ 2022_2023م

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة يحي فارس بالمدية

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم العلوم الانسانية- شعبة التاريخ

"التراث العمراني والفكري العثماني في البلاد المغاربية تونس وطرابلس الغرب بين القرنين (16- 19م)"

اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه – ل م د – في تاريخ المغرب العربي الحديث

إعداد الطالب:

أحمد زاوي

إشراف:

د. رشيد مياد

أعضاء لجنة المناقشة:

الإسم واللقب	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د. حكيم بن الشيخ	جامعة المدية	رئيسا
د. رشيد مياد	جامعة المدية	مقررا ومشرفا
د. حميد قريتلي	جامعة المدية	عضوا مناقشا
د. عبد الرزاق تومیات	جامعة المدية	عضوا مناقشا
أ.د. الصادق دهاش	جامعة البليدة2	عضوا مناقشا
د. مراد قبال	جامعة خميس مليانة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1444_1445هـ/ 2022_2023م

بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيم

الإهداء

إلى قرة عيني أمي وأبي اللذان لم يبخلا بدعائهم لي بالتوفيق .

إلى زوجتي وأبنائي الذين ساهموا بتوفير الظروف المناسبة للكتابة وإنجاز

أطروحتي، لهم مني كل الود والامتنان.

إلى إخوتي وأخواتي لدعمهم وتشجيعهم المتواصل .

إلى كل الأصدقاء الذين شدوا على يدي وشجعوني، لهم كل الشكر

والتقدير

أحمد

شكر وعرفان

الشكر لله عز وجل على توفيقه وما كنت لأوفق في شيء من هذا لولاه.

ثم الشكر الجزيل للأستاذ المشرف الدكتور: رشيد مياد الذي تعهدني برعايته، وحسن معاملته، وكرم اخلاقه، وسعة صدره، وتوجيهاته السديدة، فقد اعطاني من وقته الكثير، وبذل كل ما في وسعه لتذليل المصاعب، فكانت توجيهاته بالغة الأثر في إنهاء هذه الدراسة.

كما أوجه شكري وعرفاني لأساتذتي الذين كان لهم الأثر الجميل، من خلال تكويننا في مرحلة الدكتوراه؛ الأستاذ الدكتور غالي غربي وحرمه الأستاذة الدكتورة طرشون؛ والأستاذ الدكتور بوطيبي محمد والأستاذ الدكتور بن شيخ حكيم.

وإلى كل من لم يرد اسمه ممن قدم لنا يد المساعدة العلمية أو ساهم بالنصح والإرشاد ولو بجزء بسيط.

كما أتقدم بالشكر للجنة المناقشة التي تحملت عناء قراءة وتصحيح هذا العمل.

إلهام

- أ.و.ت: الأرشيف الوطني التونسي.
- ت: توفي
- ط: رقم الطبعة.
- ج: الجزء.
- مج: مجلد
- د.س.ن: دون سنة نشر.
- د.م.ن: دون مكان نشر
- د.م: دون مؤلف
- د.د.ن: دون دار النشر.
- د.ط: دون طبعة.
- د.ع: دون عدد.
- ص: رقم الصفحة.
- م: السنة الميلادية.
- هـ: السنة الهجرية.
- ع: عدد.

- **p**: page.
- **T**: tome.
- **Ibid** : même référence
- **Op cit** : Référence précédente

المقدمة

يشكل التراث الفكري والمعماري أحد أهم المقومات التي تعبر عن المستويات الفكرية والحضارية للدول، ومن ذلك التراث العثماني الذي يقدم عدة معطيات عن الظروف السياسية والاقتصادية التي مرت بها البلاد المغاربية خلال زمن تشييدها، ومن خلال بحثنا في فترة الوجود العثماني بالبلاد المغاربية (تونس وطرابلس الغرب) وجدنا الكثير من الشواهد المعمارية التي ميزت هذا العهد، بظهور العديد من المساجد والجوامع والمساكن والمرافق العامة التي عكست الذوق الفني والجمالي العثماني، وبما أن لفظ المعمار لا ينطبق إلا على العمارة التي يتم تصويرها وفق رؤية جمالية فإن هدفنا من هذه الدراسة كان التركيز على أهم خصائص العمارة العثمانية ومدى تأثيرها في الطراز المعماري المغاربي.

كما ساهمت الحياة الفكرية والعلمية هي الأخرى في رسم تصور حضاري عن المرحلة وتأثيراتها، من خلال البرامج العلمية المعتمدة، والتي كانت سببا في ظهور علماء أعلام شاركوا في هذه الحركة وتركوا آثار علمية كثيرة، قبل أن تشهد تونس وطرابلس الغرب مع نهاية العهد العثماني حركة إصلاح واسعة في البرامج والهياكل ونظم التدريس من خلال استنساخ بعض النماذج الأوروبية، في محاولة لمسايرة الحضارة الأوروبية في جوانبها العلمية والفكرية.

- **أهداف الدراسة:**

وتهدف هذه الدراسة إلى ابراز أهم الآثار العثمانية على الهندسة المعمارية في البلاد المغاربية من خلال دراسة منشآت معمارية مختلفة، منها الدينية كالمساجد والدفاعية كالقلاع والتعليمية كالمدارس، ومنشآت عامة كالحمامات وغيرها، وما حملته من مؤثرات عثمانية من خلال إبراز مميزاتها الهندسية والزخرفية، والتي من شأنها أن تقدم معطيات هامة عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والحضارية، التي تساعد على إثراء الدراسات التاريخية للمرحلة.

والبحث في مظاهر الحياة الفكرية بالبلاد المغاربية من خلال استعراض الأوضاع التعليمية والفكرية، وإسهامات العثمانيين فيها ودواعي الإصلاح والتحديث التي مستها، وأردنا أيضا من خلال هذا العمل البحث والتعرف على أهم الإضافات التي قدمها العثمانيون، زيادة على التأثيرات الأندلسية الوافدة من الغرب والتي شكلت معطيات معمارية وفكرية مهمة ميزت البلاد المغاربية خلال الفترة الحديثة.

وتسليط الضوء على حركة الإنتاج الفكري في شتى مجالاته الأدبية والفكرية والعلمية و البحث في هذا التراث الذي تركه مفكرو تونس وطرابلس الغرب خلال الفترة العثمانية، رغم أنه من الصعب إختيار فئة من العلماء والمفكرين دون غيرهم كنماذج معبرة عن الحياة الفكرية، والبحث أيضا في التعليم ومؤسساته وكذا تأثير الرحلات العلمية نحو الشرق والغرب في طبيعة الكتابات التي وجدت في المنطقة خلال الفترة المدروسة، ومساهمة هذه الكتابات في الثقافة العربية الحديثة.

لم تنل الفترة العثمانية في البلاد المغاربية حقها الكاف من الدراسة والبحث خاصة في المجالات الفكرية والفنية، حيث اعتبرها البعض مرحلة ركود فكري مثلما اعتبرها البعض الآخر فترة حكم أجنبي أو فترة استعمارية، وهو التوجه الذي اتخذه الكتاب والمؤرخون الغربيون، الذين رأوا أن الإشعاع الذي كان في الماضي أصبح منعدما وأن التراث العمراني الذي كان يعبر عن الهوية العربية قد اندثر ولم يرمم منه إلا القليل، كما انتقدوا في نفس الوقت الفن العمراني الجديد الذي لا يتمتع حسبهم بالأصالة المحلية، بينما ركزت أغلب الدراسات التاريخية التي ميزت المرحلة على المظاهر العسكرية والإدارية، دون الاهتمام بالدراسات الحضارية والفكرية. لهذا ارتأينا من خلال موضوع بحثنا هذا ابراز المميزات العمرانية والفكرية العثمانية من جهة، وتوضيح قيمتها الحضارية والفنية من جهة ثانية، كما أردنا في نفس الوقت محاولة تبيان ذلك

الارتباط الوثيق بين المنجزات المعمارية التي أسسها العثمانيون خاصة ذات الطابع الديني من مساجد ومدارس قرآنية، مع الحياة العلمية والفكرية.

- **حدود الدراسة:**

وأما الفترة التي تناولناها بالدراسة فهي مرحلة الوجود العثماني في هذين القطرين المغاربيين فيما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر الميلادي، حيث انظمت طرابلس الغرب للدولة العثمانية سنة 1551م إلى غاية وقوعها في يد الاحتلال الإيطالي سنة1911م، وفي تونس التي حررت من الاسبان سنة1574م وانظمت للدولة العثمانية، إلى غاية انتصاب الحماية الفرنسية سنة1881م، هذه الفترة التي سنحاول من خلالها ابراز أهم المعالم الفكرية والمعمارية العثمانية والبحث في مدى تأثيرها على تونس وطرابلس الغرب.

- **إشكالية الدراسة:**

تقوم إشكالية هذه الدراسة على طرح سؤال جوهري أساسي وهو: ما مدى تأثير العثمانيين في التراث العمراني والفكري في تونس وطرابلس الغرب خلال القرنين السادس عشر والتاسع عشر الميلاديين؟ وما هي ملامح هذا التأثير؟

وعززنا هذه الإشكالية بجملة من التساؤلات التالية:

* ماهي خصائص العمارة العثمانية بتونس وطرابلس الغرب؟
* كيف كانت أوضاع الحياة العلمية ومن هم أبرز أعلامها؟
* ما هي مجالات التأثير العثمانيين على تونس وطرابلس الغرب في الجوانب العمرانية والفكرية؟

- **منهج البحث:**

نظراً لأن موضوع البحث يتناول الجوانب المعمارية والفكرية فإنه قد تطلب منا اعتماد المنهج الوصفي الذي هو المنهج المناسب لهذا النوع من الدراسات، من خلال وصف هذه المنشآت في جوانبها الهندسية والجمالية، وكذا وصف الحياة العلمية وطرق التعليم التي ميزت المرحلة، وأشهر أعلام المرحلة، وكذا المنهج المقارن بمأن المنشآت ذات الطابع الديني كانت من أشهر وابرز الآثار التي تركها العثمانيون بالبلاد المغاربية، والتي قمنا بدراسة جوانبها الهندسية وعناصرها الزخرفية وتوضيح أبرز عناصر الاختلاف بينها وبين المعمار المحلي، بالإضافة إلى اعتمادنا على المنهج التحليلي نظرا لأهميته في دراسة الظواهر الإنسانية، وشرح خصائصها بدقة تمكن من تحليل الواقع وتشخيص المتغيرات التي توصلنا إلى تفسيرات ونتائج مقبولة.

- **خطة الدراسة:**

للإجابة على الإشكالية المطروحة قمنا ببناء خطة تتركب من أربعة فصول إضافة إلى الفصل التمهيدي، هذا الأخير الذي جاء تحت عنوان "الأوضاع العامة في تونس وطرابلس الغرب قبيل مجيئ العثمانيين" والذي بحثنا من خلاله الأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والأوضاع العمرانية، التي ميزت القطر التونسي والطرابلسي قبيل الوجود العثماني، والتي من شأنها أن تقدم لنا صورة عن أحوال هذين القطرين قبل البدء بدراسة الفترة العثمانية.

وفي الفصل الأول الذي جاء تحت عنوان "التراث العمراني العثماني في تونس وطرابلس الغرب" تناولنا من خلاله خصوصية التراث العمراني العثماني الذي ظهر داخل المدينة، إضافة إلى المنشآت ذات الطابع الديني كالمساجد والمدارس القرآنية والمنشآت العامة كالفنادق والحمامات، من

خلال تحديد موقعها والمساحة التي تشغلها ووصف طابعها الهندسي وعناصر الزخرفة فيها والتي ميزتها عن الطراز المحلي، وأما الفصل الثاني الذي جاء تحت عنوان "الحياة العلمية بتونس وطرابلس الغرب خلال العهد العثماني" فإننا بحثنا فيه طبيعة الحياة العلمية بتونس وطرابلس الغرب، من خلال وصف الحياة العلمية التي ميزت الفترة وطرق التدريس والبرامج المنتهجة، ووصف حركة الإصلاح التي مست النظام التعليمي في آخر مراحل العهد العثماني، وكذا الجهود التي بذلها الحكام العثمانيين في سبيل تحسين أوضاع التعليم.

أما الفصل الثالث الذي حمل عنوان " الإنتاج الفكري وأعلامه في تونس وطرابلس الغرب خلال العهد العثماني" فقد تناولنا فيه طبيعة الكتابة الأدبية بتونس وطرابلس الغرب في مجالات النثر والشعر والتاريخ، ثم تناولنا بعض النماذج لأعلام الفكر في مختلف العلوم والذين تركوا آثار فكرية، ثم ابراز الدور الكبير الذي لعبته المكتبات والمطبعة والصحافة في المجالات العلمية والفكرية، وجاء الفصل الرابع تحت عنوان "التأثير العمراني والفكري العثماني في تونس وطرابلس الغرب" والذي تناولنا من خلاله عناصر التأثير العثماني في المجالات العمرانية في الجوانب الهندسية والزخرفية ودور الوقف في دعمه ورعايته ، والبحث في مجالات التأثير العثماني في الجوانب الأدبية والعلمية وما قدمته الطباعة والصحافة من إسهامات.

- **الدراسات السابقة:**

من الدراسات المهمة التي تناولت الموضوع رسالة علي مفتاح ابراهيم منصور تحت عنوان "تاريخ ليبيا الثقافي والديني والاجتماعي من خلال الرحالين العرب والأوروبيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، التي جاء فيها ذكر للمؤسسات الفكرية بليبيا بشكل مفصل والعلوم المدرسة بها والمناهج وطرق التدريس، فذكر مجموعة من الكتاتيب

والزوايا والمساجد التي عرفتها البلاد دون وصفها عمرانيا أو ذكر لمميزاتها الهندسية والزخرفية التي عرفتها هذه المنشآت خلال الفترة المدروسة، غير أنه تعمق في دراسته للمدارس الحديثة التي أنشأت أثناء مرحلة الإصلاحات وفي مناهجها ومقرراتها.

ورسالة ماجستير في الآثار الإسلامية لحنان محمد علي بن نافع تحت عنوان "العناصر الزخرفية المعمارية بمدينة طرابلس خلال العهد العثماني (1551_1911م)" التي تناولت فيها الخصائص الزخرفية في المنشآت المعمارية بمدينة طرابلس قبل الإسلام وبعده، قبل أن تقدم دراسة لبعض العناصر الزخرفية التي عرفتها المنشآت العمرانية الدينية والمدنية خلال العهد العثماني، وهي مهمة لي في توضيح وبراز الجوانب الفنية في العمارة العثمانية، خاصة وأنها بحثت في آلية تطبيق العناصر الزخرفية التي وجدت في هذه المعالم الأثرية، بالإضافة إلى رسالة ماجستير لعلي المهدي السعافي سكينة من جامعة العلوم الإسلامية العالمية بالأردن تحت عنوان "العناصر الزخرفية في المساجد القرمانلية ومقارنتها بمساجد العهد العثماني الأول في المدينة القديمة بطرابلس"، التي ساهمت كذلك في توضيح هذا الجانب من التأثير العمراني بهذا القطر.

- **مصادر البحث:**

- **أولا: الوثائق الأرشيفية :**

بمأن طبيعة الموضوع تتطلب وجود مادة أرشيفية تخص التعليم ومناهجه ومؤسسات الأوقاف التي تتولى رعايته، فإن ذلك دفعنا للبحث عن مادة أرشيفية التي وجدناها في الأرشيف الوطني التونسي الذي تعد مادته الأرشيفية ذات أهمية كبيرة للبحث في تاريخ تونس، وقد استعملنا الملف رقم 2310 الذي يحصي مداخيل الأوقاف عامة وأوجه صرفها خلال سنة1257هـ (1841م) خلال فترة التنظيمات، والدفتر رقم2304 الذي

يشمل مداخيل أوقاف مدرسة الشماعية ومصاريفها من عام1182 إلى 1199هـ(1768_/1785م) كنموذج عن الأوقاف التي عرفتها المؤسسات التعليمية والتي كانت ترعى شؤونه.

- ثانيا الكتب المطبوعة:

بمأن دراسة التراث العمراني والفكري العثماني يتطلب تغطية مرحلة تتجاوز الثلاثمائة سنة فإنه تطلب منا استعمال مصادر ودراسات كثيرة ومختلفة، في اعداد هذا البحث التي سنوردها على سبيل الذكر لا الحصر، فقد استعملنا في الجوانب العمرانية كتاب أندري ريمون المعنون بـ"العواصم العربية عمارتها وعمرانها في الفترة العثمانية" وكتاب التذكار لابن غلبون و"موسوعة العمارة الإسلامية في ليبيا" لرمضان شقلوف وآخرون وكتاب "مساجد مدينة تونس وربضيها خلال العهد العثماني" لنادية بوسعيدي وكتاب "عمارة المساجد العثمانية" لمحمود زين العابدين.

وفي الجوانب العلمية والفكرية اعتمدنا على كثير من المؤلفات مثل "تاريخ التربية بتونس" للتوزري، و"كتاب آداب المعلمين" لمحمد بن سحنون، وكتاب "الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي" للشيباني بنبلغيث، وكتاب "عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم وأديب" للنيفر، وكتاب "تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة" لرأفت غنيمي الشيخ، وكتاب "المقالة في ليبيا نشأتها وتطورها خلال العهد العثماني" لأحمد عمران بن سليم بالإضافة إلى كتب المستشرقين ككتاب "الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي" لشارل فيرو وكتاب "الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر" لألفونسو روسو، والتي شكلت إضافة للدراسات العربية والأجنبية، مع الاستئناس ببعض كتب الرحلات كرحلة العبدري ورحلة

التجاني والرحلة الحجازية للسنوسي، ورحلة الحشائشي رغم قلة المعلومات فيها المتعلقة بالجوانب العمرانية والفكرية.

- **صعوبات البحث:**

بما أنه لا يخلو أي عمل من بعض الصعوبات، فإننا نذكر أن فترة الوباء الذي اجتاح العالم قد أثرت على عملنا البحثي وصعبت علينا الوصول إلى المادة العلمية والتنقل للمراكز الأرشيفية ومؤسسات البحث، كما شكلت طول الفترة المدروسة وتشعبها صعوبة في الإلمام بكل جوانبها، رغم كل ذلك سعينا لتقديم هذا العمل في أفضل صورة في انتظار تصويبات لجنة المناقشة التي ستزيد في قيمة هذا العمل.

الفصل التمهيدي

الأوضاع العامة في تونس وطرابلس الغرب قبيل مجيئ العثمانيين

I- الأوضاع العامة في تونس قبيل مجيئ العثمانيين.

أولاً) الأوضاع السياسية.

ثانيا) الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية

ثالثا) الأوضاع الثقافية.

رابعا) الجوانب العمرانية.

II- الأوضاع العامة في طرابلس الغرب قبيل مجيئ العثمانيين.

أولاً) الأوضاع السياسية.

ثانيا) الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية

ثالثا) الأوضاع الثقافية.

رابعا) الجوانب العمرانية.

_ الخلاصة

كانت الدولة الموحدية (1121- 1269م) تشكل السلطة السياسية التي تحكم أقاليم المغرب الإسلامي وقد عرفت هذه الفترة رخاء اقتصاديا ورقيا ثقافيا، لكن في آخر مراحلها دبّ فيها الضعف وتراجعت قوتها في الأندلس وانقسمت في المغرب إلى ثلاث دويلات هي دولة الحفصيين بالمغرب الأدنى والدولة الزيانية بالمغرب الأوسط والمرينية بالمغرب الأقصى، عجزت كل منها عن توحيد أقطار المغرب العربي بسبب تناحرها وصراعها الطويل، مثلما عجزت عن إنقاذ المسلمين الفارين من بطش النصارى بعد سقوط غرناطة عام 1492م، وأصبحت بذلك السواحل المغاربية معرضة للغارات الإسبانية والبرتغالية، وعرفت في نفس الوقت حالة من الفوضى وعدم الاستقرار الداخلي، التي تركت آثارها السلبية على الاقتصاد، حيث انتشرت الأوبئة وتراجع العمران وتزايد نفوذ رؤساء القبائل وأعيان المدن وشيوخ الزوايا وزعماء الطرق الصوفية في الحياة الاجتماعية والسياسية. وقد ساعد هذا الوضع على ظهور كيانات سياسية محلية مستقلة في العديد من المدن والأقاليم مثل بنو عمار بطرابلس الغرب وبنو زكريا بجربة وغيرهم، كما تشكلت مشيخات قبلية في المناطق النائية والصحراوية، وانحصرت سلطة الحفصيين في المدن الكبرى فقط في تونس وطرابلس[1].

I- الأوضاع العامة في تونس قبيل مجيئ العثمانيين:

لم يكن امتداد السلطة العثمانية إلى تونس وطرابلس الغرب بالقوة مثلما وقع في بلاد الشام ومصر، وإنما جاء كضرورة حتمية فرضتها حالة الصراع بين الإسلام والمسيحية في الحوض الغربي للمتوسط، في أوائل القرن السادس عشر، فكان أول ظهور للعثمانيين مع قدوم المجاهدين

1ناصر الدين سعيدوني، **ولايات المغرب العثمانية الجزائر، تونس، طرابلس الغرب**، ط2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2014، ص15.

الإخوة بربروس الذين عملوا على تحرير السواحل المغاربية من الإسبان ونجدة مسلمي الأندلس الفارين من محاكم التفتيش[1].

أولاً) الأوضاع السياسية:

تأسست الدولة الحفصية بتونس منذ 1236م وامتد حكمهما من طرابلس الغرب شرقا إلى بجاية غربا، وقد عرفت فترات من الاستقرار السياسي في البداية، حيث كانت تعترف بها كثير من الدول القوية بعد ما اصبحت وطن للأمن والسلام، ساهم في تكوينها قوة شخصية السلاطين الحفصيين الذين اتصفوا بالبساطة والتواضع وابتعادهم عن مظاهر الترف والأبهة[2]، فتحولت في وقت وجيز إلى مركز حضاري وفكري وديني وعلمي، اجتذب إليها التجار والحرفيين الذين راحوا يتفاعلون في مزيج حضاري[3].

كان للحفصيين جهاز حكم يشبه إلى حد كبير جهاز الحكم العثماني، فقد أنشأوا دواوين تتولى مصالح محددة كديوان الإنشاء، وديوان الأشغال، وديوان الجند، أما المناطق البعيدة عن مقر الحكم كان يتم تكليف والي يتولى أمور الأمن بها وجمع الضرائب، وأما المدن فكانت تسيرها مؤسسات خاصة شبه مستقلة عن سلطة الدولة كالمجالس المحلية والقضاة المستقلين، ومؤسسات التعليم والمصالح العامة التي يصرف لها من أموال الوقف والحبوس. أما موارد الدولة فتتمثل في عائدات الجباية على الأراضي الفلاحية، ومختلف المكوس المضروبة على الصنائع بالإضافة

---

1 محاكم التفتيش: ظهرت كفكرة في القرن الحادي عشر وانتشرت أكثر في منتصف القرن الثاني عشر، أنشأتها الكنيسة وأوكلتها مهمة متابعة المهرطقين (المخالفين للكنيسة) لجماعة الإكليروس، **انظر**: رمسيس عوض، **محاكم التفتيش**، دار الهلال، مصر، 2001، ص07.

2 محمد الهادي الشريف، **تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال**، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993، ص 55.

3 عاطف عيد، **قصة وتاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم تونس والجزائر**، edito-greps international ، بيروت، 1999، ص 47.

إلى ما تؤديه القبائل من ضرائب للدولة، إضافة إلى ما كان يفرض من ضرائب وإتاوات على التجار الأجانب الذين يمرون عبر المرافئ الحفصية[1].

وكان الجيش الحفصي يتكون من مزيج من الجنود الأجانب من الأندلسيين والمشارقة والزنوج وغيرهم، وهو ما مكّن الحفصيين من تكوين جيش قوي ساهم في الدفاع عن حدود الدولة وفرض نظامها في الداخل[2]. في هذا الوقت كانت اسبانيا تواصل توسعها في الاندلس وبدأت توجه أنظارها نحو الأقطار المغاربية التي كانت تعاني أصلا من التفكك والصراع الداخلي، وشجعها على ذلك الكنيسة التي باركت المسعى ورأت فيه فرصة لشن حرب صليبية على مسلمي شمال إفريقيا، وهو ما دفع بالبرتغال وإسبانيا لاحتلال العديد من السواحل المغاربية[3]

رغم استيلاء الإسبان على مجموعة من المدن الساحلية الجزائرية خاصة منها الشرقية التي كانت تابعة لحكم الحفصيين ومدن تونسية وكذا طرابلس الغرب التي كانت أيضا امتدادا للإمارة الحفصية شرقا، إلاّ أن جنود الدولة الحفصية لم يكونوا يقاومون؛ بل الأهالي الفلاحين هم من حملوا على عاتقهم مهمة الدفاع بسبب حالة الضعف والهوان التي كانت عليها الإمارة. وبعدما تم لعروج استرجاع جربة قامت اسبانيا بإرسال حملة ضد الجزيرة قادها نائب الملك "هوجو منكادا Hogoe mancade " عام1520م قوامها 100 سفينة حاملة لـ13500من المشاة و1000من الفرسان[4]، وقد وقعت بين القوات الإسبانية وقوات شيخ جربة معركة كبيرة، انتهت بعقد صلح بين الطرفين في 1520م، تعهد خلاله شيخ

1 الشريف، مرجع سابق، ص56.
2 نفسه، ص ص56، 57.
3نفسه، ص51.
4حاول الإسبان احتلال جربة ثلاث مرات منذ استيلائهم على طرابلس الغرب، الأولى والثانية قام بهما قائد الحملة على طرابلس الغرب "بيدرو نافارو" في شهري جويلية وأوت 1510م والثالثة في 1520م التي قادها هوجو دي منكادا **أنظر**: محمد العروسي المطوي، **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص ص664، 668.

جربة بدفع إتاوات سنوية ومنع المجاهدين من دخول الجزيرة، وإرسال وفد إلى ملك إسبانيا يعلنون له عن ولائهم وتبعيتهم لحكم اسبانيا، لكن ما إن رحلت القوات الإسبانية حتى رمى حاكم جربة ببنود الصلح عرض الحائط، وظلت جربة منذ ذلك الوقت تشكل خطرا على الجنود الإسبان المتواجدين بطرابلس[1] لهذا سعت القوات المتمركزة بطرابلس إلى اخضاع جربة، لِمَا كانت تمثله من أهمية تجارية وعسكرية بموقعها الاستراتيجي، حيث كانت منذ القديم تعتبر منطقة صراع بين حكام السواحل الشمالية والجنوبية لحوض المتوسط[2].

وقد ساهمت الامتيازات التي قدمها أمراء الدولة الحفصية كثيرا في انحطاط الدولة وضعفها في جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، فقد تدهور العمران في أهم المدن التونسية نتيجة هجمات النصارى.[3]كما عرفت تونس في بعض فتراتها صراعات على العرش بين الإخوة الأمراء، ومثال ذلك ما وقع بين ابناء مولاي محمد بن الحسن (ت 1525م) حيث اغتصب السلطة الابن الأصغر مولاي الحسن رغم أحقية إخوته بها، وقرر التخلص منهم حيث أمر بقتلهم، فتمكن من اثنين وفر الثالث إلى الجزائر[4]، وصادف خير الدين مسافرا إلى إسطنبول في زيارة للسلطان سليمان فأخذه معه، وكان رشيد يترجى خير الدين ضم تونس، وتقويض حكم أخيه الحسن الذي ضجر السكان من تصرفاته ومن موالاته للإسبان، فقبل السلطان هذا الطلب وأمده بما يكفيه من المال والعتاد وأرسل معه اسطول من مائتين وخمسين(250) سفينة، وقبل أن يتوجه خير الدين إلى تونس لتحريرها قام بعدة غزوات في جنوب إيطاليا ثم نزل

1رابحة محمد خيضر، **دخول طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني**، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، مج6، ع2، ص110.

2 المطوي، مرجع سابق، ص662.

3 شارل اندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ج2، تر محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983، ص183.

4ألفونص **روسو، الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر**، د ط، تر محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريوس، بنغازي، د س ن، ص83.

بميناء بنزرت حيث وجد ترحيبا من أهاليها بسبب وجود الأمير رشيد رفقة الحملة، وأصبحت بنزرت منذ ذلك الحين تحت حكم العثمانيين، في الوقت الذي فر فيه الحسن خوفا من خير الدين الذي دخل العاصمة دون مقاومة تذكر[1].

استقر خير الدين بالقصبة وأعلن الدعوة باسم السلطان العثماني في1530م، وبذلك امتد النفوذ العثماني على بنزرت وتونس وحلق الوادي غير أن بعض المصادر تذكر أنها وقعت معارك كبيرة بين الأهالي والعثمانيين بعدما اكتشفوا أن العثمانيين لن يقوموا بتنصيب رشيد حاكما على تونس وإنما سيضمون تونس للخلافة العثمانية مثلما فعلوا مع الجزائر. كما أنه يحتمل أن يكون سبب المعارك التي وقعت بسبب تصرف الجيش العثماني مع الأهالي، و يحتمل أيضا أنها وقعت بتحريض من أنصار الأمير الحسن، والتي خلفت ما يزيد عن 3000قتيلاً من الأهالي وأقل من هذا العدد في صفوف العثمانيين، وتبعا لما سبق سعى خير الدين إلى إيقاف الفتنة وعمل على نشر الأمان بين الأهالي مثلما عمل على توطيد حكمه بتحصين المدينة استعداداً لما قد يطرأ من أحداث خاصة وأن الحسن الحفصي مازال يأمل في العودة واسترجاع سلطته، حيث طلب نجدة الإسبان الذين كانوا يتحينون الفرص للسيطرة على تونس بعدما تم لهم السيطرة على طرابلس الغرب، والسعي في نفس الوقت إلى عزل إيالة الجزائر عن السلطة العثمانية تمهيدا لاحتلالها فيما بعد[2].

ونزلت القوات الإسبانية بحلق الوادي، ولم يتمكن العثمانيون من صدهم عنها، ودخلوا مدينة تونس التي انسحب منها العثمانيون بسبب عدم التكافؤ في القوة، وعدم وصول المدد من اسطنبول التي كانت منشغلة

1 مما جاء في ذكر فراره في المؤنس أنه: "سار على طريق رادس ولم يبق معه إلاّ نفر قليل وعرج في طريقه إلى ناحية البريجة، وقطع إلى حلق الوادي" **انظر**: محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، **المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس**، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286ه (1869م) ص164.

2المطوي، مرجع سابق، ص ص685، 697.

بحروبها في المجر وبلاد فارس، لذلك فضل خير الدين الانسحاب نحو الجزائر خشية الانهزام وفقدان الجزائر مع تونس، مثلما كان يتخوف في نفس الوقت من تحالف أنصار الحسن مع القوات الإسبانية، وبالتالي يفتح على نفسه جبهتين للقتال، خاصة وأنه قد فشل في صد الحملة الإسبانية على حلق الوادي[1].

بعد دخول الإسبان مدينة تونس سنة 1535م عقد شارلكان اتفاقية مع الأمير الحسن، تضمن حق الإقامة للمسيحيين بتونس وتسمح لهم كذلك بإقامة شعائرهم الدينية، مثلما ضمنت الاتفاقية إطلاق سراح الأسرى الأوروبيين، وتضمنت أيضا تنازل الأمير عن بونة وبنزرت وحلق الوادي لصالح الإسبان، كما يتعهد الحسن دفع تكاليف الحملة والمقدرة بحوالي إثني عشر ألف دوقا، وأن يقدم إثني عشر ألف من الخيل سنوياً، وفي حال أخلف الأمير عهده يغرم بدفع خمسين ألف دوقا ذهبية[2].

بعد هذه الفترة لم تعد السلطة الحفصية تتحكم إلا في العاصمة تونس وما يحيط بها، أما باقي الأقاليم فقد كانت إما تحت سلطة القبائل العربية أو الأتراك أو الإسبان، وفي عهد ابنه الذي خلفه عرفت البلاد فوضى كبيرة تسبب فيها بعض القبائل، كما عرفت البلاد أيضا شح في موارد الخزينة بسبب إنقسام البلاد في ولائها بين قيادات القبائل والأتراك والإسبان. وقد تحسنت علاقته مع الأتراك الموجودين بالجزائر أماّ علاقته مع الإسبان المتمركزين بحلق الوادي فكانت سيئة[3].

في سنة 1540 تمكن قائد الحملة الإسبانية "أندريا دوريا" من السيطرة على تونس مثلما سيطر على صفاقس وسوسة والمنستير، وهو ما أثار حفيظة الأهالي الذين ثاروا على الأمراء الحفصيين لوهنهم وضعفهم أمام الحملة الإسبانية، واُضطُر الأمير الحسن الحفصي للسفر إلى أوروبا

1المطوي، مرجع سابق، ص ص698، 699.
2 نفسه، ص703.
3نفسه، ص ص703، 713.

طلبا للنجدة في الوقت الذي تولى فيه السلطة أحد أفراد الأسرة لكنه فشل أيضا في مواجهة حالة الفوضى التي عرفتها البلاد[1]. يضاف إلى ذلك التغيرات التي حدثت في العالم خصوصا في الحوض الغربي من المتوسط، بظهور طرق ومسالك جديدة لحركة التجارة الأوروبية مع الشرق، وهو ما أدى إلى ضعف الاقتصاد بضعف موارد الدولة الخارجية والذي أدى بدوره إلى انفصال بعض القبائل وتمردها عن الدولة الحفصية[2].

لقد استطاع درغوث باشا الذي كان ينطلق من طرابلس الغرب إحراز عدة انتصارات على الإسبان وَمَن تعاون معهم من الحفصيين، فدخل قفصة سنة1556م وتوغل بعدها في الداخل حتى بلغ القيروان التي ترك بها حامية سنة1558م[3].

وفيما لم ينجح فيه درغوث باشا أتمه حكام الجزائر منذ زمن صالح رايس، وحسن بن خير الدين باشا، ثم علج علي الذي كان معروف بطموحه الكبير في توطيد أركان الحكم العثماني بالبلاد المغاربية حيث دخل تونس1569م واعلن سلطة العثمانيين عليها، في الوقت الذي فر فيه أحمد بن الحسن واستنجد بالإسبان الذين أعادوه للحكم وفرضوا عليه شروط قاسة لم يتمكن من الوفاء بها، وكان الإسبان قد نزلوا خارج المدينة واستقروا في حصن الباستيون، كما قاموا بترميم حصون حلق الوادي وأقاموا أسوارها باستعمال الحجارة التي جلبت من بقايا المدن الرومانية القديمة، وقد لقي أهالي تونس خلال هذه الفترة من جور الإسبان ما دفعهم

1صلاح العقاد، **المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر الجزائر- تونس- المغرب الأقصى**، ط6، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1993،ص23.
2 الشريف، مرجع سابق، ص64.
3العقاد، مرجع سابق، ص23.

للهجرة نحو البادية[1]، قبل أن يعود العثمانيون مرة أخرى لتحريرها من الإسبان وجعلوا منها إيالة تابعة لهم منذ1574م[2].

كان الأهالي التونسيين قد عانو كثيرا من تصرفات الإسبان وتدخلهم في عاداتهم وتقاليدهم وفي شؤونهم الدينية رغم وجود الأمير الحفصي [3]ومع نهاية القرن السادس عشر خفت حدة الصراع بين الاسبان والدولة العثمانية التي صرفت نظرها عن شؤون المغرب بعدما تأسست به حكومات مركزية تابعة للدولة، وحل الحلف المسيحي في الجانب الآخر وانصرفت إسبانيا للاهتمام بأمورها الداخلية وبشؤون مستعمراتها في أمريكا اللاتينية التي تأسست حديثا[4].

قام سنان باشا مباشرة بعد إلحاق تونس بالدولة العثمانية بتنظيم إدارتها اعتمادا على النظم التي كانت سائدة في عهد الحفصيين حيث أنها في بداية الأمر تابعة لحكم إيالة الجزائر قبل أن تنشأ بها إدارة محلية في عهد الداي ابراهيم رودسلي[5]سنة1590م، ومن أهم الدايات الذين عرفتهم تونس خلال الفترة الأولى نذكر عثمان داي 1594م الذي أسس نظام الحكم ووضع ولاة على الأقاليم وحدد مقدار الضريبة الواجب تحصيله من كل إقليم، إضافة إلى يوسف داي الذي تولى الحكم سنة1610م، إلى غاية عهد الداي الأسطى مراد الذي تولى الحكم سنة1637م[6].

---

1 حسن حسني عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس**، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، د.س.ن، ص129.

2العقاد، مرجع سابق، ص ص23، 24.

3 روسو، مرجع سابق، ص98.

4العقاد، مرجع سابق، ص ص24، 25.

5 يشير لقبه إلى أنه من جزيرة رودس، وكان قد عرف بذكائه وحكمته حكم تونس عام (1590م_1001هـ)، وبعدها سافر للحج، ولم يعد إلى تونس، خلفه موسى عثمان (1003هـ) الذي لقي منافسة كبيرة من صفر داي للمزيد أنظر:

Alphonse ROUSSEAU, **Annales Tunisiennes ou Aperçu Historique sur la Régence de Tunis**, bastide libraire-éditeur, Alger, 1864, P35.

6العقاد، مرجع سابق، ص30.

وفي أواسط القرن السابع عشر استطاع أحد حكام الأقاليم أن يخضع حكومة الداي في تونس لسلطته وورّث المنصب لأبنائه من بعده، فتشكلت بذلك أسرة حاكمة في تونس تعرف بالأسرة المرادية التي ظلت تحكم البلاد إلى غاية 1702، وكان مراد آغا قد حصل على لقب الباشوية من الباب العالي وهو لقب شرفي كان يمنح للدايات من قبل[1]. وقد لعبت الأسرة المرادية دورا مهما في السياسة من خلال إقرار النظام والقضاء على الثورات الداخلية وحركات التمرد، والوقوف في وجه غزو فرسان القديس للسواحل التونسية، قبل أن تعود تونس للحكم العثماني المباشر عقب مقتل أفراد الأسرة المرادية الحاكمة[2].

بعد ذلك ورث حكم تونس حكام الأسرة الحسينية فيما بين1705م إلى غاية قيام الجمهورية التونسية الحديثة1957م، وكان مؤسسها الحسين بن علي الذي كان ضابط سابق في الجيش، وبعد خمسة سنوات من الحكم تم له استتباب الأمن والاستقرار وأعلن عن نيته في توريث الحكم لأبنائه من بعده، وكان أول من ورث الحكم من بعده إبن أخيه علي باشا سنة1725م، وقد امتاز عهده بالإستقرار ومكافحة النفوذ الأجنبي بتونس، عن طريق تحرير السواحل وتأميم بعض الحصون التي أنشأها الأوروبيون وفق معاهدات سابقة[3].

وعرفت الأسرة الحسينية حالة من الصراع على السلطة بين الإخوة والأبناء في بعض مراحلها، كما كانت في نفس الوقت تحتفظ بالطابع التركي الذي ميز الحياة العلمية سواء في القصر أو في الاعتماد على طائفة الانكشارية، كما مكنت للمذهب الحنفي رغم أن المذهب الشائع هو المذهب المالكي، وتميز عهدها ببعض التوترات بسبب عدم قدرة الانكشارية

1العقاد مرجع سابق، ص 31.

2رأفت غنيمي الشيخ، **في تاريخ العرب الحديث وجهاد الأندلسيين**، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1992، ص ص77، 78.

3 العقاد، مرجع سابق، ص32.

من الوصول إلى الحكم مثلما وقع في عهد حمودة باشا، غير أن ذلك لم يقطع العلاقة الطيبة بين الحكام بتونس وسلاطين الدولة العثمانية[1]

كما أن الحكم العثماني في تونس وطرابلس الغرب كان شكليا فقط، ولم تكن تحتفظ الأسر الحاكمة باسم السلطان العثماني إلا بمظهر التبعية الإسمية فقط، التي اقتصرت على تسمية الوالي، حيث أن كل الحكام وصلوا إلى منصب الولاية بواسطة الوراثة، ولعل السر في بقاء العثمانيين طويلا في شمال افريقيا كان بسبب تلك المرونة في معالجة الأوضاع الداخلية[2].

ثانيا) الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية:

مع نهاية القرن الخامس عشر عرف العالم عدة تغيرات كانت لها إنعكاساتها على القطر التونسي، ومن أهمها ظهور حركة الكشوف الجغرافية التي أحدثت نهضة في أوروبا، وجعلت حوض البحر الأبيض المتوسط يفقد مكانته الاستراتيجية في مجال حركة الملاحة، خاصة مع إكتشاف طرق جديدة نحو الشرق واكتشاف العالم الجديد، والذي أثر على مداخيل الدولة من الجباية التي كانت تحصلها، ففقدت بعض من هيبتها ولم يعد بإمكانها ردع القبائل المتمردة عن سلطتها وفرض الولاء عليها، وانحصرت سلطة الدولة في المناطق الشمالية الغربية من تونس في سوسة والقيروان وعنابة أما باقي الجهات فقد أعلن أعيان القبائل إستقلالهم عن السلطة المركزية في تونس. كما سنحت الأوضاع التي مرت بها البلاد لبعض القبائل من أن يتوسعوا في نفوذهم على حساب الدولة وهو الذي وقع على يد قبيلة الشابيين الذين اعلنوا سيطرتهم على القيروان ووسط البلاد خلال عشرين سنة، غير أنهم لم يتمكنوا من إقامة نظام حكم خاص بهم.[3]

---

1 العقاد، مرجع سابق، ص ص32، 33.

2اندري ريمون، **العواصم العربية عمارتها وعمرانها في الفترة العثمانية**، ط1، تع قاسم طوير، دار المجد، دمشق، 1986، ص11.

3الشريف، مرجع سابق، ص ص64، 65.

أما النشاطات التي كان يشتغل بها السكان فنجد أشهرها الحرف اليدوية حيث اشتهرت تونس بالعمامات التي كانت معروفة كثيرا في إفريقيا، مثلما اشتغل أهالي المناطق الأخرى بالصناعات النسيجية، وكانت حوانيت العطارين تظل مفتوحة إلى منتصف الليل، كما عرف عن أهالي تونس عدم اهتمامهم بالفلاحة إلاّ في المناطق القريبة، لذلك كانت أسعار الحبوب مرتفعة، وكان طعام الطبقة الميسورة من المجتمع من الخبز الأبيض أما الباقي فطعامهم من الشعير إضافة إلى زيت الزيتون والسمن[1].

ويرجع أصل سكان تونس إلى عدة عناصر، غالبيتهم من البربر الذين يشكلون نسبة كبيرة من السكان، إضافة إلى الاجناس الأخرى التي مرت على البلاد من الروم والفينقيين واليونان.[2]حيث اختلط العنصر البربري التونسي بعدة أجناس. ففي عهد الدولة القرطاجية حل بالبلاد عناصر ذات بشرة سوداء دخلوا عن طريق جربة ونفزاوة وتم استغلالهم في الأشغال الشاقة، مثلما وفد على تونس طائفة من اليهود الذين هاجروا من بيت المقدس بعدما هاجمها الإمبراطور الروماني "تيتيس" (titus) وعرفوا بيهود السرس واستقروا بتستور وباجة كما نجد منهم طائفة في الجنوب يعرفون بيهود الأعراض والذين لايزالون يحتفظوا بعاداتهم إلى اليوم[3]. ولما دخل الرومان إلى البلاد التونسية بعد القضاء على قرطاجة146ق.م، جلبوا معهم طائفة من الرومان الإيطاليين الذين انظموا إلى الجيش بنية استعمار البلاد، وكان لهم تأثير في المجتمع التونسي حيث يقول التجاني أن: "أهل توزر من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح الإسلامي، وكذلك أكثر بلاد الجريد"[4]

1مارمول كربخال، **افريقيا**، ج3، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1989، ص 21.

2حسن حسني عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس**، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، ص09.

3محمد بن الخوجة، **صفحات من تاريخ تونس**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص221.

4 أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، **رحلة التجاني**، د.ط، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981، ص159.

وقصدها بعد الفتوحات الإسلامية أقوام من فارس ومصر وسوريا وطرابلس وغيرهم، الأمر الذي أسهم في تغلب العنصر العربي على العنصر المحلي، مثلما هاجر إلى تونس قبائل من الهلاليين زمن الدولة الفاطمية[1]، كما توافد على تونس في العهد الحفصي أعداد كثيرة من البدو الرحل، أكثرهم من الأمازيغ الذين استقروا في المناطق الداخلية لتوفر الكلأ لمواشيهم، وظروف الحياة بها أفضل، بينما استقر الأهالي الأمازيغ في المناطق الساحلية والجبلية، ومع مرور الزمن لم يعد بالإمكان التمييز بين العرب والأمازيغ نتيجة تغلغل اللغة العربية في أوساط الأهالي ولم تعد الحدود العرقية ممكنة مع سكان الأوراس وجربة وجبال الجنوب التونسي وطرابلس، ومع ذلك فإننا نجد بعض المناطق مَن تمكنوا مِن التمسك بلغتهم المحلية مثل سكان جبل نفوسة وجربة وأجزاء من جفارة[2]

ومن الطوائف التي وفدت على البلاد التونسية زمن الحفصيين الطائفة اليهودية الذين شملهم أمراء بني حفص بالرعاية والعناية والذين تخصصوا في التجارة فكانت مساهمتهم كبيرة في الحركة الاقتصادية. إلى جانب ذلك فقد تضاعف عدد سكان تونس حسبما ورد في بعض المصادر حيث بلغ حوالي 800.000نسمة، كنتيجة لتحسن الأوضاع الاقتصادية للبلاد وتوفر الأمن، إضافة إلى توافد عناصر جديدة إلى تونس من الأندلسيين الذين جلبوا معهم تقاليدهم الصناعية خاصة صناعة العطور والصناعات النسيجية التي كانوا يتميزون بها عن باقي مكونات المجتمع التونسي، كما ساهم تحسن الأوضاع الاقتصادية في جلب التجار إلى تونس من مختلف الجنسيات الأوروبية[3]، حيث كانوا يقيمون في فنادق قريبة من الموانئ على حسب قومياتهم، وكان يشرف عليهم قنصل معتمد لدى الأمير الحفصي، كما نجد البعض منهم ممن استقروا بتونس وكانت لهم أحياء

1 بن الخوجة، نفس المرجع، ص ص223-226.
2 جوليان، مرجع سابق، ص189.
3 صلاح الدين التلاتلي، **تونس الجديدة مشاكل ونظريات**، دار بوسلامة للنشر، تونس، 1959، ص77.

خاصة بهم، وكانوا على قدر من النبل، وقد استند اليهم الحكام للوقوف في وجه هجمات الأعراب التي لطالما تعرضت لها المدينة[1]، مثلما نجد فئة أخرى من الأوروبيين الذين تحولوا عن دينهم واعتنقوا الإسلام وكان أغلبهم من العبيد الذين تم جلبهم خلال الحروب مع الدول الأوروبية[2]، وكانوا بذلك يشكلون العنصر الأجنبي الذي اعتمد عليه الأمراء الحفصيين في الجيش حيث كانوا يشكلون أداة سيطرة لامثيل لها على الأهالي بسبب تعلقهم بالسلطان وإخلاصهم له، بالإضافة إلى معرفتهم وخبرتهم بفنون القتال العصرية، كما أن اعتماد الحفصيين عليهم يرجع إلى نمط الحياة التي كانت تميز ذلك العصر، فمعظم الأهالي من القبائل الرحل الذين كانوا يسيطرون على مناطق واسعة، لهم أنظمتهم الاجتماعية الخاصة بهم، ومن أهم هذه القبائل نذكر قبائل الهواريين المتواجدة في شمال البلاد حيث السهول الواسعة التي تكثر فيها الأمطار، وقبائل الكعوب في الوسط، وأولاد دباب في الجنوب، وبني علي في المناطق الساحلية، هذا إضافة إلى عدة عشائر التي كانت عبارة عن بدو رحل وتعد بالمئات، والتي تعتمد في عيشها غالبا على تربية المواشي، لذلك لم يكونوا في حاجة إلى سلطة تحميهم[3].

وأما العادات الاجتماعية التي تميز بها المجتمع التونسي فهي الاحتفال بالمولد النبوي على نفس طريقة سلاطين بني مرين، فكان يعتبر موسما للزينة والصدقات مع إحياء ليلته بالتلاوة والإنشاد والمديح، يتم فيه جمع الفتيان في الكتاتيب لقراءة قصيدة الإمام البصري ووضع لذلك هدايا ومنح مثلما كان يتم تكريم المؤدبين بهذه المناسبة[4].

1 كربخال، مرجع سابق، ص20.
2جوليان، مرجع سابق، ص ص190، 191.
3الشريف، مرجع سابق، ص57.
4بن الخوجة، مرجع سابق، ص236.

ثالثا) الأوضاع الثقافية:

عاشت تونس خلال العهد الحفصي أوضاعا ثقافية خاصة بحيث أنه لا يمكن أن تبحث عن فن من الفنون أو علم من العلوم أو أي شيء من المعارف الأخرى إلا وجدته قائما[1] فقد وصفها العبدري في رحلته "تونس مطمح الآمال ومصاب كل برق ومحط الرحال من الغرب والشرق وملتقى الركاب...لا تنشد بها ضالة من العلم إلا وجدتها"[2] فقد ساهم في ذلك تشجيع الحكام الحفصيين الذين خصصوا منحا مغرية، وشجعوا الشعراء والأدباء واستقطبوهم من المشرق والمغرب لزيادة الإنتاج الأدبي، كما عملوا على توفير الكتب والمكتبات وأسسوا ديوان الإنشاء الذي دفع بالكتابة الأدبية أكثر، إضافة إلى الإسهامات المادية التي قدمتها بعض العائلات الميسورة مثل عائلة التجاني وابن خلدون[3].

وتغيرت ملامح الحياة الثقافية زمن الدولة الحفصية بتونس كثيرا[4] إذ يعتبر العهد الحفصي بتونس عهد ازدهار حضاري وأدبي اختص به ذلك العصر[5] بسبب ما شهدته تونس من ازدهار ثقافي ونشاط علمي جعلها مركز اشعاع حضاري ووجهة للكثير من الرحالة العرب والغربيين الذين انبهروا بما وصلت إليه من نهضة أدبية وعلمية وثقافية،[6] كما انتشرت عملية التعريب التي صاحبها ظهور المذهب المالكي الذي انتشر أكثر على يد مجموعة من العلماء من أمثال ابن عرفة[7] (ت1401م) حتى وصل إلى

---

1 النيفر، مرجع سابق، ص253.

2محمد العبدري البلنسي، **الرحلة المغربية**، ط1، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007، ص68.

3 أحمد الطويلي، **في الحضارة العربية التونسية**، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، د س ن، ص39.

4الشريف، مرجع سابق، ص59.

5الطويلي، الأدب بتونس ...، مرجع سابق ص5.

6الطويلي، في الحضارة العربية...، مرجع سابق، ص7.

7 هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة أحد أعلام المذهب المالكي بالقطر الإفريقي، ولد بتونس سنة716ه أصله من قبيلة ورغمة الواقعة بالجنوب التونسي، درس العلوم الدينية بجامع الزيتونة وقرأ على الشيخ محمد بن عبد السلام، برع في العربية والفقه وأصوله والقرآن واشتهر

غاية واحات جنوب قسنطينة حيث تولى تلقينه وتعليمه للناس مدارس عديدة[1].

وكان اهتمام المربين أكثر بقضايا التربية والتعليم الديني فقد اعتبر القرآن هو أصل كل معرفة، لما يقدمه من غذاء للروح يشبع الناشئة ويكون لهم مانعا من الإنحراف والضياع، وبمأن النص القرآني يتطلب من المسلم أن يترجم علمه إلى سلوك فإن المعلمين عملوا على طبع علوم القرآن التي يتلقاها الطلبة على سلوكاتهم وعاداتهم ومعاملاتهم، وهو نفس الأمر الذي نجده في كثير من الأقطار العربية حيث أن مختلف مراكز التعليم جعلت من التعليم الديني هو المحور الرئيسي، كما أن تعليم القرآن وإعرابه وتعلم الخط وكذا القراءة كانت من العلوم الإجبارية[2].

أما باقي فنون الأدب والشعر والتاريخ والحساب فهي غير إجبارية على طلبة العلم. وإنما كان لها مكان في الدراسة الحرة لهذا لا يمكن أن نجد مناهج خاصة بهذه العلوم بالرغممن وجود مجموعة من المؤلفات في هذه العلوم من بعض من استهوتهم الدراسات التاريخية والذين كانوا في غالبيتهم من الأندلسيين، ومنهم الحجاج يوسف بن محمد بن ابراهيم الأنصاري(ت1256م) صاحب كتاب "الحماسة" وكتاب "الأعلم" وكذلك أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نخيل كاتب الوالي الحفصي الذي كتب في التاريخ وكان قد اعتمد عليه ابن خلدون والزركشي، إضافة إلى ابن الأبّار(ت1260م) الذي كتب على غرار التاريخ في عدة فنون أخرى وكتب أيضا "الحلة السيراء" الذي احتوى على تراجم لعدد من الشخصيات

بالجد والاجتهاد وملازمة الشيوخ، تولى إمامة جامع الزيتونة سنة772ه ثم ترقى إلى خطة الإفتاء بالدولة الحفصية، توفي سنة803ه/1401م ودفن بجبل الزلاج. **أنظر:** حسني، مرجع سابق، ص116.

1الشريف، مرجع سابق، ص60.

2محمد النيفر، **عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم وأديب**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، مج1، 1996، ص253

التاريخية في المغرب والأندلس من القرن الأول إلى القرن السابع الهجري ومن مؤرخي العهد الحفصي نور الدين ابو الحسن علي بن موسى بن محمد بن سعيد الغرناطي صاحب الرحلتين وقد اشتهرت في كتب التاريخ بتاريخ ابن سعيد، كما كتب ابي زيد القيرواني(ت1300م) كتاب "معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان" وهو من أربعة أجزاء رتب فيه العلماء الذين دخلوا القيروان منذ الفتح حسب الوفيات، جاءت بعدهم مجموعة ثانية من مؤرخي القرن الخامس العشر الميلادي في طليعتهم عبد الرحمان بن خلدون المشهور بمقدمته وكتاب "العبر"، وابن قنفذ القسنطيني صاحب "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية"، وابن اللؤلؤ الزركشي صاحب "تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية"[1].

ويعتبر كتاب "المؤنس في أخبار افريقيا وتونس" من أهم المصادر التي أرخت للفترة وكتبت عن إشعاعها الحضاري غير أنه قليل الموضوعية خاصة في تمجيده للعهد الحفصي[2]. كما شهد هذا العهد ظهور العديد من الأدباء الذين أثّروا في الحياة الثقافية وقد ترجمت آثار بعضهم إلى عدة لغات أجنبية مثل أحمد التيفاشي صاحب "نزهة الألباب فيما لا يوجد بكتاب" و"أزهار الأفكار في جواهر الأحجار" والقاضي النفزاوي صاحب "الروض العاطر في نزهة الخاطر" إضافة إلى الشاعر أحمد الغساني ومحمد شباط صاحب "صلة السمط وسمة المرط" والشاعر محمد بن أبي تميم وعبد الرحمان الدباغ صاحب كتاب "معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان" و"مشارق أنوار القلوب وفاتح أسرار الغيوب" وأحمد الخلوف صاحب عدة دواوين في أغراض مختلفة.[3]

1ابو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع، **الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1984، ص ص10، 15.

2 الطويلي، في الحضارة العربية...، مرجع سابق، ص21.

3الطويلي، الأدب بتونس...، مرجع سابق، ص6.

هذا إلى جانب مجموعة من الأدباء الأندلسيين الذين عاشوا في تونس وكان لهم إنتاج أدبي من أمثال حازم القرطاجني صاحب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" ومحمد بن الأبار صاحب "الحلة السيراء في أشعار الأمراء" وكذلك كتاب "إعتاب الكتاب" وابن سعيد صاحب "القدح المعلى في التاريخ المحلى" و"رايات المبرزين وغايات المميزين" و"المقتطف من أزهار الظرف"، مثلما نذكر أدباء أندلسيين عاشوا بتونس خلال العهد الحفصي كأبي المطرف بن عميرة ومحمد بن أبي الحسين وأبا بكر بن حبيش وأحمد بن الغماز. وقد عرف الأدب بتونس عدة توجهات رئيسية، تمثل الأول في الاعتداد بالنفس والافتخار والتعالي والشعور بالمجد وتصوير الأبهة في المظاهر العمرانية والمعمارية والحضارية الجديدة خاصة في مدينة تونس، وتوجه ثان يدعوا إلى التمتع بالحياة والذي ساهم في بروز عدد من الأدباء الذين اشتهروا بأشعارهم ومؤلفاتهم النثرية، وتوجه ثالث عرف بالبحث في الحقائق العلمية في الأدب والفنون[1].

وأصبحت تونس في العهد الحفصي مركزا نشيطا من مراكز الأدب وفنونه خاصة البلاغة والنقد الأدبي والعروض والنحو والصرف، كما كانت مركزا لتأليف الكتب في شتى الاهتمامات الفكرية والأدبية[2]، وازدهرت فيها الحياة الفكرية بفعل الإنتاج الشعري والنثري الذي كان ذا قيمة فنية راقية خاصة في أشعار ابن الأبّار وحازم القرطاجي وأحمد الغساني وابن القوبع وابن الخلوف وأبي الفتح بن عبد السلام[3]. وقد تميز بتزاحم التيارات الثقافية الوافدة على تونس من المشرق والمغرب، فمن المشرق جاء إبن زيدون الذي كان ينتسب للمدرسة الفاضلية ومدرسة إبن شكر، والدكالي الهسكوري (ت1294م بتونس) الذي كان اقبال الناس عليه شديدا وهو الذي لازم العز بن عبد السلام كثيرا وانتفع بعلمه، ومن الغرب توافد على تونس كثير من العلماء والمفكرين الذين شجعهم حكام

1الطويلي، الأدب بتونس...، مرجع سابق ص ص6، 7.
2الطويلي، في الحضارة العربية...، مرجع سابق، ص8.
3الطويلي، الأدب بتونس...، مرجع سابق، ص7.

الدولة الحفصية على الهجرة نحو تونس وهيأوا لهم الظروف، وكان هؤلاء الأندلسيين قد حملوا معهم مختلف العلوم والآداب التي كانت موجودة بتونس، مثلما ورد أيضا التيار الصوفي الأندلسي على يد أبو الحسن الشاذلي (ولد1197بالمغرب) والذي لم ينتشر في البداية بتونس بسبب اصطدامه ببعض فقهاء تونس[1].

ومن أشهر بيوت العلم بتونس بيت آل التجاني الذي نادرا ما لا تجد منهم أو من نساءهم من لا يقول شعرا، وكان أشهرهم الشيخ أبو الحسن علي بن إبراهيم التجاني الذي يعد بيته من أعرق بيوت التجانية، وكان من التجانيين العلماء والكتاب والشعراء، وهو ما أهلهم لشغل بعض خطط الدولة الحفصية.[2]حيث كانوا من كبار الموظفين المنظور إليهم بعين التجلة والاعتبار في بلاط أبي زكريا الأول، إضافة إلى الأخوين إبراهيم وأحمد الذين كان لهم حضور في المحافل الأدبية لشهرتهم بالعلم الواسع والأدب الغض، ومنهم تفرع نسل التيجانيين، وكانت قد رفعت هذه الأسرة راية العلم والأدب في البلاد التونسية مدة لا تقل عن ثلاثة قرون[3].

وأصبحت تونس مركزا لتلاقح الأفكار والنقاشات الفقهية والأدبية، مثلما صارت مسرحا للتنافس الفكري والأدبي، حيث جمعت بين عدد من الأدباء الأفارقة والمهاجرين الأندلسيين بتونس كالذي كان بين أحمد الغساني وابن الأبار، مثلما جمعت بين الأندلسيين أنفسهم والذي جمع بين حازم القرطاجني وأبي المطرف بن عميرة[4]، وأصبحت هذه المجالس تشكل متعة أدبية وعلمية لروادها فقد كانت تنشد فيها الأشعار مثلما كان مجالها مفتوح أمام النقاشات الراقية، وتبادل المعارف اللغوية والأدبية[5]،

1 ابن الشماع، مرجع سابق، ص ص7، 9.

2محمد النيفر، **عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم وأديب**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، مج1، 1966، ص ص253، 273.

3 التجاني، مرجع سابق، ص ص يه- يو.

4الطويلي، في الحضارة العربية...، مرجع سابق، ص9.

5نفسه، ص38.

وساهم الأمراء الحفصيون في رعاية وتشجيع الأدباء والفنانين وإنشاء المؤسسات الدينية من جوامع ومدارس ومكتبات مثل مكتبة أبي زكريا الأول والتي كانت مكتبة ثرية بمؤلفات زادت عن 36ألف عنوان، والمكتبة الفارسية وغيرها، وانتداب الأدباء للكتابة في ديوان الإنشاء كما ظهر بتونس عديد المؤرخين الذين برعوا في التأريخ من أمثال الزركشي وابن قنفذ وابن الشماع وابن خلدون الذين أسسوا للحركة الثقافية والأدبية بتونس وساهموا في التأريخ للإشعاع الحضاري الذي حدث بتونس.[1]

كما كان الأمراء الحفصيين الأوائل أصحاب دواوين شعرية؛ أحاطوا أنفسهم بعدد من الأدباء والعلماء الذين كانوا تقدم لهم الجوائز والهبات، فساهموا بذلك في انتعاش الحياة الفكرية والأدبية بتونس، كما عرف هذا العهد خروج العديد من العلماء والأدباء في رحلات إلى المشرق؛ ومنهم نذكر أبو عبد الله بن القوبع الذي حصل بمصر على تقدير علمي كبير وحظي بمكانة إجتماعية هامة، وبرهان الدين الصفاقسي العالم النحوي واللغوي الذي إختار القاهرة مقرا لإقامته التي ألف فيها كتابه الشهير "المجيد في إعراب القرآن المجيد" في أربع مجلدات، بينما أقام أخاه شمس الدين بدمشق وجلس بجامعها الأموي مقرئا ومؤلفا، وكلف بها بعدة وظائف سامية، ومن العلماء المهاجرين إلى مصر أبو المواهب بن زغدان، وأبو عبد الله محمد القلشاني، ومن العلماء المقيمين بدمشق محمد بن جابر الوادي آشي، ومحمد مغوش وأبو الفتح محمد بن عبد السلام الخروبي، ومن المقيمين بالمدينة المنورة أيمن أبو البركات، وبمكة محمد الوانوغي، ومحمد بن عزم، والشاعر محمد اللواتي[2]، ورغم سيطرة المدرسة الفقهية على الساحة الثقافية في المراحل الأخيرة من عمر الدولة

1الطويلي، في الحضارة العربية...، ص ص09، 19.
2 نفسه، ص ص9، 11.

الحفصية إلا أن صناعة الكتابة عرفت إزدهار كبير وقد تولاها جماعة من أسرة التيجاني.[1]

مثلما ظهر بكامل أنحاء البلاد ظاهرة التصوف التي انتشرت في البلاد المغاربية منذ العهود السابقة، كان من أهم أقطابها سيدي أبي مدين في تلمسان، وسيدي أبو سعيد في شمال مدينة تونس، وسيدي أبو الحسن الشاذلي في الجنوب التونسي[2]،وبوفاة ابن عرفة عام1401م عرفت البلاد حالة من الركود العلمي وأغلق باب الإجتهاد، وظلت علوم الدين تعتمد على الاجترار وأصبحت علوم تقليدية تعبر عن ثقافة أصحابها مثلما عجزت عن الإستجابة لمتطلبات ذلك الزمن زادها إنطواء العلماء على أنفسهم وإنعزالهم في الزوايا، وصار الناس يعتقدون الصلاح في أولياء هذه الزوايا، فالدراسات التاريخية التي كتبت عن الفترة ذكرت بأنها حدثت أوبئة ومجاعات جعلت الأهالي يطلبون الشفاء من هؤلاء الأولياء ويتدافعون للتبرك بهم في مناسبات معلومة، وهذا إنما يعبر عن الجهل الذي ساد في أوساط العامة، فظاهرة عبادة الأولياء والتبرك بهم صارت معتقد شعبي[3].

ومع نهاية عهد أبي عمرو عثمان عرفت البلاد حالة من المد والجزر في أحوالها السياسية مع تولي الحكم سلاطين ضعاف كانوا غالبا ما يستنجدوا بالإسبان قبل أن يأتي الإحتلال الإسباني الذي قضى على المعالم الحضارية للمدينة، وأحرق نفائس المخطوطات التي كانت محفوظة بالزيتونة واتلفها ونُقل بعضها إلى مكتبة الفاتيكان بروما، وصاحب ذلك هجرة علماء المدينة وأدباءها، وهو ما أدى في الأخير إلى ضياع وتراجع معالم النهضة الفكرية والحضارية بتونس[4].

1الطويلي، في الحضارة العربية...، ص30.

2الشريف، مرجع سابق، ص61.

3نفسه، ص ص60، 62.

4الطويلي، في الحضارة العربية ...، مرجع سابق، ص ص19، 20.

رابعا) الجوانب العمرانية:

إهتم أمراء الدولة الحفصية كثيرا بالجانب العمراني ومن أهم أعمالهم ما قام به أبو زكريا (1228-1249م) الذي بنى مسجد القصبة وصومعته المعروفة باسمه المنقوش عليها، مثلما شيد المساجد وأنشأ سوق العطارين، وأنشأ في قصره بالقصبة أيضا دارا للكتب جمع فيها ستة وثلاثين ألف عنواناً من أنفس المؤلفات.[1]

كانت مدينة تونس عامرة بالعمران، بها قصور كثيرة والبناءات كبيرة تحيط بها البساتين من كل جانب، كانت قد ألهمت الكثير من الشعراء الذين تغنوا بالأعمال الحضارية للمستنصر معبرين عن جمالها في أبياتهم وقصائدهم، غير أن الأمر الذي ينتقد عليه المستنصر هو تخريبه لمدينة قرطاجة، ونقله لأعمدتها ورخامها إلى مدينة تونس التي بدأت تعمر من بقايا مدينة عليسة، بعد حملة لويس التاسع 1270م على تونس بعدما إتخذ من مدينة قرطاجة مركزا له[2]، وكان يحيط بالمدينة خمسة أبواب مشهورة هي باب البحر في الشرق وباب الجزيرة في الجنوب وباب السويقة في الشمال وباب قرطاجنة في الشمال الشرقي وباب الخضراء غربا، كانت تشكل منافذ المدينة منذ القرن الثاني عشر(ق12)[3].

وقد وصفها العبدري في قوله: **"هذه المدينة كلأها الله من المدن العجيبة الغريبة، وهي في غاية الاتساع ونهاية الإتقان والرخام كثير بها، وأكثر أبواب ديارها معمول به عضائد وعتبا، وجل مبانيها من حجر منحوت، محكم العمل ولها أبواب عديدة"**[4] إضافة إلى ذلك فقد قام المستنصر بترميم بعض المعالم العمرانية الرومانية القديمة[5].

---

1 حسن حسني، مرجع سابق، ص113.

2الطويلي، في الحضارة العربية...،مرجع سابق، ص ص13، 14.

3 عبد العزيز الدولاتي، **مدينة تونس تاريخها ومعالمها**، تونس أعلام ومعالم، الوكالة القومية للتراث، تونس، 1997، ص 186.

4 العبدري، مرجع سابق، ص69.

5الطويلي، في الحضارة العربية...، مرجع سابق، ص17.

وكانت مدينة تونس تتكون من مركز المدينة التي جعلها الأمراء الحفصيين مقرا لهم، وتم تعزيزها بالأسوار المنيعة خاصة بعد الحملة الصليبية التي قادها لويس التاسع1270م، كما استحدث حكام الدولة الحفصية أبواب جديدة للمدينة منها باب المنارة وباب الجديد وتم دمج أرباض[1] المدينة (باب السويقة، وباب الجزيرة) بالنواة الأولى للمدينة. وعرفت ظهور عدة أسواق على جنبات الربض الشمالي كسوق الحلفاوين والتبانين وبالربض الجنوبي سوق الغنم والخيل، إضافة إلى عدة مواقع أخرى خاصة بالفخار والحدادة قرب باب المنارة والصباغين قرب باب الجزيرة، إضافة إلى الأسواق الجديدة التي ظهرت خارج أبواب المدينة، كسوق الأسلحة والبلغاجية وسوق العصر (الأثاث القديم) قرب باب الجديد، وظهر في أرباض المدينة منشآت عمرانية جديدة تؤرخ لتوسعها وامتدادها خارج الأسوار القديمة، ومنها المدرسة التوفيقية التي أنشأت في القرن الثالث عشر13م ببطحاء الغنم، وقد عَرَفَ ربضي المدينة كثافة سكانية كبيرة خاصة مع التوافد الكبير للأندلسيين الذين استقروا خارج المدينة[2].

كان الربض الشمال يضم حوالي ألفي دار وهو بذلك أكبر كثافة سكانية من المدينة بينما يحتوي الجنوبي على ألف دار، ومن ضمنها مساكن للنصارى المستعربين الذين كان يطلق عليهم اسم الربضيين[3]، وقد شهد عمران المدينة توسعا أكثر مع نهاية القرن الرابع عشر تماشيا مع النمو السكاني الذي قُدِّر بحوالي مائة ألف نسمة، وتذكر المصادر أن عدد سكان تونس في هذه الفترة قد فاق عدد سكان القاهرة[4]. وأما الدُور

1 الربض هو سور المدينة وما حوله من بيوت ومساكن وإصطبلات المواشي، وبهذا المعنى عرفت الأرباض في اصطلاح أهل تونس، وهي ربضان ربض باب السويقة وربض باب الجزيرة، غير أنه في العهد العثماني غابت هذه التسمية لأن الحاضرة توسعت، وأصبحت باب السويقة وباب الجزيرة ضمن المدينة. **أنظر**: بن الخوجة، مرجع سابق، ص ص352، 353.

2 التلاتلي، مرجع سابق، ص ص75، 76.

3 كربخال، مرجع سابق، ص20.

4 التلاتلي، مرجع سابق، ص 76.

فهي مبنية بالحجارة والآجر والجير وأما أرضيتها فتسوى بالإسمنت وتزين بالبلاط المرصع وكان أغلبها من طابق واحد فقط، ونجد أيضا بالمدينة حمامات لكنها ضيقة وغير كافية[1].

وكانت الحاضرة منقسمة إداريا إلى ثلاثة أقسام وعلى رأس كل قسم شيخ، فشيخ المدينة هو عميد السكان، وأما ربضي باب السويقة وباب الجزيرة فلها أيضا شيخ مستقل بأمره، يتقدم أعيان القسم المسؤول عنه عند دخولهم على أمير البلاد في مواكبه الرسمية، ظل هذا النظام الذي أسسه الحفصيون إلى غاية عهد المراديين والحسينيون، فكان شيخ المدينة عميدا لعامة السكان في حاضرة تونس.[2]

غير أنه لابد من الإشارة إلى أن المدينة خلال العصور السابقة كانت محصنة بأسوار من جميع الجهات، وكان حكام الدولة الحفصية قد عملوا على تجديد أسوارها وجعلوها من الحجارة، لكن مع الزمن تطور العمران وتوسع خارج المدينة وكثرت المساكن ولم يعد للسور أي فائدة حيث صار داخل المدينة، لذلك وقع هدم بعض أجزائها فيما بعد بسبب حجزها لضوء الشمس عن المساكن والدور والقصور المجاورة. وتذكر المراجع أن السور الأول لتونس كان يربط بين باب البحر وباب قرطاجة وباب السويقة، وباب البنات فالقصبة ثم باب المنارة وباب الجديد فباب الجزيرة وينتهي بباب البحر حيث البداية، وكان يسمى بالدخلاني وأما السور الثاني الذي أحدثه سلاطين بني حفص فيربط بين باب البحر وباب الجزيرة وباب علاوة، وباب الغلة ثم باب القرجاني، فباب سيدي قاسم، فباب سيدي عبد الله، فباب العلوج ثم باب سعدون ثم باب سيدي عبد السلام ثم باب العسل ومنه باب الخضراء ثم باب قرطاجة وباب البحر.[3]

1 كربخال، مرجع سابق، ص ص33، 23.
2 بن الخوجة، مرجع سابق، ص353.
3 نفسه، ص 359.

وقد خصص الحفصيون أسواق خاصة بالمهن والحرف والصناعات حول جامع الزيتونة وفي أطراف المدينة مثل أسواق الصباغين والعطارين، والشماعين والجلادين وأسواق الذهب والفضة والزجاج والنحاس ومعادن أخرى[1]، إلى جانب ذلك عمل الأمراء الحفصيون على ترميم المنشآت العمرانية حيث عمل المستنصر بن أبي زكريا على ترميم بعض الآثار الرومانية، ورمم جامع الزيتونة. إضافة إلى ذلك فإن تونس قد عرفت خلال فترات الاستقرار السياسي زمن الحفصيين إزدهار ونمو عمراني فقد سعت إلى إقامة القصور والمنتزهات بأريانة وراس الطابية وباردو والمرسى وتشييد الحصون وإحاطة العاصمة بالبساتين وإعمار المدينة بالمساجد والجوامع والزوايا[2]، مثلما شهدت المدينة ظهور متاجر كثيرة وفنادق كانت مقراً للتجار الأوروبيين وحمّامات بها رخام بديع[3].

كما اهتم الأمراء الحفصيون ببناء المساجد التي تعتبر أبرز الأنماط العمرانية آنذاك، والذي نجده في كثير من البلاد الإسلامية، حتى وإن كانت العمارة الإسلامية بالأندلس ومصر قد تفوقت كثيرا على تلك التي عرفتها تونس إلا أن النماذج العمرانية التي عرفتها القيروان والزيتونة والمسجد الجامع بسوسة وغيرهم، كانت تحمل مميزات خاصة، تشترك في أشكال القباب والمحاريب، والتي شكلت بدورها عامل تأثير وتأثر.

وفي سوسة ظهر فن جديد في بناء المساجد الذي يعتمد على الدعائم عوض السواري، وهو الفن الذي نجده أيضا في بناء مسجد ابن طولون بمصر، إضافة إلى ذلك فقد تميز الفن المعماري بسوسة بتدوين أسماء الأفراد الذين قاموا بتشييد هذه المنشآت عند مداخلها حتى تكون شاهدا لهم على أعمالهم، وتدفع إلى عمل الخير وهو الذي نجده في جامع الزيتونة. ونجد في سوسة أيضا من فنون العمارة ما تم إضافته على صحن المسجد

1 الطويلي، في الحضارة العربية...، مرجع سابق، ص11.
2 نفسه، ص21.
3 بن الخوجة، مرجع سابق، ص366.

الجامع الذي تمتد حوله آيات قرآنية مكتوبة بخط الكوفي، كان يقرأها من دخل المسجد.[1]

من أشهر الجوامع وأتقنها وأكثرها إشراقا جامع الزيتونة **"دائره مسقف ووسطه فضاء قد نصبت فيه أعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجدر وشدت إليها حبال متينة، في حلق من حديد مثبتة فيها وفي السقوف شدا محكما، فإذا كان يوم الجمعة نشرت عليها شقق الكتان المطبقة الموصولة حتى تظلل جميع الفضاء"**[2] تعلوه صومعة عالية، وأما هندسة بناءه فهي موافقة تماما لبقية جوامع عواصم إفريقيا الشمالية، أما سواري المرمر الملون المقام عليها أقواس بيت الصلاة فهي من أنقاض قرطاجة، وأما أبوابها فقد صنعت من عود الصندل في حوالي القرن الخامس عشر الميلادي[3]، ومن الآثار الموجودة أيضا بالبلاد التونسية والتي تعود للعهود السابقة المدرسة الصادقية والمدرسة التوفيقية.

وإلى جانب جامع الزيتونة عرفت تونس خلال العهد الحفصي ظهور خمسة جوامع كبرى جديدة، هي جامع القصبة غرب المدينة، وجامع أبي محمد شمالا وجامع باب الجزيرة (البراني) جنوبا، وجامع التوفيق في الشمال الغربي، وجامع باب البحر شرقا والمعروف بجامع أحمد بن مرزوق المسيلي(1282م) والذي جاء ذكره في خبر إنتصار الجيش العثماني بقيادة سنان باشا على الإسبان، والذي كان قد استخدم كمخزن من طرف الإسبان، حيث وجد مليء بالسلاسل والأغلال، أما جامع الزيتونة فلا يزال يحافظ على نمطه المعماري والذي يعد أشهر المعالم المعمارية بشمال إفريقيا وأعظمها قدرا، في مقابل سوق العطارين، وتتبعه الميضأة الكبرى التي أسسها السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان، الذي جعل أرضيتها

1أحمد فكري، **آثار تونس الإسلامية ومصادر الفن الإسلامي بإفريقية وتونس وليبيا**، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، سوسة، 1988، ص ص11، 30.

2أبو عبد الله العبدري، **رحلة العبدري**، ط2، دار سعد الدين، دمشق، 2005، ص ص110، 111.

3محمد بن الخوجة، مرجع سابق، ص284.

وجدرانها من الرخام الأسود، وفي نفس المنطقة نجد المدرسة الشماعية التي أنشأت في القرن الثالث عشر[1].

وقد عبرت هذه المعالم بشكل واضح عن النهضة التي شهدتها تونس وما صاحبها من عمليات تجديد في الطابع المعماري، الذي وقف أمام التيارات العمرانية الغربية، والتي لاتزال معالمها شامخة إلى الآن شاهدة على ذلك الامتزاج الواضح بين الفن الحفصي والموحدي مع الفن الأندلسي، المتمثل في منارة القصبة(ق13) وزاوية سيدي قاسم الزليجي(ق15) أو تلك المعالم التي تحمل صبغة مشرقية مثل ميضأة السلطان(ق15)[2].

II- الأوضاع العامة في طرابلس الغرب قبيل مجيئ العثمانيين:

أولاً) الأوضاع السياسية:

كانت طرابلس الغرب تابعة لحكم الحفصيين بتونس يتولاها أعيان من بني ثابت، ولكن في آخر مراحل الدولة كثرت الفتن وضعف حكامها بالموازاة مع الضعف الذي أصاب الدولة الحفصية بتونس، وسقطت في يد الإسبان الذين كانوا يرغبون في السيطرة على المدينة[3].

وكانت السياسة الاسبانية آنذاك تهدف إلى احتلال سواحل الشمال الإفريقي انطلاقا من دوافع دينية إضافة إلى رغبتهم في الإقتراب من الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والسيطرة على أهم موانئه وإحتكار تجارة الشرق، في الوقت نفسه الذي كان فيه العثمانيون يتحركون بخطى ثابتة نحو الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط

1 الدولاتي، مرجع سابق، ص ص194، 196.
2نفسه، ص187.
3 محمد بن مسعود، **تاريخ ليبيا الحديثة**، ط1، مطبعة ماحي، طرابلس، 1961، ص12.

بعدما تم لهم فتح القسطنطنية في1453م[1]، وكان القطر الطرابلسي قبل هذه الفترة مقسم إلى شطرين؛ الشرقي وعاصمته برقة يتبع سلطة المماليك في مصر، والغربي وعاصمته طرابلس تابع لحكم الحفصيين بتونس[2]؛ حيث كانوا يحكمونها من خلال والٍ خاص بها يهتم بمسألة جمع الضرائب وتحضير الجنود إلى غاية سنة1460م حيث وقعت إضطرابات في البلاد وعمت الفوضى وطرد الوالي الحفصي من طرابلس وتم مبايعة أحد الأعيان الطرابلسيين الذي كان له الفضل في إخماد تلك الفتن؛ مثلما تمت له البيعة من طرف قبائل غريان وبني وليد وترهونة ومسلاتة ومصراتة وتاجوراء وزوارة، أما الحفصيين بتونس فقد عارضوا ذلك وجهزوا حملتين ضد طرابلس غير أنهم فشلوا[3]. وهو ما دفع بالإسبان إلى استغلال هذه الظروف لغزو المدينة[4].

ومنذ ذلك الحين عرفت طرابلس حكما محليا تولاه أعيان طرابلس، ورغم أن القبائل الليبية في غير طرابلس كانت تبايع الحكم القائم في طرابلس إلا أنها لم تكن تدفع الضرائب ولا تؤدي خراجها للدولة المركزية في طرابلس، بل كانت مستقلة تماما عنها[5]. وذلك بسبب التساهل الذي عرفته هذه الفترة في أمور الجباية، مثلما عرفت عدم الإهتمام بتقوية الجيش الذي يحمي البلاد، و تقوية الأسوار المحيطة بالمدينة، لذلك فقدت طرابلس مكانتها المرموقة كمركز تجاري إستراتيجي يربط بين الحوض الشرقي والغربي للمتوسط، وضاعت شهرة

1عمر محمد الباروني، **الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس**، د.ط، مطبعة ماجي، طرابلس، 1952، ص6، 7.

2 عمر علي بن إسماعيل، **انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا 1795-1835**، ط1، مكتبة الفرجاني، بيروت، 1966، ص18.

3الباروني، مرجع سابق، ص09، 12.

4المطوي، مرجع سابق، ص658.

5الباروني، مرجع سابق، ص 14.

أسواقها، وهو الأمر الذي اضطر التجار إلى إستخدام السفن الجنوية والبندقية وحتى الإسبانية لنقل بضائعهم[1].

وقد ذكر حالتها الرحالة الإسباني مرمول (marmoul) بأن طرابلس كانت تتمتع بالإستقرار والرخاء وأن التجارة في طرابلس كانت نشطة جدا والمدينة مزينة بالمساجد والجوامع الكبيرة وبها معاهد ومدارس ومستشفيات، وهذا قد يكون فيه بعض من الصحة لأن فترة حكم الشيخ عبد الله تميزت بالتساهل مع التجار بهدف عدم إثقال كاهل الناس بالضرائب، مثلما تميزت بالحرية في المعاملات التجارية الداخلية والخارجية، وهو ما فتح الباب أما التنافس التجاري حيث أصبحت شوارع طرابلس أكثر تنظيماً من شوارع تونس[2].

وتذكر المصادر التاريخية عن الحالة المالية والاقتصادية المريحة التي كانت تتمتع بها طرابلس الغرب، أنه في مرة من المرات قدمت إلى سفينتين تجاريتان تحملان بضائع كثيرة وأن هذه البضائع اشتراها تاجر واحد فقط ودفع ثمنها نقدا، ثم دعاهم تاجر آخر للضيافة وأقام لهم مائدة فاخرة، وكانت حالة الرخاء الاقتصادي التي عرفتها طرابلس الغرب هي إحدى العوامل التي أسالت لعاب الإسبان من أجل احتلالها[3] وقد وصفها قائد الحملة الإسبانية على طرابلس بيدرو نافارو في قوله: "إنها أكبر كثيراً مما كنت اتصور، وأن الذين وصفوها لنا سابقا وتغنوا لنا بجمالها لم يقولوا إلا الحقيقة"[4] و أشاد الكثير من المؤرخين بالمكانة التي كانت تتمتع بها طرابلس من جمال في العمران ورواج تجارتها وحصانة أسوارها، وما يجعلنا نندهش للسهولة التي سقطت بها طرابلس في أيدي الإسبان، رغم أن الإسبان شهدوا للأهالي الطرابلسيين بسالتهم واستماتتهم في الدفاع

1 الباروني، مرجع سابق، ص 54.
2 نفسه، ص ص22، 23.
3 المطوي، مرجع سابق، ص659.
4 الباروني، مرجع سابق ص23.

عن أملاكهم وبيوتهم وعائلاتهم، وكل ما يمكن أن يفسر هذا السقوط في يد الإسبان هو أن الأسوار فعلا كانت موجودة لكنها لم تكن كاملة التحصين وأن المقاومين كانت تنقصهم الخبرة العسكرية اللازمة[1].

كانت إسبانيا تحمل العداء للإسلام من خلال إقامة محاكم التفتيش في الأندلس ومحاولة إحتلال شمال إفريقيا منذ 1505م، حيث هاجمت سواحل المغرب والجزائر وتونس وطرابلس، وتمكنت من السيطرة على أهم المواقع والمراكز الساحلية بين سنوات 1505و1510م[2]، وقد جاءت الحملة الإسبانية على طرابلس تنفيذاً للإتفاق الذي كان بين القائد الإسباني بيدرو دي نافارو وملك أرجون فرديناند والذي يقضي باحتلال وهران وبجاية وطرابلس من أجل ضمان الإستقرار في إفريقيا، وطرد الأهالي بعيدا عن السواحل وإذا اقتضى الأمر يمكن توطين المسيحيين بها. وتنفيذا لهذا الاتفاق أنطلق دي نافارو من بجاية التي كانت تحت سيطرتهم بحملة قوامها 8000جنديا وإتجه إلى صقلية في إنتظار القوات القادمة من نابولي والقوات الأخرى في موانئ صقلية لمهاجمة طرابلس، وبعدها رست السفن بالجزر المالطية حيث إنظمت لها القوات المالطية[3]، المقدرة بحوالي ثلاثة آلاف إضافة إلى الخمسة عشر ألف جنديا إسباني ولم يكن هذا الإستعداد الكبير بهذه القوات الضخمة من أجل السيطرة على المدينة ولا حتى لمواجهة القوات الحفصية المتراجعة نحو تونس وإنما خوفا من الأساطيل العثمانية المتمركزة في شرق المتوسط[4] وهو الأمر الذي جعل هذه الحملة تحمل الصبغة الصليبية، خاصة إذا علمنا أن طموح الإسبان لم يكن في اخضاع طرابلس فقط وإنما رغبة في إحتلال مصر ومن ثم التوغل في المشرق العربي وتوجيه ضربة للمسلمين هناك، وكذا

1 الباروني، مرجع سابق، ص 23.

2هيثم مزاحم، **الفتح العثماني للأقطار العربية1516-1574**(نيقولاي ايفانوف)، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، ع44، س11، 1999، ص203.

3الباروني، مرجع سابق، ص ص 29، 31.

4 المطوي، مرجع سابق، ص660.

محاصرة التوسع العثماني جنوبا في الجزيرة العربية وشرق المتوسط، وإحتلال بعض موانئه تمهيدا لإحتكار تجارة المعادن النفيسة والتوابل التي كانت ترد إليها عن طريق تجارة القوافل البرية وكذا عن طريق البحر الأحمر[1].

قسم دي نافارو جيشه إلى قسمين، الأول تم تكليفه بمهاجمة القبائل الواقعة عند ضواحي المدينة لمنعهم من تقديم الدعم لأهالي المدينة، والقسم الثاني تم تكليفه بالهجوم على المدينة التي سقطت أمام ضربات المدفعية الثقيلة، ولم يتمكن أهالي طرابلس من المقاومة بسبب عدم التكافؤ في العدة والعدد، حيث تذكر المصادر أن الكثير من أهالي طرابلس كانوا قد فروا نحو تاجوراء وجبال غريان ومسلاته بعدما سمعوا بقدوم الإسبان، وأخذو معهم أموالهم ومتاعهم على الجمال التي قدرت بحوالي خمسة آلاف جمل. وكان هذا الحدث قد ابتهج له الأوروبيين كثيرا لأنه شكل ردة فعل وحركة موازية لما يقوم به الأتراك العثمانيون في أوروبا الشرقية[2].

قام الإسبان أثناء حملتهم على طرابلس بقتل وأسر الكثير، وتذكر المصادر أن العدد فاق الستة آلاف قتيل وقد ألقيت جثث بعضهم في البحر وأحرق البعض الآخر أما الأسرى فقد زاد عن الخمسة عشر ألف ، مثلما تسببوا في هجرة أعداد كبيرة من أهالي المدينة، الذين قصدوا مدن غريان ومصراته، وتاجوراء إضافة إلى قرصنتهم لعدة سفن كانت قادمة نحو طرابلس محملة بمختلف البضائع[3]، وأسس الإسبان بطرابلس حكما مباشرا دام حوالي عشرين سنة، خاض خلالها المجاهدون العرب عدة حملات على الإسبان إنطلاقا من تاجوراء وغريان اللتان مثلتا قاعدة عسكرية لهذه

1 الباروني، مرجع سابق ، ص7.

2نفسه، ص ص 33-35.

3شارل فيرو، **الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي**، ط3، منشورات جامعة قاريوس، بنغازي، 1994، ص77.

العمليات، فضلا عن ما كان يتلقاه الإسبان من ضربات على الجبهة الغربية من طرف الإخوة بربروس الذين كانوا يسعون لتحرير السواحل الجزائرية والتونسية من قبضة الإسبان وممن تعاون معهم من الأمراء الحفصيين والزيانيين [1].

وقد إبتهجت أوروبا كثيراً بسقوط طرابلس الغرب في يد الإسبان، حيث أقام البابا إحتفالا بهيجا بمناسبة سقوط المدينة في يد المسيحيين، وقابله في الجانب الآخر إستياء من المسلمين حيث قام بعض الطرابلسيين المقيمين بالإسكندرية بحرق فندق إسباني إستنكارا بما قام به الإسبان، أما أمير تونس الذي كان يحكم طرابلس أيضا فإنه قرر أن يرسل بجيش لمساعدة الطرابلسيين لكنه كان يخشى من سقوط تونس مثلما سقطت طرابلس[2] .

تميز العهد الإسباني بتدهور الأنشطة الإقتصادية خاصة منها التجارية بسبب إحتكار الإسبان لسوق طرابلس، وفرضهم رسوم جمركية عالية على التجار الأوروبيين، وفي هذه الأثناء توجهت أنظار هؤلاء التجار نحو ميناء مصراته الذي لم يكن خاضعاً للإسبان، وفي 1513م أصبحت طرابلس تابعة في إدارتها إلى حاكم صقلية الدون هوجو دي منكادا[3] والذي كان يهدف إلى تعمير المنطقة بالعائلات الصقلية التي أتى بها وأقطعها أراضي في طرابلس مثلما أعفاها من دفع الضرائب، وفي هذه الفترة بدأت بعض طلائع السفن العثمانية تظهر قبالة السواحل الطرابلسية والتي كانت تحت إمرة خير الدين بربروس، الذي أخذ من جزيرة جربة مركزا له، وهو ما جعل مركز الإسبان بطرابلس في خطر ودفعهم إلى زيادة التحصينات على

1رابحة محمد خيضر، **دخول طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني**، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، جامعة الموصل، مج6، ع2، ص109.
2 ابن غلبون، مرجع سابق، ص ص143، 144.
3الباروني، مرجع سابق، ص 65.

المدينة وعلى قصرها وميناءها، كما نصبوا بعض المدافع الكبيرة على تلك الحصون[1].

وكان لمدينة طرابلس في العهد الإسباني أربعة أبواب الباب الأول هو باب زناتة وهو المسمى اليوم بباب الجديد، والباب الثاني هو باب البحر الواقع في الشمال الشرقي، والباب الثالث هو باب السوق وهو بابان أحدهما في أول السوق والثاني في آخره، والرابع هو باب العرب والذي أطلق عليه الإسبان باب النصر، وأما القصر فكان يشبه الجزيرة التي يحيط بها الماء من جميع الجهات، ويربط بين القصر والمدينة جسر متحرك يمد نهاراً ويرفع ليلاً[2]، ولم يتمكن الإسبان طيلة بقائهم في طرابلس من إجتياز الأسوار والتوسع على حساب القرى والقبائل القريبة ولا حتى أن يفرضوا سلطانهم عليها، غير أن الأحداث التي وقعت في أوروبا آنذاك واهتمام إسبانيا بمستعمراتها في العالم الجديد دفعها إلى تسليم طرابلس لفرسان القديس يوحنا[3] وبذلك تراجع النشاط التجاري في ميناء طرابلس، بسبب الضرائب الباهظة التي فرضتها الحامية على السفن التجارية التي كانت تقصد طرابلس، ونتيجة لهذه الأوضاع الصعبة أعلن الأهالي تأييدهم للعثمانيين من خلال طلب النجدة الذي رفعه أهالي طرابلس إلى إسطنبول في1519م، والذي قوبل بالإيجاب من طرف السلطان سليمان القانوني الذي أرسل قوة عثمانية تحت إمرة مراد آغا إلى تاجوراء لتولي أمور سكانها وكذا مواجهة الإسبان المتمركزين بطرابلس[4].

وبسبب الغارات المتكررة على الحامية الإسبانية في طرابلس وسوء أحوالها المعاشية إضافة إلى إنشغال الإمبراطور شارل الخامس بحروبه مع الملك الفرنسي فرنسوا الأول سلم طرابلس لفرسان القديس يوحنا

1 الباروني، مرجع سابق، ص72.
2نفسه، ص 84 .
3نفسه، ص 87.
4 خيضر، مرجع سابق، ص107.

(فرسان مالطا)[1] سنة1530م وبذلك تخلص من الأعباء المالية التي كانت تكلفها هذه الحامية، وضمن بقاء المنطقة تحت سيطرة المسيحيين[2]، غير أن حظهم في طرابلس لم يكن أفضل من حظ الإسبان، حيث نظم أهالي طرابلس حركة المقاومة ضد الغزاة الجدد[3]، من داخل المدينة ومن خارجها، إضافة إلى دعم القوات العثمانية في الحوض الغربي للمتوسط، والتي كانت قد أخذت من الجزائر مقراً لها، وفي نفس الوقت فقدوا دعم الأمير الحفصي المتواطئ مع الإسبان الذي فشل في الحملة التي قادها ضد تاجوراء سنة1532م التي كانت تمثل مركز انطلاق المقاومة[4].

كان مجيئ العثمانيين إلى طرابلس يمثل خطوة إستراتيجية مهمة على مسرح الصراع بينهم وبين الإسبان الذين أعاقوا حركة توسعهم في الشمال الإفريقي[5]، وقد عجلت نجدة الاستغاثة التي قدمها أهالي طرابلس للسلطان العثماني حصول ذلك، حيث بدأت عملية تحرير طرابلس من تاجوراء على يد مراد آغا الذي أخذ يسعى لتحرير البلاد من فرسان القديس يوحنا لكن بوصول الأسطول العثماني الذي قاده سنان باشا

---

1 **فرسان القديس يوحنا (فرسان مالطا):** هي جماعة دينية تأسست في أيام الحروب الصليبية في بيت المقدس، وكان الهدف من إنشائها هو تقديم المساعدات للفقراء والحجاج المسيحيين عند قدومهم لبيت المقدس، ولما اندلعت الحروب الصليبية تحولت إلى هيئة عسكرية تهتم بمعالجة الجرحى الحرب. وبعدما طردهم صلاح الدين من بيت المقدس لجأوا إلى عكا وعملوا على مساعدة المسيحيين إلى غاية فتحها من طرف المسلمين سنة1291م، فتحولوا إلى جزيرة رودس التي أسسوا فيها مملكة مسيحية تحت رعاية البابا وحماية الملوك المسيحيين، وغلب على نشاطهم عمليات القرصنة؛ وترصد سفن المسلمين، وهو ما دفع بسلاطين الدولة العثمانية إلى طردهم من الجزيرة في 1523 على يد سليمان القانوني، نحو جزيرة مالطة وقوزو التي منحهم إياها الملك الإسباني شارل العاشر شريطة أن تتعهد المنظمة بالدفاع عن قصر ومدينة طرابلس الواقعة تحت سيطرته. **أنظر:** الباروني، مرجع سابق، ص ص75، 79. وبن اسماعيل، مرجع سابق، ص20.

2 خيضر، مرجع سابق، ص107.

3 بن اسماعيل، مرجع سابق، ص22.

4 أبي عبد الله محمد بن خليل بن غلبون، **التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار**، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004، ص ص152، 153.

5 صالح كولن، **سلاطين الدولة العثمانية**، ط1، دار النيل، القاهرة، 2014، ص107.

سنة1551م وبمساعدة درغوث باشا[1] إستطاع تحرير المدينة التي إستلم ولايتها وفق الفرمان الذي أصدره السلطان العثماني (سليمان الأول)[2]، وقام مراد آغا عند استلامه الحكم عام 1551م ببناء القوة الدفاعية تحسبا لأي هجوم مباغت من قوات فرسان القديس الذين نزلوا بزوارة وعاثوا فيها فسادا في شهر أوت1552م، وصادف أن جيش مراد آغا كان متجها للمدينة من أجل ضمها لحكمه حيث هزمهم وطردهم خارج البلاد، وكانت هذه الهزيمة أقسى عليهم من واقعة طردهم من جزيرة رودس[3]، وأعادوا الكرة مرة أخرى لكنهم فشلوا في عهد خلفه درغوث باشا بسبب التحصينات الدفاعية القوية التي تم بناؤها[4].

وكانت فترة الحكم العثماني المباشر الأولى1551-1711م تمثل مرحلة جديدة وهامة في تاريخ طرابلس الغرب التي أصبحت تمثل قاعدة بحرية هامة للجيوش العثمانية بنفس الأهمية التي كانت تمثلها مالطا بالنسبة للعالم المسيحي[5]. وكان يتم تعيين الوالي الذي يتولى إدارة الإيالة الإيالة من إسطنبول وفق نظام الحكم العثماني، أما في الفترة الموالية للعهد العثماني الأول حكمت طرابلس الغرب الأسرة القرمانلية[6] التي تميز نظام حكمها بنوع من التحرر عن السلطة المركزية بإسطنبول وكان ولاتها يتلقون فرمانا سلطانيا عند تقلدهم لمنصب الولاية، غير أن

1كان هذا الأسطول متوجها في البداية نحو مالطا في جويلية1551م التي أخضع أكبر جزرها "قوزو" وخوفا من أن يأخذ احتلال مالطا منه وقتا طويلا قرر التوجه نحو طرابلس، حيث كانت تأتيه رسائل النجدة لتحريرها من الغزاة الظالمين. **أنظر**: ابن غلبون، مرجع سابق، ص ص159، 163.

2 بن اسماعيل، مرجع سابق، ص ص22، 23.

3ابن غلبون، مرجع سابق، ص 163.

4 بن اسماعيل، مرجع سابق، ص22.

5غنيمي، مرجع سابق، ص77.

6الأسرة القرمانلية: هي فئة عسكرية ارستقراطية عرفت بالامتيازات الكبيرة، حكمت طرابلس الغرب الغرب فيما بين 1711إلى غاية1835م باعتراف ضمني من الدولة العثمانية، وقد اعتبروا في نظر السكان دخلاء وطغاة استأثروا بالسلطة. **أنظر**: سمير عبد الرسول العبيدي، **تأسيس الحكم القرمنلي- دراسة في تاريخ طرابلس الغرب أثناء العهد العثماني**، مجلة آداب المستنصرية، الجامعة المستنصرية، ع86، 2019، ص ص448، 449.

الملاحظ عن الإدارة العثمانية أنها كانت تسيطر على المناطق الساحلية وبعض المدن الداخلية فقط، أما باقي المناطق فهي تحت سيطرة وإدارة رؤساء العشائر والقبائل وفق نُظُم حكم محلية.

كان هدف الدولة العثمانية في البداية من ضمها لطرابلس الغرب هو إبقاء المنطقة تابعة لحكمها لذلك لم تكن تتدخل في الشؤون الداخلية للسكان وأبقت على النظم المحلية قائمة، وهي سياسة ساعدت كثيرا السكان على الإحتفاظ بثقافتهم ونظمهم المحلية؛ لكنها أساءت لهم إقتصاديا لأنها لم تستثمر في هذه الجوانب ولم تعمل على تشجيع النمو الإقتصادي، أما فيما يخص الأسطول البحري فإن الفضل يعود لدرغوث باشا الذي عمل على بناءه منذ توليه حكم طرابلس عام1553م، وكان الهدف من بنائه هو الدفاع عن طرابلس من هجمات الأعداء ودعم العثمانيين في صراعهم مع الأوروبيين في الحوض الغربي للمتوسط[1].

تم تقسيم إيالة طرابلس إداريا إلى ثلاث ألوية هي لواء طرابلس ومصراته وبنغازي، وكان كل لواء ينقسم بدوره إلى أقضية وكل قضاء إلى عدة نواحي، وكانت مدينة طرابلس تمثل عاصمة الإيالة ومقر الباشا، أما المناطق الأخرى فيحكمها نواب عن الباشا يتولى تعيينهم بنفسه ويرسل معهم حامية من الجند تساعدهم في إقرار النظام وتنفيذ الأوامر، غير أن الإيالة عرفت حالة من عدم الاستقرار بعد وفاة درغوث باشا في حصاره لمالطة سنة1563م،حيث تولى الحكم العديد من الولاة الذين كانت أهدافهم من تولي الحكم هي تحقيق مطامح شخصية فقط.[2]

عرفت الفترة التي أعقبت وفاة درغوث باشا كثرة الظلم وزيادة الضرائب، حيث سيطر الجنود على السلطة ولم يبقى للوالي غير تنفيذ الأوامر، التي أدت إلى قيام عدة ثورات وحركات تمرد على هؤلاء الولاة.

1 بن اسماعيل، مرجع سابق، ص ص24، 26.
2نفسه، ص ص27، 28.

وزاد ظلم الولاة الذين ضاعفوا من قيمة الضرائب وإحتكروا النشاطات التجارية لصالحهم، الأمر الذي أدى إلى زيادة الأسعار وجعل الأهالي في ضيق من أمرهم. ومع تزايد نفوذ الجنود لم يبقى للولاة من سلطة حتى أصبحوا هم من يختارون الولاة ويبايعونهم مثلما يشاؤون ويعزلونهم كلما شاءوا، ومن ذلك مبايعتهم للباي محمد يلك[1] لمدة يومين ثم تم عزله في 15جمادى الثانية1094هـ/1682م، مثلما بايعوا صاحب مقهى بسوق الترك بطرابلس واليا في 11ذي الحجة 1112هـ/ 1701م. وهو الوالي عثمان القهوجي الدرغوتلي لثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوماً. ومما زاد الأمور سوءا هو إسناد جباية الضرائب إلى طائفة الكولوغلية، وهي الأمور التي ساهمت في قيام الدولة القرمانلية.[2]

وفي سنة 1711م تولى حكم طرابلس أبو مويس الذي كان يشتغل وظيفة خزندار في عهد ولاية محمد بن الجن قبل أن ينقلب عليه ويعين نفسه حاكما على البلاد، غير أن هذا الوالي كان يخشى من أحمد القرمانلي[3] بسبب الشعبية الكبيرة والسمعة الطيبة التي كان يحظى بها بين الناس. وهي نفس السنة التي تولى فيها أحمد باشا القرمانلي ولاية طرابلس بطلب من الأهالي وبمباركة السلطان العثماني الذي منحه لقب "بكلربكي"[4].

من أهم الإيجابيات التي تحسب للحكام القرمنليين أنهم عملوا على إبعاد نفوذ وسيطرة الأتراك قليلا و اسناد المناصب إلى العنصر المحلي،

1 يُلُك بياء ولام مضمومتين وكاف تعني بالعثمانية مجرى الماء، **أنظر**: ابن غلبون، مرجع سابق، ص217.

2 بن اسماعيل، مرجع سابق، ص ص29، 32.

3 أحمد القرمانلي : من مواليد مدينة طرابلس الغرب، أصله من مدينة "قرمان" بالأناضول، جاء جد أبيه مصطفى إلى طرابلس وتزوج من إحدى نساء طرابلس واستقر بها، التحق أحمد بالجيش العثماني وتمكن بفضل قوة شخصيته وطموحه الكبير من تقلد عدة مناصب في الدولة منها قيادة منطقة المنشية التي حكمها أبوه يوسف من قبل، وفي الوقت الذي عرفت فيه البلاد أسوء أزماتها التزم الحياد ولم يكن يرغب في الولاية وهو ما زاده قدرا وقيمة عند الأهالي الذين علقوا عليه آمالا كبيرة في تخليص البلاد من حالة الفوضى والاضطرابات. **أنظر**: بن اسماعيل، مرجع سابق، ص33.

4 نفسه، ص ص34، 37.

مثلما مكنوا للغة العربية بدل التركية[1]، وأنشأوا قوة بحرية مهابة من الدول الأوروبية، جعلتها سيدة في البحر تفرض الضرائب وتحصل الإتاوات من السفن الأوروبية، وأصبحت تعقد الاتفاقيات مع الدول الأوروبية دون الرجوع للأستانة والتي بمقتضاها تعهدت الدول الأوروبية بدفع ضرائب سنوية كما كانت تدفع هبات مالية عند قدوم القناصل أو أثناء تجديد المعاهدات[2].

ثانيا) الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية:

لعب الموقع الجغرافي لطرابلس الغرب دورا مهما في توجهها الاقتصادي، فهي من جهة قريبة من بلاد المشرق وتتصل من جهة ثانية بأوروبا عن طريق البحر الأبيض المتوسط، كما لها عمق افريقي مع بلاد السودان جنوبا. ويتشكل أكثرية سكان طرابلس من البربر والعرب، أما غير ذلك من الأجناس الأوروبية فإننا نجد حوالي خمسة آلاف من الجالية المالطية من المقيمين العمال، إضافة إلى عدة عائلات مختلطة إيطالية عربية والتي عقّدت من مهمة معرفة أصولها[3]، ومن عناصر المجتمع أيضا فئة اليهود الذين إستوطنوا القطر الطرابلسي منذ عهد الفينيقيين والرومان واشتغلوا بالتجارة والصيرفة، ومنهم من يرجع زمن وجودهم إلى زمن بطليموس الأول بمصر الذي أتى بهم من فلسطين وأرسلهم إلى برقة كجنود تابعين له واقتطع لهم أراضي هناك مثلما أعطاهم الحرية المطلقة في إدارة الأملاك وجباية الضرائب، مثلما كانت هناك هجرات يهودية أخرى إستقرت بطرابلس زمن الإمبراطور الروماني نيرون(45-68م)، وبعد الفتح الإسلامي عاش اليهود في أمن وسلام مع المسلمين وإزدهرت تجارتهم في برقة وطرابلس، ومن المصادر من ترجع وجود

1نيكولاي إيليتش يروشين، **تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين**، تر عماد حاتم،ط2، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2001، ص10.

2ابن غلبون، مرجع سابق، ص242.

3مابل لومس تود، **أسرار طرابلس**، ط2، دار المحدودة، لندن، 1985، ص64.

اليهود بطرابلس إلى القرن الخامس عشر، عندما سقطت الأندلس في يد الإسبان، وقد بلغت أعدادهم حوالي 400عائلة، استوطنوا غريان ويفرن وجالو في شمال غرب ليبيا زمن الإحتلال الإسباني[1].

وإلى جانب هؤلاء حل بطرابلس الجالية المهاجرة الأندلسية التي فرت من الإضطهاد قبل إنهيار الحكم الإسلامي بالأندلس، وقصدوا السواحل المغاربية، غير أن تواجدهم كان قليل بطرابلس مقارنة بباقي الأقطار، ومن أهم المدن التي إستقروا بها مدينة درنة[2]. ومما يعرف عن المجتمع الطرابلسي كرم ضيافتهم للغريب وفي ذلك ما يذكره التيجاني عن ابو العباس أحمد بن عبد السلام التاجوري الذي أقام بطرابلس أياما قبل توجهه للحج وأنشد فيها أبيات منها:

لأهل طرابلس عـــــــادة من البرِّ تُنسي الغريب الحميما
حللْت بها مُكرها ثـــــمّ إذ أقمت بها أبدلوا الهاء ميمـــــاً[3]

كما يذكر التجاني أن من شيم وخصال أهالي طرابلس إكرامهم "لمن يحل ببلدهم من الغرباء ووفاء بحقوقهم ومراعاة شديدة لأمورهم" ومما يذكره أن أهلها يعتمدون في قوت طعامهم على ما يدّخرون وأن من عاداتهم منع إخراج الطعام إلى خارج البلد. ومن العادات الدينية عند الطرابلسيين تعظيمهم للأولياء والصالحين وتصديقهم بخوارق العادات التي تحدث معهم مثلما يذكر أبو محمد عبد الوهاب الذي ادعى أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم وأنه قال له في بعض مناماته أن الله جاعلك وجاعل أولادك من خواص أوليائه[4].

ووصف العبدري عرب برقة بأنهم "أفصح عرب رأيناهم وعرب الحجاز أيضا فصحاء، ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم فلم

1نهاية محمد صالح الحمداني، **نشاط يهود ليبيا في العهد العثماني 1551-1911م**، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج8، ع23، 2012، ص44.
2 عمار جحيدر، **آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث**، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1991، ص247.
3التجاني، مرجع سابق، ص258.
4نفسه، ص262.

يختلط كلامهم بغيره، وهم إلى الآن على عربيتهم، ولم يفسد من كلامهم إلاّ القليل" وذكر عديد القصص عن أطفال ورجال ونساء يتكلمون اللغة العربية بشكل سليم وبطلاقة[1].

ثالثا)**الأوضاع الثقافية:**

ظهر التعليم الديني في طرابلس الغرب في فترة مبكرة من دخول الإسلام، وكان عموما يتم في المساجد والكتاتيب التي كانت تجمع طلبة العلم في حلق لتعليم القراءة والكتابة وعلوم الفقه وغيرها، وبعد تجاوز هذا المستوى يرسل الأهالي أبنائهم إلى المراكز العلمية العالية التي كانت معروفة آنذاك كالزيتونة بتونس والأزهر بمصر للتخصص في فروع الشريعة الإسلامية[2].

أما مؤسسات التعليم فهي ثلاثة أنواع وأكثرها إنتشارا الكتاتيب التي كانت عادة ما تكون ملحقة بالمسجد مثلما قد نجدها عبارة عن حجرة منفصلة عنه، وقد تكون مجاورة لأحد المنازل أو الخيم في البوادي، ومن أشهر الكتاتيب التي كانت موجودة بطرابلس الغرب كتاب مسجد الحطاب وكتاب مسجد بن طابون وكتاب مسجد سالم المشاط وكتاب جامع محمود والتي كانت تتواجد اغلبها بطرابلس، مثلما نجدها في المناطق الأخرى غير طرابلس لكنها أقل كثافة بسبب قلة تمركز السكان وانتشار المساجد أيضا. وكان الكتاب يلعب دورا مهما في تعليم الصبيان وتحفيظهم القرآن وبعض بادئ الحساب[3]. إضافة إلى الزوايا التي كانت تقوم بنفس المهمة، وقد عرفتها طرابلس الغرب منذ العهود الأولى، وهي عبارة عن حجرة أو عدة حجرات ملتصقة بالمسجد، يقصدها طلبة العلم من كل حدب وصوب على اختلاف أعمارهم ليتلقوا فيها مختلف العلوم والمعارف

1 العبدري، مرجع سابق، 2007، ص136.

2نغم أكرم الجميلي، **التعليم في ولاية طرابلس الغرب(1839-1911م)**، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، الجامعة المستنصرية، ع4، 2012، ص2.

3نفسه، ص3.

والآداب إضافة إلى تحفيظ القرآن الكريم.[1] مثلما اشتهرت الزوايا بإسهاماتها في التكافل الاجتماعي لأهالي طرابلس ولمن قصدها ونزل بها من المسافرين وعابري السبيل، حيث كانت تقوم بإيوائهم وإطعامهم، مثلما كانت تقدم الصدقات للفقراء والمحتاجين من موارد الزاوية التي كانت تأتيها من فوائد الأوقاف ومن الهبات الخيرية وأموال الزكاة[2]

وقد إشتهرت طرابلس الغرب بعدة زوايا إنتشرت قبل الوجود العثماني وأشهرها زاوية أحمد الزروق التي كانت عبارة عن معهد علمي يقصده الطرابلسيون لأزيد من أربعة قرون، وكانت تتألف هذه الزاوية من مسجد وضريح للشيخ ومكتبة ومعهد لتحفيظ القرآن، وأما مكتبة الزاوية فتحتوي على الكثير من المخطوطات في مختلف فروع المعرفة، إضافة إلى الكتب التي ألفها الشيخ وماقتناه من الأقطار التي زارها، إضافة إلى رسائل العلم التي ألفها طلبة الزاوية، وقد ساهمت هذه المكتبة في تحقيق أهداف الزاوية التعليمية، حيث إستفاد من رصيدها كل طلاب العلم الذين قصدوا الزاوية، وكانت مؤلفات الشيخ الزروق تعتبر من أهم المؤلفات التي ساهمت في إثراء الفكر والتراث العربي الإسلامي بطرابلس الغرب[3].

أما الحياة العلمية بطرابلس الغرب فهي نفسها تقريبا في باقي البلاد العربية والإسلامية بالنظر إلى طرق التعلم، أما الكتب المعتمدة فالتجاني يذكر في رحلته أن أهم الكتب المعتمدة في التعليم هي كتاب "التفريغ" لابن الجلاب وكتاب "المحصول" لابن العربي وكتاب "المستصفى" للغزالي، وكتاب "الإرشاد" لابن المعالى. مثلما يذكر التيجاني أن الرحالة العرب وخاصة منهم طلبة العلم والفقهاء طالما كانوا يقدمون على شيوخ

1فوزي صالح الشريف، **دور الزوايا في الحياة الاجتماعية بالمجتمع الليبي**، مجلة السراج في التربية وقضايا المجتمع، جامعة الزنتان، ع7، 2018، ص29.

2نفسه، ص35.

3عبد الله الشريف ومحمد أمحمد الطوير، **تاريخ المكتبات والوثائق والمخطوطات الليبية**، ط2، دار الماتقى للطباعة والنشر، بيروت، 1998، ص ص28، 29.

طرابلس وطلبتها أثناء مدة إقامتهم بالمدينة للإستزادة من علمهم وبذلك يحدث التلاقح وتتوسع المدارك وتزيد في إنتشار العلوم[1].

رابعا) الجوانب العمرانية:

ظلت طرابلس منذ فتحها المسلمون جسرا يصل بين المشرق والمغرب الإسلاميين مثلما كانت تشكل رباطا من رباطات المسلمين في مواجهة القوى المسيحية، التي طالما سعت لإحتلالها بسبب موقعها الجغرافي الإستراتيجي الذي يشرف على حركة الملاحة والتجارة بين الشرق والغرب وكدا تجارة القوافل بين الشمال وبلاد السودان. وقد أثنى عليها الرحالة كثيرا في وصفهم لسورها البديع ومحارسها[2]، وعلى حصونها التي كانت تسهل نقل الأخبار عن العدو من طرابلس إلى الإسكندرية في ساعات قليلة، ووصفها التجاني[3] بقوله "ورأيت بسورها من الاعتناء، وإحتفال البناء، مالم أره لمدينة سواها، وسبب ذلك أن لأهلها حظا من مجباها، يصرفونه في رم سورها"[4].

وكان قد ورد في تقارير منظمة فرسان القديس يوحنا عن سور طرابلس أنه يبلغ 3728 خطوة، ثلثاه على البحر وثلثه الباقي على البر، وأنه قد تم هدم حوالي مائتا خطوة منه واستعملت حجارتها لتحصين القصر خلال العهد الإسباني، كما أن هذا السور قد شيد وفق الأساليب القديمة، وهو مهدد أيضا بالسقوط، وأما جدار السور فيبلغ ارتفاعه حوالي التسعة أمتار، ومما أوصى به وفد منظمة فرسان القديس أنه من الضروري إعادة إصلاح أجزاء من السور وفق الأساليب الحديثة وأنه يتحتم جلب مواد البناء من خارج المدينة. أما محيط القصر فكان طول جانبيه مائة وستون

1التجاني ، مرجع سابق، ص ص256، 257.

2 صلاح أحمد البهنسي، **طرابلس الغرب دراسات في التراث المعماري والفني**، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2004، ص ص12، 13.

3زار طرابلس في الفترة من 1306 الى1308م.

4 التجاني، مرجع سابق، ص238.

(160) خطوة والآخر مائتي خطوة، أما علو أسوار القصر فهي خمسة قصبات أي حوالي ثمانية عشر(18) متر تقريبا، ويحيط بالقصر خندق عرضه أربعة وأربعون خطوة، وعمقه قصبتان(حوالي سبعة أمتار ونصف تقريبا) ومما جاء في التقرير أيضا أن القصر يحتاج لبعض الإصلاح بسبب ضعف أسواره التي تنخرها مياه البحر، كما يوجد بالقصر بعض المطاحن اليدوية الجيدة، وأنه يصلح كمقر للوالي وحاشيته ورجال الجيش[1].

وكان التيجاني قد وصف قصبة المدينة التي كانت آثار الخراب بادية عليها في مقابلها جامع العشرة، ووصف موضع يعرف بالرياض كان مقام الوالي مثلما وصف أحد حمامات المدينة في قوله "ودخلت حمام البلد وهو المجاور للقصبة فأتيت حماما صغير الساحة إلا أنه بلغ من الحسن غايته، وتجاوز من الحسن نهايته" ويذكر أن هذا الحمام كان قد بيع من جملة ما بيع من الدور والمباني التابعة للقصبة، وذكر أن شوارع المدينة معروفة بنظافتها واتساع ممراتها[2].

ومما ذكره التجاني أيضا عن عمران طرابلس أن مساجدها كانت منتشرة في جميع جهات البلد، وأن بناءها يعود لأهلها من الفضلاء والصلحاء والتي غالبا ما كانت تحمل أسمائهم كمسجد الشعاب ومسجد الشيخ خطاب الواقع خارج المدينة من جهة شرقيها على البحر ومسجد الجدة المعروف بمسجد الجدود الذي تولت بناءه إحدى الجدات من بني الأغلب، وفيما بعد عرف بمسجد البارزي الذي سكنه الشيخ أبي الحسن البارزي الذي يقع خارج طرابلس ويشرف على المقابر، ومسجد المجاز الذي كان معروف بسكنى أبي الحسن علي بن أحمد بن الخصيب[3]بالإضافة إلى مسجد العشرة[4]، وبين الباب الأخضر وباب البحر نجد مسجد مصاقب،

1 ابن غلبون، مرجع سابق، ص ص149، 150.
2 التجاني، مرجع سابق، ص238.
3نفسه، ص ص247، 251.
4 سمي بهذا الاسم نسبة إلى عشرة من أعيان البلد كانوا يجتمعون فيه للتشاور، فيدبرون أمور البلد، وذلك قبل قيام دولة الموحدين أنظر: التجاني، مرجع سابق، ص237.

الذي تقع إلى جانبه ميضأة جعلت للوضوء للقادمين من ضواحي المدينة، وهو موقع مهم يشرف على الساحل حيث مرسى المدينة، وهو مرسى واسع تقترب فيه المراكب من البر، وإلى جانبه مصلى البلد المعروف الآن بالعيون بسبب عيون الماء العذبة الموجودة به[1].

وبداخل البلد مدارس كثيرة أشهرها المنتصرية التي كان بناؤها على يد الفقيه أبي محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا، وهذه المدرسة من أحسن المدارس التي وجدت في طرابلس، وبين هذه المدرسة وباب البحر مبنى من المباني القديمة على شكل قبة من الرخام المنحوت المتناسب الأعالي والنحوت، ويقع بين القصبة وهذه المدرسة جامع طرابلس الأعظم الذي بناه بنو عبيد، وهو جامع متسع على أعمدة مرتفعة وسقفه حديث التجديد "كان بناؤه في العام المكمل للمائة الثالثة على يد خليل بن إسحاق"[2]

وكانت طرابلس قد عرفت حالة من الاستقرار في العهد الحفصي والتي أثمرت عديد الإنجازات المعمارية التي نقلها الرحالة العرب والأجانب من أمثال التجاني، كما كانت المدرسة المنتصرية من أجمل المنشآت المعمارية بالمدينة والتي ذكرها الرحالة العبدري عندما نزل بطرابلس 1289م في قوله "ولم أر بها ما يروق العيون وسما عن أن يقوم بالدون، سوى جامعها ومدرستها، فإن لهما من حسن الصورة نصيبا، ومن إتقان الصنعة سهماً مصيبا"[3].

غير أن يد التخريب إمتدت إلى العمائر الحفصية مع مرور الزمن بسبب الخلاف الذي كان يقع بين عمال الدولة وقبائل البدو، وكذا تشدد الأمراء الحفصيين في جمع الضرائب، يضاف إلى ذلك الهجمات التي كان يشنها الأوروبيون على البلاد بين الحين والآخر والتي أدت إلى تخريب

1 التجاني، مرجع سابق، ص ص238، 246.
2 نفسه، ص ص248، 253.
3العبدري، مرجع سابق، ص186.

العديد من المنشآت المعمارية. وخلال القرن السادس عشر إحتدم الصراع بين العثمانيين والإسبان الذين إحتلوا المدينة في1510م وأصابوا المدينة بالدمار حتى لم يبقى بالمدينة غير القصر الذي حصنه الإسبان واتخذوه مقرا لهم، أما فرسان القديس الذين حلوا بطرابلس بعد الإسبان فلم يكونوا بأحسن من سابقيهم في تعاملهم مع المنشآت المعمارية حيث قاموا بتخريب الكثير منها، ولم تعرف المدينة أي إصلاح يذكر عدا بعض الإصلاحات في قصر الحكومة وبعض الأسوار التي زادت في تحصيناتهم، عدا ذلك فسحوا المجال للخراب الذي طال الآثار المادية والأدبية للمدينة[1].

وفي خلال العهد العثماني الأول إهتم العثمانيون كثيرا بالنواحي المعمارية ومن أهم أعمالهم قيام درغوث باشا ببناء برج يشرف على الواجهة البحرية يعرف باسمه وبنى مسجد عام1554م كان من أكبر المساجد بالمدينة، مثلما بنى قصرا له من طابقين، كما اهتم الوالي صفر داي بالجانب المعماري من خلال قيامه بإصلاح وترميم الجامع الأعظم "جامع الناقة" وعلى نفس النهج سار الوالي محمد باشا الإمام (المعروف بشائب العين)سنة1698م والذي قام ببناء مسجد في سوق الترك، و عرفت هذه الفترة حركة واسعة في عملية بناء المنازل الخاصة، والمرافق العامة، كما عرفت إهتمام الولاة بإنشاء المساجد والجوامع التي كانت غالبا ما تحمل أسماءهم [2]

وقد ظلت طرابلس الغرب لأكثر من ثلاثة قرون تحت الحماية العثمانية، حيث تميز بالحكم المباشر في مرحلتين تخللتها فترة حكم الأسرة القرمانلية.

1 ابن غلبون، مرجع سابق، ص145.

2سكينة علي المهدي السعافي، **العناصر الزخرفية في المساجد القرمانلية ومقارنتها بمساجد العهد العثماني الأول في المدينة القديمة بطرابلس**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن، 2017، ص8.

- الخلاصة:

شكل انضمام البلاد المغاربية عموما وتونس وطرابلس الغرب خصوصا تحت للدولة العثمانية ضرورية حتمية فرضتها حالة الصراع الدائر بين الشرق والغرب، والتي اشتدت مع مطلع القرن السادس عشر بعد تداعي الحكم الحفصي للانهيار، ووقوع العديد من المدن الساحلية في يد الإسبان، إضافة إلى استقلال القطر الطرابلسي عن حكم الحفصيين خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر.

وفي الجوانب الفكرية فإن تونس وطرابلس الغرب كانتا تشكلان مركز اشعاع حضاري ووجهة للكثير من الرحالين العرب والغربيين الذين شدتهم محاسن النهضة الأدبية والعلمية التي وصلت إليها، فقد عرفت تونس خلال العهد الحفصي نشاط أدبي في مختلف الفنون، وشهدت حركية في التأليف في شتى الاهتمامات الفكرية والأدبية، كما لقيت الرعاية من الأمراء الحفصيين الذين كانوا أصحاب دواوين شعر.

أما في الجانب العمراني فقد وصف الرحالة العرب مدن طرابلس الغرب وتونس بأنها مدن جميلة وواسعة مشيدة وفق الطراز المغاربي المحلي، تحميها أسوار منيعة، وبها عدة أسواق خاصة بالمهن والحرف، كما عرفت ظهور العديد من المباني الدينية خاصة المساجد، رغم أنها لم تكن تضاهي النماذج العمرانية التي عرفتها مصر والأندلس.

الفصل الأول:

التراث العمراني العثماني في تونس وطرابلس الغرب

I- التراث العمراني بتونس

أولا) النسيج الحضري

ثانيا) المساجد

ثالثا) المدارس

رابعا) الفنادق

II- التراث العمراني في طرابلس الغرب

أولا) النسيج الحضري

ثانيا) المساجد

ثالثا) المدارس

رابعا) الفنادق

خامسا) القلاع والحصون

سادسا) الحمامات

- الخلاصة

تجلت خصوصية المعمار الإسلامي في قدرته على استيعاب قواعد الفنون المعمارية التي عرفتها الحضارات السابقة، بما يتوافق والبيئة المحلية ومتطلبات الدين الإسلامي عند تشييد المساجد، خصوصا في مجال توزيع الفراغ وتنظيمه، وتوفير عنصر الأمان من خلال تشييد الدعائم المناسبة لحمل الأسقف وتوزيع الوزن بينها، مع المحافظة على الطابع المحلي الذي يحمل الهوية المحلية[1].

وقد وصف بعض المستشرقين الفترة العثمانية بأنها مرحلة انحطاط عام، وخاصة فيما له علاقة بالحياة المدنية، والتي أدت إلى فوضى بسبب انحطاط المدينة غير أن فترة الانحطاط كانت قد سبقت الوجود العثماني بالبلاد المغاربية، وكان لابد من أن تتبع هذه الفترة مرحلة ترميم واصلاح وبعث بعض المشاريع العمرانية التي قد تحسن صورة النسيج العمراني، لذا فقد سعى العثمانيون للمحافظة على المدن القديمة في تونس وطرابلس الغرب، من خلال ترميمها بين الحين والآخر، ومع مرور الزمن تشكلت حواضر واسعة فتوسعت الضواحي خارج أسوار المدن،[2]وكان العثمانيون قد تركوا بصماتهم في مختلف فنون العمارة خلال القرون التي حكموا فيها البلاد المغاربية، كما تركوا المجال مفتوحا أمام الأعمال الفنية الأجنبية والمحلية، وهي ميزة خاصة بالعثمانيين بتركهم المجال أمام الإبداعات الفكرية والفنية، وعمليات احياء التراث الفني الوطني[3].

1محمد شعلان الطيار، **الأقواس والعقود في العمارة الإسلامية**، مجلة التراث العربي، ع140_141، 2016، ص33.

2 أندري ريمون، **العواصم العربية عمارتها وعمرانها في الفترة العثمانية**، ط1، تع قاسم طوير، دار المجد، دمشق، 1986، ص8.

3 نفسه، ص110.

I- التراث العمراني العثماني بتونس:

شهدت مدينة تونس عدة أحداث سياسية أهمها حملتي شارلكان1535م وفردينانـد1573م، اللتان قضتا على أهم المعالم العمرانية للمدينة، قبل أن يحررها العثمانيون على يد سنان باشا سنة 1574م من الإسبان وتصبح إيالة عثمانية، لكنها احتاجت لأكثر من نصف قرن من أجل إعادة بناء أحيائها التي سواها الإسبان بالأرض وترميم ما تبقى من معالمها العمرانية، كما أن السلطة العثمانية سعت خلال القرن السادس عشر لبناء مشاريع عمرانية ذات طابع عثماني بهدف ترسيخ أقدامها في هذه البلاد، كما أن حكام هذه الأقاليم كانوا يقومون بعمليات البناء وفق النمط العثماني لإظهار ولائهم للسلطة الحاكمة في اسطنبول، وأهم ما ميزها هو صغر حجمها مقارنة بنظيرتها في اسطنبول، والسبب في ذلك يعود إلى قلة الاعتمادات المالية المخصصة، وكذا لرغبة هؤلاء الحكام في تحصيل أكبر المكاسب من وراء المناصب التي شغلوها عوض تركهم منشآت فنية معمارية تخلد أسمائهم مع نهاية فترة حكمهم، هذا إضافة إلى النمو السريع للمدن والذي لم يكن يسمح بإقامة منشآت معمارية ضخمة على الطراز العثماني والتي تتطلب مساحات واسعة[1].

ومما تميزت به أنها تأثرت بالنماذج المعمارية التي انتشرت في الأناضول، مثلما حافظت على تقاليدها المعمارية، ومع كل هذا لا يمكن اعتبارها صورة طبق الأصل عن تلك القائمة في اسطنبول، فقد كان في كل مرة يدخل بناؤو هذه المنشآت البعض من خصائص التراث المحلي وهو ما نجده في الأروقة المحيطة بجامع سيدي مهرز[2] بتونس. ورغم الجدل الذي أثاره هذا التفاعل بين الفن المعماري العثماني مع الفنون

1 ريمون، مرجع سابق ص ص125، 126.

2 جامع سيدي محرز هو نفسه جامع محمد باي المرادي(1686- 1696م)، وقد عرف بهذا الاسم بسبب قربه من زاوية "محرز بن خلف" التي بنيت في القرن الحادي عشر ميلادي، **للمزيد أنظر:** شراز مصباح، **التأثيرات التركية في معمار المساجد التونسية وزخرفتها بالعصر الحديث (جامع محمد باي المرادي أنموذجا)**، مجلة السبيل، ع2، 2016، ص ص02، 03.

المحلية في بعض الأحيان إلا أننا لا يمكن أن ننكر وجود رغبة في إحداث التحام بين التراث الفني المحلي مع عناصر فنية مستوردة[1].

أولا) النسيج الحضري:

وقد توسعت مدينة تونس إلى الشمال والجنوب، بظهور ضاحيتي باب السويقة وباب الجزيرة اللتان بدأت حركة نموهما منذ العهد الحفصي، وتمت المحافظة على الدور المركزي للمدينة، مثلما حافظت على الدور الاقتصادي للمنطقة المركزية التي كانت مرتبطة بخارج المدينة بمحوري انتقال يؤديان إلى الضاحية الشمالية هما شارع الباشا المؤدي إلى باب البنات وشارع سوق الجرانة المؤدي إلى باب السويقة، وشارعين آخرين يتجهان إلى الضاحية الجنوبية وهما شارع الأندلس المتجه إلى باب جديد وشارع الصباغين المتجه إلى باب جزيرة، أما المحاور العرضية فنجد شارع القصبة وشارع الجامع الكبير واللذان كان لهما دور ثانوي، قبل أن تتغير الأمور في القرن التاسع عشر بعد نمو الحي الأوروبي فيما وراء باب البحر[2]

ومما قام به العثمانيون هو إعادة إحياء المدينة بعد الخراب الذي سببه الإسبان (1574/1535م)، فقد أنشأوا حي في نهج الباشا وحي البنات اللذان خصصا لإسكان رجال الحكم من العثمانيين ومن معهم من الخدم، كما أنشأوا حي لإيواء الاوروبيين الذين تزايد عددهم والمعروف بالحي الإفرنجي قرب الميناء، مثلما أنشأوا حي لاستقبال الأندلسيين يعرف بحي المنارة والذي كان يعرف بحومة الأندلسيين قرب ساحة الحلفاوين،[3] و"زقاق الأندلسيين" إضافة إلى احسان دايات تونس للمهاجرين الأندلسيين، حيث وزع عليهم الأموال كمساعدات مثلما تم اقطاعهم العديد من العقارات التي شيدوا عليها الكثير من القرى والمدن أشهرها "سليمان" و"قرنبالية"

1 ريمون، مرجع سابق، ص127 وما بعدها.
2 نفسه، ص156.
3 الدولاتي، مرجع سابق، ص ص188، 189.

و"الجديدة" و"زغوان" و"طبرية" و"مجاز الباب" و"تستور" و"قلعة الأندلس" وغيرها من المكاسب التي نالها المهاجرون الأندلسيون وبها أحدثوا ثورة واسعة في العمران[1].

كما عرفت المدينة خلال العهد العثماني نظاما إداريا خاصا، بحيث كانت مقسمة إلى دوائر إدارية، ولم يكن يحكمها أي نوع من أنواع التسلسل الهرمي، مثلما لم تكن هناك مؤسسة تهيمن على النظام الحرفي في المدينة، حيث كانت كل حارة مستقلة بنشاطها الاقتصادي عن الحارات الاخرى، يتولى تنظيم شؤونها شيخ الحارة، أما المدينة فكان يسيرها ثلاثة شيوخ بمساعدة شيوخ الحارات[2]، و كان يتمتع بصلاحيات شرطة المدينة خاصة أثناء الليل بمساعدة شيوخ ضاحيتي باب السويقة وباب الجزيرة[3]، والذي من شأنه أن يشكل نسيج اجتماعي واداري رفيع، لهذا عمل العثمانيون على تثبيت هذا النوع من الادارة حتى يتمكنوا من تسيير أمور الرعية المختلفة. وهي من المميزات التي اشتهرت بها السلطة العثمانية في جميع ولاياتها بسبب تعدد الأعراق والقوميات التي كانت تحت سلطتها، لأن اقامة سلطة مركزية قد لا تمكنها من تسيير شؤون الرعية في هذه الدولة المترامية الأطراف[4].

من بين المظاهر التي تميزت بها السلطة العثمانية وهي نقل مقر السلطة السياسية بعيدا عن مركز المدينة والذي يعود إلى عدة أسباب قد تكون أهمها؛ رغبة الحكام في تأمين مقر السلطة خصوصا في زمن الاضطرابات، إضافة إلى رغبتهم في عزل أنفسهم عن الأهالي، وهذا ما نلاحظه في دار الباي بتونس التي أقامها المراديون[5] في الحدود الغربية

1حسن حسني عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس**، ط3، دار الفنون، تونس، 1954، ص135.
2ريمون، مرجع سابق، ص27.
3نفسه،،ص95.
4نفسه، ص27، 28.
5الأسرة المرادية هي أسرة حكمت تونس فيما بين 1628إلى 1702م أشهر حكامها حمودة باشا(1631-1665م) وابنه مراد الثاني(1665-1675م)، وقد انتهى حكمها بسبب تنافس أفراد

للمدينة، التي بناها يوسف داي (1610-1637م) وعمل على توسعتها حمودة باشا المرادي من بعده، أما الحسينيون فقد رأوا أن هذا المقر هو قريب من السوق الذي يرتاده أعداد كبيرة من الناس ومن التجار من كل أنحاء العالم، لهذا أرادوا نقل مقر السلطة إلى الباردو وذلك منذ أيام حسين بن علي (1705-1740م) وظلت باردو المقر الرسمي إلى غاية القرن التاسع عشر[1].

واستفادت مشاريع العمران بتونس كذلك من رعاية الأمراء المراديين الذين أسهموا في ظهور أسواق كثيرة مثل سوق الترك وسوق البركة وسوق الجرابة، وسوق الكبابجية، والسوقان الكبيران لصنع وبيع الطرابيش (الشاشية)، كما شيدوا أروع المباني التي خلدت ذكراهم ومنها نذكر جامع يوسف داي(1611م) وجامع حمودة باشا(1655م) ودار الباي(1659م) والمدرسة المرادية(1673م) ، فإن الحسينيون لم يجدوا مكانا لإقامة مشاريعهم سوى أطراف المدينة التي أقاموا بها سوق السكاجين، وسوق البلاط، وسوق البلغجية (1756-1757م)، وسوق الباب، ومن الآثار المعمارية العثمانية أيضا نجد الأسواق المسقوفة (المغطاة) وهي أسواق بناها المراديون بتونس ومن أبرزها سوق الترك الذي يتميز بشارع مبلط وسقف معقود، وصف مزدوج من الحوانيت التي تفصل بينها الأعمدة الملونة بالأحمر والأخضر والتي تعبر عن الذوق التركي آنذاك[2].

واستعادت مدينة تونس خلال القرن السابع عشر بعض من نشاطها وحركتها خاصة مع ظهور الأسواق الجديدة وانشأت مساجد على الطراز العثماني في اسطنبول مثل جامع سيدي محرز، وأقيمت القصور التي سكنها البايات مثل دار الباي بالقصبة ودار عثمان ودار الحداد، وغير ذلك من

الأسرة على السلطة، وحدوث فوضى واضطرابات في البلاد، للمزيد أنظر: سعيدوني، مرجع سابق، ص ص41، 42.

1 ريمون، مرجع سابق، ص ص 32، 34.

2 نفسه، ص ص40، 51.

المنشآت الأخرى التي تمثلت في المارستان(مستشفى) الذي كان بنهج العزافين وكذا الأضرحة والمباني التي أعدت لخدمة المصلحة العامة(الأسبلة، أحواض السقي، الكتاتيب وغيرها) مثلما حافظت المدينة على موقع الأسواق في المحور الذي تلتقي عنده مختلف الطرق[1].

من أهم المعالم العمرانية التي تؤرخ للفترة مدينة "المحمدية" التي أنشأها المشير أحمد (1259هـ/1843م) والتي تبعد حوالي أربعة عشر ميل عن العاصمة تونس، وأنشأ بها قلاعا وأسواقا وجامعا ومدرسة ومساكن لخاصته ورجال دولته، وغير ذلك من المباني الجميلة، كما جعل بها مقر لحكومته عوض مبنى باردو بتونس[2]

كما نجد منشآت معمارية عثمانية تخص رجال الدولة على غرار دار الباي بالقيروان الذي يتميز بمخططه المعماري حيث جاء مستطيل الشكل يتوسطه صحن مركزي به غرف من الجهات الأربعة زيادة على دار شرقية ودار جوفية وزريبة، ويتم الولوج للدار عن طريق سقيفة أولى مستطيلة جدرانها مكسية بمربعات من الخزف المعروف بـ"قشرة الحوت" وتزين واجهتي جدرانها الشرقية والقبلية عقود نصف دائرية أسفلها مدخل بيت السقيفة التي جاءت مربعة الشكل (12.27م×12.27م)، أرضيتها مغطاة بمربعات من الرخام الرمادي[3] (45سم×45سم)[4].

1عبد العزيز الدولاتي وآخرون، **أعلام ومعالم**، وزارة الثقافة، تونس، 1997، ص ص189، 190.
2حسني، مرجع سابق، ص ص167، 168.
3الرخام من المواد ذات الاستعمال الواسع في تزيين المنشآت المعمارية الدينية خصوصا المساجد والمدارس الدينية والأضرحة، وأشهر المنشآت التي شهدت استعمال واسع له نذكر جامع حمودة باشا1655 م، وكان اغلبه مستورد من ايطاليا ومن بعض البلدان المغاربية، وزادت الكميات المستوردة منه فيما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، **للمزيد أنظر:**
Ahmed Saadaoui, **les Marbres dans L'architecture Religieuse de Tunis –XVIIe XVIIIe et XIXe siècles**, Alsabil Revue d'histoire d'archéologie et d'architecture maghrébines,n°5,2018, pp02, 05.
4منى كمون، **دار الباي بمدينة القيروان بين القرن الثامن عشر والقرن العشرين**، مجلة السبيل، ع2، 2016، ص ص07، 09.

كما تم لاحقا تغطية باقي أفنية الدار بالرخام خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر، على نفس طريقة تزيين الدور بمدينة تونس التي استعملت الرخام الإيطالي. والتي ذكرها أبوراس المعسكري عندما زار المدينة وأُعجب بالرخام الذي يزين مدينة القيروان عموما ودار الباي خصوصا[1]، وتحف بالصحن أربع مجالس من جهاته الأربع، تفصلها مداخل من دفتين مصنوعة من الخشب، وقد تميزت دار الباي بزخارف متنوعة على الأبواب والأسقف بعضها نباتية وبعضها حيوانية، والتي يظهر فيها تأثر واضح بالتيارات الأندلسية والعثمانية والإيطالية الوافدة، وتظهر التأثيرات العثمانية في الزخارف النباتية التي تتمثل في باقات تنبثق من مزهريات، وتتشابه كثيرا عمارة هذه الدار مع دور البايات بتونس، فهي تعبر عن نمط معماري نلمس فيه التأثر الواضح في الفن المعماري العثماني. إضافة إلى النوافذ البارزة ذات الدفة الخشبية التي تسمح لأهل الدار بأن يروا خارج البيت دون أن يراهم أحد هي تقليد عثماني يعبر عن الانفتاح على الخارج، مثلما تحتوي العمارة العثمانية على عدة قاعات للاستقبال ذات أشكال مختلفة ووظائف متنوعة، وقد تميزت جميع هذه العمائر بالانسجام والتجانس، غير أن الدور والمساكن الشعبية اندثرت واصبحت معالمها منعدمة[2].

غير أن ملامح العمارة العثمانية التي شيدت فيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر اندثرت بسبب قلة الاهتمام بها وكذا تأثير الاستعمار الأوروبي الذي قام بمحاولات طمس وتدمير للتراث المعماري العثماني في بعض البلدان العربية، مثلما ضاع هذا التراث في أماكن أخرى بسبب عمليات التحديث. غير أن هذه الظاهرة لا تثير الاستغراب لأن الحكومة العثمانية نفسها كانت تسمح للكيانات المحلية بذلك ولم تبذل الحكومة المركزية في اسطنبول أي جهد في فرض طريقة الحياة

1 أبي راس محمد بن أحمد الناصري المعسكري الجزائري، **نبأ الإيوان بجمع الديوان في ذكر صلحاء مدينة القيروان**، منشورات مركز الدراسات الإسلامية، القيروان، 2012، ص119.
2كمون، مرجع سابق، ص ص09، 14.

التركية على الأقاليم العربية التابعة لها، وكانت تسمح بالتحرر الفكري والثقافي في هذه الولايات، هذا بالإضافة إلى نظرة الاحترام التي كان يكنها العثمانيون للغة والثقافة العربية بسبب ارتباطها بالدين الإسلامي وهو ما يفسر لنا غياب أي شكل من أشكال التغيير الثقافي رغم الاختلاف في اللغة بين الفئة الحاكمة وبين الرعية[1].

وتأثرت العمارة المحلية بفنون الزخرفة المحلية المتمثلة في استخدام البلاطات المزخرفة في تغطية المساحات الداخلية، والتي كانت احيانا يتم جلبها من الأناضول وأحيانا تصنّع محليا بنفس اللمسة الفنية العثمانية[2]، حيث صار بإمكان الحرفيين التونسيين صناعة قطع فنية تتفق مع الذوق العام الراهن، والذي نجده في المدرسة السليمانية(1754م) ودار عثمان بك(1610م) ودار الحسين (نهاية القرن الثامن عشر)، كما نجدها في القيروان في جامع البربر (القرن السابع عشر)، إضافة إلى ذلك فقد شهدت هذه الفترة زخما فنيا مفرطا في مجال الزخرفة، والذي يعود إلى كثرة المؤثرات التي وفدت من اسطنبول ومن اوروبا خصوصا ايطاليا التي كانت تستورد منها الولايات العربية كميات كبيرة من عناصر الزخرفة المصنوعة من الزجاج أو الخشب[3]

كما كان للفنون المعمارية العثمانية وفنون الزخرفة تأثيرات ذات طابع فكري ساهمت في ظهور نوع جديد من المنشآت المعمارية وهي الأضرحة التي كانت تبنى في المساجد بأسماء أصحابها كضريح[4] يوسف

1ريمون، مرجع سابق، ص122.

2استعمل في الزخرفة أيضا "الخزف" أو ما يطلق عليه أيضا "الزليج اللماع" في تزيين جدران بيوت الصلاة، إلّا أن المساجد التي تزينت به قليلة بسبب قلة الاعتمادات المالية التي كان يجمعها المحسنون، وأشهر المساجد التي زينت به نذكر "مسجد حمودة باشا" الذي تنوعت لوحاته الخزفية وكانت مزيجا بين المستورد والمحلي، **أنظر:** نادية بوسعيدي، **مساجد مدينة تونس وربضيها خلال العهد العثماني**، مركز النشر الجامعي، منوبة، 2019، ص 373.

3ريمون، مرجع سابق ص141.

4 بدأت ظاهرة بناء الأضرحة خلال القرن الحادي عشر، حيث كانت تبنى إلى جانب أضرحة الشخصيات البارزة حجرات للصلاة أو مساجد صغيرة وقد شيد كثير من الحكام السلاجقة مساجد

داي الواقع داخل مسجده[1]، وهو مربع الشكل يغطي سقفه الهرمي قطع زخرفية هي بعض بقايا قصر عثمان داي الذي تم إنشاءه سنوات فقط قبل بناء هذا الضريح.

1- دار التومي:

تم انشاؤها في نهاية القرن الثامن عشر من طرف أبو عبد الله محمد التومي أحد أشراف المدينة وأعيانها من الأندلسيين، وتقع بجانب جامع أبي محمد، في نهج سيدي الرصاص بربض السويقة، والتي تعد شاهدا حيا وأنموذجا على فنون العمارة العثمانية بتونس وتحمل قيمة تاريخية كتراث مادي.

تتميز هذه الدار بمدخل متعرج يؤدي إلى فناء مركزي يحيط به أربعة بيوت في الطابق الأول وبيت للضياف ومرافق أخرى ضرورية بالدار، أما مدخل الدار فيعلوه عقد[2] ترفعه عضادتين مزخرفتا الجوانب بزخارف نباتية، ويغلق المدخل بواسطة باب خشبي من دفتين تزينهما زخارف مسمارية موزعة بانتظام، ويتضمن مصراعه الأيسر باب صغيرة وفيه نلمس التأثير المعماري العثماني من خلال التيجان العثمانية التي نجدها في بعض أروقة البيت، كما نجد ذلك في الزخارف التي تزين قاعة الدريبة[3] التي

تخلد أسمائهم حتى تذكرهم الأجيال اللاحقة، وكانوا يضيفون إلى هذه المساجد أضرحة وذلك ظهر المسجد الضريح إلى الوجود. أنظر: ميسانا، مرجع سابق، ص46.

1 ريمون، مرجع سابق ص147، 148.

2 يتم بناء العقود مباشرة بعد بناء الجدران، وتأتي على أشكال حدوية، أو نصف دائرية أو دائرية متجاوزة أو عقود مدببة، كما نجد عقود منبسطة (واجهة مسجد سيدي البلاغ)، وكان استعمال هذه العقود منذ العصور الوسطى وتواصل استخدامها خلال العهد العثماني، وهي من العناصر المهمة في البناء، حيث تعمل على توزيع الثقل مثلما تشكل عناصر زخرفة، لذلك اختلفت مواد بنائها بين الحجارة المنحوتة والحجارة الرملية وبين حجارة الكذال، إضافة إلى قطع من الرخام الأبيض والأسود التي أضفت عليها زينة. أنظر: بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص375، 376.

3 الدريبة هي قاعة الاستقبال، فضلا عن كونها قطعة رئيسية وحلقة وصل بين الداخل والخارج، ومنفذ للوحدات السكنية المحيطة المتمثلة في البيوت والدويرية ودار الضياف، وتعد الدريبة معيار لفخامة البيت وثراء أهله، يستعملها البواب وحارس البيت، مثلما يستقبل بها صاحب البيت أصدقائه للاجتماعات والسهرات الأدبية والروائية والنقاشات التاريخية وأحيانا للتسلية أنظر: رمزي جوابلية،

تحتوي على أغصان متفرقة وملتوية وورقة تنتهي ببراعم متفتحة ومحاطة بوريدات في الأركان، وأما المصطبة التي هي مخصصة لصاحب البيت فهي تتصدر القاعة وتزينها ثلاث لوحات خزفية ذات ألوان جذابة يطغى عليها الأصفر الداكن والأخضر الزمردي وتتضمن أشكالا زخرفية نباتية وهندسية متنوعة مؤطرة بأشرطة من خزف عفسة الصيد الموشى بنجمة ذات ثمانية فروع متناوبة البيضاء والسوداء محفوفة بوريدة صفراء تعرف بنوارة الشمس[1].

كما نجد بالبيت سقيفتين الأولى مساحتها 3.75×3م والثانية 3× 2.25م أرضيتيهما مبلطتان بالرخام وأسفل جدرانها ببلاطات مزخرفة حديثة العهد، وأعلاها زخارف جصية ذات أشكال نباتية وهندسية متأثرة بالطابع الأندلسي المغربي، وأما الفناء المركزي فهو فضاء مكشوف مساحته 10م×08.75م[2].

2- دار الباي:

نظرا للأهمية الاستراتيجية التي تكتسيها مدينة القيروان فقد أولاها حكام الدولة بالاهتمام والعناية، ومن بينهم الأمير حسين بن علي (1705_1740م) الذي كان يستقر بها عند خروجه بالمحلة. كما كان له الفضل في إعادة اعمارها جراء الخراب الذي أصابها زمن مراد الثالث (1696_ 1702م)، فقد وافق على ترميم المساجد وتجهيزها بما يلزم، كما كانت تربط الأمير حسين بن علي بأهالي القيروان علاقات حسنة لذلك فر إليها عندما اشتد الصراع على الحكم بينه وبين ابن أخيه علي

دار التومي بربض باب السويقة من مدينة تونس دار كبرى على النمط المعماري التقليدي، مجلة السبيل، ع03، 2017، ص10/ و:

jacques REVEAULT, **palais et résidences d'été de la région de Tunis (XVI^{ème}-XIX^{ème} siècles)** paris, Editions du centre national de la recherche scientifique, 1974, pp35,36.

1جوابلية، مرجع سابق، ص ص05، 08.

2نفسه، ص10.

باشا سنة1735م، فسهلوا له الاستقرار بها هو وأبناءه وأنصارهم إلى غاية إغتياله عام1740م على يد يونس بن علي باشا.[1]

أما موقع الدار فهو مجهول بسبب وجود دارين للباي بالقيروان، واحدة بحومة الجامع والأخرى بحومة السادة الأشراف، غير أن بعض الرحالة ذكروا في وصفهم للمدينة أن دار الباي الأولى تقع قرب الجامع الأعظم وكان يسكنها أمير لواء عسكر مدينة القيروان، وأنها تتكون من طابق واحد، وشيد إلى جانبها مبنى خاص بالمساجين، وفي خلفها دار تعرف بمطبخة دار السيد الباي. غير أنه بعد وفاة الجسين بن علي وأخاه عامر (أخ غير شقيق) عم الخراب مدينة القيروان على يد علي باشا، مثلما أمر الأمير يونس بهدم سور القيروان. وبعد استعادة أبناء الحسين للحكم أمر محمد الرشيد باي(1756_1759م) بإعادة إعمار المدينة، فأعيد السور مثلما عمروا الجهة الشرقية للمدينة، وواصل أخاه علي باي(1759_1782م) من بعده إعمار المدينة من خلال السماح للأهالي ببناء مساكن بين السور القديم والقطعة الشرقية فنشأت هناك حوالي ثلاثمائة دار[2].

وأما الخصائص المعمارية للدار فإنها جاءت في شكل مستطيل يتوسطه صحن مركزي تحيط به الغرف من الجهات الأربعة، وتضم أيضا دريبة وغرفة شرقية وغرفة جوفية، ويتميز مدخل الدار الرئيسي بباب خشبي من دفتين مزينتين بمسامير، وأما الباب الواقع في الجهة الشرقية فيؤدي إلى غرفة الحارس والباب العلوي الخارجي، كما نجد مدخل آخر من الجهة القبلية، وأما الصحن فهو مربع الشكل ومكشوف، كسيت جدرانه بمربعات من الخزف، وفرشت أرضيته بمربعات رخامية، ويتوسط الدار

1 الناصري، **مرجع سابق**، ص ص13، 14. **انظر أيضا:** منى كمون، مرجع سابق، ص02.
2نفسه، ص ص5، 6.

مدخل مستطيل يؤدي إلى بيت مستطيلة تسمى بيت رأس الدار التي تتميز بزخارف نباتية واضحة في سقفها[1].

وأما السقيفة فهي مدخل الدار، فقد تزينت جدرانها بعقود نصف دائرية، كما نجد في جدارها الغربي تجاويف على شكل محاريب صغيرة تسمح للجالس بأن يضع حذاءه بها، كما نجد مدخل يؤدي إلى الطابق العلوي، وتتوسط الواجهة الجوفية(الداخلية) مدخل بباب خشبي من دفتين زُين بزخارف مسمارية متنوعة، إضافة إلى زخارف نباتية أخرى في جوانبه، وهو يؤدي مباشرة إلى الصحن الذي يتخذ شكل مربع(12,27×12,27م) نجد في جانبه الشرقي دهليز وغرفة المطبخ، وفي الواجهة الجوفية المجلس وعقود متوأمة وعقود حدوية بأسفلها فوهة البئر، وفي الواجهة القبلية المجلس ومدخل آخر للصحن، وفي واجهته الغربية نجد المجلس والدويرية، أما أرضيته فقد فرشت بمربعات من الرخام الرمادي اللون(45×45سم)، وأما المجالس السالفة الذكر فهي تحيط بالصحن من جوانبه الأربعة، فالمجلس الغربي يتم الولوج إليه عبر مدخل بباب خشبي من دفتين نحتت فيه زخارف نباتية ويحيط به إطار من الرخام(25سم) ويتخذ المجلس شكلا مستطيلا مغطى بسقف خشبي ملون بعد ألوان منها الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر، مزين بزخارف نباتية(أزهار وأوراق) وأما جدرانه فتم كسوتها ببلاطات من الخزف بارتفاع(2,78م)تعلوها أفاريز من الخشب(30سم) منقوشة بفروع أزهار متشابكة ومتصلة تخرج من إناء، يحف بالمجلس من الجهتين الجوفية والقبلية. وأما الدويرية فهي مستطيلة الشكل(6,02×5,29م) لها باب من الخشب ذي مصراعين تعلوها أقبية متقاطعة ترتكز عقودها على عمودين مدمجين في الجدار تعلوها تيجان عثمانية وأندلسية، وتضم الدويرية

1كمون، مرجع سابق، ص ص8، 9.

دهليزا بالواجهة الجوفية سقفه على شكل قبو طولي، أرضيته مفروشة بمربعات من الجليز(10×10سم)[1]

أما الطابق العلوي فيضم بهوا مستطيلا(7,28×5,86م) يبلغ ارتفاع جدرانه سبعة أمتار(07م) تم تبليط أرضيته بالرخام وأما جدرانه فكسيت بمربعات من الخزف بعلو متر واحد(01م) تحيط به أربعة غرف ومطبخ، وهري(مخزن الحبوب) والذي يعد ميزة في الدور القيروانية وفي دار الباي بأن نجده في الطابق العلوي حيث يتم تهويته من خلال نوافذ تطل على الصحن[2].

تميزت دار الباي بالقيروان بزخارف زينت الأبواب والأسقف بنماذج هندسية ونباتية وحيوانية، والتي تحمل تأثيرات عثمانية واضحة في العقود الصماء المنخفضة التي كست الجدران والأسقف وكذا الزخارف النباتية المتمثلة في الباقات التي تنبثق من مزهريات، وهي تتشابه إلى حد كبير مع دور البايات بمدينة تونس، غير أن الفرق الواضح هو عدم وجود دار الخدم، إضافة إلى تواضع زخرفتها[3].

3- مبنى المحمدية:

تعد المحمدية[4] من الآثار العمرانية المهمة لدى حكام الدولة فقد حاز ملكيتها الداي أسطا مراد (ت1050هـ/1640م) الذي جعلها للحراثة وتربية النحل وبنى بها دار للأسرى الأوروبيين، وانتقلت ملكيتها بعده

1كمون، مرجع سابق، ص ص11، 12.
2نفسه، ص 13.
3نفسه، ص 14.
4 كانت المحمدية في الفترة الرومانية تسمى "تيميديايجيا" حسب ما جاء في بعض النقائش، وكان يطلق عليها في العهد الأغلبي "طنبذة" ويشاع أن تسمية المحمدية يعود إلى الفتح الإسلامي ، وكانت قد ازدهرت خلال العهد الحسيني حيث بنى بها الباي أحمد مدينة عسكرية مثلما شيد بها عدة مباني. أنظر: د. م، **المحمدية مدينة وتراث**، الفيدرالية الوطنية للمدن التونسية، تونس، د.س.ن، ص3.

للوزير يوسف صاحب الطابع[1](ت1230هـ/1815م) بعدما اشتراها من ورثة أسطا مراد وشيد بها قصرا وغرس فيها بستانا من مختلف الثمار، وبعده ملكها شاكير صاحب الطابع(ت11سبتمبر1837م) وهو زوج أخت الباي مصطفى والذي بنى فيها قصرا واتخذها مسكنا ومقرا، وانتقلت ملكيتها بعد ذلك إلى الوزير مصطفى خزندار[2] في عهد احمد باي الذي بنى فيها قصرا غير أن الباي استرجعها منه وعوضه عنها، وأخذ الباي ببناء قلاع للعسكر حيث جمع فيها ما يزيد عن 30,000جندي ، قبل أن يجعل من المحمدية عاصمة له، وكان قد جلب أحمد باي مهندسين وبنائين مهرة من فرنسا لبناء قصره(الصالحية) الذي استوحى هندسته من قصر فرساي، ودعا رجال دولته وعامة الناس بأن يشيدوا دورا بها حتى صارت حافلة بالبنيان ومقصدا للأهالي من بدو وحضر للتسوق بها[3].

ومن المباني التي ألحقت بالقصر جامع المحمدية الذي كان يحتفل فيه في المناسبات الدينية خاصة في رمضان، وتقام به صلاة الجمعة، كما أسس بها مدرسة على شكل مدرسة باردو الحربية لتعليم العساكر، وبنى بها أيضا برجا مزود بالمدافع كما بنى بها سوق ومساكن لحاشيته ولرجال الدولة وحماما، وفي سنة 1849م بني بها برجا للتلغراف الهوائي،

1يوسف صاحب الطابع أصله من مسلمي البغدان، جيء به صغيرا بصفته مملوكا، انخرط في خدمة حمودة باشا، وارتقى في الوظائف، حتى صار أمين سر الأمير ومبعوثه الخاص، كان يمارس التجارة خارج تونس، وهي مصدر ثروته التي استغلها في أعمال خيرية خلدت اسمه، فقد بنى العديد من المساجد أشهرها الجامع الواقع بالحلفاوين، وضم إليه مدرسة قرآنية، إضافة إلى قيامه بترميم الكثير من الكتاتيب في العاصمة تونس، كما أوقف حبس معتبر على مستشفى صفاقس وغير ذلك من أعمال البر. **أنظر**: حسني، مرجع سابق، ص162.

2مصطفى خزندار يوناني الأصل والولادة، ولد في 1817م وبيع صغيرا في أسواق استانبول رفقة أخيه، ثم بيع مرة ثانية لأحد بايات تونس، وهناك تربى في قصور الأسرة التونسية الحاكمة، حيث تعلم الإسلام وعلوم الدين رفقة أحمد باي الذي تربى معه في قصر أبيه، وبعد تولي أحمد باي حكم البلاد اختاره إلى جانبه وكلفه بالشؤون المالية والداخلية وزوجه أخته، وبقي في منصبه في عهد محمد باي الذي كلفه بالوزارة الكبرى والخارجية. **للمزيد أنظر**: الشيباني بنبلغيث، **الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1859-1882م)**، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، صفاقس، 1995، ص68.

3أحمد الطويلي، **بناة الدولة التونسية الحديثة حمودة باشا وأحمد باي وخير الدين**، ط1، المغاربية لطباعة واشهار الكتاب، تونس، 2019، ص ص149، 152.

وانتهى من بناء السور والقلاع عام 1843م، ومن أشهر أبوابها باب تونس والباب الغربي، وبعد وفاة أحمد باي(30ماي1855م) تولى الحكم ابن عمه محمد باي(1855-1859م) الذي أمر بهدم المحمدية وإخلائها من الجنود والأهالي.[1]

4- مستشفى العزافين:

وورد في بعض المصادر باسم "مارستان العزافين"[2] كان موقعه بين سوق النحاس وسوق العزافين(عازفي آلات الطرب) والذي كان في خدمة الغرباء والمرضى، يتكون من اثني عشرة(12) غرفة في الأسفل ومثلها في الطابق العلوي، وجعلت له أوقافا تضمن حاجياته من الكسوة والأدوية وأجور الأطباء، أسسه الباي محمد باشا المرادي سنة1073ه/1662م لإيواء وعلاج عساكر البر والبحر، ومع مرور الزمن أصبح في خدمة عامة الناس زمن الحسينيين فيما بعد. وأما الأوقاف التي حبست لخدمته فهي ستة وعشرون عقارا[3] موزعة بين العاصمة والكاف وزغوان وبنزرت وباجة،

1، الطويلي، بناة الدولة...، ص ص152، 156.

2 لفظ مارستان هو محرف عن كلمة بيمارستان في اللغة الفارسية، وادخلت في تونس على يد الأتراك زمن الدولة المرادية وهي مركبة من كلمتين "بيمار" والتي تعني المريض و"ستان" والتي تعني الموضع أو المكان. أنظر: محمد بن الخوجة، **صفحات من تاريخ تونس**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص340.

3 هذه العقارات هي:"1- جميع الفندق القبلي المفتح قرب القباقبيين، 2-جميع الستة حوانيت، 3- جميع الفرن المعد الآن للطبخ، 4- جميع الكوشة المعدة، 5- جميع الفندق الجوفي، 6- جميع الحانوتين المخرجين من الفندق المذكور، 7- جميع المخزن الجوفي، 8- جميع الكوشة الشرقية، 9- جميع الحانوت الشرقي،10- جميع الكوشة القبلية، 11- جميع الفندق القبلي، 12- جميع الحانوتين الشرقي، 13- جميع الفندق ذي البابين، 14-جميع الفندق الغربي الباب، 15- جميع الحمام الغربي الباب المحدث البناء الكائن بالكاف، 16- وجميع الخمس حوانيت الملاصقة له، 17- وجميع الماء المجلوب من العين المعروفة بعين سيدي سالم، 18- وجميع الماء الخارج من الحمام المذكور، 19- وجميع الحمام الغربي المفتح ببلد زغوان، 20- وجميع الأربع تبنات ماء من الماء الجاري بالبلد المذكور، 21- وجميع الفرن القبلي المعد للخبز الكائن ببلد الكاف، 22- وجميع الطاحونة المعدة لرحي الطعام الغربية بالكاف، 23- وجميع الحمام الشرقي الكائن برحبة بنزرت، 24- وجميع الكوشة والدار الملاصقة لها بربض بلد باجة، 25- وجميع الفندق الغربي بها، 26- وجميع النصف من الدار الجوفية الباب الكائنة بحارة اليهود داخل باب السويقة من تونس المحروسة". أنظر: بن الخوجة، مرجع سابق، ص ص341، 343.

وتتمثل في حمامات وفنادق وطاحونة وحوانيت وديار، وعين السيد موسى الأندلسي ناظرا على المستشفى والأوقاف التابعة له[1] وأول هذه الأوقاف هو الفندق الذي جعله "مارستانا" (مشفى) ينزل به المرضى والجرحى من سفر البحر أو المحال أو الغزو في سبيل الله والفقراء الذين لا مال لهم وليس لهم من يقوم بهم ولا من يأويهم بمدينة تونس ولم يكن الناظر المسؤول عن الفندق يفرق بين المرضى العرب وغيرهم[2]، كما ساهمت صاحبة الخيرات المحسنة "عزيزة عثمانة"[3] في أوقاف المستشفى بوقفها الخاص بختان الصبيان الذي كان يتم في عاشوراء مثلما زودت المستشفى بالأكسية اللازمة من تلك الأوقاف.

وجعل الباي لهذا المستشفى نظاما بحيث يسمح بالعلاج فيه للجميع ولا فرق بين عربي أو تركي أو أعجمي، مثلما جعل للطبيب مقام(حانوت) إلى جانب المستشفى يجلس فيه، كما نظم مرتبات الموظفين حيث جعل للطبيب أربع خبزات وثمانية ناصرية، وللناظر أربع خبزات وستة ناصرية، وللطباخ خبزتان وخمسة ناصرية، ولوكيل النفقة خبزتان وأربعة ناصرية، والبواب الذي يتكفل بالحراسة والنظافة وغسل الثياب له أربع خبزات وثمانية ناصرية، كما يتولى المستشفى تكفين المرضى المتوفين ودفنهم[4].

5- مستشفى القرسطون:

أسسه علي باي الثاني(1759_1783م) بالمكان المسمى ركن قرسطون، بنهج جامع الزيتونة بالقصبة، وبنفس النهج كان مسجد

1أحمد بن ميلاد، **الطب العربي التونسي في عشرة قرون**، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص ص185_186.

2بن الخوجة، مرجع سابق، ص 343.

3هي عزيزة بنت أحمد بن محمد بن عثمان داي، دفين زاوية الشيخ سيدي أحمد بن عروس(ت1019/1610) عاصر الهجرة الأندلسية الأخيرة، وأما حفيدته المحسنة العزيزة عثمانة فقد توفيت سنة1080هـ/1669م، ودفنت بتربتها المجاورة للمدرسة الشماعية بحلقة النحال. أنظر: بن الخوجة، مرجع سابق، ص340.

4 بن ميلاد، مرجع سابق، ص186.

قرسطون الذي طمست معالمه وأصبح فيما بعد دارا للسكنى، وكان هذا المستشفى معدا لخدمة الفقراء، حبست لخدمته أوقاف تسد حاجته من المصاريف ومصاريف القائمين عليه، فقد كان لكل موظفيه خبزتان في كل يوم وأربع أواق من الأرز المطبوخ بالسمن، والزيت للإنارة ليلا، كما توفر للمرضى الزيت واللحم كل يوم اثنين وخميس مع تنظيف المحل وخدمة المرضى والرفق بهم، ويتم التكفل أيضا بتغسيل الأموات وتكفينهم ودفنهم من بيت المال، كما يتكفل بختان أبناء الفقراء والذي غالبا ما يكون في عاشوراء، ويقدم لهم ألبسة وقطعة نقدية (نصف **ريال**)[1].

6- المستشفى الصادقي:

تأسس بقلب المدينة مكان قشلة البشامقية(مبنى لإيواء العسكر) التي كان قد أسسها حمودة باشا، وهي من طابقين بها غرف كثيرة وحمام، في عهد المصلح خير الدين باشا، حيث تم تدشينه من طرف الصادق باي الذي حمل اسمه في 12 فيفري1879م، وتولى صياغة نظامه الداخلي مدير أوقافه الشيخ محمد بيرم[2]، واحتوى المستشفى على عدة أقسام للعلاج والاستقبال والإدارة، والتي ضمت مائة سرير قبل أن تدمج مدرسة جامع يوسف داي المجاورة له والتي خصصت لإيواء النساء، وقد خصص لعلاج الفقراء حيث يكفل لكل مريض ثلاث خبزات يوميا ورطل من اللحم، وأما مصاريف المستشفى من ألبسة وأجور الأطباء ومساعديهم والصيدلي والطباخ وباقي العمال الذين بلغ عددهم أحد عشر وامرأتان تؤخذ من الأوقاف الموقوفة لخدمته، وكان أول طبيب خدم به هو الطبيب الجزائري

1ابن ميلاد، مرجع سابق، ص ص188_192.

2محمد بيرم الثاني من علماء جامع الزيتونة، ولد سنة1162هـ/1754م وتوفي 1247هـ/1839م، تولى خطة القضاء على المذهب الحنفي مرتين واستقال منها على عهد حمودة باشا، وابتلي بموت امرأته وابناءه الخمسة في الطاعون الذي ضرب البلاد سنة1192هـ/1784م، وله رسالة في هذه الكارثة بعنوان "حسن البنا في جواز التحفظ من الوبا" أنظر: بن ميلاد، مرجع سابق، ص216.

محمد المبزع المتخرج من كلية الجزائر[1]. وقد أرّخ له الشيخ محمد السنوسي من خلال الأبيات التالية:

لمشير تونس خير فضل يقتفى فيما أشاد إلى الأهالي واصطفا
فحمى جميعهم بفضـــل وارف وحباهم منه الحبا الألطفـــا
نشر المعارف والعوارف بعد أن حاط المحاكم والزروع بما كفى
والآن أثل خير مستشفى بـــه حفظ الحياة لكل شخص قد وفا
وأتى يعود جميعهم في موكب ظل الفخار عليه أضحى مورفـا
حتى غدا كلّ ينادي داعيا ويقول في التاريخ لي قدم الشفا

وألحق بالمستشفى قطعة الأرض التي كانت موقع مقبرة السلسلة الدّارسة التي سبق نقل رفاتها لمقابر الزلاج قبل ثلاثين سنة وأصبح المستشفى الصادقي يضاهي المستشفيات الحديثة في حسن مناخه، وانتظام مرافقه وأحواله[2].

ثانيا) المساجد:

تواجدت المساجد[3] في مختلف أنحاء المدينة بعضها داخل الأسواق وبعضها قرب المنازل وبينها، وفي بعض الأحيان قد لا يمكن التمييز بينها وبين الديار إلا من خلال اللوحات التذكارية التي نجدها في مداخل أغلب المساجد، كما أن العناصر المعمارية المكونة للمساجد لعبت دور في التمييز بينها، فبعضها كان يعرف "بالمسجد غرفة والمساجد المعلقة، وبعضها "خلوة" وبعضها كانت جزء من زاوية أو مدرسة ومنها ما كان يتمتع بجميع مكونات المسجد الجامع[4].ولئن وقع التمييز بين المساجد

1ابن ميلاد، مرجع سابق، ص ص192، 193.
2ابن الخوجة، مرجع سابق، ص ص349، 350.
3 المسجد اصطلاحا هو المكان المخصص للصلوات الخمس ومنه المسجد الجامع الذي سن عمارته الخليفة الثاني "عمر بن الخطاب" عندما كتب إلى ولاّته على الأمصار بأن يجعلوا مساجد للقبائل وأن يتخذ كل منهم مسجدا جامعا تجتمع فيه القبائل لأداء صلاة الجمعة. للمزيد أنظر: عاصم محمد رزق، **معجم المصطلحات العمارة والفنون الإسلامية**، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000، ص282.
4بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص270-275.

والجوامع إلا أن الخلط بينها ظل قائما حيث أطلقت في كثير من الأحيان كلمة المسجد على الجامع كما سمي الجامع مسجدا أحيانا أخرى، ونذكر على سبيل المثال مسجد الرمانة الذي ورد باسم جامع الرمانة وجامع الغوري وجامع سيدي عبد السلام وجامع القمرتي وجامع الرياض وجامع الرصيف رغم أنها كانت مساجد أحياء[1]

وتتكون المساجد والجوامع من خمسة أجزاء رئيسية، لكل جزء منها وظيفته، وهي بيت الصلاة والتي تعتبر الجزء الأكثر أهمية لكونه مكان العبادة، والمقصورة التي تشغل حيزا من بيت الصلاة، والسدة وهي السقيفة المقابلة للمحراب والمنبر، والصحن الذي يتميز بكونه مكشوف وتتوزع على أطرافه الأروقة، والميضأة التي تحتوي على حوض يلتف المصلون حوله للوضوء[2].وتتشارك أغلب المساجد التي تعود للعهود السابقة في نفس التصميم والتجانس المعماري تقريبا، حيث تحمل تجانس وتشابه واضح في تقسيم الفضاء مع مساجد المرحلة الأولى من فترة الحكم العثماني والتي تتكون من أصحن كبيرة مربعة الشكل أو مستطيلة، مع أربعة أروقة مغطاة من الجوانب المتاخمة لقاعة الصلاة الرئيسية في شكل مستطيل بحيث تسمح لعدد كبير من المصلين من الاصطفاف في مواجهة القبلة وتنقسم إلى بلاطات طولية وعرضية بواسطة أعمدة (سواري)، تعلوها تيجان تدعم الأسقف المسطحة أو ذات القباب، أما عن زخرفتها فهي تقوم أساسا على أشكال هندسية بسيطة نباتية أو كتابية في مختلف المواد(السيراميك، الرخام، الخشب وغيره) وغالبا ما نجدها حول المحراب وقبته، والمنبر والمقصورة والمئذنة كما تكاد تخلو قاعة الصلاة والبهو من أي عناصر زخرفية[3]،

1بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص270، 271.

2 محمود زين العابدين، **عمارة المساجد العثمانية**، ط1، دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2006، ص ص13، 14.

3 مصباح، **مرجع سابق**، ص 10.

عرفت الجوامع العثمانية خصائص معمارية وفنية مختلفة عن تلك التي وجدت بتونس من قبل، من خلال بعض الاختلاف في التصاميم الفنية وفي خصوصيات العمارة المغاربية، مثلما عمل العثمانيون على تأهيل بعض المساجد الموروثة عن المراحل السابقة، ومع بداية القرن السابع عشر بدأ العثمانيون عملية بناء المؤسسات الدينية على غرار المساجد التي ظهرت في عهد يوسف داي (1610-1637م) ثم في عهد حمودة باشا (1631-1666م) التي بدأت تبرز فيها مميزات الهندسة العثمانية في المئذنة المثمنة، والبهو المحيط بقاعة الصلاة من ثلاث جوانب، والمنبر المبني والعديد من العناصر الزخرفية الجديدة[1]، ومن أمثلة ذلك نذكر:

1- جامع حمودة باشا:

يقع مسجد حمودة باشا شمال غرب جامع الزيتونة، قرب مفترق نهج سيدي بن عروس ونهج القصبة بجوار دار الباي، تم بناءه سنة 1756م ورممه الوالي حمودة باشا سنة1805م، والذي لا يتوفر على أوقاف خاصة به، يتكون من بيت الصلاة وصحن يتم الدخول إليه عبر المدخل الشمالي المؤدي إلى نهج القصبة، تعلو هذا المدخل نافذتين وهو خال من الزخرفة حيث واجهته الداخلية لا تكاد تختلف عن واجهته الخارجية، وقد زين المدخل من الخارج بإطار من حجارة الكذال[2] وكذلك النافذتين، أما الصحن الذي يؤدي إلى بيت الصلاة فهو مستطيل الشكل، كسيت أرضيته ببلاطات من الكذال ذات أحجام غير متساوية[3].

أما بيت الصلاة فهي مستطيلة الشكل بطول 14متر وعرض 6,61متر، قسمت الأعمدة الواقعة في الوسط بيت الصلاة إلى رواقين

1مصباح، مرجع سابق، ص 02

2هي حجارة مصقولة تستخرج من حمام الأنف، وهي حجارة مصقولة على شكل مستطيل أو مربع وتختلف أحجامها وأبعادها وتستعمل كعضادات تحمل الأبواب أو كساكف لها وللنوافذ، وهي تستعمل بشكل كبير في تأطير الأبواب والنوافذ والمحاريب، إلى جانب الأعمدة المصنوعة من الكذال داخل المسجد. أنظر: بوسعيدي، مرجع سابق، ص360.

3 نفسه، ص ص90، 92.

موازيين لجدار القبلة، وقد جاءت هذه الأعمدة في شكل أسطواني مصنوعة من الرخام الأبيض تعلوها تيجان على الطراز العثماني، وقد كسي الجزء الأعلى من الجدران بزخارف جصية، باستثناء الجدار الشمالي الذي تم تزيين ركنيه الغربي والشرقي فقط بزخارف جصية ذات أشكال هندسية ونباتية، وزينت الجدار الشرقي والغربي والقبلي بعقود صماء تختلف في زخارفها عن بعضها البعض حيث نلحظ تناوب في الاشكال بين الهندسية والنباتية، ويفصل بين كل عقد[1] وآخر فراغ يرتسم على شكل محراب تتوسطه شجرة السرو في أعلاها زخارف نباتية، وتم كسوة الجزء السفلي للمسجد بمربعات خزفية مختلفة الأشكال والرسوم والألوان ومنتظمة في التركيب ، يفصل بين كل لوحة وأخرى شريط أسود اللون، كما زينت نافذتا المسجد الواقعتان في الجدار الشمالي من الداخل بإطار من الكذال أما باقي الجدران فلا نجد بها نوافذ[2].

وجاء المحراب الذي يتوسط جدار القبلة في شكل قبو طولي عرضه 1,80متر، سقفه على شكل نصف قبة مغطاة بزخارف جصية على شكل صدفة ذات خطوط رقيقة نقشت بأشكال نباتية تشبه شجرة السرو مطلية باللون الأصفر الذهبي، ويحيط به إطار من الرخام الأبيض تحته اطار ثان باللون الأسود، أما النصف السفلي من المحراب فقد زين بسبعة ألواح رخامية مستطيلة الشكل متناوبة بين الأبيض والبني وقد أحيطت كل لوحة بشريط أسود، وهو ما يظهر كثافة الزخرفة التي تميز بها المحراب دون باقي المسجد، أما سقف المسجد فقد جاء مسطحا وهو نموذج حديث في فنون العمارة، حيث جاء خاليا من أي زخرفة، أما أعمدة المسجد فهي من الرخام الأبيض تعلوها صنفين من التيجان، اثنان منها من حجارة الكذال

1العقود والأقواس هي من العناصر المعمارية الواسعة الاستخدام في المنشآت المعمارية العثمانية، تكون منحنية الشكل وتستخدم أعلى الأبواب والنوافذ وفي وسط المساجد والبيوت، وهي تعمل على توزيع الثقل على الجوانب، وتمنع انهيارها بسبب الأوزان الزائدة والحركات التكتونية التي تعرفها تلك البلاد. **أنظر**: شعلان، مرجع سابق، ص33.

2بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص93، 98.

والتي نجدها في طرفي قاعة الصلاة وتنتمي إلى طراز التيجان العثمانية، والتاجين الآخرين من الرخام المعاد استعماله[1].

وهو نموذج لطراز معماري جديد يحمل في مكوناته مزيجا من التراث المحلي والأندلسي والعثماني، والذي أصبح يجذب إليه الأنظار أكثر من غيره، وصار تقليدا في المنشآت المعمارية التي جاءت بعده[2]، كما يعتبر من المساجد القليلة التي أسسها ولاة الدولة العثمانية، حيث استعمل فيه الحديد الذي يضمن تباعد الأقواس وعدم انحنائها والذي كان معروف في الهندسة المحلية، إضافة إلى المدخل المستطيل لبيت الصلاة وهو تراث حفصي، كما عرف إدخال التيجان العثمانية في تزيين المسجد، وكذا الألواح الخزفية المختلفة الألوان، والأعمدة الرخامية المستوردة من إيطاليا[3].

2- مسجد الفلاري:

يقع هذا المسجد بنهج سيدي محرز بجوار المسجد الجامع لمحمد باي، وزاوية سيدي محرز وحمام الذهب، يحده شمالا نهج سيدي محرز وشرقا نهج الذهب وغربا نهج القرمطو، تم بناء هذا المسجد في عهد الباي محمد باي الذي حكم مابين1675 إلى1696م[4]، في إطار تهيئة الحي وبناء الجامع المعروف باسمه، حيث قام بشراء قطعة أرض وأبعد عنها البيوت والمباني الخربة. ومن جملة ما ضمته عدد من القبور إلى جانب تربة تضم قبر الوليّ الشيخ الفلاري (ت 11فيفري1630م) فقرر محمد

1بوسعيدي، مرجع سابق،، ص ص98، 100.

2ريمون، مرجع سابق، ص150.

3بوسعيدي، مرجع سابق، ص 100.

4كان هذا المسجد قبل فترة حكم محمد باي عبارة عن مصلى الحي ويقوم بدور الكتاب أيضا، انظر:

Mohamed Beji ben Mami, **la Mosquée M'hammed Bey un Exemple de la Présence Architecturale et Artistique Ottomane dans la Médina de Tunis**, Africa série ATP, Institut National de Patrimoine, Tunis, 1998, pp 05, 06.

باي ادخال تربة هذا الولي ضمن ما احتوته اجنحة المسجد الذي استعمل كمخزن للوازم والمعدات الخاصة ببناء مسجد محمد باي في البداية، وانتهى من بناءه سنة1694م وعرف بمسجد الشيخ الفلاري نسبة للشيخ المدفون بداخله، وتمتع بعدة أوقاف تمثلت في عقارات أوقفت لخدمته والعناية به[1].

يتم الدخول إليه عبر باب شرقي، وهو يتكون من صومعة وبيت للصلاة مستطيلة الشكل (11,5× 10م) أما سقفه ذي القباب فيرتكز على دعامات مستقلة سداسية الشكل مبنية بالحجارة تعلوها تيجان من الكذال وأخرى مدمجة بالجدران، وتنقسم بيت الصلاة إلى رواقين موازيين لجدار القبلة، وثلاث متعامدة مع جدار القبلة، وجاءت جدرانه سميكة جدا حيث تتجاوز في بعض أجزاءها المتر (1,20م) بسبب وجود هذا المسجد تحت جامع محمد باي وبالتالي تكون ساندة وداعمة لمسجده أيضا، كما أن جدران هذا المسجد خالية من أي منافذ أو نوافذ عدا الجهة الشرقية التي نجد بها مدخل بنافذتين تتوسط الجدار، ويحيط بمحراب المسجد إطار من حجارة الكذال خالية من أي زخرفة، ويرتكز عقد المحراب على عضادتين من المرمر أدمج بهما عمودان من المرمر الأحمر تعلوهما تيجان تنتمي إلى الطراز المغربي الأندلسي، وزخرفت باطن طاقية المحراب بنقوش جصية تحمل كتابات تمثلت في آيات قرآنية، كما زخرف باطن العقد بزخارف هندسية وأخرى نباتية وأما الجزء السفلي من المحراب فقد كسي بمربعات من المرمر البني الفاتح[2].

أما الأعمدة الحاملة للسقف فقد عوضتها دعامات مصنوعة من الحجارة الرملية المصقولة وتعلوها تيجان مربعة من حجارة الكذال، أما المئذنة فتقع في الركن الشمالي الشرقي وتفتح على صحن جامع محمد باي وهي بمثابة القاسم المشترك بين مسجد الفلاري وجامع محمد باي،

1بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص144، 145.
2نفسه، ص ص146، 147.

طولها عشرون متر وهي مربعة الشكل، يحيط بباب المئذنة إطار من حجارة الكذال، أما بدنها فيحتوي على فتحات لدخول الضوء والتهوية، وهي تخلو من أي زخرفة عدا الجزء العلوي منها الذي يحتوي على نوافذ متوأمة تزينها أعمدة تعلوها تيجان حفصية محاطة بإطار من الكذال، وقد جاءت هذه النوافذ في أشكال تشبه المحاريب ذات أقواس حدوية الشكل تنتهي في أعلاها بشريط يشبه أسنان المشط[1].

3- جامع صاحب الطابع:

يقع هذا الجامع بنهج الزاوية البكرية عند ملتقى نهج سيدي عبد السلام ونهج الزاوية البكرية، ويعتبر النهج الأول من أهم الأنهج في باب سويقة، وكذلك نهج الزاوية الذي يحتوي على عدد كبير من المعالم مثل الزوايا والمساجد ومنها مسجد أبي صلاح والزاوية البكرية، الذي تم بناؤه على أنقاض مسجد مهدم كان يسمى مسجد العبيدي[2] والذي كان يتمتع بأوقاف هامة، ورغم عدم ذكر تاريخ تأسيسه إلاّ أن الراجح أنه بني قبل وفاة الوزير في23 جانفي1815م[3].

يضم مسجد صاحب الطابع بيت للصلاة وصحن ومئذنة وميضأة، وتقع واجهته قبالة نهج الزاوية البكرية، وأما مدخله فزين بإطار من الحجارة المهذبة وإطار ثان من حجارة الكذال وهو مستطيل الشكل يستند إلى عضادتين خالية من أي شكل من أشكال الزخرفة، وفي جانب المدخل نجد نقيشة دُوِّنَ عليها اسم المسجد، وأما باب المسجد فهو مستطيل الشكل بدفتين مزين بمسامير على شكل محراب تتوسطه وريدات صغيرة، وبعده نجد صحن شرقي يتقدم بيت الصلاة مستطيل الشكل مساحته ستة أمتار مربعة، في شماله الميضأة ومن جهة الغرب نجد بيت الصلاة، التي جاءت

1بوسعيدي، مرجع سابق، ص 149.

2أحمد بن أبي الضياف، **اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، ج7، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999، ص94.

3بوسعيدي، مرجع سابق، ص 234.

مربعة الشكل طول ضلعها عشرة أمتار(10م) ونلج إليها عبر باب عرضها متر ونصف(1,5م) يتوسط نافذتين مستطيلتي الشكل، وفيها نجد ستة عشر (16) عمودا أربعة تتوسط القاعة والباقي ملتصقة بالجدران والتي تشكل تسعة فراغات متساوية، وقد استعمل في هذا المسجد مجموعة من العقود النصف دائرية عمياء وهي ملتصقة بالجدران كما تجد الإشارة إلى أن المسجد خالٍ من أي شكل من أشكال الزخرفة عدا الذي نجده في مدخل قاعة الصلاة وجدار القبلة حيث زين محرابه بإطار من الكذال وعقد تتناوب ألوانه بين الأبيض والأسود كما يخلو عقد المحراب من أي زخرفة، عدا الطاقية التي زخرفت بنقائش جصية ذات أشكال هندسية متشابكة والتي تعرف بنقش حديدة[1].

ينتمي مسجد صاحب الطابع إلى المساجد المقببة، ، وأما أعمدة المسجد فهي أسطوانية الشكل مصنوعة من حجارة الكذال متساوية الطول متوجة بتيجان تنتمي للطراز العثماني تعلوها وسائد حجرية، وقد توزعت هذه الأعمدة بطريقة متساوية مكونة تسعة فراغات، وأما المئذنة فتشرف على نهجي سيدي عبد السلام والزاوية البكرية وتقع في الركن الشرقي للمسجد وهي ذات شكل مربع يبلغ ارتفاعها سبعة عشر متر(17م) وتتكون من ثلاثة أجزاء تتخللها نوافذ صغيرة للتهوية والإضاءة، ويعتبر هذا المسجد من بين المساجد القليلة التي قام ببنائها رجال الدولة بتونس وهو ما يفسر العناية الكبيرة التي حضي بها من خلال هندسته الدقيقة في توزيع الأعمدة داخل قاعة الصلاة بشكل متساوي[2].

4- مسجد سيدي عبد الحق:

يقع هذا المسجد بالحجامين يحده شرقا نهج الحجامين وغربا نهج الجرة ويتكون من بيت الصلاة والميضأة ومئذنة وضريح الولي الصالح

1بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص235، 237.
2نفسه، ص ص237، 239.

سيدي عبد الحق، ولهذا المسجد مدخلان أحدهما من جهة نهج الحجامين ويرتفع عن مستوى سطح الأرض ببعض الدرجات، ويحيط بالمدخل إطاران الأول من حجارة الكذال والثاني من حجارة الحرش[1]، وعلى يسار المدخل نافذة مستطيلة الشكل، وقد ثبتت عليه تذكار كتب فيه اسم المسجد، والمدخل الآخر من جهة نهج الجرة بنفس زخرفة المدخل الأول وعلى يمينه نافذة.

بيت الصلاة فيه ذات شكل مستطيل تقريبا طول جدار القبلة 9,30م والجدار الشمالي 9م والجدار الشرقي 6م والجدار الغربي 5,70م وقد ارتكز سقفه المسطح على مساطر خشبية تحملها عقود جدارية عمياء وأعمدة قسمت بيت الصلاة إلى رواقين موازيين لجدار القبلة وثلاث أروقة متعامدة معه، وارتكزت العقود الجدارية على دعامات مستطيلة أما مساقط العقود الأخرى فقد ارتكزت على أعمدة اسطوانية تعلوها تيجان ووسائد، وجاءت هذه العقود ذات احجام مختلفة في شكل نصف دائري وحدوي، مبنية بالآجر كما حزّزت بحاشية غائرة ومزخرفة من الجهتين وهي موازية للعقود العمياء في الجدار القبلي والجدار الشمالي[2].

ونجد بجدار القبلة ثلاثة عقود جدارية عمياء، حيث يرتكز العقد الأوسط على عمودين ذي تيجان من الطراز الحفصي، وفي أسفله المحراب الذي يبلغ عرضه متر ونصف وعمقه لا يتجاوز 1,20م محاط بإطار مستطيل الشكل من حجارة الكذال، ويزين قبة المحراب قوس نصف دائري على شكل حدوة الفرس مزين بفقرات متناوبة بين الأبيض والأسود، وقد ضمت قاعة الصلاة ثمانية أعمدة أسطوانية الشكل ترتكز عليها العقود بالإضافة إلى عمودين بالجدار الشمالي ومثليهما بالجدار القبلي، وهي

1 حجارة الحرش هي حجارة باهظة الثمن تجلب من الجهة القبلية، حيث تصقل وتستعمل في زخرفة واجهات المعالم وتأطير النوافذ ومداخل المساجد إلى جانب استعمال حجارة الكذال، كما تزخرف بها أطر المحاريب، وباطن العقود. أنظر: بوسعيدي، مرجع سابق، ص361.

2 نفسه، ص ص256، 259.

مصنوعة من حجارة الكذال، تعلوها تيجان مختلفة الطراز بعضها معاد استعماله وبعضها من الطراز الحفصي[1].

أما المئذنة فهي تطل على نهجي الحجامين والجرّة حيث يظهر منها جزئها الأعلى فقط من جهة النهج الأول في حين تظهر كاملة من جهة النهج الثاني، وهي تقع في الركن الشمالي الغربي من بيت الصلاة يتم الوصول إليها عبر باب صغير يقع بجانب المدخل الغربي لبيت الصلاة، وتضم ثلاث أجزاء ويرتفع بنيانها عن سطح الارض بأربعة أمتار، وتتألف من ثلاث أجزاء وهي خالية من شكل من أشكال الزخرفة عدا الجزء الأوسط الذي يضم نوافذ متوأمة ذات شكل محاريب من جهاتها الاربعة[2].

5- المسجد الحبيبي:

يقع بنهج سيدي صابر، وكان يعرف بمسجد بوذبانة نسبة لإمام المسجد، كما ورد في بعض المصادر تحت اسم مسجد سيدي بوذبان، قبل أن يتم تجديده من طرف الباي الحبيب باي فيما بعد ومن ذلك الوقت أصبح يعرف بالمسجد الحبيبي، وفق ما تثبته الكتابة المنقوشة على اللوحة الرخامية عند مدخله التي جاء فيها: "المسجد الحبيبي جدد بناؤه في مدة سيدنا ومولانا محمد الحبيب باشا باي تونس سنة 1345هـ" ومن بين المميزات التي نجدها أن الصحن يتقدم بيت الصلاة وهي ميزة المساجد التقليدية إلا أن ملامح التأثيرات العثمانية واضحة في محرابه وفي أساليب زخرفته التي استعملت فيها الوريدات الصغيرة[3].

1 بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص260، 261.
2 نفسه، ص ص261، 262.
3نفسه، ص ص102، 103.

6- جامع محمد باي:

يقع هذا الجامع في باب السويقة، وتميزه القباب النصف الدائرية البارزة عند زواياه الأربعة، كما تتوسطه قباب بيضوية تحيط بالقبة المركزية، وأما قاعة الصلاة فيحيط بها فناء من ثلاث جوانب خلف أروقة المسجد، وقد تم تزيين بيت الصلاة فيه والمحراب والمنبر، بزخارف من الجص[1] والسيراميك، التي نجدها بكثافة وتركيز أكثر مما جرت عليه العادة، ومن المكونات الزخرفية التي زين بها جامع محمد باي الزخارف النباتية التي تحتل مكانة هامة في القطع التي استعملت في بلاطات السيراميك والجص وبدرجة أقل على الخشب والرخام، ومن أهم أنواع النباتات الزخرفية زهرة القرنفل والوردة البرية والياقوتة وزهرة العسل، وبشكل عام الأشجار المزهرة ذات الأغصان الطويلة، والتي تخلط أحيانا مع العناصر الزخرفية القديمة مثل الورود وأشجار السرول المجردة، الذي ازداد تركيزا مع بداية القرن التاسع عشر بدخول أشكال زخرفية إيطالية، وقد وجدت بكثرة في هذا المسجد مقارنة بالمساجد الأخرى بسبب المساحات الموجودة في هذا النمط المعماري[2].

وتظهر في هذا المسجد المؤثرات العثمانية واضحة في المحامل المزخرفة بالسيراميك والجص، والتي مزجت بينها وبين التقاليد القديمة

1الجص هو الذي تلاط به البيوت وهو خام من كبريتات الكالسيوم التي تصنع من الحجارة تطحن وتحرق لتستخدم في البناء، ومنه الجبس العادي، وهو نوع خشن غير نقي تلاط به الجدران من الداخل والخارج، وقد تطورت صناعته بتونس كثيرا مع قدوم الأندلسيين، وأستعمل بشكل واسع في تزيين تجاويف المحاريب وواجهاتها وفي أعلى الجدران والأسقف، والتي تنقش بواسطة أداة حديدية مباشرة فوق طلاء الجص لتشكيل زخارف نباتية وهندسية، وقد عرفت هذه التقنية بالنقش حديدة، ومن أشهر المساجد التي عرفت هذه الزخرفة نذكر مسجد حرمل ومسجد صاحب الطابع ومسجد حمودة باشا، مثلما نجده في المدارس العثمانية. **أنظر:** بوسعيدي، مرجع سابق، ص373. و عاصم محمد رزق، مرجع سابق، ص63.

2سراج مصباح، **التأثيرات التركية في معمار المساجد التونسية وزخرفتها بالعصر الحديث**، مجلة السبيل، ع02، 2016، ص ص02، 09.

في الزخرفة، مثلما حمل جامع "محمد باي" تناسق وتجانس بين الأشكال الممتلئة والفارغة التي جاءت بها هذه الزخارف[1].

بناه محمد بك سنة 1696م وهو ذو طابع عثماني والذي يظهر في توزيع قبابه حيث نجد قبة مركزية تتصل بها أربعة أنصاف قباب، ثم أربع قباب صغيرة في زواياه، في تماثل واضح لتوزيع القباب مع جامع السلطان أحمد في اسطنبول، كما يتشابه مع مسجد محمد علي في القلعة بالقاهرة، وق سمي بالمسجد الجديد في البداية، وكان من بين المساجد الأربعة عشر بالمدينة الذي تقام به صلاة الجمعة، لكنه لم يكتمل بناءه في عهد محمد باي ولا في عهد خلفه رمضان باي الذي اغتيل قبل انهاءه[2]، ولولا المآذن[3] والأروقة التي تكتنف صحنه لكان جامعا عثمانيا خالصا[4].

ندخل إلى المسجد عبر الباب الشرقي الرئيسي الواقع قبالة زاوية سيدي محرز، كما نجد للمسجد أبواب ثانوية في جوانبه الشمالية والجنوبية، أما قاعة الصلاة فقد جاءت مغايرة للمساجد التي عرفتها تونس من قبل فهي مستطيلة الشكل(70م طول و47م عرض) تغطيها قبة مركزية تدعمها أربع أنصاف قبيبات على جوانبها، وتعلوها ثلاث كريات صغيرة وهلال والتي تعرف بكونها رمز للإمبراطورية العثمانية، وفيها يظهر التأثر الواضح بالخصائص الهندسية العثمانية، مثلما يظهر في استعمال الأقواس نصف الدائرية في بيت الصلاة التي تدعم السقف، والأقواس التي تزين المداخل الرئيسية في شمال وجنوب القاعة الرئيسية للمسجد وأروقته ومحرابه[5].

1مصباح، مرجع سابق، ص10.

2 Ben Mami, op cit, pp04, 05.

3 تتميز المآذن العثمانية بقاعدة مضلعة وبدن أسطواني طويل متعدد الأجزاء ونهاية قلمية مدببة. **للمزيد:** قبيلة فارس المالكي، **تاريخ العمارة عبر العصور**، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، 2011، ص187.

4ريمون، مرجع سابق، ص119.

5 Ben Mami, op cit, pp06, 15.

وكان أمراء الدولة قد اجتهدوا في ترميم وتجديد المنشآت الدينية خاصة المساجد ومنها مسجد السيل الذي أعيد ترميمه سنه1841م، مع إدخال بعض التحديثات الجديدة عليه، كما أعيدت له أوقافه واضيفت إليه بعض الأوقاف التي كانت معطلة[1]، مثلما عملوا على تشييد العديد من المساجد بالقرب من الأسواق مثل مسجد الشبارلية الذي كان يقع بين سوقي البلاغجية والغرابلية، وهذا حتى يسهل على التجار أداء صلواتهم، كما تركت الجالية الأندلسية بتونس بصمتها في الجانب العمراني فقد حملت بعض المعالم أثار أندلسية مثل مسجد حمام الرميمي واضحة خاصة في المئذنة التي استعملت فيها حجارة الحرش وحجارة الكذال لتزيين واجهتها[2]، وأما جامع الزيتونة الذي يعتبر منارة تونس العلمية ومعلمه الشهير أيضا نال حقه من الرعاية، فقد رمم صومعته[3] الأمير محمد باي المرادي(1063هـ/1652م) وصار ارتفاعها بعد تلك الزيادة ثلاثون مترا ودامت على ذلك إلى أن تداعت للسقوط في حدود سنة(1309هـ/1892م)[4] قبل أن تجدد صومعته البهيجة الجمال على أنقاض الصومعة القديمة سنة1312هـ/1895م وأصبح ارتفاعها ثلاثة وأربعون(43) متر والتي أشرف عليها المهندس البلدي "سليمان النيقرو" وقد كلفت صندوق جمعية الأوقاف مائة وعشرة آلاف فرنك[5].

ثالثا) المدارس:

ظهرت المدارس ضمن العمارة الإسلامية في العصور المتأخرة(ق11م)[6]، حيث كان المسجد هو مركز العلم والتعليم، ففيه

1 بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص125، 136.

2نفسه، ص194.

3أنظر الملحق رقم06، ص355.

4محمد بن عثمان الحشائشي، **تاريخ جامع الزيتونة**، ط1، دار الإمام المازري للنشر والتوزيع، تونس، 2021، ص ص38، 39.

5بن الخوجة، **مرجع سابق**، ص 284.

6أول مدرسة أسست في بغداد في عهد الدولة العباسية (4ه/11م) على يد الوزير السلجوقي (نظام (نظام الملك) ألب أرسلان وسماها المدرسة النظامية، وجاءت بعدها أكثر من ثلاثين مدرسة شيدت في بغداد أشهرها المدرسة المستنصرية(1232م) وفي سوريا شيدت اول مدرسة على يد الخليفة

كانت تقام حلقات الدروس المختلفة، وأما المدارس التي ظهرت فيما بعد فهي من طابقين تتضمن صحن مفتوح تتوزع حوله غرف الطلبة، ومن مميزاتها أن لها مدخل واحد وواجهات بسيطة في التصميم وأكثر زخارفها زخارف هندسية[1].

وفي تونس وجدت العديد من المدارس خلال العهد العثماني، وقد عرفت بمستواها العلمي وبرقيها ومواكبة برامجها لمتطلبات العصر، كما حافظت بالمقابل على التقاليد التي عرفها التعليم زمن الحفصيين، مثلما حافظت على علاقاتها بالشرق الإسلامي، وفي مقدمة هذه المؤسسات نذكر الجامع الأعظم (الزيتونة) الذي كان منارة علم ومقصد الطلاب مشرقا ومغربا، إلى جانب المدارس التي أسسها ولاة الدولة وهي الحسينية الكبرى والصغرى والباشية والمرادية والمستنصرية وحوانيت عاشور والشماعين والبكرية[2]، ومدرسة سيدي الكتاني المجاورة للمسجد والتي كان يقصدها حوالي40 تلميذ، أنشأها صالح باي (1189ه/ 1775م) وضمت ضريحه وقبور عائلته[3].

مثلما عرفت البلاد التونسية خلال فترة الإصلاحات المدرسة الصادقية التي تأسست في عهد الوزير خير الدين، وكان هدفها تدريس العلوم العربية وبعض اللغات الأوروبية وما يتبعها من علوم عصرية، وكان خير الدين قد أمر بأن يجعل لأبناء الضواحي والبادية نصيب من المقاعد

نور الدين زنكي وسماها المدرسة النورية في دمشق(1172م)، قبل أن تظهر المدارس في المغرب العربي في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد(السادس للهجرة) وذكر التيجاني في رحلته وبعض من الرحالة الذين زاروا طرابلس أنه شاهد مدرسة بديعة قام ببنائها الفقيه الطرابلسي عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا بين سنتي555و558ه. أنظر: المالكي، مرجع سابق، ص187. وميسانا، مرجع سابق، ص235، وشوقي ضيف، **عصر الدول والإمارات ليبيا_ تونس_ صقلية**، دار المعارف، القاهرة، 1992، ص64.

1المالكي، المرجع نفسه، ص187.

2سعيدوني، مرجع سابق، ص 143.

3 Louis piesse, **Algérie et Tunisie**, libraire hachette, Paris,1898, pp 322, 323.

ويُتكفل بكسوتهم ومؤونتهم وإقامتهم من صندوق المدرسة، وأن يكون التعليم مجاني للجميع.

رابعا) الفنادق:

ظهرت الخانات في المشرق في الماضي على طول طرق القوافل وكانت تدعى بسرايا القوافل، وهي بمثابة نقاط لاستراحة التجار ومأوى لعابري السبيل، وكانت تتوزع على مسافة مسير يوم وليلة(ما بين أربعين وخمسين كيلومتر) وكانت توفر الراحة للتجار والأمان لسلعهم وتجارتهم، أما في شمال إفريقيا فإن الفنادق كانت تقدم نفس الخدمات غير أنها كانت تقام في المناطق الآهلة بالسكان وكان يتم انشاؤها بتوجيهات من الأمراء والوزراء[1].

وقد اشتهرت الفنادق بتونس بنمط معماري يتميز وجود مخازن وغرف من طابقين تتوزع حول ساحة مفتوحة، وهو نفس النمط المعماري تقريبا في الولايات العثمانية المغاربية[2]، كانت تونس قد عرفت ظهور عدد من الفنادق أشهرها فندق الحدادين وفندق آخر شرقه لكنه أقل اتساعا منه، مساحته مستطيلة الشكل وله ممر يصله بفندق الحدادين ولكن ليس له منفذ على الطريق العام، وأما أكثر المناطق التي تتوفر على الفنادق فنجدها في الباب الجبلي بسبب نشاطها الاقتصادي حتى اصبحت منطقة جلب للتجار، لهذا وجدت عدة فنادق في نهج الباي الذي صار يعرف بحومة الفنادق، والتي تميزت بمداخلها الضيقة التي تقود إلى ساحة تحيط بها مجموعة من المحلات التي يستغلها الحرفيون، ومن الأمور التي تفسر كثرة الفنادق قرب الباب الجبلي هي نوعية التجارة، إضافة إلى حاجة

1ميسانا، مرجع سابق، ص ص117، 118.
2أنظر الملحق رقم 03، ص352.

التجار إلى تخزين بضائعهم، وبالتالي كان من الضروري توفر فنادق تأوي التجار الأجانب وتحفظ متاعهم[1].

وبالتالي فإن بناء الفنادق كان من أجل التجار الأجانب الذين كانوا يمارسون التجارة في الأسواق المحلية، كما كان يسكنها الانكشارية أيضا الذين لا مكان لهم في الثكنات، وأهمها فندق ناسيون الذي تم بناؤه من أجل التجار الفرنسيين سنة 1660م وفق الطراز الشائع في تونس زمن المراديين، وقد قاربت المساحة التي شغلها هذا الفندق المائة متر، وأما من الداخل فكان يتألف من دهليز معقود يفضي إلى ساحة مربعة مطوقة بأروقة محمولة على ستة عشر عمودا، ومن خلفها نجد غرف مسقوفة، وفي الطابق العلوي تطل الغرف المخصصة لنزول التجار، مثلما تم بناء فندق العطارين على نفس نمط بناء فندق ناسيون ولكن حجمه أصغر حيث جاء مربع الشكل طول أسواره خمسة وعشرون متر، وموقعه في قلب منطقة الأسواق.[2]

وإن كنت هذه النماذج المعمارية العثمانية إنما جئنا بها على سبيل الوصف والدراسة وليس على سبيل الحصر، فالتراث المعماري العثماني بتونس ترك آثار كبيرة وفي مختلف المناطق في أريانة وسيدي بوسعيد ومنوبة وحمام ليف وغيرها[3].

1فوزي محفوظ، **أسواق صفاقس من خلال وثيقة مؤرخة من سنة 1652**، مجلة السبيل، ع01، 2016، ص ص13، 14.

2ريمون، مرجع سابق، ص57.

3للمزيد عن هذه الآثار أنظر: REVEAULT. Op cit. pp 55-432.

II- التراث العمراني العثماني بطرابلس الغرب:

أولا) النسيج الحضري:

شهدت طرابلس[1] تطورا معماريا وفنيا خلال العهد العثماني مثلما لم تشهده من قبل فقد اهتم الولاة العثمانيون بتحصين المدينة من خلال ترميم أسوارها وبناء الحصون والأبراج، كما حرصوا على تشييد المنشآت المعمارية خاصة منها الدينية التي امتلأت بها المدينة.[2] حتى صارت تبدو للقادمين من البحر في شكل أخّاذ[3] يحيط بها السور القديم الذي كان يحيط بالمدينة وقلعة الباشا والمساجد الرائعة والعدد الكبير من المآذن التي تعلوها قباب مذهبة وأهلة والنخيل الكث والحزام الأخضر الفاصل بين البحر وكثبان الرمل والصحراء، كلها شكلت منظراً جميلا للمدينة لتي كانت تعج بالتجار والحرفيين الذين يزاولون أنشطتهم في شوارعها على مرأى من المارة.[4] وتبدو الأعلام أعلى القلعة بعضها فوق مقر الباشا وبعضها فوق دور القناصل بألوانها المختلفة، وكأنها في غمرة الاحتفال وسط جو منعش وشمس المتوسط الساطعة، مما يوحي بانها تستحق أكبر مما هي عليه[5].

---

1 كانت ولاية طرابلس الغرب تتكون من أربعة ألوية أو متصرفيات هي: طرابلس، والخمس، والجبل ومركزها يفرن، وفزان ومركزها مرزق، أما بنغازي فكانت تتأرجح بين تبعيتها لولاية طرابلس وبين اعتبارها كمتصرفية مستقلة تتبع الأستانة مباشرة وفق القرارات التي كان يصدرها سلاطين الدولة واعتبارهم لها متصرفية تابعة مباشرة للأستانة كان آخرها عام1879م، يحكمها متصرف بنفس اختصاصات والي طرابلس، له تبعية للقيادة العسكرية في طرابلس، كما كان لسلطات طرابلس سلطة التحكم في الشؤون البريدية والجمركية القضائية. **أنظر:** محمد الطاهر عريبي، **وثائق السراي الحمراء بمدينة طرابلس**، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1977، ص37.

2 صلاح أحمد البهنسي، **طرابلس الغرب دراسات في التراث المعماري الفني**، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2004، ص19.

3 **الإخوان بيتشي والساحل الليبي**، تر الهادي مصطفى أبو لقمة، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 1996، ص19.

4 مابل لومس تود، **أسرار طرابلس**، ط2، دار المحدودة، لندن، 1985، ص ص32-45.

5 الأخوان بيتشي، مرجع سابق، ص19.

هي أصغر بكثير من مدن الجزائر وتونس، غير أن شوارعها كانت أوسع[1] وقد عرفت الدمار عدة مرات حيث دكت طرابلس لعدة أيام من طرف القوات البحرية العثمانية بالتعاون مع القبائل المحلية في سبيل تخليصها من الإسبان سنة 1551م، والذي أدى إلى انهيار التحصينات والأبنية في المدينة، مثلما تعرضت عدة مرات للحصار ولضربات المدفعية الأوروبية التي كانت تقضي في كل مرة على جزء كبير من الأبنية في المدينة[2]، رغم ذلك فقد اهتم العثمانيون بترميم المدينة وتحصينها منذ عهد درغوث باشا الذي بنى بها قصر للإقامة فيه، وقد وصفها العديد من الرحالة بأنها مدينة ساحرة، ناصعة البياض تحيط بها بساتين النخيل، يتقدمها مقر الولاة العثمانيين المبني على حافة البحر والمعروف بالسراي الحمراء[3].

وكانت المدينة قد شهدت نهضة عمرانية نتيجة للاستقرار السياسي الذي عرفته طرابلس الغرب مع دخول العثمانيين من خلال تشييد المنازل والمساجد والمدارس المتخصصة كمدرسة عثمان باشا الساقزلي، كما أنشأت العديد من القلاع العسكرية لحماية المدينة، واستمر دور المسجد والسوق في كونهما مركز المدينة لذلك نجد أن العديد من الأسواق كانت مجاورة للمساجد[4]، ومع بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر ظهرت في طرابلس المساكن ذات الطابقين التي تفتح غرفها على وسط البيت "الحوش" بينما تفتح النوافذ ذات الشبابيك الحديدية على الشارع، وقد اكتست هذه المنازل أهمية بسبب زخرفتها التي تمثلت في الأعمدة المرمرية الحاملة لتيجان عصرية وبسبب أرضيتها المبلطة وجدرانها

1توللي، **عشرة أعوام في طرابلس 1783-1793م**، تر عبد الجليل الطاهر، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بغازي،1967، ص ص69، 71.

2علي مسعود البلوشي، **تاريخ معمار المسجد في ليبيا في العهدين العثماني والقرمانلي 1551-1911م**، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 2007، ص108.

3كوينسي سميث ولويد بريستون، **مدينة طرابلس بمدخليها الغربي والشرقي في رسائل إلى الأهل**، تر الهادي أبو لقمة، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، د.س.ن، ص 06.

4بن ميلاد، مرجع سابق، ص ص446.

المكسية بالزليج المخضب برسوم ملونة تمثل في غالبها زخارف نباتية (أزهار)[1]، وكانت الأسرة القرمانلية(1711_1835م) قد اهتمت كثيرا بالإنشاءات المختلفة إلى جانب قيامها بحركة اصلاح وترميم سور المدينة وحصونها وقلاعها، ومع بداية الحكم العثماني الثاني(1835_1911م) توسعت المدينة خارج السور الذي لم يعد يتسع للزيادات السكانية وساعده في ذلك قرار إلغاء إقفال أبواب المدينة عام 1881م[2].

حتى صارت مدينة طرابلس مدينة عصرية بمعنى الكلمة فهي عامرة بالمساكن الفردية الفاخرة(الفيلات) الحديثة، والعمائر الكبيرة، وتزينها الحدائق الجميلة، على عكس المدينة القديمة المشهورة بأزقتها الضيقة، لدرجة أن بعض أحيائها تفتقر للنور والهواء، وقد بنيت على نفس الطابع الهندسي للمدن المشرقية القديمة، أما الأحياء الجديدة في المدينة فهي أحسن وأكثر تنسيق في هندسة بنائها وشوارعها أوسع ومبانيها أجمل، بعضها مشيدة بالحجر والخرسانة، وبعضها مبنية بالطين ومطلية بالأبيض من الخارج[3].

تتألف المساكن والبيوت في طرابلس القديمة(العربية) من ثلاثة إلى خمسة غرف، وساحة غير مغطاة، وبعض الملحقات الأخرى[4]، وهي لا تتجاوز الدور الأول، تميزها السقيفة التي تقابل داخلها[5]وهي من مميزات المنازل الطرابلسية وهي غرفة خاصة معزولة عن غرف البيت في الطابق العلوي، يستقبل فيها الرجال ضيوفهم، وتسمى أيضا "المربوعة" إذا كانت

1ميسانا، مرجع سابق، ص130.
2بن ميلاد، مرجع سابق، ص ص446، 448.
3 راسم رشدي، **طرابلس الغرب في الماضي والحاضر**، ط1، دار النيل للطباعة، القاهرة، 1953، ص198.
4 رشدي، مرجع سابق، ص198.
5تو للي، مرجع سابق، ص97.

وجدت في الطابق الارضي[1]، تتميز أيضا بوجود مقاعد من الحجر المرصوفة على جوانبها، وسواء كانت المنازل صغيرة أو كبيرة في المدينة أو في القرية فهي مبنية على نفس الطراز[2]، أما الحوش الذي يقع عموما خلف البيت فإن وسطه يفرش في المناسبات بالسجاد الأحمر العثماني والحصير، وعندما تستقبل السيدات ضيوفها في مناسبات الأفراح، ويحيط بالمنازل أسوار تعلو بما يكفي تحول دون سقوط أي شيء من الشارع[3].

ومن الناحية التنظيمية لتخطيط المدينة فإننا نلاحظ أن المساجد ظلت تشكل بصورة عامة مراكز للنشاطات الإدارية على اختلاف أنواعها، حيث ضمت في هيكلها موضعا للتقاضي وأجنحة لمداواة المرضى وغيرها، فلطالما كان للمسجد ملحقات تختص بالمحكمة الشرعية والمدرسة مثلما كان عليه الحال في جامع أحمد باشا القرمانلي بطرابلس، والحمام والمستشفى في جامع درغوث باشا[4].

كان اهتمام العثمانيين بالجوانب العمرانية واضحا منذ توليهم السلطة، فقد لقي هذا الجانب الرعاية من الحكام العثمانيين وقد ساعد على إنجاز هذه العمائر حالة الاستقرار الذي تمتعت بها طرابلس خلال العهد العثماني فقد بلغ الأسطول من القوة والمهابة ما جعله الدول الأوروبية تسعى لعقد المعاهدات حتى تضمن لسفنها وتجارتها الأمان، والتي كانت تعود على البلاد بإيرادات مالية معتبرة، مثلما ساهم النشاط البحري في غنى الخزينة بالغنائم التي كانت تأتي من خلال النشاط البحري وكان من ضمن الغنائم أعداد كبيرة من الأسرى الذين تم استغلالهم في محاجر قرقاش والهنشير بطرابلس، ومن بينهم صناع ومعماريين كانت لهم

1 رشدي، مرجع سابق، ص198.
2أنظر الملحق رقم04، ص353.
3توللي، مرجع سابق، ص ص98، 99.
4ميسانا، مرجع سابق، ص ص145، 146.

مساهمة في إنشاء وتشييد العمائر، ولم تقتصر موارد طرابلس على الغنائم والأسرى فقط بل حتى الضرائب التي كانت تحصلها الدولة ساهمت هي الأخرى في زيادة موارد الدولة والتي أستعمل جزء كبير منها في أعمال البناء والتشييد[1]

كما عرفت بنغازي هي الأخرى تحولا في المظاهر العمرانية فقد ظهرت معالم عمرانية جديدة، وكانت أهمها ظهور ضاحية البركة التي تم ربطها بالمدينة والتي كانت تضم حديقة خاصة بالحاكم العثماني مثلما شيد بها فيما بعد عدد من الثكنات العسكرية، اضافة إلى قصر الحاكم ومستشفى عسكري، أما بالمدينة فقد تم انشاء عدة مساجد و ترميم عدد آخر، حيث لم يذكر رحالة القرن التاسع عشر إلاّ القليل عن مساجد المدينة وأشهرها الجامع الكبير(العتيق) الذي أسسه عبد السميع القاضي بميدان البلدية في بداية القرن السادس عشر، وجدد معظم بناءه المتصرف طاهر باشا في نهاية القرن التاسع عشر، وكذلك شيد بالمدينة دار للبلدية من ثلاث طوابق، استبدلت فيما بعد خلال الوجود الإيطالي بمبنى أكبر حجما[2].

ثانيا) المساجد

اشتهرت طرابلس الغرب بكثرة مساجدها فقد أجمع كل من زار المدينة على مر العصور التي سبقت العهد العثماني على أن مساجدها لا تكاد تحصى لكثرتها، إلاّ أن هذه المساجد قد أصابها الدمار وأعيد بناؤها وتجديدها مرات عيدة نتيجة سقوط طرابلس تحت الحكم الأجنبي وكان آخرها الإسبان وفرسان مالطا، لهذا فإن أغلب المساجد تعود للعهد العثماني الذي كانت فيه طرابلس تشكل قوة مهابة في حوض المتوسط جعلت من القوى الأوروبية تتودد لها وتسعى لعقد اتفاقيات معها، ولهذا السبب زادت

1 البهنسي، مرجع سابق، ص20.

2جود تشايلد، **بنغازي تاريخ مدينة**، تر صالح جبريل، ط2، الإدارة العامة للسياحة، ليبيا، 1980، ص ص48، 55.

موارد الخزينة التي ساهمت في الاهتمام بتشييد العمائر الدينية واصلاح وترميم العمائر السابقة[1].

وقد حظيت المساجد التي شيدت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر بعناصر زخرفية بسيطة تمثلت في استعمال شكل الوردة الواضح في العقود والتي تصاحبها أحيانا مجموعة من الأزهار الصغيرة المحفورة في الأطر التي تحف مداخل الجوامع ومداخل بيت الصلاة وفي بعض الأحيان يضاف لها عنصر الهلال المتوج لقمة عقود المداخل، وأحيانا أخرى تكسى كوشات العقود ببلاطات من القاشاني، بلون واحد أو بعدة ألوان، مثلما تعكس زخارف المحاريب تصميم بيت الصلاة وزخرفته، وفي القرن السابع عشر أصبح عنصر الوريدة المنحوتة يشغل مساحات واسعة على المداخل[2].

1- جامع أحمد باشا القرمانلي:

بنى هذا الجامع الوالي أحمد باشا القرمانلي مؤسس الأسرة القرمانلية الذي تولى الحكم سنة1711م، وأسس هذا المسجد فيما بين 1737 و1738م، وهو نفس التاريخ الذي نجده مدونا في باب المئذنة وعلى الاعمدة الخارجية المواجه لسوق المشير، ويعتبر هذا الجامع من أكبر الجوامع الموجودة بطرابلس والتي عاصرت الحكم القرمانلي وأغناها زخرفة، يقع مقابل السراي الحمراء، يطل في الشمال الغربي على سوق المشير بواجهة طولها ثلاثة وخمسون متر(53م) ويطل على سوق الرباع من الجهة الشمالية بواجهة طولها تسع وأربعون متر(49م)، ويحده من الجنوب الغربي سوق النساء ومن الجنوب الشرقي سوق العطارة، وتبلغ مساحة الجامع مع التربة والمدرسة حوالي 2552متر[3].

1 البهنسي، مرجع سابق، ص39.
2البلوشي، مرجع سابق، ص328.
3شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص99.

زينت مداخل المسجد ببلاطات من القاشاني الملون، وبزخارف منحوتة نحتا خفيفا على بلاطات رخامية وحجرية، مثلما نجدها أيضا بمداخل بيت الصلاة وكذا المدخل إلى ساحة المراحيض[1]، أما بيت الصلاة التي تتوسط الجامع فتبلغ مساحتها أربع مائة متر مربع، مدخلها الرئيسي متقن البناء على شكل حدوة فرس مدبب قليلا، وأما الباب فهو من الخشب، مزين بزخارف نباتية[2]، كما زُين بأطر من الرخام والحجر في مداخله ونوافذه، مع وجود لوحات خزفية ملونة بين المداخل والنوافذ وعلى جدران بيت الصلاة من الداخل والخارج، أما تصميم المحراب فهو فريد من نوعه من حيث الزخرفة والشكل[3]، والسبب في ذلك يعود إلى الزمن الذي شيد فيه هذا المسجد، حيث كان التوجه نحو بناء المساجد الكبيرة، الغنية بزخرفتها والذي يعزى للازدهار الاقتصادي الذي عرفته البلاد، مثلما يعود الفضل فيه للمعماريين التونسيين الذين وضعوا هندسته وزخرفته[4]، فهو من افخم المحاريب التي عرفتها مساجد طرابلس يكتنفه عمودان من الرخام الأبيض تعلوه قوس نصف دائري متجاوز قليلا،[5] مصمم من الرخام، ومزين ببلاطات من القاشاني ذات زخارف نباتية، ويعلو البلاطات شريط من الكتابة الكوفية التي احتوت على آيات قرآنية محفورة على الجص، ويحيط بالمحراب اطار من بلاطات القاشاني، ويشتمل المسجد أيضا على منبر مصنوع من الرخام الأبيض[6].

1البلوشي، مرجع سابق، ص 329.
2شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص107.
3أنظر الملحق رقم 11، ص360.
4البلوشي، مرجع سابق، ص ص330، 331.

5 Sofien Dhif, **L'architecture Religieuse de Tripoli à L'époque kàràmànli(1711-1835) Genèse d'une Mosquée Hétéroclie**, Al-sabil revue d'histoire d'archéologie et d'architecture maghrébines, n°5, Tunis, 2018 , pp03, 04.

6عبد الله كامل موسى عبده، **مدينة برقة وآثارها الإسلامية عبق التاريخ وطرز العمارة**، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2001، ص ص62، 63.

وتوجد في بيت الصلاة تسعة عشر عمود أسطواني الشكل مدعمة لسقف الجامع [1]، هذه الأعمدة هي من الرخام الأبيض عليها زخارف بارزة وغائرة[2]، وتزين تيجانها زخارف من نوع واحد[3]، مثلما نجد به ثلاث شرفات داخلية تقع عند جوانب بيت الصلاة تدعمها أعمدة من الخارج، إضافة إلى المحفل الذي يجلس فيه الخواجة الموضوع في جهة جدار القبلة[4]، وفي الجنوب الغربي من بيت الصلاة نجد حجرتان يتقدمهما صحن صحن صغير، الأولى سقفها قبة نصف كروية والثانية أيضا مسقفة وبها يقع ضريح مؤسس الجامع، أما المئذنة[5] فهي ثمانية الشكل بها شرفة وتنتهي بشكل هرمي مدبب مصنوع من الخشب[6].

2- جامع قورجي:

أسسه مصطفى قورجي فيما بين 1833و1834م الذي كان يشتغل في المنصب الأكبر في البحرية وصار فيما بعد صهر يوسف باشا القرمانلي وأحد ثقاته وهو التاريخ الذي تبينه اللوحة التذكارية الموجودة فوق مدخل الجامع، يشبه هذا الجامع في تصميمه جامع أحمد باشا، بحيث نصل إليه عبر شارع الزنقة الضيقة وأيضا عبر شارع الأكواش، وهو يتكون من بيت الصلاة وضريح والمئذنة والمدرسة الملاصقة للجامع[7]. وأما مدخله الرئيسي فهو مزخرف بزخارف نباتية منحوتة نحتا خفيفا من نفس نوع الزخارف المزينة لأحد مداخل جامع شائب العين[8].

1شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص107.
2انظر الملحق رقم 07، ص356.
3البلوشي، مرجع سابق، ص 332.
4أنظر الملحق رقم10، ص 359.
5انظر الملحق رقم12، ص 361.
6شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص107.
7نفسه، ص ص108، 109.
8 البلوشي، **مرجع سابق**، ص 329.

أما بيت الصلاة فهي مربعة الشكل (18×18م) بها أربعة أروقة تفصلها تسعة أعمدة من المرمر عليها تيجان مزخرفة بأشكال بيضاوية تستند عليها عقود نصف دائرية، وسقفه تعلوه ستة عشر(16)قبة، به بابان مقوسان في الأعلى بهما إطارات مكسوة بالمرمر الأبيض المزخرف، وأما النوافذ فهي مستطيلة الشكل تحيط بها إطارات من المرمر[1]، أما جدران بيت الصلاة فهي مكسية بألوان مختلفة من الزليج، وفي أعلى الزليج زخارف جصية بعلو متر، كما زخرفت قاعة الصلاة من الداخل وكسيت جدرانها بالزليج والنقوش الجصية المثقبة، وجاء محراب الجامع جاء بسيط في الشكل حيث يرتكز على أربعة أعمدة صغيرة مع قلة الزخرفة، وأما المنبر فهو مصنوع من المرمر تعلوه قبة بها زخارف نباتية، ومن بيت الصلاة نلج تربة الجامع عبر بابين صغيرين، وتقع المئذنة[2] شمال الجامع وهي تشبه مئذنة جامع أحمد باشا، بها شرفتان جاءت مثمنة الشكل زينت جدرانها بالزليج الملون[3].

3- جامع رشيد باشا:

يقع في درنة[4] وقد انشأه الوالي رشيد باشا الذي يعد من أبرز الشخصيات التي حكمت برقة على فترتين (1882-1885م/ 1889-1893م) [5]، يقع في شارع عثمان بمساحة تفوق أربع مائة وثمانية وثمانين متر مربع[6] وله واجهتين شمالية وغربية وتعتبر هذه الأخيرة الواجهة الرسمية للجامع إذ يبلغ ارتفاعها 4,7م وعلى جانبي المدخل أربعة

1أنظر الملحق رقم 05، ص354.
2أنظر الملحق رقم14، ص363.
3شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص ص109، 112.
4 كان هذا المسجد في أصله يتكون من حجرة رئيسية وصحن صغير ويعرف باسم "جامع بوقلاز" بوقلاز" والذي تم هدمه وإعادة إنشاءه في عهد الوالي رشيد باشا بأمر منه، **أنظر:** مسعود رمضان شلغوف وآخرون، **موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا**، ج1، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1980، ص20.
5 فتح الله محمد أبوعزة، **جامع رشيد باشا بمدينة درنة دراسة في العمارة الإسلامية**، ط1، دار الكتب الكتب الوطنية، بنغازي، 2008، ص13.
6شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص281.

أعمدة أسطوانية اثنان منها ذات قاعدة مربعة يبلغ ارتفاعها 3,20م، كما نجد أربع نوافذ على جانبي المدخل، وتعلو مداخل الجامع اعتاب مستقيمة مبنية بالحجارة الجيرية المنحوتة، أما الواجهة فهي تفتقر للزخارف والكتابات التذكارية المميزة للفن المعماري العثماني، ولعل السبب يعود لأعمال الصيانة التي تعرض لها المسجد بمرور الزمن والتي ضيعت بعض من معالمه الأصلية وأما مداخل بيت الصلاة فهي مفتوحة بشكل مباشر على الأروقة الخلفية في الجهة المقابلة للمحراب[1].

وأما الصحن الذي يحظى بأهمية كبيرة باعتباره جزء لا يتجزأ من المسجد، والذي يتحول إلى مكان للصلاة في حال ضاقت قاعة الصلاة الرئيسية ولواحقها بالمصلين، وهو يحمل أهمية معمارية في كونه مصدر الضوء والهواء لبيت الصلاة والأروقة المرتبطة بها، كما يقلل من الضوضاء التي تصدر من الشوارع المحيطة بالمسجد، إضافة إلى أنه يحفظ خصوصية المسجد من خلال النوافذ المطلة به عوض أن تطل على الشارع، وهو يشكل أيضا مكان مناسب لتحفيظ القرآن للناشئة ولإلقاء الدروس[2]، رغم ان هذا الجامع يشبه إلى حد كبير الجوامع المشيدة في إسطنبول إلاّ أن صحنه يختلف عن الصحون الملحقة بالجوامع العثمانية التقليدية التي نجدها في العادة يتقدمها صحن يحيط به اروقة معقودة ومسقوفة بقباب أو أقبية متقاطعة تحيط به من ثلاث جهات أو أربعة، إلاّ أن الصحن في هذا المسجد جاء صغير الحجم ومتواضع وغير منتظم الأبعاد[3]، وكان هذا المسجد محدد بقطعة أرض فرضت عليه هذا التخطيط، فهو يطل على شارع حريرا (شارع ابن سينا حاليا) وتطل واجهته الغربية على زقاق المغار.[4]

1أبوعزة ، مرجع سابق ص ص31، 40.

2نفسه، ص ص40، 41.

3 مصطفى فرج علي البركي، **جامعا رشيد باشا والعتيق بمدينة بنغازي1303هـ/1885م _ 1312هـ/1894م "دراسة آثارية معمارية**، دراسات في آثار الوطن العربي، ع16، د س ن، ص662.

4أبوعزة ، مرجع سابق ص 42.

وقد استعمل في تشييد جامع رشيد باشا أعمدة دائرية من الحجر الجيري مدمجة مباشرة في جدران الواجهة من دون قاعدة، كما استخدم عمودين أسطوانيين من الحجر الجيري في بناء محرابه لكل منهما قاعدة مربعة. كما نجد في جامع رشيد باشا أربع دعائم مربعة تحمل العقود التي أقيمت فوقها القبة المركزية ومن العقود المستعملة في معمار مسجد رشيد باشا نجد العقد نصف الدائري وهو أكثر أنواع العقود استعمالا إلى جانب العقد المدبب الذي بني به محراب المسجد، وجاء بسيط الشكل وصغير الحجم[1]

وأما قاعة الصلاة فهي مستطيلة الشكل (17.95م×13.20م) في وسطها أربعة أكتاف تحمل اثني عشر عقدا، وأما السقف به أربعة أقبية تحيط بالقبة المركزية النصف كروية الشكل، وهو نفس الطراز المعماري الذي نجده في جامع رشيد باشا ببنغازي[2] الذي تعلو قاعة الصلاة فيه ثمانية قباب، أربعة منها نصف كروية، وأربعة بيضاوية تتوزع على جوانب القبة المركزية[3]، وتقع المئذنة في غرب الرواق الخارجي للمسجد بطول عشرون متر يصعد إليها بمائة وخمسون درجة، وهي طراز هندسي عثماني خالص حيث تضيق في حجمها كلما زادت ارتفاعا، ولها أيضا خصوصية القاعدة المثمنة الشكل، وفي الجدار الشمالي من الخارج باب يؤدي إلى ضريح رشيد باشا وهو قبر مستطيل الشكل عليه شاهدان رخاميان، مدون على أحدهما تاريخ وفاته 04شعبان1310هـ[4].

هذه الهندسة المعمارية يرجع أصلها إلى مسجد "ديكرون" الذي وجد بمدينة الخزر في القرن الحادي عشر الميلادي (حوالي1212م) قرب

1أبوعزة ، مرجع سابق، ص ص43، 54.

2اختار الولاة العثمانيون مدينة بنغازي كعاصمة إدارية لإقليم برقة (شرق ليبيا) كونها أقرب المدن إلى طرابلس منذ 1638م أنظر: جود تشايلد، **بنغازي تاريخ مدينة**، تر صالح جبريل، ط2، الإدارة العامة للسياحة، ليبيا، 1980، ص 06.

3أبو عزة، مرجع سابق، ص79.

4شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص285.

بخارى والذي بناه القره خانيين، والذي يتشكل سقفه من قبة مركزية قائمة على أربع دعائم قصيرة، تحيط بها أربع قباب صغيرة، ثم عرف هذا الطراز المعماري في الدولة العثمانية، خصوصا عند المهندس سنان باشا (ت1588م) ومن أبرز الأمثلة جامع شيخ زاده(1544م) وجامع السلمانية(1557/1550م) بإسطنبول، اضافة إلى جامع السلطان أحمد بإسطنبول، الذي يعتمد على قبة مركزية تقوم على أربعة أكتاف ضخمة، تحيط بها أربعة أنصاف قباب من الجهات الأربعة[1] ومن أبرز الجوامع التي عرفت هذا النوع من الهندسة المعمارية في البلاد العربية، نذكر جامع سليمان باشا المعروف بجامع سارية الجبل 1528م، وجامع الملكة صفية 1602م بالقاهرة وجامع الحيدر خانة1827م بالعراق[2].

4- جامع درغوث باشا:

يقع في منطقة باب البحر يحده شمالا شارع باب البحر وغربا شارع زنقة درغوث وجنوبا شارع زنقة الحمام ومن الشرق الحمام الملاصق للجامع، أنشأه درغوث باشا سنة 1553م، على مساحة مستطيلة الشكل، تتميز بعدم انتظام جدرانه الخارجية من الجهة الشمالية الغربية، أما الواجهات الأخرى فلا نجد بها أي زخارف عدا الواجهة الشمالية الغربية التي تتميز بسورها المرتفع الذي تميزه دوائر اعلاه مزينة بإطار حجري، وأما مداخل الجامع فنجد مدخل رئيسي في الواجهة الشمالية بجانب المئذنة وأمّا المدخل الآخر فيؤدي إلى مكان الأضرحة والمدافن الملحقة بالجامع[3].أما قاعة الصلاة فهي تتوسط المبنى، كما نجد أربع حجرات شمال شرق قاعة الصلاة، وحجرتان خلف جدار القبلة مربعتا الشكل تغطي

1أبو عزة، مرجع سابق، ص80.
2نفسه، ص ص81,82.
3 الصديق، مرجع سابق، ص115.

كل منهما قبة، وفي إحداها قبر الوالي درغوث باشا، مثلما نجد بساحة المسجد قبور لبعض الولاة أحدها للوالي محمد الساقزلي[1].

وتتكون قاعة الصلاة بالمسجد من خمسة أروقة موازية لجدار القبلة، بها اثنا عشر عمودا، تغطيها عشرون قبة[2]، أما القسمان الجانبيان من قاعة الصلاة فيتكون كل واحد منهما من ثلاثة أروقة تغطيها اثني عشر قبة تحملها أعمدة رخامية، أما المحراب فنجد به عقد نصف دائري يعلو عمودان من الرخام، وكسيت أرضيته ببلاطات من القاشاني المزخرف، وأما محرابه فهو مزين بالرخام وينتهي بقبة صغيرة مرفوعة على أربعة عقود[3]. وللجامع مئذنة تعد من أقدم المآذن العثمانية الباقية بمدينة طرابلس، إذ ينسب بناؤها إلى اسكندر باشا(1013هـ/ 1640م) حيث تتميز بقاعدة مربعة يرتكز عليها بدن المئذنة الاسطواني، وهي من طابقين تفصل بينهما شرفة مستديرة، وتنتهي بقمة مخروطية مدببة، وهي خالية من أي زخارف.

5- جامع شائب العين:

يعتبر هذا المسجد النموذج الأول الذي شيد على غراره كل من مسجد أحمد القرمانلي، ومسجد مصطفى قرجي[4]، وقد بناه الوالي محمد باشا الملقب بشائب العين عندما تولى ولاية طرابلس 1698م، فيما بين 1698و1699م، وكلف به مصطفى قارابطاق التونسي، وتم تشييده على مساحة مربعة الشكل(19×19م) قبل أن يضاف للجامع مبنيان آخرين أحدها يقع شرق الجامع والثاني في جانبه الغربي وكلاهما يتكون من طابقين، وللجامع عدة مداخل، مدخل في الجدار الجنوبي يؤدي إلى

1 شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص61.

2وردت في مصدر آخر أن جامع درغوث باشا به إثنان وثلاثون قبيبة عدا قبيبات ملحقات الجامع **انظر**: ميسانا، مرجع سابق، ص161.

3شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص62.

4البلوشي، مرجع سابق، ص185.

الميضأة ومدخل ثان في نفس الجدار يؤدي مباشرة إلى قاعة الصلاة، كما نجد مدخل ثالث للجامع غربا عبر رواق ضيق يؤدي إلى سوق الحرير، ومدخل رابع في شمال شرق الجامع يؤدي إلى رواق مكشوف بجانب قاعة الصلاة ينتهي عند حجرات الاستحمام ودورات المياه، وفي هذا الرواق يوجد بابان يفتحان على فناءين بهما بعض القبور العثمانية[1].

وقد زينت هذه المداخل بزخارف منحوتة، أستعمل الرخام في اثنين منها والباقي بالحجر الرملي، وجاءت التصاميم الزخرفية لهذه المداخل متشابهة، تزينها وريدات وعناصر نباتية تتراوح بين الثلاثة وريدات وإحدى عشر وريدة منحوتة في كل مدخل[2]، إضافة إلى هذا نجد التصميم الزخرفي للمدخل المقابل للمحراب الذي يشبه كثيرا تصميم وزخرفة المحراب، وأما تيجان أعمدة بيت الصلاة التسعة فقد زخرفت بأوراق الأكانتس (ورق شوكة اليهود أو شوك الإبل) منحوتة نحتا خفيفا، كما زخرفت أعمدة المنبر الستة بأربع ورقات منحوتة تحت التاج مباشرة[3].

أما قاعة الصلاة فتقع في منتصف الجامع، حيث نجد في جدار القبلة باب شمال المحراب يؤدي إلى حجرة مغطاة بقبة فيها ضريح مؤسس الجامع وقبور أفراد أسرته، كما نجد باب ثانية جنوب المحراب تفتح على غرفة ثانية، وبقاعة الصلاة عدة نوافذ اثنان في جدارها الغربي ومثلها في الجدار الشمالي، وأربع نوافذ في الجدار الجنوبي ومثلها في الجدار الشرقي، ويعلو جدار القبلة أربع نوافذ صغيرة نصف دائرية، وتتكون قاعة الصلاة من أربعة أروقة متعامدة على جدار القبلة، أما أعمدة الجامع فهي ثلاثة صفوف في كل صف ثلاثة أعمدة[4] كبيرة من الرخام تستند عليها أقواس، عليها اثني عشر قبة صغيرة، وأما المحراب فيقع في وسط الجدار

1 شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص64.
2 أنظر الملحق رقم 08، ص357.
3 البلوشي، مرجع سابق، ص ص329، 327.
4 أنظر الملحق رقم09، ص358.

الشرقي وهو مزين ببعض الآيات القرآنية، وفي يساره منبر الجامع ذي الثلاث درجات تعلوه قبة صغيرة محمولة على أربعة أعمدة صغيرة، وأما السدة فنجدها أعلى الرواقين الشمالي والجنوبي لقاعة الصلاة، سقفها من الخشب المدعم بأعمدة من الحديد، وهو يشبه في ذلك الطابق العلوي الموجود بجامعي أحمد باشا وجامع قورجي[1].

6- جامع محمود:

يقع في وسط مدينة طرابلس القديمة تطل واجهته الشمالية الغربية على زنقة السراعي والواجهة الجنوبية على شارع محمد زريق، تم إنشاؤه من طرف محمود خزندار(1608_1681م) الذي كان يشتغل أمينا للخزانة في عهد الوالي محمد الحداد الأناضولي عام1678م، كما أسس بجواره مصلى العيد، وأوقف عليه أوقافا، وكان معروفا بأعمال البر والخير من خلال أمواله التي أوقفها في هذا السبيل، ويتم الدخول إلى الجامع عبر بابين يقعان في جداره الشمالي، أحدهما بجانب المئذنة والثاني يؤدي إلى الطابق العلوي الذي يوجد به كتاب لتعليم الصبية وتحفيظهم القرآن الكريم[2].

ونجد أعلى الباب الرئيسي للجامع لوحة كبيرة من الرخام كتب عليها أبيات من الشعر واسم باني المسجد، وإلى جانب قاعة الصلاة المربعة الشكل نجد ضريح الشيخ العالم محمد الحطاب، وتتكون قاع الصلاة من رواقين متعامدين على جدار القبلة مغطاة بأربع قباب دائرية الشكل ترتكز على أقواس نصف دائرية ملاصقة لجدران الجامع وتلتقي عند تاج العمود الأوسط، وفي أعلى جدار القبلة نجد ثلاث نوافذ نصف دائرية، كما نجد على جدار القبلة والجدارين الشمالي والجنوبي بلاطات مستطيلة من الخزف الأبيض مكتوب عليها باللون الأزرق "بركة محمد"، أما المحراب

1شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص68.
2نفسه، ص74.

فيزينه عمودان صغيران من الرخام في جانبيه وزخارف نباتية في باطنه، وأما المنبر فهو مصنوع من الخشب ولا توجد عليه أي زخارف، ويفتح باب قاعة الصلاة في الجدار الغربي على صحن مربع صغير (طول ضلعه 05,40م) وفي جهته الجنوبية الغربية نجد ثلاث أروقة موازية لحائط القبلة مغطاة بأقبية طولية، أما الجهة الشمالية الغربية فنجد بها رواق واحد فقط[1].

وتقع مئذنة الجامع في الركن الشمالي الغربي وهي تتكون من قاعدة مربعة الشكل ترتكز عليها أربعة جدران مائلة إلى الداخل بحيث تضيق مساحة المربع كلما زاد الارتفاع، وهي مبنية وفق الطراز العثماني فهي تحمل شرفة أسطوانية واحدة وتنتهي بطاقية مدببة من الخشب، وبجانب المئذنة ساحة صغيرة جُعلت ميضأة ودورات المياه وحجرات لحفظ الحاجيات الخاصة بالجامع[2]، ويمثل هذا الجامع مرحلة مهمة في تطور المساجد بطرابلس لكونه أقدم مسجد مؤرخ في فئة المساجد الضخمة، ومن ناحية التصميم هو يشبه إلى حد كبير جامع شائب العين(1699م) وجامع أحمد القرمانلي(1738م) وجامع مصطفى قرجي(1834م)[3].

7- جامع السراي الحمراء:

يقع هذا المسجد داخل قلعة طرابلس(السراي الحمراء) ندخل إليه عبر المدخل الرئيسي للقلعة، وكان هذا المسجد أحد قاعات السراي الحمراء التي حولها فرسان القديس يوحنا إلى كنيسة، وحولها العثمانيون إلى مسجد بعدما حرروا طرابلس1551م، تم ترميمه في عهد محمد باشا الساقزلي فيما بين1631 و1649م وهو ما أكده النص الذي كتب على اللوحة والذي يفيد بأنه: "وقع الترميم في زمن ميرميران محمد باشا من مدينة ساقز من شهور سنة أربع وأربعين وألف". ويتكون مبنى المسجد

1شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص ص74، 75.
2نفسه، ص ص75، 80
3البلوشي، مرجع سابق، ص184.

من قاعة الصلاة ودورة مياه بنيت حديثا خارج القاعة من الجانب الجنوبي، ونلج إلى قاعة الصلاة عبر مدخل في الجدار الجنوبي، وهو مدخل واسع يعلوه قوس يحيط به إطار مزخرف بالقاشاني الملون، يبلغ طول قاعة الصلاة خمسة عشر مترا(15م) وعرضها اثني عشر متر(12م)، مكونة من ستة أروقة موازية لجدار القبلة، وأعمدة بيت الصلاة تحمل أقواسا متصلة بدعامات جدارية لتثبيت الجدران وتقويتها إضافة إلى عمودان من الرخام بتيجانهما[1].

يغطي سقف المسجد تسع قباب نصف دائرية متساوية تقريبا في قاعدة كل قبة أربع تجاويف لتزيينها من الداخل، والقاعة بها نوافذ كثيرة من كل الجوانب، وقد زخرفت جدران قاعة الصلاة بالقاشاني الملون، وأما المحراب فهو مصنوع من الرخام المالطي ومغطى بالقاشاني الملون، والمسجد بصفة عامة خال من الزخارف الفنية عدا ما نجده في باطن المحراب وما نجده من كتابة زخرفية بخط الكوفي في أعلاه، وكذلك بعض الزخارف الجصية في نوافذ القباب، وأما أرضية المسجد فهي مغطاة بالآجر الأحمر[2].

8- مسجد ابن غلبون بمصراتة:

يقع هذا المسجد بمحلة قصر أحمد شرق مصراتة، يحمل هذا المسجد اسم مؤسسه وهو ما يؤكده النقش المحفور في واجهة المسجد فوق المدخل مباشرة، بأن هذا المسجد تأسس سنة1771م ويلحق به اسم الشيخ محمد بن خليل بن غلبون الذي عاصر الوالي أحمد باشا القرمانلي(1712_1745م)، ويتكون هذا المسجد من بيت الصلاة والزاوية والضريح والميضأة. ويقع المدخل الرئيسي لبيت الصلاة في الجهة الشمالية الغربية، يعلوه عقد نصف دائري، وبعده نجد صحن مكشوف

1شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص141.
2نفسه، ص141.

مربع الشكل(6,5×6,5م)، في جانبه الجنوبي الغربي نجد أروقة التدريس، ومن الشمال الشرقي نجد الميضأة والمئذنة، وللمسجد مدخل ثان في الجهة الجنوبية الشرقية عليه عقد نصف دائري، وأعلى هذا المدخل نجد النقش التذكاري للمسجد[1].

يتكون بيت الصلاة المربع الشكل تقريبا(9,5×8,80م) من ثلاث أروقة موازية لجدار القبلة، وسقفه به تسع قباب صغيرة تحملها أعمدة ودعائم مدمجة في الجدران، وتعلو هذه الاعمدة عقود نصف دائرية، أما المحراب فهو خال من الزخارف، ويقع منبر المسجد يمين المحراب مصنوع من الخشب به ثلاث درجات مزينة بزخارف بسيطة، وأما المئذنة فتقع في الضلع الشمالي الغربي من صحن المسجد، وهي مربعة الشكل وغير مرتفعة، أما فناء المسجد فيحيط به رواقين تزينهما أعمدة حجرية بعضها من الآثار الرومانية المنقولة إليه والتي تحمل عقود متعامدة على جدار القبلة، وقد استعمل هذين الرواقين للتدريس حيث يفتحان على بعضهما البعض، وأما زخارف المسجد فتمثلت في تيجان أعمدة المداخل الحاملة للعقود النصف دائرية، أما التيجان فنجد منها ما هو مستطيل ومنها ما هو مستدير وهي مزخرفة بزخارف لولبية غائرة مستوحاة من العمائر الرومانية القديمة، وأما النص التذكاري الموجود في جدار القبلة فقد جاء فيه: **"بسم الله الرحمان الرحيم صلى الله على سيدنا محمد قرية الشروع قبيلة القصر. أحمد تأسيس(1177هـ).....تأسيس الشيخ محمد بن خليل غلبون تأسيس. التالي تأسيس عبد الرحمان بن عبد. الله غلبون سنة 1775م"**[2].

واستعمل في بناء المسجد الأحجار الصغيرة الممزوجة بالملاط، وأما الدعائم المدمجة بالجدران من الداخل فقد بنيت أيضا من الحجر الرملي، بينما تم بناء الأعمدة الحاملة للعقود من الحجارة الصلدة كالحجارة

1شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص178.
2نفسه، ص182.

السوداء المنقولة من العمائر الرومانية القديمة، كما جعلت للمسجد من الخارج دعامات سميكة تزيد عن المتر، والتي استخدم فيه الملاط الممزوج بالملاط، إضافة إلى المصاطب العريضة التي وجدت خارج المسجد والتي تعمل على دعم الجدران والتي استعملت فيها نفس المادة المستعملة في بناء الدعامات[1].

أما الميضأة فتقع في الجهة الشمالية الشرقية من المسجد في الفناء المكشوف ولها باب مستطيل، مغطاة بقبو طولي متعامد على جدار القبلة، بها بئر ودورات المياه[2].وأما ضريح الشيخ ابن غلبون فنجده في الركن الشمالي من الضلع الشمالي الشرقي لبيت الصلاة، داخل حجرة مربعة(6,20×6,25م) تغطيها قبة دائرية منخفضة، وإلى جانب قبر ابن غلبون المستو مع الأرض نجد قبرين آخرين.

9- مسجد عبد السلام الأسمر بزليتن[3]:

يقع مسجد الشيخ عبد السلام بوسط مدينة زليطن، شرق طرابلس بحوالي 153كم، قرب قبيلتي البراهمة وأولاد غي، حيث كانت القطعة التي بنيت عليها الزاوية والمسجد مهداة من قبيلة البراهمة، ووقع توسعة الزاوية والمسجد عبر مر الزمن فقد أضيفت للمسجد العديد من الزيادات والترميمات أهمها ترميم الزاوية وضريح الشيخ سنة1314هـ/1896م مثلما تم توسيع بيت الصلاة من الجهة الجنوبية سنة1936م، ويتكون

1شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص183.

2نفسه، ص ص179، 181.

3 ولد الشيخ عبد السلام ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأول869هـ الموافق لعام1453م بمدينة زليطن، حفظ القرآن في سن السابعة، قرأ على يد عبد الرحمان الوسلاتي، والشيخ أحمد الزروق، ثم سافر لتلقي العلم على يد الشيخ عبد الواحد الدوكالي الذي مكث عنده سبع سنوات، فأخذ عنه التصوف وقرأ على يديه المختصر والرسالة ومقدمة الإمام الأشعري في علم التوحيد، وبعدها زار عديد المناطق مثل طرابلس ثم قلعة سوف الجين ثم تاورغاء ثم مصراتة وبعدها استقر في مسقط رأسه التي أسس بها مسجد وزاوية، توفي في شهر رمضان970هـ الموافق لـ1573م ودفن بزاويته بزليتن. أنظر: شقلوف وأخرون، مرجع سابق، ص ص187، 188.

مبنى زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر من بيت الصلاة وملحقاته والضريح والزاوية[1].

يتم الولوج لبيت الصلاة عبر المدخل الواقع في الجهة الشمالية الشرقية الذي جاء مستطيل الشكل يعلوه عقد نصف دائري ينتصب فوق تاجين مستطيلين، وفوقه بلاطات من القاشاني المزخرف، أما قاعة الصلاة فهي مستطيلة الشكل (18×16,5م) وتغطيها ستة عشر قبة، ثماني قباب كبيرة من جهة جدار القبلة وثمانية أخرى صغيرة، تصطف أربع قباب في كل صف تحملها عقود نصف دائرية، غير أن القباب الأربعة الاخيرة يعتقد أنها أضيفت في فترات لاحقة بسبب انخفاض أرضيتها مقارنة بباقي المسجد، وأما الزخارف على الأعمدة فنجد أن تيجان الأعمدة الحاملة للقباب الكبيرة مزخرفة بورقات كبيرة، ويحيط ببيت الصلاة طابق علوي من الخشب من جميع جهاته عدا جهة القبلة، كما ويفتح باب بيت الصلاة في الجهة الجنوبية على التوسعة التي أضيفت للمسجد والمتكونة من خمسة أروقة مغطاة بأقبية نصف برميلية تتعامد على جدار القبلة، كما أضيف خلال هذه التوسعة مدخلان آخران في الجهة الجنوبية الشرقية[2].

وأما المحراب الواقع داخل العقد الثاني في الجهة الجنوبية من جدار القبلة، فيعلوه عقد نصف دائري على شكل حدوة فرس، يرتكز على عمودان مستديران مندمجان في الجدار، يعلوه صفين من بلاطات القاشاني الأزرق، وفوقه شريط زخرفي يحتوي على مثلثات مقلوبة، أما عمودا المحراب فيحمل تيجان مزينة بزخارف تشبه أصداف السمك، أما منبر المسجد فهو مصنوع من الحجر من عشر درجات تعلوها قبة صغيرة حجرية موضوعة فوق عقود مائلة تحملها أربعة أعمدة حجرية[3].

1شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص ص184، 188.
2نفسه، ص ص188، 189.
3نفسه، ص ص189، 190.

وتقع ميضأة المسجد خارج الضلع الشمالي الشرقي، لها مدخل نصف دائري في ضلعها الجنوبي الشرقي، بها عشرة أطباق فخارية وبجوارها بئر يشغل حيز من الرواق الثاني، بها أيضا مصطبة بجانب حوض الميضأة جعلت لدعم الجدران، أما المئذنة فتقع في الزاوية الغربية من الضلع الشمالي الغربي للمسجد، يصعد إليها بسلم ملتوي، وهي ذات شكل اسطواني، تعلوها شرفة دائرية، بعدها قبة المئذنة المخروطية الشكل التي يظهر فيها التأثر الواضح بالهندسة العثمانية. وأما ضريح الشيخ فيقع في الركن الغربي بمدخل عريض بجانب المئذنة يفضي إلى فناء مكشوف، ثم رواق مغطى حديثا(سقف حديث) يؤدي إلى حجرة الضريح المربعة الشكل(8×8,25م)، تعلوها قبة بها أربع نوافذ مستطيلة.

وإلى جانب المسجد نجد الزاوية التي ندخل إليها عبر مدخل مستطيل الشكل يعلوه عقد نصف دائري يرتكز على تيجان مستطيلة، ويحيط به عقد آخر بارز، وبعده نجد حجرة مستطيلة (3×3,5م) على جانبيها مصطبتين مرتفعتين، وهي تؤدي إلى فناء مكشوف عبر مدخل بعقد نصف دائري أما الفناء فهو مربع الشكل تقريبا(8×8,5م) تحيط بجوانبه الأربعة أروقة، كل رواق به أربع عقود مقابلة للفناء المكشوف ماعدا الرواق الشمالي الشرقي به ثلاثة عقود فقط، وفي هذا الركن من الزاوية نجد غرفة لحفظ الألواح. [1].

10- المسجد العتيق ببرقة:

تم تشييد هذا الجامع من طرف عبد السميع القاضي في أوائل القرن السادس عشر ثم قام حاكم برقة طاهر باشا(1892_1903م) بإعادة تجديده، وهو يقع في ميدان البلدية حاليا بين سوق الظلام شمالا وشارع سيدي سالم جنوبا، وهو مستطيل الشكل تبلغ مساحته حوالي 340مترا مربعا يتوسطه صحن كبير تعلوه قبة كبيرة دائرية الشكل بها ثماني

1شقلوف وأخرون، مرجع سابق، ص ص190، 192.

نوافذ، وترتكز على أربعة أعمدة تحيط بالصحن وهي الوحيدة الموجودة بالمسجد، كما نجد أربعة أروقة اخرى تحيط بالصحن، أما المحراب فتعلوه زخرفة إشعاعية تشع مثل قرص الشمس وعلى واجهة المحراب يوجد زخرفة من أوراق نباتية تخرج من صرة عددها ثلاثة عشر ورقة، كما يزين المحراب عقد نصف دائري يجمله عمودان مندمجان في الجدار عليهما تاجين اسطوانيين بهما زخارف محفورة، وأسفل عقد الواجهة عقد آخر نصف دائري يتصل بجدار القبلة، وأعلى عقد الواجهة عقد مستقيم يغطي واجهة المحراب المستطيلة، أما منبر المسجد فيقع غرب المحراب مثلما نجد بقاعة الصلاة ثلاث نوافذ في جدار القبلة تعلوها عقود نصف دائرية تزينها مربعات من القاشاني[1].

اما الجدار الغربي للمسجد فنجد به مدخلان بهما نافذتان نصف دائريتان وفي أعلاها أربع نوافذ أخرى كما نجد مثلها في الجدار الشرقي والجدار الذي على يمين المحراب، ويتوسط لجدار المقابل لجدار القبلة مدخل معقود بعقد نصف دائري بجانبيه نافذتين أصغر قليلا من النوافذ الأخرى في المسجد، ومما يميز رواق القبلة عن الأروقة الأخرى هو وجود ثلاث قباب بيضوية صغيرة من بين القباب الاثني عشر التي تغطي سطح المسجد، كما أن أرضيته مرتفعة قليلا عن باقي الأروقة والصحن، وتقع الميضأة في الجهة الغربية من المسجد وتحتوي على صهريج كبير وفي جنوب الميضأة نجد خلوة، وإلى جانبها مئذنة أسطوانية ملساء طولها خمسة عشر متر وبها اثنان وسبعون درجة تحتوي على شرفة واحدة وتنتهي برأس مخروطي الشكل[2].

1شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص ص261، 263.
2نفسه، ص ص263، 266.

11- جامع يوسف المكنى:

تم إنشاء هذا الجامع بالمنشية بطرابلس، بيت الصلاة فيه مربعة الشكل طول ضلعها ستة أمتار ونصف (06,50م) سقفه مكون من قبة واحدة تقوم على الحنايا الركنية، ومما ورد في النقش المخلد لتأسيس الجامع والمكتوب باللغة العربية في ثمانية أبيات باللون الأسود على لوحة رخامية بيضاء مستطيلة الشكل (60×50سم) جاء فيه:

1- ألا قف ببابي أو[عتبر حته]واجنى تجده عن الأزهار في روضها يغني
2- ترى روضة مسكية زهرية يس تغنى بها المصلين إذ تثنى
3- شرفت بتسبيح الإله وذكره وترجيع ألحان السمع في ركنى
4- لي الفضل عن كل البيوت لأنني وجاري يوم الحشر أسكن في عدنى
5- بمنشية الغراء [السا] سعيه الخالص لوجه الله يوسف المكنى
6- بنا الله قصرا في الجنان له كما رواه حديث جا عن كامل الحسني
7- عليه سلام الله تترا صلاته مؤيدة ماحج في البيت والركنى
8- ونقش جمالي في صحيفة فضله بدا عامر شعبان 1123 فأرخ به يشأني[1].

ويشير مضمون اللوحة الذي يصف المسجد بعدة أوصاف: "روضة مسكية"، "لي الفضل على كل البيوت"، إلى تلك الروح التي كانت تدفع المحسنين إلى تشييد المساجد ، ورغم أن صاحب الجامع من صفاقس من عائلة أصيلة، إلا أن الطابع الهندسي ونوع الخط المستعمل في التأريخ للجامع تبدي ذلك التأثر العثماني الواضح خاصة في تخليد اسم مُنشئ المسجد[2].

إضافة إلى ما سبق فإننا نجد عدة مساجد أسسها العثمانيون من أمثال قره بغي الذي بنى مسجد الريفي وبن الطيب صاحب المسجد المعروف

1جمال خير الله، **التأثير العثماني على طرابلس الغرب من خلال أربعة نقوش كتابية محفوظة بمتحف السراي الحمراء**، المؤتمر الدولي السابع" الحياة اليومية في العصور القديمة، جامعة عين شمس، 2016، مج2، ص165.
2 نفسه، ص183.

باسمه وبن صابر وبن صوان ورمضان خزندار صاحب مسجد النخلي، التي تشترك في بساطة هندستها الخارجية والداخلية وحتى في قلة زخارفها، وفي موضع القباب ومكان الميضأة[1]، ومساجد أخرى كثيرة عرفتها البلاد خلال العهد العثماني التي أنشأها موظفي الولاية وأمراء البحر وموظفي الدولة[2].

أما من الجانب المعماري فإننا نجد المساجد ذات الوحدة الفراغية المسقوفة بقبة والمساجد ذات الأربع وحدات فراغية المسقوفة بأربع قباب والتي تعبر عن نفس النوع المعماري، ويتميز بانعدام الزخرفة، وفي غالبيتها هي مساجد أوقات، بها صحون رغم صغر حجمها، وأغلبها شيدت أو تم تجديدها خلال الفترة العثمانية من طرف الدايات والبايات وضباط الجيش، ومشرفي الخزانة الذين كانوا الممثلين الرسميين للإدارة العثمانية بطرابلس، إلى جانب المساجد التي شيدها زعماء الصوفية والعلماء والفقهاء[3].

أما فيما يتعلق بالمساجد الكبيرة التي كانت مساجد جامعة، فقد تميزت بكثرة الوحدات الفراغية والتي جعلتها كثيرة القباب، واشتهر هذا المعمار في العمارة العثمانية وخاصة في عمارة المساجد والجوامع، وهي السمات التي عرفها معمار المسجد خلال القرن السادس عشر إلى غاية نهاية القرن التاسع عشر، حيث تكون لدى المعماريين في طرابلس تراث ساعدهم في ابتكار نماذج هندسية جديدة. ومن هذا ما نجده في الجامع الملحق بزاوية عمورة بجنزور، وجامع عمورة محمد فلمنك بطرابلس، وجامع الميلادي وجامع سيّالة وجامع ميزران وجامع رشيد بدرنة وجامع الباشا بالخمس، وجامع سيدي المرغني بطرابلس، وهي المساجد التي تشترك في الفراغ الموحد لبيت الصلاة، وهو نفس الشيء الذي نجده في

1شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص ص119، 131.
2 البهنسي، مرجع سابق، ص ص63، 64.
3البلوشي، مرجع سابق، ص185.

المساجد التي شيدت في بنغازي أواخر القرن التاسع عشر، والتي تشبه في تخطيطها الجوامع السلطانية في اسطنبول.[1]

ثالثا) المدارس:

عرفت بطرابلس المدارس كمؤسسات تعليمية منذ العهود الأولى ومن بين المدارس التي عرفتها البلاد خلال العهد العثماني مدرسة مراد باشا في تاجوراء بجانب الجامع الذي أسسه عام1554م ومدرسة درغوث باشا وغيرها من المدارس التي سنتناولها لاحقا، وهي في الغالب مدارس دينية لا يخرج منهج الدراسة بها عن شروح القرآن وأصول الفقه والأحكام.

1- مدرسة عثمان باشا الساقزلي:

تعتبر من أهم العمائر الإسلامية في مدينة طرابلس، أسسها الباشا عثمان الساقزلي (1649_1672م) الذي كان قد اشتهر بتأسيس العديد من المنشآت الاقتصادية والعسكرية والمدنية على غرار السوق المغطاة بطرابلس (سوق الربع القديم) الواقع بجانب جامع أحمد باشا، ويعتبر هذا السوق من الأوقاف التي جعلها الباشا عثمان للمدرسة إلى جانب الحمام الكبير والفندق الكبير الذي تم انشاؤه سنة1654م[2]، وقصر الأعمدة، وأنشأ خمسة أبراج على السور البحري لطرابلس وقد جاء إنشاء هذه المدرسة ضمن سياق متصل بحركة معمارية عثمانية ميزت الفترة كما أنها لم تخرج عن الطابع المعماري المعهود، والتي أهلها بأن تكون من أهم وأحسن المدارس الطرابلسية[3].

1البلوشي، مرجع سابق، ص361-362.

2علي الشايب بن ساسي، **مدرسة عثمان باشا الساقزلي وتربته**، محلة السبيل، ع8، 2019، ص ص03، 04.

3البهنسي، مرجع سابق، ص80

وتبرز المكانة العمرانية للمدرسة من خلال موقعها المهم، حيث تشرف على أهم المحاور الرئيسية للمدينة، عند مدخل المدينة العتيقة من جهة البحر قرب باب درغوث، إلى جانب كنيسة السيدة مريم، وتشكل المدرسة مع جامع درغوث أهم المنشآت المعمارية المميزة للمحور الرئيسي المؤدي إلى المدينة، حيث يحدها من الجنوب الشرقي شارع درغوث ومن الجنوب كنيسة السيدة مريم، ومن الشمال زنقة الخميري وبعض المباني الخاصة[1].

يبلغ طول الواجهة الرئيسية 48,5م (21,5للمدرسة والباقي تخص التربتين[2]) وهي خالية من أي نوع من أنواع الزخرفة التي تشد الانتباه، باستثناء المدخل الذي جاء محاطا بإطار من الحجر الجيري الأصفر(2,63×1,42م) عليه عقد نصف دائري تعلوه لوحة رخامية بيضاء (1,07×0,68م) تحمل نصا كتب بخط النسخ يفيد بتاريخ تأسيس المدرسة جاء فيه: "**حضرت عثمان باشا يسر الله له الخيرات ما شاء؛ أسس بنيان هذه المدرسة وجعلها لطلب العلم وتلاوة القرآن؛ إلهي تجاوز عن سيئاته يا رحمان تحريرا في غرة ذي القعدة في سنة أربع وستين وألف**"، واحتوت الواجهة أيضا على خمسة نوافذ متفاوتة الأبعاد (أقصاها 1,25م طول، و0,75م عرض) عليها شبكات حديدية، وقد جاءت هندسة المدرسة في شكل مستطيل (21,39×26,10م) مكونة من سقيفة وصحن تحيط بها الأروقة من جميع جوانبها، والتي تؤدي إلى الخلوات والمسجد والميضأة، في حين تقع تربتي المدرسة في الجانب الشرقي إحداها مسقوفة والثانية مفتوحة والتي تم ادماجها فيما بعد بالأولى، وهو الطابع الذي ميز المنشآت المعمارية خلال هذه الفترة[3].

1الشايب، مرجع نفسه، ص04.

2 التربة الأولى مغطاة وهي قاعة جنائزية لعائلة عثمان باشا الساقزلي، وهي تقليد عثماني عرفوا به خلال فترات حكمهم للولايات العثمانية، وهي قاعة على شكل سقيفة (05,27×05,15م) إلى جانبها التربة الثانية الغير مسقوفة. أنظر: الشايب، مرجع سابق، ص08.

3نفسه، ص ص04، 06.

عند مدخل المدرسة نجد سقيفة مربعة الشكل (3,30×3,11م) تتصل بالصحن بمدخل مستطيل متوج بعقد نصف دائري، وأما الصحن فيتوسط المبنى في شكل ساحة مكشوفة، تحيط بجوانبها أروقة مسقوفة (عرضها 2متر) تعلوها أربعة قباب[1] في أركانها، تزينها عقود نصف دائرية ترتكز على اثني عشر عمودا من التيجان الحفصية، ويتوسط صحن المدرسة حوض مربع الشكل(3,40×3,10م) مصنوع من المرمر الرفيع والذي نقل فيما بعد إلى الميضأة واستبدل مكانه بحوض من الإسمنت والحجارة البسيطة[2]، أما فناء المدرسة فيضم الميضأة وحجرات الاستحمام وحوض جميل مزخرف من الرخام[3].

كما نجد في المبنى مسجد صغير في الجانب الأيمن من الصحن، وهو قاعة مربعة الشكل تقريبا(5,22×5,10م)، تعلوها قبة مركزية نصف كروية (قطرها4,37م)، وقد كسيت القاعة ببلاطات حجرية منتظمة، استبدلت فيما بعد بلوحات خشبية حديثة العهد، كما نجد بالركن الأيسر من المبنى كُتّاب جاء في شكل مستطيل (6,60م×3,30م) به نافذتان إحداها تطل على كنيسة السيدة مريم والأخرى تطل عل الرواق المؤدي للكُتّاب[4]، ونافذتان تطلان على حجرة ضريح عثمان باشا، أما المحراب الواقع في منتصف جدار القبلة فهو بسيط الشكل خال من أي زخرفة، وتعلو المسجد قبة جميلة على قاعدة مثمنة ترتكز على مقرنصات بشكل ربع دائرة، وتقع حجرة ضريح عثمان باشا المربعة الشكل شمال شرقي المسجد وبها عدد من القبور وبها ثمان نوافذ[5]، تغطي حجرة الضريح قبة نصف كروية ترتكز على مثلثات مقلوبة وهي مشابهة لقبة المسجد ولا تختلف عنها إلا في فتحات صغيرة في بدن القبة وفي أعلى

1أنظر الملحق رقم15، ص364.
2الشايب، مرجع سابق، ص07.
3شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص74.
4الشايب، مرجع سابق، ص07.
5شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص ص74، 75.

قطب القبة الذي يعلوه شكل عمامة وهو الشكل الذي شاع أعلى شواهد قبور الشخصيات الهامة في العصر العثماني، كما تحتوي المدرسة على خمسة عشر خلوة مساحتها تقارب التسع أمتار مربع مسقفه بقباب طولية، ذات أبواب صغيرة تعلوها عقود نصف دائرية[1].

كما نجد بها مداخل صماء معقودة يضع عليها الطلبة المصابيح وأدواتهم، وبها سدة خشبية تستخدم كسرير ويغطي كل خلوة قبو برميلي، إلى جانب ذلك نجد مجموعة من الملحقات الخاصة بخدمة الطلبة مثل المطبخ ودورات المياه والميضأة والحمامات ومخزن لحفظ حاجيات الطلبة في الجهة الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية من المدرسة[2].

2- مدرسة الكاتب:

تقع هذه المدرسة بالمدينة القديمة، تطل على الشاطئ من الجهة الشمالية الشرقية، وعلى زنقة الريح من الشمال الغربي، تأسست هذه المدرسة على يد مصطفى الكاتب بن قاسم المصري سنة1769م، وهي على نفس نظام المدارس التقليدية، باحتوائها على حجرات كثيرة مخصصة لإقامة الطلبة، وإلى جانب المدرسة تم بناء مسجد وكتاب لتحفيظ الصبية القرآن الكريم وبها مكتبة مليئة بالكتب، ويقع مدخلها الرئيسي في الجدار الشمالي الغربي ومنه نجد ردهة صغيرة حيث تقع الميضأة، وأما المسجد فهو مربع الشكل تبلغ مساحته اثنان وثلاثون متر مربع، تعلوه قبة مستديرة، ونجد يمين مدخل المسجد فناء مستطيل به أربعة حجرات مغطاة بأقبية مخصصة لسكن الطلبة، ونجد بالطابق العلوي ثلاث حجرات أخرى

1الشايب، مرجع سابق، ص07.
2البهنسي، مرجع سابق'، ص71.

خاصة بطلبة العلم أيضا [1]، وتبلغ مساحتها مع المسجد 8910متر مربع وقد ألحق بها أوقافا كثيرة من ماله الخاص[2].

رابعا) الفنادق:

منذ العهد الحفصي عُرفت الفنادق على أنها عمائر متعددة الصلاحيات، فهي تضم بداخلها عدة هياكل وأجنحة نفعية، منها جناح سكني لإقامة التجار وجناح لتخزين السلع، ومكاتب لتسيير الفندق ولتلبية مصالح المقيمين به، وبعضهم كانت به أجنحة لتأدية الشعائر الدينية، وأجنحة لإقامة الاحتفالات.

تعد الفنادق من أهم المعالم العمرانية التي تميزت بها مدينة طرابلس، والتي ظهرت خلال العهد العثماني الأول والعهد القرمانلي، حيث زاد عددها عن الخمسين فندقا، وهي متشابهة كثيرا في التصميم والبناء رغم اختلافها عن بعضها في نوع النشاط بين الأنشطة البحرية والاقتصادية والحرفية أيضا[3]، فهي تشكل ملجأ للمسافرين إذ يضم بعضها إلى جانب الغرف ومخازن البضائع؛ بئر وحوض للوضوء[4] وقد كان وجودها ضروري لخدمة القوافل التجارية التي كانت تقطع الصحراء، و كانت تمثل أيضا مصدر قوت وحياة الآلاف من أهالي الصحراء، ومن أهم طرق التجارة الصحراوية التي عرفتها طرابلس الغرب الطريق المؤدي إلى "كانو وساكاتو" والتي احتكرها الغدامسيون المعروفين بحبهم لممارسة التجارة، والطريق الثاني هو "طريق برنو" الذي ينطلق من مرزق وينتهي في كوكا على ضفة بحيرة التشاد في طريق كانت تقطعه القوافل في ستة أشهر ذهابا وإيابا، وأما الطريق الثالث فهو طريق "واداي" الذي يبدأ من

1شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص ص113، 116.
2أبو عجيلة، مرجع سابق، ص ص20، 21.
3مفيدة محمد جبران، **فنادق مدينة طرابلس القديمة**، ط2، دار اكتب الوطنية، بنغازي، 2010، ص01.
4توللي، مرجع سابق، ص101.

بنغازي ويمر بالكفرة وبعدها صحراء تيبستي إلى واداي[1].ومن أهم وأشهر الفنادق التي عرفتها طرابلس الغرب نذكر:

1- الفندق الكبير:

الذي يقع في سوق الترك وهو من أقدم الفنادق وأضخمها، أسسه الوالي عثمان باشا ساقزلي سنة1654م وهو يحتوي على مائة غرفة، واجهته مزينة ببلاطات من القاشاني، تعلوه لوحة تذكارية تحمل تاريخ انشاءه، يؤدي مدخله إلى سقيفة صغيرة بها حجرة يعتقد أنها كانت تستخدم لحفظ الأمانات، وفي نهاية السقيفة سلم رخامي باتجاهين، أما الفناء فينتهي بخشبة المسرح، ويحتوي الدور الأول على ثلاث أروقة حديثة ذات سقف مسطح، إضافة إلى ذلك فقد أدخلت عدة تعديلات على الفندق غيرت ملامحه الأصلية، بحث اقتطع جزء منه وجعل فندق صغير، وقد استعمل كمرقد للعسكر العثمانيين، ثم مبيتا للتجار[2].

2- فندق الدروز:

يقع في شارع درغوث بالقرب من بوابة سوق الحرير، وتعود ملكيته للدولة، وأما تاريخ تأسيسه فهو غير معروف وإنما أدرج اسمه ضمن فنادق العهد العثماني الأول، واجهته بسيطة ومستحدثة، يؤدي مدخله إلى سقيفة صغيرة مسقوفة بأقبية برميلية تفتح على فناء مستطيل محاط بثلاثة أروقة بها عقود دائرية تحملها أعمدة ذات تيجان قرمانلية، أما الأعمدة الموضوعة في زوايا الفناء فهي ذات تيجان حفصية، والأروقة ذات أسقف خشبية، وأما الغرف فهي مسقوفة بأقبية نصف برميلية، بينما يحتوي الدور الأول على أروقة بها عقود دائرية محمولة على أعمدة ذات تيجان حفصية

1جبران، مرجع سابق، ص ص05، 06.
2 نفسه، ص ص08، 09.

سقفها من الخشب، أستعمل في بادئ الأمر كمرقد للعساكر العثمانيين الدروز[1].

3- فندق القرمانلي:

يقع هذا الفندق في منطقة باب البحر، وقد عرف بعدة تسميات منها فندق البنادقة بناء على معاهدة تجارية موقعة بين الحاكم الطرابلسي أحمد مكي(1356م-757هـ) وبين حكومة البندقية، وعرف بفندق القرمانلي بناء على لوحة رخامية تعود لسنة (1748م/ 1161هـ-1162هـ) والتي تشير إلى أن هذا الفندق كان ملكا للأمير علي القرمانلي الذي جعله فندقا تجاريا، وسمي بفندق المالطيين بعدما سكنته العديد من الأسر المالطية التي كانت تمتهن الصيد البحري. ويتكون من خمسين غرفة تتوزع على الطابق الأرضي والطابق الأول إلى جانب غرفة الصلاة، وله فناء واسع تحيط به الأروقة، يفتح بابه الرئيسي على شارع درغوث جاء تصميمه على نفس شكل باب الموريسكيين بالبندقية، وكان هذا الفندق محطة لتجار القوافل منذ القدم غير أنه دمِّر خلال الوجود الإسباني1551م وأعيد ترميمه من قبل الباشا علي القرمانلي وسكنته العائلات المالطية، وأما سقيفته فكانت مقهى[2].

4- فندق زميت الضفايري:

يقع في منطقة باب البحر بالقرب من جامع قرجي، تم تشييده سنة1246هـ/1831م[3] على يد التاجر أحمد الضفايري الذي يعد من أكبر التجار بطرابلس الغرب، الذين كانت تربطهم تجارة القوافل مع أواسط إفريقيا، وأما واجهة المبنى فهي ضخمة، بها باب خشبي كبير ذو عقد دائري تعلوه زخارف جصية هندسية ونباتية، وبالواجهة لوح تذكاري

1جبران، مرجع سابق، ص20.
2نفسه، ص22.
3 وردت في مرجع آخر أن تأسيسه كان سنة 1183هـ/ 1735م بالقرب من جامع قرجي **أنظر**: البهنسي، **مرجع سابق**، ص 94.

رخامي كتبت عليه عبارات ترحب بضيوف الفندق، وعلى جنب المدخل نجد خمسة غرف جُعلت محلات تجارية، ويؤدي المدخل إلى سقيفة مستطيلة الشكل سقفها على شكل قبوي متقاطع محمول على ثلاث عقود كبيرة، وعلى يمين الردهة غرفتان وعلى يسارها سلالم حجرية، وتؤدي السقيفة إلى فناء مربع الشكل تحيط به أروقة[1]، يتكون من عقود نصف دائرية محمولة على أعمدة ذات تيجان من النوع القرمانلي[2] أما الدور الأول فيحتوي على أربعة أروقة سقفها خشبي محمول على أعمدة بتيجان حفصية، تحيط به خمسة وعشرون غرفة ذات سقف قبوي برميلي، وقد استعمل منذ تأسيسه كنزل للمسافرين والتجار وخاصة تجار القوافل الذين تربطهم علاقات تجارية مع أواسط إفريقيا، مثلما ضم مخازن للبضائع القادمة من بلاد السودان كريش النعام والجلود والتمور وغيرها[3].

5- فندق مادي الحسان:

يقع هذا الفندق في زنقة البدوي التي تتفرع عن سوق النجارة وسوق الترك، ومؤسسه هو مادي الحسان حلاق يوسف باشا القرمانلي وهو من أجمل وأنظف الفنادق، باب مدخله خشبي ذي زخارف نباتية، ويؤدي مدخله إلى سقيفة صغيرة مستطيلة الشكل ذات سقف برميلي، وعلى يسار السقيفة توجد ثلاث غرف، وعلى يمينه غرفة رابعة وجميعها ذات سقف برميلي، تؤدي السقيفة إلى فناء مربع الشكل تحيط به أربع أروقة لكل منها ستة عقود دائرية موضوعة على أعمدة ذات تيجان قرمانلية، والأروقة ذات سقف خشبي يتوسطها حوض يشبه الحوض الموجود بمدرسة عثمان باشا، ويحتوي الفندق على خمسة وعشرون غرفة وحمام بعضها ذات سقف برميلي وأخرى ذات سقف قبوي، وكان قد استعمل من طرف الحاكة ثم

1جبران، مرجع سابق، ص ص22، 23.
2البهنسي، مرجع سابق، ص 95.
3جبران، مرجع سابق، ص 23.

دخله الصاغة واستغلوا بعض غرفه، قبل أن تضاف حرفة الحدادة إلى جملة الحرف القائمة هناك[1].

وبنفس الهندسة نجد فندق الزهر (قرجي) الواقع في شارع المشير الذي شيده مصطفى قرجي، الذي يحتوي على زخارف كثيرة، وكانت به مخازن للبضائع الفواحة (البرتقال، الحناء، العطور)، حيث يؤدي مدخله الواسع إلى سقيفة مستطيلة ذات تسقيف قبوي متقاطع محمول على عقدين على نفس الهندسة الموجودة في فندق العدلوني وفندق الغدامسية الواقع بجانب جامع الناقة، وفندق الطوبجية الذي كان مرقد للعساكر، وفندق الغدامسي الواقع بالحي الأوروبي قرب حمام درغوث وغيرهم، مثلما تشترك في السقيفة التي تؤدي إلى فناء مستطيل تحيط به الأروقة من جوانبه، وفي نوع السقف الذي يعلو الغرف الواقعة في الدور الأول أو الدور العلوي، مثلما تتشارك في الزخارف التي تزين الأعمدة الحاملة لتيجان حفصية وقرمانلية، وتشترك أيضا في الاستعمالات التي أنشأت لأجلها، كونها كانت في الأساس مخصصة لإقامة المسافرين وبعض الأنشطة التجارية مثلما استعملت مخازنها كمستودعات لإعادة نقلها إلى مناطق أخرى[2].

إضافة إلى الفنادق سابقة الذكر فقد ظهرت خلال العهد العثماني الثاني (1835-1911م) العديد من الفنادق مثل فندق القرقني(بن زكري)1856م، الذي كان يرتاده المسافرون والتجار والسواح، وفندق ميزران1881م الذي حمل مميزات الهندسة المعمارية العثمانية، وفندق أبو دلغوسة الذي استغل كمخزن لتخزين العطور من طرف اليهود وكمخازن لأصحاب المحلات المجاورة، وفندق الهنشيري 1883م وهو مقابل لجامع شائب العين وكان به أكبر مخازن البضائع في طرابلس مثلما كان نزلا لتجار القوافل من طرابلس، وفندق الخوجة الذي يحمل

1جبران، مرجع سابق، ص ص24، 25.
2نفسه، ص ص25، 37.

العديد من مميزات العمارة العثمانية، وفندق بنت السيد (بن غدارة) 1854م وسمي أيضا بفندق الجنويين حيث كان مقرا لقنصلية جنوا، وفندق الغرباء الذي أسسه الوالي أحمد راسم باشا سنة 1881م على أنقاض فندق قديم تابع لأملاك البلدية، وكان قد استعمل كمستشفى ثم مكتبا رشديا عسكريا، بالإضافة إلى فندق المسلاتي وفندق الزيت[1]، وتؤكد الدراسات على أن معظم الفنادق التي عرفتها طرابلس طرأت عليها عمليات تجديد وتغيرت بعض ملامحها الأصلية والسبب يعود لغياب أعمال الصيانة وكذا تأثير العوامل الطبيعية[2].

خامسا) القلاع والحصون:

1- قلعة السراي الحمراء[3]:

بنيت هذه القلعة على أرض صخرية تحفها مياه البحر من الشمال الشرقي والغربي[4] أما أطرافها الجنوبية والغربية فتنتهي عند سهل رملي[5]، وتبلغ مساحة القلعة ثلاثة عشر ألف متر مربع، يبلغ طول ضلعها الشمالي الشرقي مائة وخمسة عشر متر، والضلع الشمالي الغربي تسعون متر، والجنوبي الغربي مائة وثلاثون متر، والجنوبي الشرقي مائة وأربعون متر[6]، وارتفاع السور يبلغ أربعين متر ويحتوي عدد من الشرفات المبنية فوق السور وأخرى المنفصلة عن بعضها البعض، وكذا فوهات المدافع، والأبراج على طراز التحصينات القديمة[7]،وكان أول إنشاء للقلعة سنة

1 جبران، مرجع سابق، ص ص42، 51.

2البهنسي، مرجع سابق، ص96.

3 كلمة "السراي" أصلها فارسي استعملها العثمانيون للدلالة على قصر الحاكم أو الوالي، وأما وصفها بالحمراء فلم تذكره المصادر التاريخية، غير أن التفسير الوحيد لذلك هو حمرة لون جدرانها، المبنية بتربة رملية حمراء. **أنظر:** محمد الطاهر عريبي، **وثائق السراي الحمراء بمدينة طرابلس**، الدار العربية للكتاب، ليبيا،1977، ص07.

4أنظر الملحق رقم16، ص365.

5 الأخوان بيتشي، مرجع سابق، ص 29.

6عريبي، مرجع سابق، ص ص08.

7توللي، مرجع سابق، ص103.

1510م بعدما احتلها الإسبان حيث قاموا بتحصين القلعة من خلال اصلاح الحصنين اللذان يقعان في جانب المدينة حتى يأمنوا من ثورات الأهالي عليهم، مستعملين حجارة الأسوار إضافة إلى حجارة بعض المساجد والبيوت التي كانوا يهدفون من ورائها إلى محو الطابع العربي للمدينة، والتي تمت خلال الفترة من 1510 إلى 1518م، وهي مربعة الشكل يحيط بها سور من جميع جوانبها، يقابل الداخل من باب القلعة دهليز طويل كان يجلس فيه محمد باشا وعثمان باشا على مقعد مطلي بماء الذهب أثناء استقبالهما لرسل الباب العالي والشخصيات المهمة، غير أن هذا المقعد الشبيه بكرسي السلطان حطمه بالي داي سنة1674م، كما جعل هذا الدهليز أيضا مقرا لأمانة الولاية، وفي شمال القلعة نجد مسجد الجند الذي كان كنيسة اثناء احتلال الإسبان وفرسان القديس، أما باقي أركان القلعة فهي عبارة عن بنايات سكنية ومخازن للسلاح والذخيرة إضافة إلى الصيدلية وأفران الخبز والمطاحن وثلاثة سجون وكذلك خزانة الولاية ودار سك النقود[1].

وكانت القلعة قد رممت عدة مرات مثلما وقع في عهد صفر داي الذي رمم برج باب البحر والذي تؤرخ له اللوحة الرخامية الموجودة فوق باب البحر، والمكتوبة باللغة العثمانية في سبعة أسطر، وجاء في معناها: **"هو الله/ لقد تم ترميم برج باب البحر بعظيم السعادة/ وقام بذلك صاحب الكرم الذي بذل جهدا بليغا/ صاحب المجد المظفر أمير اللواء حضرت صفر/ فليذكر دائما بالخير وليبلغه الله أمانيه/ بتاريخ غرة شهر شوال المكرم/ سنة1022هـ (1613م)"**[2] كما رممت في عهد درغوث الذي أنشأ بها برجا في مكان البرج الذي أطلق عليه فرسان مالطا برج القديس بطرس وأطلق عليه اسم برج درغوث كما أنشأ في الجهة الجنوبية من القلعة دار للبارود إلى جانب باب المنشية لكنها لم تكتمل في عصره فأكملها خليفته قليج علي سنة1565م ويوجد مكانها الأن سوق الصناعات

1 عريبي، مرجع سابق، ص ص08، 23.
2خير الله، مرجع سابق، ص164.

المحلية[1]، ومن بين الاصلاحات التي ادخلت على القلعة من الداخل خلال العهد القرمانلي (1711_1835م) هي الردهة القرمانلية، وضم بعض العقارات إلى أوقاف السور، على أن تستفيد القلعة من هذه الأوقاف بمأن أوقاف السور هي مخصصة لتعمير القلعة ولا تستفيد منها الجوامع ولا حتى المدارس[2]، وصارت مساحة القلعة مربعة الشكل تتخللها أربع أبواب، بابان يؤديان إلى المدينة والآخران يعتبران بابان خلفيان لها أحدهما يؤدي إلى الميناء والآخر يفتح على أراضي زراعية مجاورة للقلعة، وضمت القلعة بداخلها قاعات العرش ومكاتب كبار الموظفين ومسكن الوالي وأفراد أسرته وحاشيته، مثلما ضمت مخازن ومطاحن للغلال ومخبز وملحق للصيدلية وحمام وسجن للأسرى[3]، ومع بداية الحكم العثماني الثاني(1835_1911م) تغيرت العديد من المباني الموجودة داخل القلعة وأصبحت مكاتب، غير أنها أهملت بعد ذلك وصارت في حالة يرثى لها وأصبحت مهددة بالانهيار، غير أن الولاة وإن أهملوا ترميم ما بداخل القلعة إلا أنهم اهتموا بالسور ففي سنة 1847م تداعى للسقوط من جهة البحر فسارع الوالي إلى ترميمه.

وإلى جانب قلعة السراي الحمراء عرفت المدينة قلاع أخرى كالقلعتين اللتان أقيمتا في الجهة الغربية والمعروفتان بالقلعة الجديدة والقلعة الإسبانية وكذلك القلعة الفرنسية ذات الشكل الدائري التي استعملها العثمانيون كقواعد دفاعية تمنع من دخول سفن الأعداء إلى الميناء[4]

1 البهنسي، مرجع سابق، ص105.
2 عريبي، مرجع سابق، ص ص25، 27.
3البهنسي، مرجع سابق، ص106.
4الأخوان بيتشي، مرجع سابق، ص31.

2- حصن القيقب:

يقع بمنطقة القيقب شمال الطريق الرابط بين الفاندية ولملودة، وجنوب مدينة الأبرق، ويبعد بحوالي ثمانية كيلومترات عن الجبل الأخضر، ويعتبر الحصن الوحيد المتبقي من بين الحصون الأربعة التي شيدها العثمانيون بالمنطقة الشرقية من ليبيا (بنغازي والمرج والقيقب ودرنة) والتي استغلها الإيطاليون فيما بعد قبل أن تنهار خلال زلزال 1963م، وقد سكنه سنة 1881م اثنان وأربعون(42) جندي، إضافة إلى أربعين جندي آخرين كانوا يجوبون المناطق المحيطة بالقصر ويهتموا بجمع الضرائب التي أقرتها السلطة العثمانية[1].

يقع الحصن على تل صغير وهو ما يوفر خصائص دفاعية، يشغل مساحة مربعة طول ضلعها خمسون مترا(50م) يحيط به سور يضم أبراجا في أركانه الأربعة من طابقين الأول جدرانه مغلقة(6,5×5,5م)و والثاني به فتحات للمدفعية، يتراوح ارتفاع السور بين ستة أمتار(6م) وعشرة أمتار(10م) وسمكه لا يتجاوز المتر الواحد(1م)، ولا تتخلله أي فجوات، ويتوسط الحصن صحن مربع كبير(36×37,5م) تفتح عليه نوافذ وأبواب حجرات الجند الثمانية عشر، وفي ركنه الشرقي يقع المطبخ والحمام المستطيل الشكل(6× 8,8م) ويغطي سطح الحصن سقف مسطح حديث من الخرسانة حل محل السقف المسطح القديم وبجواره سلم يؤدي إلى سطحه، وأما مدخله فيقع في منتصف جداره الجنوبي الشرقي وهو من النوع المسطح بعرض عشرين مترا(20م) يعلوه عقد نصف دائري يرتفع بمتر ونصف عن الأرض، يؤدي إلى رواق مستطيل(8×3,2م) مغطى بسقف خشبي مسطح حديث[2].

1سمير عبد المنعم خضري، **عمائر الصوفية في الجماهيرية الليبية (الزوايا والرباطات)**، مؤسسة الإخلاص للطباعة والنشر، د م ن، 2008، ص ص322، 324.

2 نفسه، ص ص324، 328.

3- حصن براك الشاطئ:

تقع مدينة براك الشاطئ شمال سبها بحوالي 85كم وهي أكبر مدن وادي الشاطئ، ويقع الحصن في مدخل المدينة من الجهة الشمالية فوق تلة صغيرة، تم تشييده خلال العهد العثماني الثاني(ق19)، واستعمل في بناءه الطين والحجارة والجريد وجذوع النخل، يشغل مساحة مستطيلة(36×42م) يتوسطه صحن مكشوف مستطيل الشكل(22,5×28,5م) يوجد بجانبيها الشمالي الغربي والجنوبي الغربي سقيفة نزع منها سقفها الخشبي وبقيت فقط الدعامات الحاملة له، وتفتح على الصحن ستة عشر حجرة تتوزع على جوانبه الأربعة بحيث نجد خمسة غرف بالجانب الشمالي الغربي وأربع في الجانب الجنوبي الغربي، وأربعة في الجانب الجنوبي الشرقي وثلاثة في الشمال الشرقي من الصحن، وجل غرفه مستطيلة الشكل مغطاة بسقف خشبي مسطح من جذوع وجريد النخل معظمها لايزال قائما، وأما مدخل الحصن فيقع بالواجهة الجنوبية الغربية ويتقدمه مدفعين يعودان إلى عهد انشاءه كدلالة واضحة على الهدف من الحصن، ويمتد داخل الحصن ممر بعرض ثلاثة أمتار وطول خمسة أمتار ونصف مغطى بسقف خشبي مسطح[1].

4- حصن غات:

تقع مدينة غات جنوب غرب طرابلس، تبعد عن مرزق بـ585كم وعن طرابلس بـ1360كم، وتشغل موقع مرتفع نسبيا بوقوعها في السفح الشمالي الغربي من جبل كوكمن، ويقع القصر في مدخل مدينة غات القديمة، ويحتل موقعا حصينا فوق قمة مرتفعة عن المدينة بحوالي 50م، مثلما يروي البعض أنه كان موضع حصن قديم تعرض للتدمير عقب هجوم الطوارق عليه سنة1879م من أجل محاصرة كتيبة عسكرية عثمانية كانت تقيم فيه، وهو ما دفع بالولاة العثمانيين بطرابلس إلى

1 خضري، مرجع سابق، ص ص330، 332.

إرسال قوات إضافية من أجل ضم المدينة وإعادة بناء الحصن الذي ظهر بشكل جديد سنة 1880م، وقد تم بناء الحصن في مساحة غير منتظمة تشبه شكل المثلث المتساوي الساقين طول ضلعه الشرقي 39متر وضلعه الغربي به انكسار خفيف، يضم سبعة عشر حجرة موزعة على الجانبين الشرقي والغربي ويغلب عليها الشكل المستطيل بحيث يتراوح طول الحجرات بين الثلاثة والستة أمتار وعرضها حوالي ثلاثة أمتار، وكلها مغطاة بسقف خشبي مسطح حل محل السقف القديم، كما تحتوي على نوافذ ضيقة بعضها يفتح على الداخل وبعضها على الخارج، وترتفع مداخلها بحوالي مترين، ونجد بالسور المحيط بالحصن ثلاثة أبراج مزودة بخمسة نوافذ للمدفعية، وأما المدخل فيقع في الواجهة الجنوبية للحصن بعرض متران تقريبا والذي يؤدي إلى الصحن، كما يلاحظ أن جميع مكونات الحصن استعملت فيها حجارة شديدة الصلابة ملائمة لطبيعة موقعه في قلب الصحراء[1].

5- حصن القريات:

يقع في منتصف الطريق بين سبها وطرابلس بمنطقة تسمى القريات وكان قد بناه الرومان قديما قبل ان يستخدمه العثمانيون الذين رمموا بعض أجزاءه وبنوا بعض الحجرات في جانبه خلال القرن التاسع عشر من أجل إحكام السيطرة على المناطق الصحراوية البعيدة عن مقرهم بطرابلس، وقد شغل الحصن مساحة مستطيلة الشكل(70×80م) يحيط به سور مزود بأربعة أبراج للمراقبة والدفاع في الجانب الشمالي الشرقي وبرج خامس في الركن الجنوبي، يتوسطه صحن تفتح عليه عدد من الغرف عدا الجهة الشمالية الشرقية التي تفتح على الأبراج، وأغلب الغرف مستطيلة الشكل تتراوح أطوال أضلاعها بين 3م و7,5م، ومعظم أبراج السور بها ثلاث نوافذ صغيرة خاصة بالمدفعية[2].

1 خضري ، مرجع نفسه، 333، 336.
2 نفسه، ص ص337، 338.

سادسا) الحمامات:

كانت الحمامات شائعة في معظم بلدان العالم الإسلامي بشكل جعل بعض من مؤرخي الغرب يتمنون لو أنها كانت موجودة في مدن أوروبا، فقد كانت الحمامات في البلاد الإسلامية ذات أهمية كبيرة فهي لم تقتصر على الاستحمام بل كانت مكانا للترفيه والتسلية وعقد الصفقات التجارية وحياكة الدسائس والمؤامرات السياسية، مثلما شكلت منتديات اجتماعية ترتبط بالعديد من المناسبات خاصة مناسبة الزواج لذلك أوكلت في الإشراف عليها إلى صاحب الشرطة كما كان يقوم على خدمة الزبائن عدد من العاملين المتخصصين مثل الحمامي الذي يحتفظ بملابس وأغراض المستحمين، والقيم الذي يسهر على نظافة الحمام والوقاد الذي يراقب حرارة المياه والسقاء الذي يوصل الماء إلى الحمام والمدلك الذي يقوم بأعمال التدليك والمزين الذي يقوم بأعمال الحلاقة والختان وغيرها، وقد تم مراعاة القواعد الصحية في تخطيط الحمامات حيث قسمت إلى ثلاث أقسام متدرجة في الحرارة، وكان البخار يتصاعد من الثقوب الموجودة في أرضية الحمام لذلك شاع استعمال النعال الخشبية (القبقاب) كما عرفت الحمامات لمسات جمالية من خلال تزيينها بزخارف متنوعة وكذا تغطية نوافذها بالزجاج الملون، وكانت حمامات طرابلس تشبه مثيلاتها في القاهرة واستانبول إلا أنها أقل مساحة وجمالية من تلك، ومن أهم الحمامات التي عرفتها البلاد خلال العهد العثماني حمام درغوث وحمام الحلقة والحمام الكبير الواقع في منطقة الأربع عرصات[1]، وقد بلغ عددها ثمانية أو عشرة حمامات كانت تحيط بالمساجد في مناطق مختلفة من المدينة تميزها مجموعة من القباب الكبيرة [2].

1البهنسي، مرجع سابق، ص ص84، 86.
2 توللي، مرجع سابق، ص66.

1- حمام درغوث:

يقع بشارع درغوث بمدينة طرابلس القديمة، وينسب إلى الوالي الثاني درغوث باشا الذي حكم طرابلس الغرب بعد تحريرها من فرسان مالطا، ويرجع سبب تسميته لكونه ملاصق لجامع درغوث، حيث أن المصادر تؤكد من أن عثمان باشا الساقزلي الذي تولى حكم طرابلس (1059-1083هـ/ 1649- 1672م) هو من قام بإنشاء حمام في المكان الذي كان يشغله قصر درغوث، كما ذكرت مصادر أخرى أن اسكندر باشا قام ببناء الحمام في أواخر القرن السابع عشر عندما أراد بناء مئذنة جامع درغوث باشا[1].

مدخل الحمام يغطيه سقف قبوي جاء منكسر الشكل من أجل حجب من بالداخل عن الأعين وكذا التقليل من اندفاع الهواء من الخارج نحو الداخل ويحفظ للحمام حرارته، ويضم الحمام قاعة للاستقبال حيث يسلم المستحم أغراضه ويخلع ملابسه، كما يوجد بها ركن للراحة وتناول المشروبات، تغطي هذه القاعة قبة كبيرة بها أجزاء مفرغة مغطاة بالزجاج الملون لذي من شأنه السماح بدخول النور وإضفاء الراحة والهدوء على القاعة، أما قاعات الاستحمام فهي ثلاث قاعات، الأولى وهي قاعة البخار التي تحتوي على مصاطب للجلوس أو التمدد عليها، تغطيها قبة كبيرة بها فتحات مغطاة هي الأخرى بالزجاج الملون[2].

ومن الجدير بالذكر على أن القاعات الساخنة في الحمامات دائما ما تكون أسقفها مقعرة لأن هذا النوع من الأسقف تساعد على عكس الحرارة نحو الداخل والحد من تبددها، وأما الحجرتين الباردة والدافئة فنجد بها أحواض مملوءة بالماء الساخن أو البارد وتغطى أسقفها بأقبية طولية أو متقاطعة ويلحق بالحمام البئر والساقية وخزان المياه والمكان الذي يتم

1البهنسي، مرجع سابق، ص 86.
2 نفسه، ص87.

فيه حرق الخشب لتسخين المياه، ويعد حمام درغوث من أحسن حمامات طرابلس حالا وأفضلها تخطيطا، فهو لا يختلف عن غيره من الحمامات المعروفة في العالم الإسلامي، ومن الحمامات المشهورة في مدينة طرابلس حمام الحلقة الواقع في سوق الحلقة (خاص بالملابس الصوفية) وهو يشبه حمام درغوث في تخطيطه العام إلاّ أنه أقل مساحة منه، والحمام الكبير الواقع بشارع الأربع عرصات وقد تحول فيما بعد إلى سوق ولم يبقى من آثاره إلاّ حجرة كبيرة مغطاة بقبة كانت تمثل قاعة الاستقبال[1]

1البهنسي، مرجع سابق، ص ص86، 88.

الخلاصة:

وجد العثمانيون عندما دخلوا البلاد المغاربية تراثا عمرانيا محليا في حاجة إلى ترميم وإعادة تأهيل، جرّاء الأحداث التي عرفتها البلاد(الحملات الإسبانية) والتي قضت على أهم معالمها الحضارية خاصة في المدن الكبرى والساحلية، مثلما شيدوا بعض المنشآت العمرانية وفق الطراز الهندسي العثماني، في المباني السكنية والأحياء الجديدة التي ظهرت بتونس وطرابلس الغرب، بالإضافة إلى بعض المنشآت المعمارية ذات الطابع الديني والثقافي كالمساجد والمدارس القرآنية والكتاتيب والتي أوقفوا لها أوقافا مهمة، وقد حملت أسمائهم وخلدت ذكراهم، بالإضافة إلى منشآت أخرى ذات طابع صحي كالمستشفيات وعسكري كالحصون والقلاع.

وقد استعمل في تزيين هذه المنشآت قطع زخرفية بعضها محلي الصنع وبعضها مستورد، يحمل بين ثناياه لمسة عثمانية في الزخرفة والتزيين، في أشكال المآذن والمداخل والمحاريب، وتوزيع أعمدة المساجد وتيجانها، وأسقفها، وهي بذلك تشكل نمط معماري اصطبغت به تلك الفترة وميز فنون عمارتها، من خلال ذلك التمازج بين التراث المحلي والعثماني.

الفصل الثاني:

الحياة العلمية بتونس وطرابلس الغرب خلال العهد العثماني

I- الحياة العلمية بتونس.

أولا) التعليم الديني.

ثانيا) التعليم الحديث:

1) المدرسة الحربية.

2) المدرسة الصادقية.

3) تحديث التعليم بالزيتونة.

ثالثا) جهود العثمانيين في تطوير التعليم بتونس.

II- الحياة العلمية بطرابلس الغرب.

أولا) التعليم الديني.

ثانيا) التعليم الحديث:

1) المدرسة العسكرية.

2) المدارس الأوروبية.

3) المدارس الرشدية.

4) تعليم المهن والصنائع.

ثالثا) جهود العثمانيين في تطوير التعليم بطرابلس الغرب.

- الخلاصة

عاش المجتمع المغاربي على ما ورثه من ثقافة العصر الإسلامي التي كانت تعتمد على تعليم الصبية القراءة والكتابة، والحساب بالإضافة إلى تحفيظ القرآن الكريم، والذي يتم في الغالب في المساجد والكتاتيب، بينما يرحل الطلبة الذين يرغبون في مزيد من التحصيل مشرقا ومغربا، إلى حين نيلهم الإجازة، وعلى أيديهم يتخرج مزيد من الطلبة، والذي تواصل إلى غاية العهد العثماني في العصر الحديث، بنفس المناهج والأساليب التقليدية في تونس وطرابلس الغرب، قبل أن يتم اصلاحها وتحديثها وفق المناهج الأوروبية.

I- الحياة العلمية بتونس :

إن الحديث عن الحياة العلمية بتونس خلال العهد العثماني إنما هو حديث عن المؤسسات التعليمية التي تأثرت بشكل كبير بالفقهاء وشيوخ الزوايا في المدن والبوادي، حيث لعبت هذه الأخيرة دورا تعليميا رائدا، مكنت طلبة العلم من نيل عديد الإجازات في علوم الدين، وفي علوم اللغة والمعارف العلمية الأخرى وشكلت الكتاتيب[1] والمساجد وبيوت العلماء والفقهاء مراكز الثقافة خلال القرون الأولى[2] قبل أن تظهر المدارس[3]، ثم

1 يعرف الكُتاب أنه حجرة مجاورة للمسجد أو غرفة منعزلة، ويبنى أساسا لتعليم القرآن، غير أن بناءه لم يتطور بالبلاد التونسية إلا بعد ما حل بها الأندلسيون، الذين جاءوا بهندسة خاصة للكتاتيب، وأجمل الكتاتيب التي أنشأوها يقع في بلدة زغوان، أما في البادية فكانت تخصص خيمة من جملة الخيام(خيمة المؤدب) لتؤدي وظيفة الكُتاب. للمزيد أنظر: ابراهيم العبيدي التوزري، **تاريخ التربية بتونس**، ج1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د س ن، ص103.

2 ظهرت الكتاتيب منذ فجر الإسلام في أماكن كانوا يجتمعون فيها لاستذكار القرآن وتدارسه، ولا شك أن هذه الأماكن كانت بمثابة مدارس أولية التي يتلقون فيها مبادئ القراءة والكتابة، ولما توسعت الفتوحات خارج الجزيرة العربية ظهرت الكتاتيب في كل المدن والأقاليم التي حل بها الفاتحون والتي صاحبها تحمس الناس لقراءة القرآن وتدارس علومه، للمزيد أنظر: محمد بن سحنون، **كتاب آداب المعلمين**، ط2، تح محمد عبد المولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص62.

3لقيت المدارس الدينية التشجيع والرعاية من طرف الحكام السلاجقة الذين حكموا اجزاء واسعة من إيران(حاليا) والعراق من منتصف القرن الحادي عشر إلى الغزو المغولي في القرن الثالث عشر، بهدف دعم نشر الإسلام السني المعتمد والوقوف في وجه التهديد العقائدي من الشيعة، ومع حلول العهد العثماني صارت المدارس تمثل التعليم الإسلامي الأعلى، مثلما كانت تتواجد عند أعدائهم

الزوايا بظهور المتصوفة والطرقيين في زمن الدولة الحفصية، وكان معروفا عن تونس أنها دار علم وفقه ورثته عن فقهاء القيروان في طرق استنباط الأحكام وموازنة الأدلة وضبط النصوص، مثلما عرفته خلال العهد العثماني مع ظهور علماء أعلام شاع بفضلهم العلم والأدب[1].

أولا) التعليم الديني:

كان التعليم الديني في العصور السابقة يهدف أساسا إلى تنشئة الفرد نشأة صالحة دينا ودنيا، ولهذا كانت الكتاتيب تقوم بتلقين مبادئ الدين، وتحفيظ القرآن الكريم في المراحل الأولى بالإضافة إلى مبادئ القراءة والكتابة، ويشمل البرنامج أيضا تعليم الصلاة التي هي عماد الدين وما يتبعها من وضوء وأدعية وغيرها، وبمأن تعلم القرآن وترتيله من الأمور الضرورية بإجماع الفقهاء على ضرورة تحفيظ الناشئة ما تيسر من القرآن وبالتالي فإنه يتعين على معلم القرآن تلقين التلاميذ مبادئ النحو والصرف، بالإضافة إلى فنون الشعر التي لم يرى فيها فقهاء إفريقيا حرجا في تعليمها شرط أن تخلو من الفحش أو قبح الهجاء، وكذا أيام العرب الذي لا يشمل التاريخ فقط بل يضم بعض فروع العلوم الإنسانية، والقصد من وراء ذلك هو تحريك همم الشباب ودفعه للاعتزاز بسير الرجال والتشبه بهم[2].

ظهر التعليم الديني نتيجة للتطور الذي شهدته الحياة العلمية في مختلف جوانبها، حيث ظهرت المدارس كمؤسسات تعليمية تساهم في الحياة الثقافية والفكرية في البلاد وتعمل على نشر مختلف العلوم والمعارف ولم تكن المدارس الدينية إلا مراكز تعليمية يتلقى فيها الطلبة العلوم، وخاصة فيما يتعلق بحفظ القرآن الكريم وماله صلة باللغة العربية

الصفويين، للمزيد أنظر: جين هاثاواي، **البلاد العربية في ظل الحكم العثماني1516-1800**، تر محمد شعبان صوان، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2018، ص183.

1حمودة بن محمد بن عبد العزيز، **الكتاب الباشي**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970، ص ص13، 14.

2التوزري، مرجع سابق، ص ص105، 109.

والعلوم الفقهية والشرعية، وكانت المدارس تبنى غالبا بأموال الأوقاف، بينما كانت في عاصمة الدولة تؤسس من طرف السلطان أو أحد أفراد الأسرة السلطانية العثمانية، أو أحد وزراء الدولة، بينما في الولايات فقد كان النمط النموذجي لها هي تلك المدارس التي أسسها الولاة أو أعيان البلدة ووجهاؤها[1]، التي انتشرت بشكل متزايد مع توسع العثمانيين في البلاد[2]، ورعتها الأوقاف العامة التي حبست لها خاصة مع النصف الثاني من القرن الثامن عشر[3] وكان من يريد أن يحبس وقفا يذهب عند قاضي المحكمة لصياغة سند يهب فيه الأملاك المرغوب تحبيسها لتأسيس مدرسة أو صيانتها، وهي نفس العملية التي تجري على المساجد والمؤسسات الخيرية الأخرى كمطاعم الفقراء وتكايا الصوفية وغيرها[4].

أما عن برنامج التعليم في الكتاتيب[5] فقد كان يبدأ من يوم السبت إلى الخميس، حيث يبدأ الصبيان يومهم بحفظ القرآن الكريم من الصباح الباكر إلى الضحى ثم يتعلمون الكتابة من الضحى إلى الظهر، ثم يعودون بعد الانصراف إلى بيوتهم لتناول وجبة الغداء وأداء صلاة الظهر ليتلقوا مواد أخرى نص عليها البرنامج مثل النحو والصرف والعربية والشعر وأيام العرب، وأما أمسية يوم الأربعاء وصباح الخميس فتخصص للمراجعة والاستذكار ويخلى سبيلهم بعد ظهر الخميس، كما أنهم يتحصلوا على

---

1 هاشاواي، مرجع سابق، ص183.

2من أهم المدارس التي ظهرت بتونس خلال العهد العثماني نذكر: مدرسة باردو، والمدرسة المليتية بالكاف، ومدرسة قصيبة المديوني، ومدرسة الوردانيين ومدرستين بسوسة الأولى بقصر الرباط والثانية تدعى الزقاقية، وأربع مدارس بالقيروان، وأربعة أخرى بالكاف و12مدرسة بين توزر ونفطة ودقاش ومدرسة بباجة ومدرستان في جربة والمدرسة الحسينية بصفاقس. **للمزيد انظر**: الشيباني بنبلغيث، **فصول في تاريخ الأوقاف من منتصف القرن التاسع عشر إلى1914**، ط1، دار نهى للطباعة والنشر والتوزيع، صفاقس،2004، ص ص108، 109.

3 نفسه، ص103.

4هاشاواي، مرجع سابق، ص183.

5كان يوجد بمدينة تونس حوالي مائة وإحدى عشر مكتبا (كُتّاب) لتعليم الصبية القرآن الكريم والكتابة، وكان يقصدها حوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة تلميذ، **انظر**: محمد بيرم الخامس، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، تح علي بن الطاهر الشنوفي وآخرون، ج2، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 1999، ص 702.

عطل أخرى بمناسبة الأعياد من يومين إلى خمسة أيام وفيه نلمس تقدير النظام القديم للراحة ودوره في تربية الصبيان، كما أن أيام الراحة الأسبوعية والسنوية كانت تراعى فيها أعراف الناس مثلما لم تسن أيام للراحة بمناسبة المولد النبوي ولا عاشوراء ولا حتى رأس السنة الهجرية، ومن الراجح أن هذه المناسبات لم تكن تشكل مدعاة لإخلاء سبيل الطلبة[1].

وكان يقصد الصبية كُتّابهم، ويجلسون حول معلمهم[2] في شكل نصف دائري، يفترشون الحصير ويحملون ألواحهم ويشرعوا في الحفظ الجماعي، في حال كانوا متساوين في الأحزاب المحفوظة، أو الحفظ الفردي في حال وجود فرق في الأحزاب المحفوظة، وأما المعلم فيهتم بالصبية الصغار فهو من يعينهم على التهجي والحفظ، وعند الضحى يشرع الصبية في عرض ما حفظوه من ألواحهم الواحد تلو الآخر، ثم يملي عليهم آيات جديدة وقد يكلف التلاميذ القدامى نسخ الآيات من المصحف مباشرة قبل أن يراقبها المعلم لتدارك ما قد يلحقها من أخطاء ومن القواعد التي كانت تطبق في تحفيظ القرآن هي "الميل والوعي والاسترجاع" والتي تعني الإقبال على القرآن ومحبته، ووعيه بإجادة الترتيل والإعراب وتكراره في مختلف الأوقات حتى يحصل الحفظ، ومن طرق التعليم أيضا التنافس بين الطلبة في الحفظ والإعراب والذي من شأنه أن يوقظ الشعور ويشحذ الهمم ويدعوا للاجتهاد[3].

وظلّ التعليم الديني بتونس من السبل التي مكنت الطلبة الحصول على شهادة الأهلية بعد مزاولة التعليم الابتدائي، ثم الحصول على شهادة أخرى أعلى منها بالنسبة للذين واصلوا تعليمهم وتسمى شهادة التحصيل

1التوزري، مرجع سابق، ص ص109، 110.

2لم يكن المعلم في الكُتّاب ذا شخصية بارزة كما لم يكن من رجال العلم والأدب والفقه في الغالب، بل كان في جملة الموظفين الأجراء الذين يكدحون اليوم كله والسنة بطولها في سبيل الحصول على قوتهم، ولم يكن يشترط فيه إلا أن يكون حافظا للقرآن وعارفا بالكتابة وورعا تقيا، أنظر: التوزري، مرجع سابق، ص125.

3نفسه، ص ص112، 113.

وفي المستوى الثالث يحصل الطلبة على شهادة العالمية، وقد كانت تمنح هذه الشهادات بعد اجتياز الطلبة لامتحانات كتابية وشفهية، كما كانت توزع عليهم في احتفالات خاصة يحضرها أعيان البلد وأصحاب الحل والعقد والعلماء، وبعد ذلك يمكن لهؤلاء الطلبة أن يطرقوا أبواب التوظيف اعتمادا على الشهادات المحصل عليها في مجالات الإمامة والقضاء والفتوى والوظائف الإدارية والمجالس العدلية والوكالات[1].

غير أنه لابد من التنويه بأن طرق التعليم في هذا العهد ظل يميزها الأمر والنهي والذي يقوم على التقليد والمحاكاة والانقياد، وهو أسلوب لا يحترم نفسية الطفل ولا شخصيته النامية والذي يعزى إلى جهلهم بعلم النفس عند الطفل، فهو يقصد الكتاب عند بلوغه سن السادسة ويبدأ الحفظ من أول يوم، كما أن التعليم لم يكن إجباريا على الحكام كما الأولياء[2].

هذا اضافة إلى الأدوار التي لعبتها زوايا الأقاليم كزاوية سيدي ابراهيم الجميني1722م بجربة التي كانت تختص بدراسة الفقه المالكي في منطقة يغلب عليها المذهب الإباضي، ومدرسة سيدي علي النوري بصفاقس ومدارس سوسة والقيروان ونابل والمهدية وقابس وقفصة وتوزر والكاف وباجة وتستور وغيرها[3]، مثلما كان بها مساجد للصلاة والتدريس ومكتبات تسمح لطلبتها بالقراءة والمطالعة، وقد جعلت لها أوقاف لترميمها ولدفع رواتب المعلمين واعانة الطلبة[4].

1ابن الخوجة، **صفحات من تاريخ تونس**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص292.
2التوزري، مرجع سابق، ص ص118، 119.
3 سعيدوني، مرجع سابق، ص143.
4الطاهر الحداد، **التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1981، ص47.

ثانيا) التعليم الحديث[1]:

ظهر التعليم الحديث بتونس مع ظهور بعض المنشآت التعليمية التي أنشأها العثمانيون بتونس كمكاتب للتدريب الحربي ومنها مكتب المحمدية، قبل أن تشرع الدولة في تأسيس المدارس الرشدية وتقر لها برامجها ونظمها المستوحاة في أغلبها عن النظم الأوروبية، في إطار سياسة الإصلاح التي باشرتها الدولة العثمانية في جميع ولاياتها، ومن نماذج التعليم الحديث التي جاءت في إطار سياسة الإصلاحات نذكر ما يلي:

1- المدرسة الحربية 1838م:

اتخذ قرار انشاء المدرسة الحربية في فترة متقدمة من عهد أحمد باي[2] سنة1838م رغم أن الوقت لم يكن كافيا لإجراء دراسة دقيقة للمشروع، واختيار المدرسين وشروط الانتساب إليها ووضع برنامجها، والمواد الواجب تدريسها والمناهج وغيرها، وقد أطلقت عليها عدة تسميات فقد سميت في البداية بالمدرسة المتعددة الفنون، وسماها الشيخ قابادو مكتب العلوم الحربية، مثلما عرفت أيضا بالمدرسة الحربية أو مكتب الحرب[3]، فقد ذكره ابن أبي الضياف قائلا: "**وفي غرة محرم 1256هـ،**

1المقصود من التعليم الحديث هو حركة الإصلاح التي انتهجتها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر في جميع ولاياتها من خلال انشاء مدارس وُضِعَت لها برامج مشابهة للمناهج الأوروبية، يتعلم فيها الطلبة مختلف العلوم والآداب (رياضيات، علوم الطبيعة، وعلوم الفلك واللغات الأوروبية الحديثة، التاريخ والجغرافيا، وغيرها...) اضافة إلى علوم الدين واللغة العربية.

2تولى الإمارة بعد أبيه مصطفى باشا، وكان معروف بذكائه وطموحه الشديد، وكانت تربيته عسكرية، وقد نشأ في عهد الإصلاحات العسكرية التي شهدتها تونس تبعا لتنظيمات السلطان محمود الثاني، فبدأ عهده برغبة في الإصلاح والأخذ بوسائل التقدم، حيث اصطبغ الحكم في تونس منذ عهده بصبغة الإصلاح، والرغبة في تخليص تونس من الأغلال التي قيدت حريتها من طرف الأوروبيين، مثلما كان يرغب أيضا في تخليص إمارته من التبعية للدولة العثمانية خاصة لما علمه من قيام الدولة العثمانية بإصلاحات على النموذج الغربي، مثلما كان في نفس الوقت معجبا بالنهضة التي ظهرت في مصر. **أنظر:** بن عاشور، **الحركة الأدبية والفكرية في تونس**، مطبعة دار الهنا، تونس، 1956 ص ص11، 12.

3لطفي بوعلي، **التحديث العسكري قراءة ميكرو- تاريخية في التجربة التونسية (1830-1881م)**، ط1، سوتيميديا للنشر والتوزيع، تونس، 2019، ص195.

ستة وخمسين(الخميس5 مارس1840م)، رتب الباي مكتبا حربيا بباردو، وجعله في صرايته التي انتقل منها إلى قصره الجديد، لتعليم ما يلزم العسكر النظامي من العلوم كالهندسة والمساحة والحساب وغيرها، ولتعليم اللغة الفرنساوية، لأن أكثر كتبها مدونة بهذه اللغة... وجعل بها معلما للقرآن ومدرسا لعلوم العربية وما يلزم ديانة، وأول مدرس به العالم الشريف الأديب البليغ أبو الثناء محمود قابادو، بحيث يخرج التلميذ عالما بما يلزمه ضرورة في غير العلوم العسكرية، متضلعا باللغة الفرنساوية وبما يلزم العسكر من العلوم العقلية"[1]. وكان أول مدير للمدرسة المستشرق الإيطالي كاليغاريس[2] الذي كان يشغل قبل ذلك مدير مدرسة حربية باستانبول مثلما كان ضمن أركان الجيش العثماني ضد محمد علي في الشام، وقد دامت إدارته للمدرسة ثلاثة عشر سنة، قبل أن يخلفه الضابط الفرنسي كمبنون[3] الذي لم تدم مدة إدارته طويلا بسبب مشاركته في حرب القرم، وكان للفرنسيين النصيب الاكبر في التدريس والتدريب بالمدرسة إلى جانب الإيطاليين والتونسيين[4].

وأمّا الهدف من تأسيس هذه المدرسة فهو الرغبة في تكوين جيل قادر على العبور إلى الثقافة الغربية والاستفادة منها والأخذ بما يمكن

1أحمد بن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، مج2، ج4، الدار العربية للكتاب، تونس، د س ن، ص ص36، 37.

2 تولى تسيير المدرسة منذ إنشائها إلى حدود سنة1852م، وقد لعب دورا مهما في إقناع أحمد باي ببعث مدرسة باردو، كما ساهم في ترجمة عدد كبير من الكتب في الفنون العسكرية من التركية بفضل تجربته في تدريس الهندسة وعلم المثلثات بالمدرسة العثمانية "إسكي سراي" كما ساهم في إدخال التخصصات العلمية والتطبيقية في التكوين الذي يتلقاه بالمدرسة كالهندسة والرياضيات والجغرافيا، وهي تخصصات ذات علاقة مباشرة بعلم التحصينات وبالهندسة العسكرية. **أنظر**: بوعلي، مرجع سابق، ص210.

3الفرنسي كمبنون كان قد تولى المدرسة منذ1852م، ودرّس بها التاريخ العسكري والمدفعية والطبوغرافيا، واللغة الفرنسية والإيطالية، وساهم في إدخال المناهج البيداغوجية الأوروبية، وفي تطوير التقنيات الإدارية الحديثة. **أنظر**: بوعلي، مرجع سابق، ص210.

4بنبلغيث، الجيش التونسي...، مرجع سابق، ص 56.

أخذه من معارفها، واستيعاب آليات التحديث[1] وتكوين نخبة مؤهلة للقيادة حتى يبدوا هذا التيار الإصلاحي والتحديثي نابع من الداخل وليس مستوردا من الخارج[2]، تؤهلهم للقيام بدور ريادي في الحداثة وبلورة رؤية واضحة ودقيقة عن السبل الكفيلة بتحقيقه بعد التمكن من اللغات الأوروبية [3]، وتم جلب مجموعة من الضباط الأوروبيين للتدريس بها، فكان الأساتذة الفرنسيون والإنجليز والإيطاليين مكلفين بالمواد العلمية الحديثة، وقد كلف كاليغاريس بتعليم الرياضيات والتحصينات والفنون والتاريخ العسكري، وكلف الضابط الإنجليزي دالكزالت (Delcazelt) بتعليم المدفعية والطوبوغرافيا، وتولى فاريي(verrier) التدريب النظري والتطبيقي، بينما كلف تروباني(tro-bani) بتعليم اللغتين الفرنسية والإيطالية، وهو الأمر الذي ألزم المدرسة بأن تقدم دروسا باللغات الأوروبية بسبب عدم توفر كتب باللغة العربية في المجالات العلمية بينما أسندت العلوم التقليدية لبعض شيوخ الزيتونة [4].

وبفضل هذه المدرسة وقع أول اتصال بين تونس وأوروبا في العصر الحديث، مثلما شكلت مظهرا من مظاهر محاكاة مثيلاتها في إستانبول والقاهرة [5] ومن التلاميذ المنتسبين لهذه المدرسة أكثرية ممن ينحدرون من الجزر اليونانية(أصول مملوكية) ممن كانوا يجلبون إلى الإيالة ويعتنقون الديانة الإسلامية ويتلقون تربية دينية ويعيشون في قصور

1بدأت حركة الإصلاح في الجيش العثماني في عهد السلطان مصطفى الثالث (1757-1773م) بتنظيم وتنسيق الأمور البحرية والمدفعية، من أجل الاستفادة من الخبرات الأوروبية في هذا المجال، وكانت الدولة قد استعانت بطائفة من الضباط والخبراء العسكريين، غير أن هذه الحركة اصطدمت بعقبات كثيرة في مقدمتها طائفة الانكشارية الذين وقفوا في وجه كل تغيير وانكروا ادخال اصلاح نظام التعليم العسكري .**للمزيد انظر:** خليفة محمد الذويبي، **الأوضاع العسكرية في طرابلس الغرب قبيل الاحتلال الإيطالي 1881-1911م**، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 1999، ص57.

2محجوب السميراني، **الجيش التونسي(1831-1881م) رافد نهضة وإصلاح**، ط1، سوتيميديا للنشر والتوزيع، تونس، 2017، ص257.

3بوعلي، مرجع سابق، ص196.

4السميراني، مرجع سابق، ص ص257، 260.

5بنبلغيث، مرجع سابق، ص 56.

البايات والأعيان ومن هؤلاء الأونباشي محمد الكاهية وأخوه الأونباشي مصطفى زروق والأخوين مصطفى والصادق بن عصمان والصادق المملوك وأحمد بن الخوجة ومحمد المورالي وأحمد بن عثمان، والسبب في وجود نسبة كبيرة من المماليك في المدرسة هو انفتاح هذه الفئة على الثقافة الغربية وقدرتها على نقل النموذج التحديثي الأوروبي، وهو ما ساهم في تقلدهم مناصب عليا في أجهزة الدولة ومنهم نذكر الجنرال رستم والجنرال حسين وجمعة القرفي ومحمد بن الحاج عمر البنباشي، إضافة إلى هؤلاء نجد بعض الأسماء من التلاميذ ذوي الأصول التركية كالملازم أحمد باش طبجي ومحمد السباولجي وحميده القهواجي ومحمد بن خليل المورالي والأخوين محمود ومحمد التركي[1].

ومن الذين تخرجوا يوزباشية أبي عبد الله حسين الذي صار أمير لواء ورئيس المجلس البلدي ومستشار الوزارة، وأبي الضياء رستم الذي صار وزيرا وأمير لواء وأبي محمد جمعة القرقني الذي أصبح من أعيان عسكر البحر وأبي حفص الحاج عمر الذي صار أيضا أحد الرؤساء بوزارة الحرب وغيرهم ممن تم توظيفهم في الجهاز العسكري[2].

ومع نهاية ستينيات القرن التاسع عشر بدأ يلاحظ تدخل الباي محمد الصادق في اختيار التلاميذ[3] بشكل مباشر عن طريق أوامر شخصية منه، حيث قام بجلب عددا من التلاميذ ذوي الأصول المملوكية والتركية بهدف

1بوعلي، مرجع سابق، ص ص197، 198.
2ابن أبي الضياف، إتحاف....ج4، ص37.
3 الجدول التالي انظر بوعلي، مرجع سابق، ص198.

سنة الانتداب	عدد التلاميذ المنتسبين بأوامر من الباي	عدد الإخوة منهم
1866-1867م	17	08
1867-1868م	17	06
مجموع المنتدبين بين1865-1869م	42	14

استعمالهم في المناصب المخزنية والعسكرية وأصبحت سمة مميزة لسياسته التي كانت تهدف إلى تأهيل هؤلاء التلاميذ حتى يتقلدوا المناصب الهامة في أجهزة الدولة، أما التلاميذ ذوي الأصول المحلية فكان حصولهم على مقاعد بالمدرسة يخضع لإجراءات انتقائية صارمة ودقيقة، وإن كان غالبيتهم ينحدرون من القبائل المخزنية المنتشرة في دواخل البلاد، ومن هؤلاء نذكر محمد الجويني ومحمد المناعي ومحمد الطبرسقي ومصطفى المنكبي، مثلما نجد في بعض الأحيان من تلاميذ المدرسة بعض من سكان الحاضرة من أمثال محمد القروي وعمر بركات وحمده بن مصطفى والعروسي بن بوجمعة ومحمد قرجوم، وينص النظام الداخلي للمدرسة على تسجيل 20تلميذا تتراوح أعمارهم بين 13 و15سنة اجتيازهم اختبار القراءة والكتابة تحت إشراف مجلس علمي مكون من أربعة ضباط كبار وناظر المدرسة[1].

وكان يهدف نظام التعليم[2] بالمكتب إلى تخريج ما بين 20 و30من الضباط الذين يحتاج إليهم الجيش وهو من قسمين حيث يبدأ مسارهم بالقسم الثاني الذي يتخرجون منه بعد أربع سنوات يدرسون فيه القرآن واللغة الفرنسية في السنة الأولى، وفي السنة الثانية يدرسون القرآن وعلوم النحو واللغة الفرنسية، وفي السنة الثالثة علم النحو واللغة الفرنسية، وفي السنة الرابعة اللغة الفرنسية والجغرافيا وأصول علم الجبر وعلم المساحة، أما القسم الأول فلا يمكن الالتحاق به قبل النجاح في القسم الثاني والذي تدوم به الدراسة سنتان كاملتان يتلقى فيهما التلميذ في

1بوعلي، مرجع سابق، ص ص198، 199.

2يتلقى التلميذ خلال الست سنوات في المكتب سبعة عشر مادة هي: القرآن، النحو العربي، اللغة الفرنسية، علم الحساب، علم الجبر والمقابلة، علم المساحة، علم الجغرافيا، علم الأماكن، علم التحصين الوقتي، أصول عمومية في علم التحصين القار، الصناعة الحربية، علم القوانين العسكرية، صناعة الطبجية، مطابقة علم رسم الأماكن بالمباشرة على الأرض، مطابقة علم التحصين الوقتي بالمباشرة على الأرض كنصب الأمحال، القوانين العسكرية بالمباشرة على الأرض كالتصرفات الحربية وتعليم الرماية، كيفية تعمير المدافع واطلاقها. للمزيد أنظر: بنبلغيث، مرجع سابق، ص ص96، 97.

السنة الأولى علم رسم الأماكن وعلم التحصين الوقتي ويتعلم التصرفات العسكرية نظريا وتطبيقيا، كما يتعلم الرماية وحمل السلاح والصناعة الحربية وأصول الفنون الحربية، أما في السنة الثانية فإنه يستمر في تعلم الفنون السابقة إضافة إلى صناعة المدفعية ورسم الأماكن والصناعة الحربية[1].

وأما إقامة التلاميذ بالمكتب فكانت شبيهة بإقامة الجنود في الثكنات العسكرية بلباس موحد ونظام صارم في سلوك التلاميذ وحتى في نتائجهم الدراسية، فكان كل من لا ينال النقاط الكافية في أي مادة من المواد يعاقب بالسجن الذي قد يحرمه من عطلة شهر رمضان، مثلما ينزل في الرتبة في حال تجاوزت مدة السجن 100يوم خلال عامين، وإذا نال علامة الصفر في سنة التخرج فإنه تنزل رتبته إلى شاوش(عريف) بدل رتبة ملازم، وكان يتولى تدريسهم ستة معلمين متخصصين هم معلم علم الحساب والمساحة، ومعلم علم الجبر وعلم رسم الأماكن، ومعلم علم التحصين الوقتي والقار وصناعة المدفعية والجغرافيا، ومعلم للصناعة الحربية وتعليم القوانين العسكرية النظرية والتطبيقية، ومعلمان للغة الفرنسية.[2]

والملاحظ أن عدد التلاميذ من العناصر المحلية بقي قليلا وهو ما يعني أن مؤسسة التعليم بباردو بقيت منفصلة عن المجتمع عكس العناصر المملوكية التي نالت نصيبها فدافعت عن السلطة واختياراتها ونجحت في تكوين تحالف مع رجال الدولة، تمكنت من خلاله من الحصول على تعليم عسكري عصري في مكتب الحرب، والذي اسهم في تخريج قيادات كان لها الدور الفاعل في عمليات الإصلاح والتحديث في المؤسسات المدنية والعسكرية، ومن جهة أخرى قد يكون ذلك أحد أسباب رفض السكان المحليين لمشاريع الإصلاح والتحديث، وبالتالي فإن التحديث لم يشكل حراكا ثقافيا بمعنى الكلمة بما أن القسم الأكبر من السكان لم يعرف

1بنبلغيث، مرجع سابق، ص ص95، 96.
2نفسه، ص ص97، 98.

التعليم العصري واعتبره مشروعا أجنبيا وهو الذي ذهب إليه دعاة هذا للتوجه بعدما رأوا أن فرنسا قد استعملت هؤلاء في أجهزتها الإدارية والعسكرية منذ انتصاب الحماية عام1881م، بسبب تمكنهم من اللغتين الفرنسية والعربية، من أمثال محمد قرجوم وأحمد باش طبجي وعمر بن بركات[1].

غير أن تعداد التلاميذ المنتسبين للمدرسة تراجع مع نهاية ستينيات القرن التاسع عشر بعدما كان عدد التلاميذ المنتدبين إليها في العام الأول1840م مابين40 و60تلميذا، والسبب يعود إلى عدم قدرتها على الاستمرار في تكوين القيادات العسكرية وضباط الجيش النظامي بسبب استفحال الأزمة المالية وتنصيب هيئة الكوميسيون المالي التي أوصت بإنهاء نشاط المدرسة، والذي يحمل بعض من الشكوك حول نظرية المؤامرة تجاه هذه المدرسة بهدف افشال هذه التجربة التعليمية، بدليل أن مصاريف التلاميذ وعددهم 78تلميذ لم يكن يتجاوز 11% من الرواتب الشهرية التي كان يتقاضاها المعلمون ذوي الأصول الأوروبية[2].

رغم ذلك إلاّ أن المدرسة خرّجت الدفعة الأولى من النخبة الإصلاحية المشبعة بالروح الوطنية، والتي تقلدت مناصب إدارية في الدولة وكانت أفكارهم مؤثرة في المجتمع، وكانت مساهمتهم كبيرة في الدفع بعملية التحديث، وبالتالي فإن هذه المدرسة كانت عبارة عن مشتلة تخرجت منها العديد من القيادات من أمثال الوزير الأكبر خير الدين باشا[3]، والوزير أبو عبد الله حسين المعروف بالجنرال حسين الذي تولى

1 بوعلي، مرجع سابق، ص ص199، 200.

2 نفسه، ص204.

3 ولد خير الدين في أوائل القرن التاسع عشر 1822م من أسرة شركسية، خطف وهو صغير وبيع في سوق الرقيق بإستانبول، فاشتراه تحسين باشا قاضي عسكر الأناضول، واعتنى بتربيته تربية دينية وتعلم في قصر سيده مبادئ الدين الإسلامي ثم بيع في اسطنبول فاشتراه أحد وكلاء تونس، قدم به إليها فامتلكه الوزير الأكبر مصطفى خزندار، ثم انتقل إلى ملكية المشير أحمد باي1839م فاعتنى به وادخله مكتب العلوم الحربية بباردو فأتقن العربية على يد الشيخ قابادو والفرنسية والإيطالية على أيدي أساتذة فرنسيين وإيطاليين، قبل أن يعين وزيرا أكبر في 21أكتوبر1873م،

وزارة المعارف والنافعة في عهد خير الدين، وأمير الأمراء أبو الضياء رستم الذي تولى وزارة الداخلية وغيرهم من المستشارين ورجال الدولة رفقة خريجي جامع الزيتونة من أمثال الشاعر والمتصوف والمربي محمود قبادو ورجل الدولة والمؤرخ أحمد بن أبي الضياف واللغوي والمربي سالم بوحاجب والمفكر الأديب المؤرخ محمد بيرم الخامس وغيرهم من الذين شكلوا طلائع النهضة والإصلاح في تونس والذي أهلهم تكوينهم للقيام بأدوار إصلاحية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر[1].

مثلما نجحت في إخراج التعليم من المسجد والجامع والزاوية إلى المدارس الحديثة التي قدمت العلوم الحديثة من فلسفة وعلوم انسانية وفنون الحربية واللغات الأوروبية إلى جانب العلوم الدينية، زاده اهتمام الباي أحمد بكتب القانون والتعليم العسكري كما ونوعا من خلال حركة الترجمة التي أعطت صورة عن مساعي الدولة الجادة في النهوض بالتعليم في البلاد[2].

وكان قد سافر خير الدين إلى فرنسا سنة1853م وبقي هناك إلى غاية1857م للدفاع عن تونس في قضية قابض الأموال محمود بن عياد الذي تعاون مع الوزير الأكبر مصطفى خزندار في قضية نهب أموال الدولة، وكان بن عياد قد تجنس بالجنسية الفرنسية آنذاك، وشارك في لجنة شرح وإصلاح قواعد الأمان في09سبتمبر1857م، ثم عين كاهية بالمجلس الأكبر سنة1860م قبل أن يصبح رئيس هذا المجلس في العام الموالي بعد وفاة مصطفى صاحب الطابع، وعزل منه في السنة الموالية1862م لمعارضته الشديدة على قرار الاقتراض من الدول الأوروبية، وكلف بمهمات دبلوماسية فيما بين1863-1867م، في عديد البلدان الأوروبية والتي مكنته من توسيع زاده المعرفي، في سنة1869م عين رئيسا للكوميسيون المالي، وفي سنة1870م عين وزيرا مباشرا إلى جانب الوزير الأكبر، وعمل خلال توليه الوزارة الكبرى 1873-1877م على تنظيم الوزارات والأداءات وتنظيم القضاء وتنظيم الفلاحة والتجارة والاقتصاد مثلما عمل على تنظيم الأوقاف والتعليم، وفي سنة1878م عين رئيسا للجنة الاقتصادية والمالية بالأستانة بعدما رفض وزارة العدل، وفيما بين 1878 و1879م عين صدرا أعظم للخلافة العثمانية، وتوفي في 30جانفي1890م، للمزيد أنظر: خير الدين التونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، تح المنصف المرزوقي، مج1، شركة أوريبس للطباعة، تونس، 2000، ص ص11، 14. الطويلي، بناة الدولة...، مرجع سابق، ص ص47، 55.

1السميراني، مرجع سابق، ص ص267، 271.

2نفسه، ص ص353، 356.

2- المدرسة الصادقية 1875م :

تم إنشاؤها سنة1875م بمقتضى المرسوم المؤرخ في 13جانفي1875م الموافق لـ:05ذو الحجة1291هـ وكان مقرها في البداية في ثكنة سيدي المرجاني القديمة بنهج الكنيسة في المنطقة المعروفة اليوم باب البحر قبل أن يتم تحويلها إلى مقرها الجديد بالقصبة[1] في اكتوبر1897م، بمساحة تفوق 14000متر مربع[2]، وأوقف الباي على هذه المدرسة أوقافا مهمة حتى تتمكن من توفير مستلزماتها وتدفع أجور معلميها وزادت أوقاف المدرسة من خلال مساهمة المحسنين إلى أن وصلت 211عقارا مع وقوع الحماية[3] وكانت قد تشكلت لها لجنة لتحرير قانونها، وسن مناهج التعليم فيها، وهي مؤلفة من علماء الزيتونة، تحت إشراف الوزير الأكبر، وتم إنشاؤها على اعتبار أنها مدرسة قومية؛ ذات منهج عربي ديني قاعدي؛ تعنى بتدريس اللغات التركية والإيطالية والفرنسية في مختلف فصول الطلبة، وكذا الرياضيات وعلوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية يقوم بالتدريس بها أربعة مدرسين أوروبيين واثنين وعشرين مدرس مسلم[4]، وتم استقدام معلمين للتدريس فيها من فرنسا وإيطاليا واسطنبول ووفرت لهم بعض المعدات والأدوات الضرورية لتدريس الجغرافيا والكيمياء وعلوم الطبيعة والعلوم الرياضية[5] وكان التعليم بها على درجتين أولية وثانوية بالتنسيق مع التعليم الزيتوني، حتى يتسنى للطلبة بالانتقال من الدرجة الثانوية إلى التعليم الزيتوني لإتمام دراستهم في العلوم الدينية[6].

1أنظر الملحق رقم17، ص366.

2السميراني، مرجع سابق، ص369.

3بنبلغيث، فصول في...، مرجع سابق، ص107

4 piesse, op cit , P322.

5 حسني، مرجع سابق، ص177.

6بن عاشور، مرجع سابق، ص24. أنظر أيضا: بن الخوجة، صفحات... مرجع سابق، ص314.

وتكونت لجنتها العلمية من الوزير الأكبر خير الدين باشا والمفتي الحنفي الشيخ أحمد بن الخوجة والقاضي المالكي الشيخ الطاهر النيفر وقاضي باردو الشيخ عمر بن الشيخ، والباش كاتب وزير القلم والاستشارة الشيخ محمد العزيز بوعتور، ورئيس جمعية الأوقاف الشيخ محمد بيرم والسيد محمد العربي زروق أمير اللواء رئيس المجلس البلدي، والمدرس الشيخ أحمد الورتاتي، والمدرس الشيخ مصطفى رضوان، وكانت هذه اللجنة هي التي سنت قانونها الجامع، وما تضمنته من برامج في اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم والقراءات والحديث وعلوم الدين من عقائد وفقه وفق المذهبين[1].

ومن علوم اللغة النحو والصرف والمعاني والبديع والأدب والتاريخ الإسلامي والأخلاق، وتولى تدريسها مدرسين أعلام من جامع الزيتونة من أمثال الشيخ الأمين بن خوجة والشيخ محمود بيرم والشيخ الصادق الداهش والشيخ عثمان الشامخ والشيخ محمد القرطبي والشيخ الطاهر جعفر والشيخ على بن الحاج، وأستاذ الخط العربي الشيخ محمد الكتاني، وخط الثلث الشيخ محمد الفخري، وفي اللغات الأجنبية تقرر تعليم اللسان التركي واللسان الفرنسي واللسان الإيطالي، وأما العلوم الأخرى مثل التاريخ والجغرافيا والرياضيات والهندسة والطبيعة والكيمياء وعلوم الصحة والنبات والحيوان والقوانين والأنظمة السياسية فقد أوكلت مهمة تدريسها لأساتذة فرنسيين، ومنهم من سبق له التدريس بمعهد باردو كالأستاذ أيمون(Eymond)والأستاذ سولييه(Soullier)[2].

وأسندت إدارة المدرسة لمحمد العربي زروق رئيس المجلس البلدي بتونس، يساعده كاهيتان الأول آلاي اسكندر من مماليك المشير أحمد

1ابن الخوجة، صفحات ...،مرجع سابق، ص311.
2نفسه، ص ص311، 312.

باي، والثاني أميني عمر بن بركات[1] معين الوزير خير الدين الذي كان يحسن اللغة الفرنسية والعلوم الرياضية التي زاولها بمدرسة الباردو، وجعلت جراية المدير 6000ريال سنويا وهو نفس المرتب الذي يأخذه ناظر المدرسة، وللكاهية الأول 4200ريال سنويا وللكاهية الثاني 2400ريال ولكل المشايخ المدرسين 3000ريال في العام وتتراوح مرتبات المعلمين بين المائتان والخمسمائة ريال في الشهر، ورأى خير الدين أنه من الإنصاف اعطاء الحق لجميع ابناء البلد في التعليم، فجعل من مجمل تعداد المدرسة البالغ مائة وخمسون مقعدا، ثلثا المقاعد لأبناء الحاضرة وثلث لأبناء الآفاق وكفلت نفقاتهم من كسوة ومؤونة وإقامة من صندوق المدرسة، واشترط على التلاميذ أن يكون لباسهم موحد، قفطان عربي شبيه بلباس المشارقة[2]، وكان خير الدين قد اعتمد على القرعة في اختيار التلاميذ لتجنب الشبهات وكل المظاهر التي قد تحرم فئة معينة من الالتحاق بالمدرسة[3].

ومن الأوقاف التي تم تحبيسها خدمة للمدرسة وطلابها خمسة مواضع من الزيتون بغابة تونس أوقفها ناظر أوقاف الحرمين الشريفين الشيخ محمد عريف، غير أنها لحقها الإهمال والاستغلال بغير وجه حق في عهد الوزير مصطفى بن اسماعيل الذي اعقب خير الدين، ومن ذلك هنشير قعفور وهنشير قرنبالية وهما من أكبر أوقاف الصادقية، وتلاه اعفاء مدير المدرسة السيد العربي زروق لأسباب سياسية تتعلق بانتصاب الحماية بتونس[4].

1 Charles Féraud, Correspondance notes sur un Voyage entre Tunisie et en Tripolitaine, Revue Africaine Journal des Travaux de la Société Historique Algérienne, Année 1876, P495.

2بن الخوجة، صفحات ...، مرجع سابق، ص ص312، 313.

3السميراني، مرجع سابق، ص370.

4بن الخوجة، صفحات ...،مرجع سابق، ص317.

وقد نجح خير الدين[1] في مهمته بإنشائه للصادقية وإصلاحه التعليم الزيتوني، الذي أثر في الشبيبة التونسية وجعلها شديدة التعلق به؛ ومتأثرة بمبادئه الإصلاحية، وتستمد توجهها الأدبي منه، مثل ما كانت متعلقة بالشيخين سالم بوحاجب الذي كان يعتبر شيخ الأساتذة ومنار النبوغ في العلم والأدب، والشيخ عمر بن الشيخ المشهور بتفوقه العلمي ورجاحة عقله، والذي تولى أيضا تسيير أمور التعليم ومراقبة النظم وتطبيقها بصفته نائب الدولة[2]، وتخرجت الدفعة الأولى من المدرسة سنة 1297ه/1882م، واستمرت في كل تخرج دفعة جديدة أكثر عددا من التي سبقتها وكان أكثر المتخرجين منها في السنوات الأولى يسافر إلى فرنسا لإتمام دراسته، فتكونت بذلك جالية تونسية في فرنسا متأثرة بالمعارف والثقافة والحياة الفرنسية[3].

واستمرت المدرسة الصادقية بعد استقالة خير الدين من الوزارة في نهجها وأصبح توزيع الجوائز على طلبتها عيدا شعبيا وتقليدا يحضره الباي محمد الصادق بنفسه، مثلما شجعت الإرساليات العلمية لإتمام الدراسة في المدارس الثانوية وديار المعلمين بباريس[4]، ومن النوابغ الذين تخرجوا من المدرسة الصادقية البشير صفر ومحمد الأصرم وعلي باش حانبة وغيرهم ممن تقلدوا الوظائف السامية، مثلما نبغ كثير من تلاميذ المدرسة الذين

1تولى خير الدين الوزارة والبلاد غارقة في الفوضى السياسية والمالية في وقت كانت تحتاج إلى منقذ لكن مجيئه كان متأخرا، ولم يعد بالإمكان اصلاح ما فسد وإنما لإنقاذ ما تبقى، بعدما كشت حقيقة الوزير مصطفى خزنه دار الذي وجهت له تهم التلاعب بأموال الدولة وسوء استغلال السلطة، وان لم يدم وجود خير الدين طويلا إلا أنه استطاع أن ينجح في بعض مهامه في ميدان تنظيم الإدارة وتنظيم الوزارات والوقوف على شؤون التعليم والأوقاف، مثلما حاول إيقاف نزيف المال العام لذلك لقي حربا من أعداء الإصلاح في الداخل والخارج خاصة قنصل فرنسا المستعرب ليون روش **للمزيد أنظر:** بنبلغيث، مرجع سابق، ص70.

2بن عاشور، مرجع سابق، ص25.

3نفسه، ص 45.

4بن الخوجة، صفحات ...، مرجع سابق، ص314.

برعوا في العربية والفرنسية وفي الفنون العصرية، وحصلوا على أعلى الدرجات العلمية كالدكتوراه والأستاذية[1].

وكان قد زار المدرسة رجال من الشرق ومن الغرب، مثل الشيخ جمال الدين الأفغاني[2]، كما زارها الكاردينال لافيجري الذي ينقل عنه أنه قال: **"أن العنصر التونسي أهل لتلقي الثقافة الأوروبية، وإنه ما برح معتقدا أن الديانة الإسلامية لها تأثير عظيم في مقام التربية الروحية، وأن العرب جنس شريف لا تصلح بهم إلا شريعة الإسلام وهم لا يصلحون إلا بها"**[3]، مثلما زارها السيد دانيال قراسي[4](Daniel Grasset) والذي يشغل مدير معهد ثانوي بمدينة الجزائر سنة 1878م وقد استغرب من سرعة تعلم تلاميذ الصادقية للغة الفرنسية، مثلما أبدى اعجابه بنظافة المدرسة ونظامها قائلا: **"زرت قاعات الدروس، وبيوت النوم، والمطاعم، والمطابخ، وكل شيء فيها منظم أفضل مما هو عليه الحال في مدارسنا في فرنسا"**[5].

3- تحديث التعليم بالزيتونة:

كان يضم جامع الزيتونة بين عرصاته أزيد من ثلاثة ألاف طالب، يخضعون لنظام شديد، لا يعرفون غير المطالعة والقراءة، وكانت العلوم التي يتلقونها تساير البرامج العلمية في الأزهر والقيروان، أساسها القرآن والسنة، وتنقسم إلى علوم شرعية وعلوم وضعية، أما العلوم الشرعية

1ابن الخوجة، صفحات ...،، ص321.

2الشيخ جمال الدين الحسني الأفغاني، ولد في "كابل" قاعدة الأفغان بعد الستين والمئتين والألف(1260هـ) دخل المدرسة في سن الثامنة بعد تعلم الخط، وتخرج منها في السن الثامنة عشر، بعدما قرأ جميع الكتب المدرسية من المعقول والمنقول، حتى في الطب والرياضيات، للمزيد أنظر: محمد السنوسي، **الرحلة الحجازية**، تح علي الشنوفي، ج3، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص271.

3ابن الخوجة، صفحات ...، مرجع سابق، ص320.

4للمزيد عن تقرير زيارته أنظر:

Daniel Grasset, L'instruction Publique, Revue Africaine Journal des Travaux de la Société Historique Algérienne, Année 1878, p p183, 201.

5السميراني، مرجع سابق، ص371.

فتدرس التفسير والقراءات والحديث والتوحيد والفقه والفرائض والكلام والتصوف، وأما العلوم الوضعية فهي النحو واللغة والمعاني والبيان والأدب والمنطق والتاريخ والحساب وغير ذلك[1]، وكانت ملتقى لأهل الفكر، ومن أشهر من تخرجوا منه "عبد الرحمان بن خلدون" والإمام الفقيه "محمد بن عرفة"، وعرف الجامع اعتداءات على مرافقه من طرف الاحتلال الإسباني خاصة مكتبته التي داستها خيولهم ولم يبقى بها من الرصيد الذي فاق الثلاثين ألف مخطوط إلاّ عشرون مخطوطا[2]، وورد في مراجع أخرى أن رصيد مكتبة الجامع فاق المائة ألف قبل الاعتداء عليها وأن المكتبة الأحمدية كانت تضم مالا يقل عن ستة وثلاثين ألف مجلد[3].

غير أنه مع دخول العثمانيين إلى تونس أعيد الاعتبار لهذا المعلم خاصة في عهد المشير أحمد باشا باي(1253-1271هـ/1837-1855م) الذي أطلق اصلاحاته الأولى التي مست مختلف جوانب التعليم، فقد رد هذا الباي للجامع دروسه وجمع فيه خزائن الكتب وأعاد الأوقاف إلى بيت المال، وصرف مرتبات للمدرسين، كما أسس للجامع إدارة تتولى تسيير ومراقبة الدروس به حسب النص المعلق على حائط الجامع من جهة باب الشفاء، والذي يعتبر أول تنظيم يتعلق بالجامع، وكفل للطلبة المواظبين عطاءات من دخل بيت المال في شقه المخصص لفائدة طلبة العلم والقائمين عليه، غير أنه لم يذكر العلوم الواجب تدريسها ولا الكتب المرجعية[4].

اشتغلت نفس اللجنة التي قامت بدراسة مناهج وبرامج المدرسة الصادقية، على ضبط مناهج التعليم الزيتوني وترتيبها على درجات؛ تنتهي فصولها بامتحانات الانتقال، وامتحانات الشهادة، والتي لم تكن موجودة قبل

1تذكر المصادر أنه كان يتولى التدريس أربعة وأربعون مدرسا بالزيتونة التي كانت تضم ما يزيد عن450 تلميذ يتلقون تعليما في العلوم الاسلامية وعلوم اللغة، أنظر: Piesse, op cit, p322

2 بن الخوجة، صفحات...، مرجع سابق، ص ص288، 292.

3مكي بن نسيب السباعي، **مكتبات المساجد دراسة تاريخية**، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 2006، ص189.

4الحداد، مرجع سابق، ص ص48-53.

هذا الوقت، مع جعل مواد الرياضيات وعلوم الطبيعة كمواد إلزامية في كل درجة بصفة مقتصد فيها، وتنظيم طريقة انتقاء الأساتذة والتي تتم بواسطة المناظرة، وكان قد عين هذه اللجنة الوزير خير الدين باشا(1820-1889م) عند توليه الوزارة الكبرى، والتي تولت صياغة القانون الذي صدر في 28ذي القعدة1292هـ/ الموافق لـ26 ديسمبر1875م)الذي يضبط ادارة الجامع وأحوال المدرسين والتلاميذ[1].

ويحدد هذا القانون العلوم الإجبارية والاختيارية ويضبط العلوم المدرسة والكتب المعتمدة، حيث يتضمن الباب الأول والباب الثاني الطرائق والاساليب التي يجب أن يعتمد عليها المدرس في الإقراء حتى يوصل التلاميذ إلى الفهم والتحصيل، وتضمن الباب الثالث أحوال التلاميذ وما يتعلق بآداب التلاميذ وحثهم على الاجتهاد ووجوب أن يجعل له دفتر يشهد له فيه شيوخه بالحضور حتى ينال الإعفاء من التكاليف العسكرية وما يجب عليه من حفظ للمتون العلمية، كما يلزم في السنة الأولى بأربعة دروس في الفقه والتوحيد والتجويد والنحو وبعدها يتدرج إلى ما فوقها ولا يبدأ كتابا إلا بعدما يختم الذي دونه، والباب الرابع يخص أعمال المشايخ والنظار وما يتعلق بهم وبإشرافهم على التعليم والمعلمين والمتعلمين، وتنفيذ الامتحانات السنوية، كما يكلفون بمراقبة وكلاء الكتب الموجودة بخزائن الجامع ومكتبته، كما يمنع على المدرسين اقراء أي كتاب إلا بعد استئذان المشايخ النظار[2]، وبقيت هذه التراتيب معتمدة إلى غاية 1910م حيث صارت هذه التراتيب لا تفي بحاجيات التعليم وأصبح من الضروري تنقيحها وإدخال بعض التعديلات عليها.

ظل التعليم بجامع الزيتونة على سابق عهده وبنفس مناهج التعليم المطبقة في الجوامع الكبرى في بلاد الإسلام والتي سايرت كليات قرطبة وبغداد والقيروان والتي خرّجت المؤرخ الكبير عبد الرحمان بن خلدون

1الحداد، مرجع سابق، ص 21.
2نفسه، ص ص55، 56.

والإمام المالكي محمد بن عرفة وغيرهم[1]، وكانت تقسم إلى علوم شرعية مصدرها الكتاب والسنة وعلوم عقلية مصدرها العقل، فالأولى تعنى بالفقه وأصوله والثانية تدرس المنطق والكلام والرياضيات والفلك ويتبعه علوم اللغة وإذا أردنا التعرف على المغزى من وضع هذه العلوم وجدنا أنها تهدف إلى نشر العلوم الإسلامية وبث اللغة العربية لسانا وأدبا، وأما العلوم العقلية فكانت تقرأ من أجل تكملة المعارف الإسلامية والعربية كحاجة الفرائض في التركات لعلم الحساب وحاجة معرفة الأوقات لعلم الفلك[2].

كان يتولى ادارة وتسيير الجامع شيخ يساعده على أداء مهامه شيخان آخران ينتخبان من خيرة المدرسين الذين يعينهم الوزير الاكبر، ومن وظائفه الإشراف العام على التعليم الإسلامي بالإيالة، وأما رُتَبُ المدرسين في الجامع فهي أربعة؛ الأستاذية ويشغلها ثمانية شيوخ نصفهم أحناف والنصف الآخر مالكية، ثم الطبقة الأولى والتي تضم ثلاثة وعشرين مدرسا وطبقة ثانية تضم واحد وعشرين مدرسا وطبقة ثالثة تضم ستين مدرسا؛ وهؤلاء الستين هم الذين يوكل إليهم الإشراف على التعليم الابتدائي بالجامع وبفروعه الخمسة في كل من صفاقس الذي يتوفر على مكتبة عامرة بالكتب، وفرع عقبة بن نافع بالقيروان وفرع سوسة وفرع توزر وفرع قفصة، إضافة إلى فرع سادس يختص بتعليم اللسان الفرنسي ومبادئ الرياضيات والذي تأسس سنة1896م بعد انتصاب الحماية[3].

ومن بين الأفكار التي خامرت خريجي الزيتونة هي تأسيس جمعية علمية لنشر العلوم الرياضية والفلسفة والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد باللسان العربي، تكون وجهة للشباب تعوضه عن مزاولة التعليم بالخارج، غير أن هذه الفكرة لقيت معارضة شديدة من أصحاب الفكر القديم شأنها شأن أي فكرة تخص الإصلاح والتجديد، ومن ابرز هؤلاء المعارضين

1بن الخوجة، صفحات ...، مرجع سابق، ص288.
2الحداد، مرجع سابق، ص ص36، 37.
3بن الخوجة، صفحات ...، مرجع سابق ص ص292، 294.

المفتي الحنفي أحمد بن الخوجة الذي تخوف من أن يصبح المشروع نواة للزهد في علوم الدين، لذلك كان نجاحها نسبي رغم الدعم الذي لقيته من طرف المفتي المالكي سالم بوحاجب والمفتي الحنفي الشيخ أحمد كريم، ونقيب السادة الأشراف وكبير أهل الشورى المالكية الشيخ أحمد الشريف، مع بعض الشيوخ والمدرسين وخريجي الزيتونة، وتم نشر مقتطفات من قانون الجمعية وأهدافها في جريدة الحاضرة في العدد434، الذي وافقت عليه الحكومة فيما بعد بمقتضى قرار وزيري بتاريخ 18رجب 1314هـ وتم افتتاح المدرسة في 14ذي الحجة 1314هـ الموافق لـ15 مارس1897م بحضور جمع غفير من العلماء والمؤيدين للمشروع وكان أول درس ألقاه الشيخ سالم بوحاجب وتعلق موضوعه بفضل العلوم الرياضية وحاجة الإنسان إليها[1].

أمّا عن الدروس بالجامع فهي موزعة على أربع مائة درس في الابتدائي ومائة وثمانين درس في الدرجة الثانية وخمسين درس في التعليم العالي؛ وكان كل شغور في المنصب يتم جبره من الطبقة الموالية وأما مدرسي الطبقة الثالثة فإنه يقع اختيارهم من بين الحائزين على شهادة العالمية بعد الامتحان، وأما شيوخ الفتوى فيتم اختيارهم من بين مدرسي الطبقة الاولى والثانية وهذه الصفة تجعلهم من أهل الحل والعقد وتسمح لهم بحضور بيعة الامير وتنصيبه على العرش، مثلما قد ينتخبوا من طرف الأمير للخطط الشرعية وخاصة منصب شيخ الإسلام في المذهبين الحنفي والمالكي، وقد عرف هذا اللقب في عائلتين من بيوت العلم بتونس وهي البيت البيرمي[2] والبيت الخوجي[3].

1الحداد، مرجع سابق، ص ص24، 25.

2البيت البيرمي ينسب أهله أنفسهم للأشراف من آل البيت النبوي، كما عرف بولائه وإخلاصه للدولة العثمانية والذي توارثه الخلف عن السلف، منذ ضم البلاد التونسية، حتى أنه لمّا أهدى السلطان العثماني عبد المجيد "كركا من السمور" وهو أحد ملبوساته الفاخرة إلى الأمير أحمد باشا لم يرى هذا الأخير أليق بلبسه من الشيخ بيرم الرابع، حتى صار لباس خاصا بآل بيرم لا ينافسهم فيه أحد. **أنظر**: بيرم الخامس، مرجع سابق، ج2، ص 178.

3بن الخوجة، صفحات ...، مرجع سابق، ص293.

وأما هيئة المجتمع المدني التونسي فتتكون من اثنا عشر فقيها ستة على المذهب الحنفي وستة من المالكية، وللأحناف حق الاسبقية في المواكب الرسمية لأنهم على مذهب الحاكم ودون ذلك فإن الفقهاء متساوون في المرتب والرتب والاعتبار، ويباشرون وظائفهم نيابة عن سمو الأمير.[1]

وهو الذي ذكره ابن أبي الضياف أن الباي أمر بجمع أهل المجلس الشرعي من المالكية والحنفية أمام محراب جامع الزيتونة بين الظهرين في السنة1255هـ (الأحد 24 أفريل1840)، وأرسل إليهم بمكتوب جعل فيه لعلماء المالكية مع الجند النظامي مثل مرتب الفقهاء الحنفية مع جند الترك، دفعا لما عسى أن يتوهم من الحيف في عدم التسوية[2]، وبه صدحت قرائح الشعراء فقال أبو إسحاق الرياحي في مكتوبه للباي:

جبرت بإحسان لمذهب مالك قلوبا كواها الكسرُ يا خير مالك
وما جبرها نيل الحطام وإنما بتنوير ليلٍ من دجى الحيف حالك
تداركت تفريطا من الناس غفلةٌ وكم لك من رأي عزيز المدارك
فسويت ما بين الأفاضل رتبة فهم من بساط العدل فوق أرائك.

وقال العالم الأديب القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة:

نظمت القوم في سلك انتظام فثغر المالكية في ابتسام
وأعززت الجماعة بانتساب وليس العز في كسب الحطام
فسويت الورى في عدل قسم نسخت بصبحه حيف الظلام
محال أن يظن الناس هذا ويكاد يكون من نوع الحرام.[3]

ومن الإصلاحات التي أدخلها الباي أحمد باشا على الزيتونة تعيينه لثلاثين مدرسا نصفهم مالكية والنصف الثاني من الأحناف وأربعة نظار

1 بن الخوجة، صفحات ...، ص ص292-294.
2ابن أبي الضياف، اتحاف ...ج4، مرجع سابق، ص 37. **انظر أيضا:** محمد بن عثمان الحشائشي، **تاريخ جامع الزيتونة**، تح أحمد العلايمي، ط1، دار المازري، تونس، 2021، ص68.
3ابن أبي الضياف، إتحاف...ج4 مرجع سابق،، ص ص35، 36.

اثنان من المالكية واثنان من الأحناف ووكيلين للكتب[1] ولما زاد طلبة العلم بالجامع صدر أمر بضم أحباس أخرى صادرة عن أهل الخير والفضل، وانتظمت كذلك طبقة ثانية من المدرسين بالجامع ستة من المالكية ومثلهم من الأحناف، ولم تزل أحوال العلم والمعلمين على ذلك الحال إلى أن قدم خير الدين على الوزارة فأمر بزيادة مرتبات المدرسين من بعض أوقاف الجامع[2].

ومن مظاهر اهتمام الوزير خير الدين بالجامع ترتيبه للقانون الجديد الصادر في ذي القعدة1292هـ/1875م الذي حدد العلوم التي تدرس بالجامع والكتب المختارة للتدريس، فأما العلوم فهي التفسير والكلام والحديث، والقراءات، والمصطلح، والفقه الحنفي والمالكي، والفرائض والتصوف، والميقات، والنحو والصرف، والمعاني والبيان والبديع، واللغة والأدب، والسير والتاريخ، والرسم والخط، والعروض والقوافي، والمنطق وآداب البحث، والحساب والهندسة، والمساحات والهيئة، وأما الكتب التي تستعمل في التدريس فهي ثلاث مراتب؛ عليا ووسطى ودونهما[3] وهي:

- كتب الرتبة العليا وهي: تفسير القاضي والجلالين، والموطأ وصحيح البخاري وصحيح مسلم، والشفا، والمواهب اللدنية، والمواقف، والعقائد النّسفيّة، وكبرى السنوسي، ومقدمة القسطلاني، والتوضيح، ومختصر ابن الحاجب، وجمع الجوامع، والكنز، والغرر، ومختصر خليل بن اسحاق، واحياء الغزالي، والمفتاح للسكاكي، والمطول لسعد الدين، والمزهر للسيوطي، وفقه اللغة للثعالبي، والسيرة الكلاعية، وكتاب العبر لابن خلدون، والشمسية للكاتبي، والمغني لابن هشام، والمنية، والتذكرة، ومقالات اقليدس.

1للمزيد عن اسماء هؤلاء المدرسين أنظر: الحشائشي، تاريخ جامع...، مرجع سابق، ص ص72، 73.
2نفسه، ص ص73، 74.
3تراتيب التدريس بجامع الزيتونة عام1330هـ، المطبعة الرسمية العربية، تونس، 1912، ص10.

- وأما كتب المرتبة الوسطى فهي الأربعون النووية، والشمائل للترمذي والعقيدة الوسطى للسنوسي، والشاطبية، وألفية العراقي، والمنار، والتنقيح للقرافي، والورقات لإمام الحرمين، والدر المختار، والوقاية، والمحبية، وتحفة ابن عاصم، ولامية الزقاق، والسراجية، والرحبية، والدرة البيضاء، والحكم لابن عطاء الله، والطريقة المحمدية، ومنظومة ابن غانم، ورسالة سبط الماردين، وألفية ابن مالك، ولامية الأفعال، والمراح، والشامية، والزنجاني، والتلخيص، ورسالة السمرقندي، ورسالة الوضع، ومقامات الحريري، والعمدة لابن رشيق، وقصيدة سيدنا كعب، والهمزية، والبردة، والقرماني، والمطالع النصرية، ونظم الخراز، والخزرجية، والتهذيب لسعد الدين التفتزاني، ومختصر السوسي، والقوانين، والقلصادي، وأشكال التأسيس، والجغميني[1].

- وأما كتب الرتبة الثالثة فهي الجزرية، ورسالة ابن أبي زيد، والمرشد المعين، والعشماوية، والسوسي، والأجرومية، وقطر الندى، والسمرقندية، وايساغوجي، والنخبة الحسابية. وكل هذه الكتب المعينة بمقتضى القانون[2] على سبيل النصح تحت مراقبة الشيوخ النظار الذين تقتضي وظيفتهم مراقبة المدرسين، ولاريب أن هذه هي الطريقة المثلى.

ولما نزلت كارثة الاحتلال بالبلاد سنة1881م كان الشعب ينظر لهذه المؤسسات الثقافية على أنها الجبل الذي سيحمي كيانها من كل ما من شأنه أن يهدد وجودها كأمة، وكان الاستعمار ينظر إلى تلك المؤسسة على أنها حجر عثرة في طريقه، غير أنها ما لبثت يد العدوان أن امتدت إليها وجعلت توجهها يقتصر على الجوانب الرسمية فقط.

ولم تتوقف جهود الإصلاح عند ما سبق بل عين خلال الأربعين سنة الأولى من القرن الجديد خمسة لجان لإصلاح التعليم بجامع الزيتونة، الأولى كانت سنة1316هـ/1899م برئاسة الوزير محمد العزيز

1تراتيب التدريس، مرجع سابق، ص ص10، 20.
2نفسه، ص20.

بوعتور، واللجنة الثانية كانت سنة1328هـ/1911م برئاسة وزير القلم والاستشارة الباش كاتب الطيب الجلولي، ولجنة الإصلاح الثالثة كانت سنة1342هـ/1925م برئاسة الوزير مصطفى دنقزلي، واللجنة الرابعة كانت سنة1349هـ/1932م برئاسة الوزير خليل بوحاجب، واللجنة الخامسة سنة 1357هـ/1940م برئاسة وزير القلم والاستشارة الباشا كاتب أحمد بن الرايس[1].

بالإضافة إلى ما سبق عرفت تونس ظهور المدارس الأوروبية ومدارس اليهود ومن ذلك مدرسة القسيس فرانسيس التي تهتم بالعلوم الرياضية واللسان العربي والفرنسي والإيطالي بينما لم يتجاوز تعداد تلاميذه الخمسين تلميذا، وهناك مكتبان آخران للفرنسيين يسميا مكتب الفرير، ويبلغ عدد تلاميذها حوالي أربعمائة تلميذ، وكذا مكتب للإيطاليين به حوالي مائتي تلميذ، ومكتب لليهود به حوالي تسعمائة تلميذ يهتم بتعليم الرياضيات واللغة الفرنسية والإيطالية والعربية، بالإضافة إلى بعض الفنون والصنائع الأخرى مثل الفلاحة والموسيقى، بالإضافة إلى مكتب للبروتسنتيين يضم حوالي مائتي تلميذ. وأما في المناطق الأخرى فلا نجد إلاّ قليلا من العلوم الدينية كالفقه والعقائد وأشهر المناطق بذلك القيروان وصفاقس والمنستير وسوسة وجربة والكاف وباجة وبنزرت، كما يوجد ببعض زوايا الصالحين بالقبائل بعض من القراءة والكتابة والفقه، كما أن الكتاتيب كانت واسعة الانتشار وتضم حوالي اثني عشر ألف تلميذ إلاّ أن التعليم في المكاتب الابتدائية كان قاصرا بحيث يبقى التلميذ بها عشر سنوات ولا يحصل على حسن القراءة والكتابة[2].

1محمد بن الخوجة، **تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد**، المطبعة التونسية، تونس، 1939، ص ص53، 60.

2 بيرم الخامس، مرجع سابق، ج2، ص ص701، 702.

ثالثا) جهود العثمانيين في تطوير التعليم بتونس:

انتشرت بالبلاد التونسية العديد من المدارس التي تميزت بمستواها العلمي وببرامجها القيمة التي حافظت على تقاليدها الحفصية والأندلسية واتصالها الوثيق بالمشرق، كما لقيت هذه المؤسسات والقائمين عليها اهتمام ورعاية خاصة من الحكام، وكان أشهرها جامع الزيتونة الذي كان يحظى بمكانة مميزة رغم منافسته من المدارس والزوايا التي أنشأها الحكام وأهل البلد، ومنها المدرسة المرادية التي أسسها مراد باي الثاني سنة1084هـ/1673م في مكان الفندق الذي كان يقيم به الانكشارية، وجعل بها عدة بيوت لإقامة الطلبة الوافدين عليها من الآفاق والذين ليس لهم بمدينة تونس مكان يأوون إليه، والمدرسة اليوسفية التي بناها يوسف داي[1] إلى جانب الجامع الذي يحمل اسمه أيضا سنة1121هـ/1709م والحسينية التي أسسهما أيضا يوسف داي سنة1128هـ/1716م، مثلما أسس المولى حسين بن علي تركي مدرسة الجامع الجديد عام 1139هـ/1726م ومدرسة النخلة في مكان فندق قديم قرب جامع الزيتونة عام1126هـ/1714م كما أسس المدرسة الحسينية الصغرى سنة1128هـ/1716م[2]، وعرف بتقديمه لإحسانات كثيرة خص بها عدد من الزوايا، خدمة للعلم ورعاية لأهله وتمكينا لملكه بين الرعية[3].

وأسس الباشا علي باي الأول مدرسة حوانيت عاشور1742م التي بنيت وقفا على طلبة المذهب المالكي، ورتب بها درسا لرواية الحديث

1هو رابع دايات تونس وقد شهدت تونس في عهده عديد الإنجازات، مثلما اعيد بفضله الهيبة للسلطة القائمة داخليا من خلال القضاء على تمرد القبائل وخارجيا من خلال ترسيم الحدود مع إيالة الجزائر، **للمزيد:**

Alphonse ROUSSEAU, ANNELES TUNISIENNES ou Aperçu Historique sur la régence de Tunisie, Bastide libraire éditeur, Alger, 1864 , P P43 ,44.

2بن الخوجة، مرجع سابق، ص ص173، 194.

3المنصف الشربطي، **الإحسانات الموزعة على الزوايا في القرن الثامن عشر الدلالات السياسية والاجتماعية والدينية**، المجلة التاريخية المغاربية، س27، ع99-100، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، 2000، ص ص551، 552.

الشريف، وجعل بها خزانة للكتب وأوقاف كافية لرعاية شؤون المدرسة وتحبيس دار للسكنى على إمام المدرسة، بالإضافة إلى المدرسة الباشية1752م التي جعلت وقفا على طلبة العلم من الحنفية، واشترط أن يكون المدرس من الحنفية وأن يكون هو إمام الصلوات الخمس بمسجد المدرسة، وقد ضمت أوقافها 46عقارا وريعا، وخصص بجوارها دار لسكنى الإمام[1].

كما أسس المدرسة السليمانية 1168هـ/1755م (نسبة لاسم ابنه سليمان الذي قتله أخوه عن طريق سم دسه له في القهوة) ومدرسة بير الحجار التي أتم تأسيسها صهره بعد وفاته عام1170ه/1757م، والمدرسة الجديدة 1190هـ/1776م التي اشتهرت بالحسينية الكبرى وتأسست على يد الباشا علي باي الثاني وهي من أكبر وأفسح المدارس التي عرفها العهد الحسيني وقد ضمت ما يزيد عن أربعين بيتا، ومدرستا صاحب الطابع (1229هـ/1813م) اللتان أسسهما الوزير يوسف خوجة صاحب الطابع إحداهما لقراءة العلوم والأخرى للتجويد ووقف عليهما أوقافا كافية، والمدرسة البشيرية التي تأسست على يد الباشا حسين باي الثاني سنة1240هـ1824م بزاوية الولي سيدي محمد البشير الزواوي وكان يقيم بها الطلبة من أبناء شرفاء زواوة أتباع الطريقة الرحمانية، ومدرسة سيدي شيحة التي أسسها الوزير مصطفى خزندار سنة1269هـ/1852م وتعطل النفع بها، ومدرسة الشيخ محمد بن ملوكة التي أسسها المشير محمد الصادق باي سنة1276هـ 1859م وسميت باسم الشيخ محمد بن ملوكة وجعلت فيما بعد معهدا للتعليم العصري عام 1303هـ/1885م في عهد المولى علي باي الثالث وصار اسمها المدرسة العلوية نسبة لإسمه.

بالإضافة إلى المدارس التي أسسها الأهالي والميسورين الحال مثل المدرسة المتيشية1117هـ/ 1705م التي أسسها أحمد بن متيشة وهو

1بنبلغيث، فصول ...، مرجع سابق، ص105.

أحد رجال الدولة في عهد حسين بن علي تركي، ومدرسة الزاوية الباهية1160هـ/1747م التي أسسها الشيخ أحمد الباهي زمن الوالي علي الأول بن محمد باي، والمدرسة الجاسوسية قبل سنة1178هـ/1765م والتي تنسب للشيخ أبي عبد الله الجاسوس والتي أوقف لها المولى علي باي الثاني بن حسين بن علي تركي ثمانية حوانيت بسوق العزافين ، ومدرسة الزاوية القادرية بالكاف التي أسسها الشيخ محمد المازوني سنة1266هـ/1804م والتي لم يكن يشملها نظام المدارس العامة، ومدرسة الشيخ بلخير التي أسسها الشيخ محمد بلخير الساحلي سنة 1290هـ وتعطل النفع بها[1].

كما اعتنى بايات الدولة المرادية قبل ذلك بمراكز العلم منذ زمن الداي أحمد خوجة(1050هـ/1630-1673م) الذي عمل على إحياء المدرستين الحفصية والشماعية والعنقية بعد خرابها[2]، وجعلوا بها بيوت لإقامة الطلبة مع تحبيس الكتب للقراءة والمطالعة[3] كما أسسوا أحباس كثيرة شكلت إيراداتها موردا للمدرسة تصرف من خلاله رواتب المعلمين وترعى شؤون المدرسة ومنتسبيها[4]، مثلما اعتنى ولاّة الدولة الحسينية بالكتب فقد تم احصاء 2726مجلدا بمسجد الباردو سنة 1814م زمن الباي محمود باي، التي كان يتفاخر بها الأمراء بين أهل العلم ويشيرون على شيوخ المجلس الشرعي بمراجعة كتبها في حال حصول خلاف في مسألة ما، وبمأن الناس على دين ملوكها فقد سار على نفس النهج وزراء الدولة ومنهم الوزير يوسف صاحب الطابع الذي جعل بمسجده بالحلفاوين خزانة عامرة بالكتب من شتى العلوم[5].

1بن الخوجة، تاريخ معالم...، مرجع سابق، ص ص173، 213.
2 محمد العزيز ابن عاشور، **جامع الزيتونة المعلم ورجاله**، دار سراس، تونس، 1991، ص36.
3الحداد، مرجع سابق، ص48.
4أنظر الملحق رقم 01، ص ص347، 348.
5بن الخوجة، صفحات ...، ص300.

ومن مآثر الشيخ حسين بن علي ما رتبه من الدروس بجامع الزيتونة بعدما صارت أحوال العلم سيئة بين الناس، مثلما عزم على تجديد خزانة الجامع من كل الفنون والعلوم واقر لترتيبها نجباء الطلبة من البلاد التونسية وأجرى لهم رواتب، وعلى نفس صنيع الوالي حسين سار خلفه من بعده، فكان الباشا علي باي من أهل العلم وأنصاره، كما اهتم المشير أحمد باي سنة1256هـ/1840م بتعمير الجامع بأنفس الكتب التي أُوقفت على طلبة العلم ورتب للجامع نظاما للتدريس سنة1258هـ/1842م، تحت رقابة أربعة نظار وهم شيخا الإسلام الحنفي والمالكي والقاضيان الحنفي والمالكي، ورتب لشيخا الإسلام رواتب بـ100ريال وللقاضيين رواتب بـ90ريال[1].

كان العلماء بالزيتونة يتلقون رواتبهم على مقادير مختلفة في أيام الولاة المتأخرين من عهد الأسرة الحسينية على غرار الأمير علي باشا الثاني الذي رتب لهم جراية كافية على اعتبار الوقت والحال[2]، حتى جاء زمن المشير أحمد باي[3] الذي كان يتحرى المساواة بين المدرسين في جامع الزيتونة بين أتباع المذهبين فقد رتب لهم رواتب من بيت المال مقدارها ريالين يوميا[4]، ثم زاد في عدد المدرسين سنة1265هـ/ 1848م باثني عشر مدرسا نصفهم من المالكية والنصف الثاني من الحنفية وقد أجرى لهم رواتب بريال واحد يوميا تصرف لهم من أوقاف رواية تنبيه

1بن الخوجة، تاريخ معالم...، مرجع سابق، ص ص38، 39.

2الحشائشي، تاريخ جامع...، مرجع سابق، ص67.

3كان الباي أحمد باشا يضمر في نيته التحديث في البلاد، ومقتنعا في نفس الوقت بأنه لا أمل في التحديث دون مالم تتجه تونس نحو الأخذ بالمعارف الحديثة، ومالم تتجه النخبة نحو الأخذ بالمعارف الحديثة، ومالم توجد نخبة مثقفة تأخذ على عاتقها إدارة الدفة وتسير بالبلاد نحو التقدم، ومن هنا كانت عنايته بالمدارس كبيرة مثلما اعتنى بالعلماء من خلال اقتطاع مبالغ شهرية لهم والعمل على إرسال البعثات العلمية نحو الخارج. **للمزيد أنظر:** سمير أبو حمدان، **موسوعة عصر النهضة خير الدين التونسي**، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1992، ص25.

4 زادت رواتب مدرسي الطبقة الثانية من ريالين إلى خمسة ريالات في اليوم سنة1287هـ/1870م ورفعت جراية الطبقة الثانية إلى ريالين يوميا بأمر من المشير محمد الصادق باي، ومن ضمن ما جاء في قرار رفع جراية المدرسين التأكيد والحث على نشر العلم وضبط أحوال التدريس بجامع الزيتونة. **أنظر:** بن الخوجة، تاريخ معالم...، مرجع سابق، ص42.

الأنام[1] بجامع الزيتونة وكان هؤلاء المدرسين يشكلون الطبقة الثانية من مدرسي الجامع، وكان قد اشترط عند تعيينهم ألاّ يتولوا التدريس بالطبقة الأولى إلاّ بعد المرور على الطبقة الثانية، غير أن هذه القاعدة لم تحترم عند تقديم الشيخ قابادو للتدريس من طرف الباي الذي لبى طلب صهره الشيخ محمد بيرم الرابع، مثلما تم تجاوزها مرة أخرى عند تولية الشيخ الطاهر النيفر مكان والده بموافقة الشيخ بيرم الرابع، قبل أن يقر شيوخ النظارة العدول بضرورة الاختيار عن طريق المناظرة في تولية المدرسين في الطبقة الأولى والثانية[2].

وظل نظام التعليم بالزيتونة على ما تضمنه الظهير الشريف المسمى بالمعلقة المرسومة عباراتها بماء الذهب بجوار باب الشفاء بالجامع والتي ضبط على منوالها المشير الثالث محمد الصادق 1292هـ/1875م أحوال الدروس والمدرسين عند استحداث المكتبة الصادقية المعروفة بالعبدلية وهذا لرغبته الكبيرة نشر العلم والقضاء على كل المعوقات التي تحول دون ذلك[3].

واهتم الوزير خير الدين بعد توليه الوزارة سنة1290هـ/1873م بالبحث عن أسباب التأخر، ورأى أن السبب هو جهل بالعلوم الكونية التي أشرقت أنوارها على أوروبا، وأن العلوم الدينية لم تعد كافية لمجاراة الامم التي بلغت أوج الحضارة بفضل الاكتشافات العلمية ، وأصبح من غير الممكن النهوض بالأمة التونسية دون الاهتمام بنشر العلوم، واقتداء وتأسيا بمنهج محمد علي الذي عزز العلوم العربية بالأزهر وأدخل الفنون الأوروبية في البلاد واهتم بإرسال البعثات العلمية إلى أوروبا وسعى في

1هذه الرواية كانت عليها أوقاف واسعة وهي عبارة عن كتاب احتوى على صيغ صلوات على النبي صل الله عليه وسلم للشيخ عبد الجليل بن عضوم، فجعلت الدولة من تلك الأوقاف جراية للمدرسين الاثني عشر بجامع الزيتونة الذين تم اضافتهم سنة 1265هـ/1848م . **انظر**: بن الخوجة، تاريخ معالم...، مرجع سابق، 41.

2بن الخوجة، تاريخ معالم...، ص ص40، 44.

3نفسه، ص ص44، 45.

ترجمة كتب التاريخ والجغرافيا والطب والحكمة والطبيعة والكيمياء، لهذا أشار على الباي محمد الصادق أن يغتنم الفرصة ويقدم للبلاد صنيع يخلد به اسمه من خلال انشاء مدرسة لتعليم العلوم العربية واللغات الأوروبية وما يتبعها من العلوم العصرية[1].

ومن اعتناء ولاة الدولة بالعلم ما قام به الباي أحمد باشا الذي ورث عن أسلافه مكتبة ضخمة ضمت مجموعة نادرة من المخطوطات القديمة، حيث عمل على تعزيزها بكل جديد كما وجه وكلاءه إلى مختلف أنحاء البلاد التونسية لجمع المخطوطات المتوزعة هنا وهناك وبخاصة في الجوامع والمساجد، من أجل تجميعها في مكان واحد خوفا عليها من التلف والضياع، وهو ما سمح له بجمع أزيد من ألفي مخطوط نادر في الأدب والطب والسياسة والتاريخ والدين والفقه والعلم، ووَظّفَ مجموعة من الوراقين من أجل ترميم الكتب التالفة وتجديدها، وصارت هذه المكتبة ملاذ للكثيرين من أمثال خير الدين الذي كان ميّالا للقراءة وحب المعرفة[2].

وأعيد للزيتونة رصيده من الكتب النافعة في عهد المشير أحمد باي الأول، وفي ذلك قال الوزير ابن أبي الضياف: **"ياله من عمل ذلل صعاب العلوم وراضها، وأنشأ حدائقها ورياضها، وأجرى جداولها وحياضها، وأصاب شواكلها وأغراضها، نسج على أعز مثال، أنهل به ودق العلم وانثال، وسرى ذكره سرى الأمثال"**[3] كما يذكر ابن أبي الضياف أن هذا الوالي كان اهتمامه كبيرا بالعلم وأهله في قوله أنه **"وجه عنايته للعلم الشريف، وأعان طلبته بما بقي أثره، وطاب في الآفاق خبره."**[4] واشترى سائر كتب الوزير حسين خوجة بثمن يقدر بنحو28917ريال[5]، وكتب أخرى أضافها

1ابن الخوجة، صفحات ...، مرجع سابق، ص ص309، 310.
2أبو حمدان، مرجع سابق، ص 26.
3ابن أبي الضياف، مرجع سابق، ص50.
4نفسه، ص49.
5السميراني، مرجع سابق، ص372.

إلى كتب آله من كتب بعض العلماء الأعلام بعد وفاتهم[1] والموجودة بخزانه أسلافه بجامع بيت الباشا وقال فيما نقله ابن أبي الضياف: **"وضعها هنا لا فائدة منه"** وأمر بنقلها من قصره إلى الجامع بحضور المجلس الشرعي وأعيان المدرسين، وأوقفها على طلبة العلم يأخذونها للدراسة والتعلم لفترة لا تزيد عن السنة، وأقام لها وكلاء وحفظة، ولم يزل يقتني الكتب ويلحقها بخزائن الجامع، ومن ذلك كتب خزانة الشيخ ابراهيم الرياحي بعد وفاته سنة1266هـ/1849م[2]، واقتدى به خلفه المشير محمد الصادق من بعده فنقل كتب احمد ابن أبي الضياف التي باعها في حياته وجملتها (1798)مجلدا وأوقفها بالجامع لصالح طلبة العلم وهو نفس الأمر الذي حصل في عهد اخيه علي باي الثالث الذي أوقف خزانته العامرة بثلاثمائة كتاب على الجامع[3].

وسار على نفس النهج رجال الدولة ووزراؤها ومن جملتهم الوزير محمد خزندار[4] (ت1306هـ/1888م) الذي أوقف على الجامع خزانتين عامرتين بالكتب ومنها دائرة المعارف لبطرس البستاني وأوقف الوزير مصطفى بن اسماعيل كتب الفاريق عصمان أمير عساكر المنستير على ما تقدم من تحابيس الزيتونة، وأوقف القائد ابراهيم بن عباس الرزقي مكتبته الخاصة وألحقها بخزانة الجامع، كما سار على ذلك بعض الأعيان

1الحشائشي، تاريخ جامع...، مرجع سابق، ص86.

2ابن أبي الضياف، مرجع سابق، ص50.**انظر أيضا:** السباعي، مرجع سابق، ص182، وكذلك: الحشائشي، تاريخ جامع...، مرجع سابق، ص88.

3بن الخوجة، صفحات ...،مرجع سابق، ص ص303، 304.

4مصطفى خزنه دار يوناني الأصل والمولد، ولد سنة1817م، بيع صغيرا في أسواق اسطنبول ثم بيع مرة ثانية لبايات تونس، فتربى في قصور الحسينيين حيث تعلم الإسلام وعلوم الدين، وبمجرد تولي أحمد باي السلطة اختاره إلى جانبه لمنصب المالية والداخلية ، قبل أن يتقلد في عهد محمد باي الوزارة الكبرى والخارجية، وزاد دوره مع تولي الصادق باي حيث أصبح يتدخل في كل صغيرة وكبيرة وفتح الباب على القروض الأجنبية بعد فراغ الخزينة، وكان يتصرف بنفوذ مطلق في سياسة الدولة، وإليه تعزى مأساة التدهور الاقتصادي والوقوع في حبائل الديون، ونتيجة لتصرفاته استقال خير الدين من وزارة البحر ومصطفى آغا من وزارة الحرب وكذلك حسين ورستم من منصبيهما. **أنظر:** بنبلغيث، مرجع سابق، ص68.

التونسيين من أمثال الشيخ المختار بن عمر شهر قابادو الذي أوصى بإلحاق مكتبته بخزانة الجامع[1].

ومن جهود الدولة ما قام به المشير محمد الصادق باي الذي أنشأ المكتبة الصادقية (العبدلية)سنة1292هـ/1875م بإشارة من المصلح خير الدين باشا، وجعلها بالمكان الذي كانت به المكتبة العبدلية بجامع الزيتونة، وجمع بها ما أمكن جمعه من التحابيس التي كانت مشتتة بالمساجد والأضرحة والمدارس وأضاف إليها الوزير خير الدين ألف(1000) مجلد من خزانة كتبه الخاصة ومن بينها كتب البيارمة الأعلام التي تحمل من التعاليق والحواشي الكثير، وكتب محمد داوود (من رجال المشير أحمد باي) والتي وضع لها قوانين خاصة للانتفاع بها ومن ذلك السماح بالاستنساخ منها دون إخراجها من المكتبة تأسيا بقواعد خزائن الكتب العمومية بأوروبا، وأقف عليها المولى محمد الهادي باي نصف كتبه التي بلغت ثمانمائة ونيف من المجلدات التي حبسها على المكتبة العبدلية ورتبها في دفتر خاص[2]، وعلى نفس النهج سار رجال الدولة من بعده[3].

وفي مجال التعريب سعى ولاة الدولة لترجمة الكتب في مختلف العلوم والفنون خاصة في المجال العسكري، التي كانت تحتاجهم المدرسة الحربية التي كانت تدرس العلوم العسكرية باللغة العربية، وقد ضمت المدرسة العديد من الضباط التونسيين الذين اهتموا بتعريب الكتب خاصة الكتب الفرنسية ومن هؤلاء نذكر:

- محمد بن الحاج عمر الذي شغل منصب نائب مدير المدرسة ثم ملحقا بوزارة الحرب، ونقل عن الفرنسية إلى العربية عدة كتب مثل: ترتيب العسكر وتنظيم الطوابير، رسالة فيما يتعلق بالمدافع، تأليف في علم

1بن الخوجة، صفحات ...،مرجع سابق، ص ص304، 305.
2للنظر في فهرس المكتبة راجع: برنامج المكتبة العبدلية، ج2، المطبعة الرسمية، تونس، 1909.
3بن الخوجة، صفحات ...،مرجع سابق، ص ص306، 307.

السلاح المحمول وكيفية المحافظة عليه، تأليف في تركيب الجيش وبيان أصنافه وضباط أركان الحرب، قانون خدمة المعاقل وترتيب المراكز بها، تأليف في قانون الخدمة الداخلية العسكرية، قانون الجزاء العسكري وكيفية تركيب المجالس الحربية، تأليف في الخدمة العسكرية بالمعاقل في المدن الحربية.

- أمير الأمراء رشيد وهو أشهر الضباط الذين عربوا العلوم العسكرية عن اللغة العثمانية ومنها: أصل خدمة النظام العسكري سنة1274هـ/1857م، ترتيب الشروط المخصوصة للدخول في السلك العسكري سنة1279هـ/1862م.

- أحمد بن عبد الرحمان الذي عرّب كتاب تعليم العسكر الخفيف سنة1842م.

- والقائم مقام أحمد المورالي الذي ألف كتاب قانون خدمة العسكر وكتاب كنز فنون الضباط الصغار.

وكان ضباط المدرسة يأملون في ازدهار التعليم العسكري عن طريق مكتب الحرب وعن طريق حركة الترجمة التي ازدهرت خلال الثلاثين سنة الأولى من انشائه، لكن خلال عهد الصادق باي عرف عدة مشاكل ومعيقات أدت إلى ضعف المدرسة ثم إلغاء نشاطها بسبب التكاليف المالية الباهظة حسب ما قدرته اللجنة المالية التي ضبطت مصاريف الدولة وأدخلت سياسة التقشف على المؤسسات سنة1869م، وكانت علامات العجز قد ظهرت قبل ذلك فقد عجزت الدولة على ارسال بعثة طلابية من ستة أفراد نحو فرنسا سنة1862م واكتفت بإرسال اثنين منهم فقط بسبب تكاليف البعثة[1].

II-الحياة العلمية بطرابلس الغرب:

يرتبط أي نظام تعليمي عموما بأوضاع الدولة وطبيعة نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي وهي من تعمل على ترقيته وتوجيهه

1بنبلغيث، مرجع سابق، ص ص99، 101.

لذلك شكل نظام التعليم بطرابلس الغرب خلال العهد العثماني مظهرا من مظاهر الحياة الفكرية، التي تميزت بها في آخر عهودها مع ظهور التعليم الحديث بالتزامن مع عهد الإصلاحات التي باشرتها الدولة في عديد المجالات على غرار المجال التعليمي إلى جانب التعليم الديني التقليدي(العلوم النقلية).

أولا) التعليم الديني:

لم يكن الاهتمام بالخدمات التعليمية من مهام الدولة ولا من وظائفها إلى غاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبالتالي تركت التعليم وكل المسائل المتعلقة به تحت تصرف الأفراد والجماعات، التي عملت بجهد للحفاظ على ثقافتها العربية الإسلامية وتعزيز تقاليدها المحلية ولم تتأثر يوما باللغة العثمانية ولا بالثقافة التركية[1].

وانتشر التعليم الديني في طرابلس الغرب خلال العهد العثماني بشكل واسع حيث كان صغار السن يقصدون المساجد، لقراءة القرآن والتدرج في حفظه على يد الفقهاء والذي كان يعرف بالتعليم العربي. الذي لقي التشجيع والرعاية من طرف حكام الأسرة القرمانلية، وهو الأمر الذي ساهم أيضا في انتشاره حتى صارت أغلب الوثائق الرسمية للدولة تحرر باللغة العربية بعد ما كانت تحرر سابقا باللغة العثمانية. وأصبح للتعليم وأهله قيمة محترمة لدى أهالي طرابلس، حتى جعلوا لهم يوما يحتفلون فيه بهم؛ ويتم خلاله تكريم المتفوقين من أبناء المدينة.[2]

بينما اقتصر التعليم على المساجد والمعاهد الدينية والزوايا[3] التي ظلت تدرس العلوم الثقافية والعلمية والفكرية المتمثلة في تحفيظ القرآن

1رجب نصير الأبيض، **طرابلس الغرب في كتابات الرحالة خلال القرن التاسع عشر الميلادي**، ط2، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2009، ص230.

2عمر علي بن إسماعيل، **انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا، 1795-1835م**، ط1، مكتبة الفرجاني، بيروت، 1966، ص ص172-173.

3ضافة إلى الدور التعليمي والفكري الذي لعبته الزوايا بطرابلس الغرب فإنها بالمقابل كانت تسعى لنشر أفكار شيوخ الطرق الصوفية التابعة لها، ومن بين العوامل التي ساهمت في انتشار الطرق

الكريم والنحو والفقه والفراض[1] لهذا عرف العهد العثماني تنافسا في إنشاء المساجد التي تخلد أسماء مؤسسيها والتي تعبر عن مدى اهتمامهم بالعلم وأهله، ومن جملة هؤلاء حكام الدولة أمثال درغوث باشا الذي أنشأ مسجدا و كذلك أحمد باشا القرمانلي الذي تحول مسجده إلى معهد كبير ومحمد بك القرمانلي وغيرهم من رجال الدولة وأهل الإحسان[2]، ولم تكد تخلو مدينة أو قرية أو منطقة بطرابلس الغرب إلا ونجد بها زاوية أو مدرسة أو مسجدا أو كُتّابا لتلقين العلوم والمعارف خاصة ما يتعلق بالقرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة، وأما من كانت أحوالهم ميسورة فإنهم يتموا دراستهم العليا بالأزهر أو الزيتونة، ثم يعودوا إلى مناطقهم للمساهمة في الحركة الثقافية والفكرية[3]، كما شكلت الرحلات العلمية شرقا وغربا مصدر من مصادر التنوع الثقافي والفكري في طرابلس الغرب بحكم العلوم التي كان يتلقاها هؤلاء الطلبة في المعاهد التي قصدوها وبما رجعوا به من كتب ورسائل، كما ساهم الموقع الجغرافي للبلاد في طريق الحج حيث ينزل بها العلماء، ويحدث التلاقح الفكري والثقافي وهو ما يشكل فرصة لطلبة العلم للاحتكاك بهم والأخذ من علمهم[4].

الصوفية بطرابلس الغرب هو أن الحكام لم يكونوا بالمستوى العلمي والثقافي الذي كان عليه شيوخ هذه الطرق والزوايا، بالإضافة إلى سياسة المهادنة خوفا من تأليب أتباع هذه الطرق على الحكام، ومن أشهر الطرق الصوفية بطرابلس وأكثرها انتشارا: الطريقة القادرية والشاذلية والزروقية والسلامية والمدنية والعيساوية والرفاعية والسنوسية وهي الأشهر في البلاد لكثرة مريديها ولدورها السياسي. **للمزيد أنظر**: الأبيض، مرجع سابق، ص ص238، 244.

1علي مفتاح ابراهيم منصور، **تاريخ ليبيا الثقافي والديني والاجتماعي من خلال الرحالين العرب والأوروبيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر 1700- 1900م**، رسالة دكتوراه غير منشورة، موسم 2006-2007م، جامعة الجزائر، ص529.

2 رأفت غنيمي الشيخ، **تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديث**، ط1، دار الحقيقة، بنغازي، 1972، ص89.

3منصور، مرجع سابق، ص534.

4شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي **عصر الدول والإمارات ليبيا- تونس- صقلية**، دار المعارف، القاهرة،1992، ص63.

وأما نظام التدريس بالكتاتيب فإن قبول الطلبة لم يحدد بسن معينة، حيث يبدأ الصبية بالتعرف على الحروف فيحفظوها بحركاتها ورسمها وطريقة كتابتها على الألواح الخشبية، قبل أن يتم تلقينهم السور القرآنية وهكذا حتى يتمكنوا من حفظ القرآن كاملا، ويتم تمويل الكتاب من ميزانية الأوقاف ومن جملة ذلك كتاب جامع الدروج الذي أوقفت عليه عشرون(20) محلا تجاريا لسد حاجياته ودفع رواتب شيخه ومصاريف طلبته[1] ويعتبر التعليم في الكتاتيب أول درجات التعليم الديني التي تسبق التعليم في الزوايا والمداس القرآنية، والذي لم يلق أي اهتمام من الولاة شأنه شأن مراكز التعليم الأخرى واكتفت فقط بتسجيل هذه الكتاتيب، حيث تذكر الإحصائيات أن عدد الكتاتيب في بنغازي عام 1284ه/1883م قد بلغ ثمانية كتاتيب فقط وأن عدد تلاميذها لم يكن مستقرا، ولم تكن مناهج التعليم في الكتاتيب تقوم على أساس علمي أو تربوي، بل كان الفقيه يسعى لأن يعلم الصبية النطق الصحيح للكلمات ثم يكلفهم بحفظ الآيات التي يعرضوها أمامه في اليوم الموالي[2].

وإلى جانب الكتاب وجدت الزوايا في مختلف المدن وعلى طول الطرق التجارية الصحراوية وأما المساجد التي كان يقصدها طلبة العلم كان يقصدها أيضا الفقهاء والأئمة الذين يقدمون دروس وخطب وقد شكلت طيلة العهد العثماني لولاية طرابلس الغرب مراكز الثقافة التي عملت على نشر العلوم والمعارف[3]، ومن جملة مؤسسات التعليم التقليدي التي عرفتها طرابلس الغرب معهد أحمد باشا القرمانلي بطرابلس والمعهد الأسمري بزليتن ومعهد الزروق في مصراتة ومعهد الجغبوب وبعض الزوايا في الجبل الغربي، حيث كان يتلقى الطلبة تصانيف الفقه والحديث وعلم الكلام وعلوم اللغة وما أمكن من الشروح والحواشي، حتى إذا انهوا هذه المرحلة يرتحلوا إلى الأزهر أو الزيتونة، وهذا بسبب خلو البلاد من

1 الأبيض، مرجع سابق، ص231.
2غنيمي، مرجع سابق، ص ص107، 110.
3 الأبيض، مرجع سابق، ص231.

معاهد عليا للدراسات[1]، وكانت تضم الكثير من الكتب حيث يذكر الحشائشي في رحلته أن خزانة الكتب في معهد الجغبوب تزيد عن الثمانية آلاف مجلد في التفسير والحديث والأصول والتوحيد والفقه وغيرها من الكتب العقلية[2].

وكانت دور العلم من مدارس قرآنية ومساجد وزوايا يتم تمويلها في الغالب من تبرعات المحسنين والعائلات الميسورة ومن فوائد الأوقاف التي كان يسعى الطرابلسيون إلى دعمها والوقوف على خدمتها وتقديسها لدرجة عدم التفريق بين حرمة المساجد وحرمة أموال الأوقاف[3]، كما ظهرت في البلاد مدارس جديدة ذات أنماط عثمانية في الهندسة والعمران لكنها حافظت على نمطها التعليمي التقليدي مثل مدرسة عثمان باشا1654م[4] ومدرسة أحمد باشا1738م ومدرسة الكاتب1769م ومدرسة قرجي1834م ومدرسة ميزران وكان يرتادها التلاميذ للتعلم من بعد صلاة الفجر إلى صلاة العصر وتستغرق الدراسة بها سبع سنوات، ثم يؤهل تلاميذها لاستكمال دراستهم في الأزهر أو جامع الزيتونة أو القرويين بفاس[5].

---

1 أحمد عمران بن سليم، **المقالة في ليبيا نشأتها وتطورها خلال العهد العثماني الثاني1866-1911**، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، د س ن، ص ص60، 61.

2محمد بن عثمان الحشائشي التونسي، **رحلة الحشائشي إلى ليبيا سنة1895**، ط1، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1965، ص ص151، 152.

3عطية بن فتحي الويشي، **العثمانيون بطرابلس الغرب جدلية العلاقة بين المجتمع والدولة**، المجلة العربية للعلوم الانسانية، مج35، ع140، جامعة الكويت، 2017، ص138.

4تقع هذه المدرسة بحي باب البحر في المدينة القديمة، وسميت باسم مؤسسها عثمان باش الساقزلي والي طرابلس سنة1060ه/1650م وقد حافظت على نظام التعليم الديني التقليدي الذي يجري وفق نظام الحلقات في مختلف العلوم الإسلامية، وعلى الرغم من صغر المدرسة إلا أنها استطاعت أن تحفظ لطرابلس موروثها الثقافي الإسلامي. **للمزيد أنظر:** أم السعد أحمد الماني، مذهب **المالكية في عهد الخلافة العثماني في ليبيا دراسة تاريخية**، مجلة الجامعة الأسمرية، ع2، 2019، ص ص61، 62.

5عفاف البشير عيسى، **الإصلاحات العثمانية وأثرها في تعليم الفتيات في العصر العثماني الثاني 1835-1911م دراسة تاريخية وثائقية**، المؤتمر الدولي الخامس، العرب والترك عبر العصور، د م ن، د س ن، ص452.

وفي أواخر العهد العثماني أصبح هذا النوع من التعليم ينتشر بشكل واسع لدرجة أنه لا يوجد حي أو مركز سكني يخلو من كتاب يأوي إليه الطلبة لتعلم القرآن ومبادئ العربية قراءة وكتابة، مثلما انتشر في المناطق غير الحضرية ورغم ما يعاب عليه من كونه لم يكن مواكبا لمتطلبات العصر ولم يكن منفتحا على الثقافات الأخرى غير أنه كان بمثابة الغذاء الروحي للمجتمع الطرابلسي الذي أخرجهم من الجهل ولم يسمح للتأثيرات الخارجية سواء الإيطالية أو غيرها من أن تتغلغل فيه[1].

غير أن بعض من زار طرابلس الغرب رأى أن ولاة الدولة لم يشجعوا على المنافسة العلمية والذي جاء ذكره في الرحلة الناصرية **"أن أئمتها مع نظافتهم وديانتهم وحسن أخلاقهم لا يقيمون بها مجالس العلم والتدريس غافلين عن المنافسة في هذا الأمر النفيس، وكأنها عليهم تعذرت، أو عادة عندهم قد تقررت، سوى فرد من الناس بدا في جنح ليلهم كالنبراس"**[2]

لذلك عرفت طرابلس الغرب انتشار واسع للزوايا التي ظلت تشكل منذ زمن مراكز للدعوة وتقوم بأدوار تعليمية وثقافية رائدة[3] فالتعليم في الزوايا هو أرفع درجة من التعليم الذي تقدمه الكتاتيب وأقل من مستوى التعليم في المدارس[4] وهي لا تختلف في وظيفتها وأهدافها التعليمية وأدوارها الاجتماعية عن نظيراتها في البلاد المغاربية والعالم الإسلامي، بما أنها أقدم المؤسسات التعليمية التي عرفها البلد و كانت منتشرة في العديد من القرى والمدن والواحات لاسيما في مناطق غدامس

1 الأبيض، مرجع سابق، ص ص230، 231.

2أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الناصرية الكبرى**، تح المهدي الغالي، ط1، ج1، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، المغرب، 2013، ص331.

3غنيمي، مرجع سابق، ص94.

4 محمد الهادي أبو عجيلة، **سياسة حكام الأسرة القرمانلية وأثرها في ظهور وتطور الحياة العلمية في إيالة طرابلس الغرب 1711-1835م**، مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية، الجامعة الأسمرية الإسلامية بزليتن، ع11، 2007، ص 16.

وهون وبني وليد وترهونة وطرابلس وسوكنة وقماطة وجبل نفوسة والجبل الأخضر، وقد لعبت دورا بارزا في تحفيظ القرآن ونشر العلم والثقافة الإسلامية والمحافظة على اللغة العربية، وكان بناءها يتكفل به الأهالي الذين يوفرون المواد الأساسية في عملية البناء ويساهم في ذلك حتى النسوة والأطفال، ويدعم ذلك الأعيان الميسورين الحال من خلال دفع بعض المصاريف الواجب سدادها.[1]وقد انتشرت بشكل واسع في البلاد حيث تذكر المصادر أن بنغازي وحدها كان فيها ما يزيد عن الثلاث مائة زاوية وهو ما جعلها تلعب دورا مهما في الحركة الفكرية في البلاد[2].

وتتميز الزوايا بصفات سياسية وتجارية وعسكرية أيضا فمن الجانب السياسي نلاحظ أنها تنتشر في الداخل أكثر من السواحل، وهذا راجع إلى رغبة مشايخ الطرق الصوفية وعلى الخصوص أتباع السنوسية في الابتعاد عن مواجهة العثمانيين، لذلك نجد أن أغلب الزوايا التابعة للسنوسية تتواجد في عمق الصحراء بعيدا عن نفوذ العثمانيين، وإلى جانب ذلك كانت الزوايا تحضي بأهمية تجارية واقتصادية؛ فقد أقيمت معظمها بجانب الطريق التي يمر بها تجار القوافل المتجهين إلى بحيرة التشاد عبر فزان، والطريق الذي يتجه نحو تمبكتو عبر غدامس، وكذا الطريق المتوجه نحو دارفور عبر واحة الجفرة، وكانت طرق القوافل تعد بمثابة مورد اقتصادي هام تصب إيراداته في صالح الزاوية، كما كانت الزوايا تشجع أيضا مريديها على ممارسة التجارة، ولا تقل الأهمية العسكرية عن ما سبق فقد كانت تبنى هذه الزوايا على أماكن مرتفعة حتى تمكن من المساهمة في الدفاع عن البلاد في حال حدوث غارات أجنبية[3].

1فوزي صالح الشريف، **دور الزوايا في الحياة الاجتماعية بالمجتمع الليبي**، مجلة السراج في التربية وقضايا المجتمع، جامعة الزنتان، ع7، 2018، ص30.

2 منصور مرجع سابق، ص531.

3علي محمد الصلابي، **تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا**، ط3، دار المعرفة ، بيروت، 2009، ص ص83-84.

أما الوظائف الرئيسة التي كانت تقوم بها الزاوية فهي نشر مبادئ وأحكام الشريعة الإسلامية بين الناس من خلال التربية الدينية للصغار وتكوين الدعاة، كما كانت بالموازاة مع ذلك تدعوا إلى الالتزام بالأخلاق الحسنة وتجنب الرذائل، والتنبيه من الانسياق وراء تيار غلاة المتصوفة، أما مناهجها فكانت تحتوي على جميع العلوم الإسلامية من التوحيد والتفسير والحديث والفقه، والفرائض، إضافة إلى النحو والصرف والبلاغة وغيرها من فنون الأدب[1]، كما أن مستوى التعليم بالزوايا كان أعلى من مستوى التعليم بالكتاتيب والذي يمكن أن يوازي التعليم الثانوي في الزمن الحاضر، بحيث أن خريجيها يتولون مهام الدعوى في المناطق الجبلية والصحراوية مثلما يتولون التعليم بالكتاتيب وكذا إلقاء دروس الوعظ والإرشاد في المساجد وإليهم يرجع الفضل في نشر الإسلام واللغة العربية في المناطق الصحراوية البعيدة[2].

وكان يتولى التعليم في الزوايا شيوخ أصحاب شهرة علمية ودينية، تخرج أغلبهم من المعاهد العلمية الكبرى كجامع الأزهر بمصر والزيتونة بتونس أو القرويين بالمغرب، بينما يتم التعليم على طريقتين الأولى تدعى بطريقة الالتزام والتي تتطلب تأليف معين يعرف بالمصنفات أو الشروح، وأما الطريقة الثانية فهي طريقة السؤال والجواب، والتي تنتهي بعرض الطالب أمام شيخه حتى ينال شهادة التخرج التي كانت تعرف بالإجازة، وكان الطلاب يتفاخرون بالشيوخ الذين أخذو العلم عنهم وتخرجوا على أيديهم، وبذلك عرفت طرابلس تيارات مختلفة ومزيج من العلوم التي أثرت الحياة الفكرية، وكان من بين خريجي هذه المراكز العلمية من يسعى لاستكمال دراسته في المعاهد الكبرى ومنهم من يلتحق بالوظائف

1الصلابي، مرجع سابق، ص ص85-86.
2غنيمي، مرجع سابق، ص96.

التي كانت تناسب مستوياتهم العلمية في المساجد والكتاتيب والمدارس، أو يشتغلون كتابا في المحاكم الشرعية[1].

وكان للزوايا أدوار اقتصادية واجتماعية إلى جانب دورها التعليمي فقد كانت تدعوا مريديها إلى تعلم الحرف والصنائع، وفي نفس الوقت كانت تمارس التجارة مع القوافل التي تمر بها، مثلما كانت تدعوا القبائل التابعة لها إلى تعزيز التكافل الاجتماعي بين أفرادها[2]ومن أشهر الزوايا التي عرفتها الولاية خلال العهد القرمانلي زاوية الشيخ عطية بطرابلس وزاوية الشيخ يعقوب والزاوية الكبيرة وزاوية أحمد زروق بمصراتة وزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر بزليتن وزاوية الشيخ الدوكالي بمسلاتة وزاوية الشيخ السوداني ببني وليد وزاوية الشيخ النعاس بتاجوراء وزاوية أولاد سهيل بالزاوية وزاوية شعيب بطرابلس وزاوية عبد الله الماعزي التي كان إنشاؤها بمساهمة القرمانليين مثلما كانت لهم مساهمة في إعادة ترميم زاوية ابن غلبون بمصراتة ومساهمتهم في زاوية آل حامد في الزاوية[3].

ومن أشهر الزوايا بالجبل الأخضر نذكر زاوية أبي ماضي التي كانت تدعى بالأزهر الصغير لكثرة روادها حيث كان يقصدها طلاب العلم من شتى قرى الجبل ونواحيه بل ومن جميع أنحاء البلاد، لشهرة شيوخها ومنهم نذكر الشيخ أبي يوسف والشيخ الطاهر النعاس وغيرهم، وزاوية العالم المشهورة بزاوية الباقول نسبة إلى "واد الباقول" القريب منها والتي تم تأسيسها من طرف الأهالي في منطقتي الريانية والخلائفة عن طريق جمع التبرعات، وكان لهذه الزاوية أوقاف كثيرة تعود أغلبها إلى أهالي "ورجين" وهو الذي تنص عليه وثائق الأوقاف الخاصة بممتلكات الزاوية، أما روادها فإن الآثار تذكر منهم عدة رجال مشهورين تولوا القضاء

1أبو عجيلة، مرجع سابق، ص ص18، 19.
2الصلابي، مرجع سابق، ص ص86-87.
3أبو عجيلة، مرجع سابق، ص 17.

والإفتاء، كانوا قد تعلموا وعلموا بها وتركوا آثار علمية وأدبية ماتزال شاهدة إلى الآن[1]، إضافة إلى زاوية طبقة1272ه/1855م وزاوية الباروني(مدرسة البخابخة)1213ه/1798م وزاوية الطواهرية 1200ه/1785م، وزاوية السني التي توفي مؤسسها سنة1294ه/1877م، وزاوية قرزة وزاوية أبي الخير سنة1281ه/1864م وزوايا أخرى كانت قد لعبت دور مدارس لتبقين العلوم وتحفيظ القرآن وبعضها تضم غرف لمبيت الطلبة القادمين من مناطق بعيدة[2].

ثانيا) التعليم الحديث:

لم ينل التعليم عموما العناية اللازمة من الدولة إلا في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وجاءت هذه العناية كنتيجة لحركة الإصلاحات التي باشرتها الدولة العثمانية، مثلما لم يكن التعليم والخدمات التعليمية إلى غاية منتصف القرن التاسع عشر ضمن اختصاصات الدولة وإنما أوكلت ذلك إلى الأفراد والجماعات، وأوكلت مهمة انشاء المدارس والإنفاق عليها للسلاطين والولاة والميسورين والوجهاء، واقتصر التعليم قبل فترة الإصلاحات على التدريس في الكتاتيب والمدارس القرآنية ومدارس الإرساليات التبشيرية، قبل أن تصدر حكومة الباب العالي في 1846م قرار بإجراء إصلاحات شاملة في الحركة التعليمية، وإنشاء مؤسسات تعليمية حديثة في الولايات، بعدما قدمت اللجنة التي كونتها الحكومة العثمانية في أوائل 1845م تقريرا عن أوضاع التعليم ومؤسساته اقترحت فيه أن تقوم الدولة بإنشاء مجموعة من المدارس الابتدائية والرشدية وجامعة ومجلس دائم لشؤون التعليم العام[3] وكان تأسيس إدارة المعارف في اسطنبول قد

1عبد الحميد عبد الله الهرامة، **فصول من تاريخ ليبيا الثقافي**، أصالة للنشر والتوزيع، بيروت، 1998، ص ص27، 30.

2للمزيد انظر: الهرامة، نفسه، ص ص43، 80.و غنيمي، مرجع سابق، ص ص96، 97.

3 جميل موسى النجار، **السياسة التعليمية العثمانية وانعكاسها على ولاية طرابلس الغرب من عهد الوالي أحمد عزت باشا إلى نهاية الحكم العثماني1858-1911م**، مجلة جامعة الملك سعود للآداب، جامعة الملك سعود –كلية الآداب، مج14، ع1، 2002، ص60.

لعب دور مهم في بعث حركة التعليم وكذا تأسيس إدارات للمعارف في الولايات من أجل تنظيم التعليم والإشراف عليه[1].

وكان صدور قانون المعارف العثماني1869م قد وضع أساسا للنظام التعليمي المتكامل في ولايات الدولة، وعالجت مواد القانون البالغة مائة وثمانية وتسعين مادة مختلف جوانب التعليم، وقسمت المدارس الحكومية إلى خمسة أقسام هي الابتدائية والرشدية(المتوسطة) والإعدادية والسلطانية(الثانوية) والعالية[2]، كما تضمن مناهج الدراسة ومدتها ومستويات معلميها وامتحاناتها وإجازاتها ووسائلها الانضباطية وأمورها المالية، وما يتعلق أيضا بالمدارس العالية كدار المعلمين ودار الفنون(الجامعة) ومجالس معارف الولايات، وكل ما يخص المدارس الأجنبية والطائفية والأهلية، مثلما نص على إلزامية التعليم في المرحلة الابتدائية، لكنه اشترط على الأهالي بناء المدارس الابتدائية ودفع رواتب المعلمين وتحمل المصاريف المختلفة المتعلقة بالعملية التعليمية، وقد روعي في صياغة هذا القانون توصيات وزير التعليم الفرنسي الذي زار استانبول عام1860م، غير أن تطبيق مواد هذا القانون سار بوتيرة بطيئة في بعض الولايات كطرابلس الغرب[3].

وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر كانت تشكيلات المدارس المدنية قد استقرت على النحو الآتي:

- مدارس ابتدائية مدة الدراسة بها ثلاث سنوات.
- مدارس رشدية مدة الدراسة بها ثلاث سنوات أيضا.

1هيثم محي الدين طالب الجبوري وزينب حسن عبد الجبوري، **أثر حركة الإصلاح العثماني في تطور الحركة الفكرية في الوطن العربي في العهد العثماني المتأخر**، مجلة جامعة بابل، مج23، ع3، 2015، ص ص1449، 1450.

2 نفسه، ص1450.

3 النجار، مرجع سابق، ص61.

- مدارس اعدادية وكانت نوعين: النوع الأول اعداديات الألوية مدة الدراسة فيها خمس سنوات الثلاثة الأولى منها رشدية، والنوع الثاني اعداديات الولايات مدة الدراسة فيها سبع سنوات الثلاثة الأولى منها رشدية مدارس زراعية ومدارس صناعية ودور للمعلمين[1].

لقد ظهر اهتمام الدولة بالتعليم بشكل ملحوظ خلال العهد العثماني الثاني(1911/1835م) بعدما أحست باقتراب الخطر الاستعماري الأوروبي خاصة بعد سقوط تونس والجزائر في يد الفرنسيين، لذلك شرعت في اصلاحات واسعة مست الجوانب الحضارية والعسكرية، وبذلك جرى تبني سياسة تعليمية جديدة في البلاد ظهر من خلالها التعليم الرسمي، ففي عام 1878م صدر قانون إقرار التعليم الإلزامي[2] ومع نهاية القرن التاسع عشر (1898م) رصدت الدولة مبلغ 25212 قرش كمصاريف للمدارس والمعلمين، وخصص مجلس المعارف في 1909 مبلغ 40 ألف قرش لإنشاء بعض المدارس الابتدائية بطرابلس ، بينما خصصت في 1911م مبلغ 17500قرش لبناء مزيد من المدارس والذي لم يكن كافيا[3].

وكانت المدارس الابتدائية تستقبل الأطفال من سن سبع سنوات إلى إحدى عشر سنة، يقوم بتدريسهم معلمون يحملون شهادة التدريس من دار المعلمين أو شهادة الكفاءة التي يتم الحصول عليها بعد اجتياز امتحان أمام لجنة مختصة، ومن المدارس التي عرفتها الولاية مدرستان واحدة للبنات وأخرى للذكور بعاصمة الولاية ومدرسة حرة تعرف باسم مدرسة العرفان، ومدرسة ابتدائية بالخمس ومدرستان ببن غازي ومدرسة بدرنة[4].

1الجبوري، مرجع سابق، ص1450. **انظر أيضا:** غنيمي، مرجع سابق، ص131.
2 الأبيض، مرجع سابق، ص ص233، 234.
3 الجميلي، مرجع سابق، ص 5.
4 نفسه، ص 5.

ومن نماذج الإصلاح المدرسي في الجوانب العسكرية والمدنية التي ظهرت بطرابلس الغرب خلال هذه المرحلة نذكر ما يلي:

1-المدرسة العسكرية1857م:

من بين الإصلاحات التي أطلقتها الدولة العثمانية مع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر هي اصلاح التعليم خاصة في المدارس العسكرية التي عرفت العلوم الحديثة كالطب والصيدلة التي يحتاجها الجيش كثيرا، اضافة إلى مدارس الفنون البحرية والهندسة الملكية التي ظهرت أواخر القرن الثامن عشر، غير أن رجال الجيش لم يكتفوا بهذه المدارس العسكرية المتخصصة بل كانوا يطالبون بضرورة انشاء مدارس ثانوية عسكرية لإعداد الطلبة للولوج لهذه المدارس المتخصصة، والتي عرفت انتشار في الولايات التي كانت بمثابة مراكز للجيوش على غرار طرابلس الغرب، التي كانت تحت وصاية نظارة خاصة تعرف بنظارة المكاتب العسكرية[1].

رغم أن المدرسة العسكرية كانت تحت وصاية القيادة العسكرية في طرابلس الغرب، إلاّ أن هذا التعليم الرسمي الحديث الذي ظهر مع نهاية القرن التاسع عشر كان بحاجة إلى ادارة خاصة تقوم بتسيير شؤونه، لذلك تم تكليف لجنة المعارف (معارف قوموسيوني) عام1884م تضم ناظر ورئيس هما في الأصل قاضي الولاية والمفتي على التوالي، وأربعة أعضاء من شؤون الدين، ومن المهام الموكلة لها هو التدخل لمساعدة وحل بعض المشاكل التي تعترض العملية التعليمية في هذه المدرسة مثلما تتدخل في المدارس الرسمية الرشدية الأخرى وهي مسؤولة مباشرة أمام نظارة المعارف بإسطنبول، وتوسعت هذه اللجنة سنة 1897م لتضم الوالي الذي صار مشرفا عنها وكذا المفتي رئيسا لها، مثلما ضمت في عضويتها عدد من الوجهاء وشيوخ المدارس الدينية، قبل أن يعاد تشكيله من جديد

1 الذويبي، مرجع سابق، ص69.

سنة1909م وصار يضم مدير المعارف ومدير دار المعلمين وعدد من معلمي المدارس الرسمية وأعضاء من مجلس إدارة الولاية واستبعد من عضويته رجال الدين[1].

وكانت أول مدرسة أسست لهذا الغرض بطرابلس عام 1274هـ/1857م في عهد الوالي أحمد عزت باشا، وتقبل التلاميذ الذين تتراوح اعمارهم بين 08 و12سنة، وهي تابعة للقيادة العسكرية في مركز الولاية وكل معلميها من ضباط الحامية، وقد بلغ الوالي أحمد راسم باشا من نظارة المكاتب العسكرية باستانبول سنة1887م تعليمات بضرورة ايجاد مكان مناسب للمدرسة العسكرية وملحق تابع لها يخصص لإقامة التلاميذ، فوقع الاختيار على المبنى الذي أقيم على انقاض فندق قديم سنة1883م في منطقة باب البحر وكانت تضم قسما داخليا للتلاميذ القادمين من خارج الولاية ومن بين الشروط المطلوبة لقبول التلاميذ في القسم الداخلي هي :

- موافقة الأبوين.
- أن يكون والده من أصحاب الشرف والحظوة في قبيلته.
- أن يكون التلميذ حسن السيرة والسلوك والذي تثبته الشهادة التي يستخرجها من مجلس إدارة القضاء أو المتصرفية التي يقيم بها.
- يحرم التلميذ المقيم في القسم الداخلي من الترقية إلى رتبة ضابط في حال الرسوب مرتين كعقاب على رسوبه.

بالإضافة إلى شروط أخرى ينبغي توفرها للدخول إلى المدرسة وهي:

- إتمام الدراسة الابتدائية.
- أن يكون التلميذ حافظا للقرآن الكريم.
- الخلو من الأمراض والعاهات.

1 النجار، مرجع سابق، ص 77.

- إجراء اختبار في اللغة العثمانية لتلاميذ المدارس الرشدية المدنية الذين تتوفر فيهم الشروط السابقة ويرغبون في الالتحاق بالمدارس العسكرية والذين يمدد لهم شرط السن إلى غاية الرابعة عشر[1].

ويتخرج التلاميذ منها بعد ثلاثة أعوام، ويتقاضى التلاميذ خلالها منحة دراسية بخمسة وأربعين قرشا وأما منهج الدراسة فهو مماثل لمنهج الدراسة الثانوية مع إضافة المواد المقررة من القيادة العسكرية وهي مقسمة على السنوات الثلاثة كما يلي[2]:

السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة
صرف عربي	نحو عربي	نحو عربي
قواعد فارسي	حساب	مكمل حساب
لغة فرنسية	مختصر جغرافيا	أصول مسك الدفاتر
حساب	أدب	مختصر هندسة
تاريخ الإسلام	لغة فرنسية	جغرافيا عمومي
إملاء تركي	تاريخ الإسلام	قواعد عثماني
حسن خط فرنسي	إملاء تركي	لغة فرنسية
حسن خط تركي	حسن خط تركي	تاريخ الإسلام
الرسم بقلم الرصاص	حسن خط فرنسي	إملاء تركي
/	رسم بالقلم	رسم
/	/	حسن خط فرنسي

كما أدرج في منهاجها مادة الموسيقى العسكرية التي تولى تدريسها مجموعة من الضباط العثمانيين المتخصصين في الموسيقى العسكرية، يلبسون خلال حصتها لباس خاص ويتدربون على آلات نفخية نحاسية، وشكلوا فرقة موسيقية مدرسية من طلبة المدرسة، وبلغ تعداد تلاميذها

1الذويبي، مرجع سابق، ص ص70، 71. **انظر أيضا:** غنيمي، مرجع سابق، ص ص141، 143.
2غنيمي، مرجع سابق، ص ص143، 144.

سنة 1888م ثمانية وتسعين تلميذا، وبلغ عدد التلاميذ الذين يتقاضون منح شهرية تسعة وأربعين تلميذا، ويتولى التدريس بها ضباط من المتخرجين القدماء من أبناء الولاية الذين استكملوا دراساتهم العليا ومن الضباط الذين أوفدتهم نظارة المكاتب العسكرية بإستانبول من مناطق مختلفة من الدولة العثمانية، بينما كان يتوجه خريجي المدرسة ممن يريدون اكمال دراساتهم العليا نحو استانبول بسبب عدم توفر الولاية على مدارس عليا ومنهم من يتم اختيارهم من بين المتخرجين ويتم ارسالهم، وقد واصلت هذه المدرسة في أداء مهامها إلى غاية وقوع الاعتداء الإيطالي على البلاد، وإلى جانب هذه المدرسة تم افتتاح مدرسة ثانية مطلع القرن العشرين بمتصرفية الجبل الغربي سنة1903م، والتي أنشأت بالإعانات التي قدمتها الولاية إضافة إلى تبرعات الأهالي[1].

لكن مع مطلع القرن الجديد(ق20)بدأ العثمانيون في التوجه نحو تأسيس المدارس الابتدائية الحديثة وبدأ انتشارها في المدن الطرابلسية الكبيرة بعد أن تم تعيين مدير للمعارف العامة سنة1899م والذي عمل على تطبيق توجيهات الباب العالي فيما يخص تأسيس المكاتب الابتدائية وتنظيمها على الطراز الجديد، فظهرت عدد من المدارس الابتدائية في المدن الداخلية لتضاف إلى المؤسسات التي ظهرت في المدن الساحلية الكبرى، كما عمل مجلس معارف الولاية الذي تأسس عام1909م على فتح مدارس ابتدائية اخرى والتي خُصِّص لها أربعين ألف قرش إلاّ أنّ ذلك لم يتحقق بسبب الاحتلال الإيطالي للبلاد.[2]

وفيما يخص البعثات الطلابية فإنها كانت شحيحة جدا إذا استثنينا البعثة التي أوفدت إلى الأستانة والتي يعود الفضل فيها إلى أنور باشا رغم أنها كانت رحلة سريعة خصصت للتعليم العسكري، وتم برمجة رحلة ثانية في عهد الخليفة السيد أحمد الشريف لكن حال دونها ضعف ميزانية

1الذويبي، مرجع سابق، ص ص73، 74.
2 النجار، مرجع سابق، ص ص72، 73.

الحكومة واشتغالها بالحرب، وأما الرحلات العلمية نحو الأزهر فكانت قليلة هي الأخرى، لعدم اهتمام الحكومة بها من جهة ومن جهة ثانية الدور الذي لعبه معهد الجغبوب الذي سد هذا الفراغ حيث كان عدد الطلبة المتخرجين منه يقارب خريجي الأزهر، وهو الذي أدى إلى انتعاش الحياة العلمية وظهرت معه طبقة من المتعلمين والأدباء وأصحاب الحرف[1]

2-المدارس الرشدية:

تأسست هذه المدارس بطرابلس في عهد الوالي أحمد عزت باشا(1857-1860م) حيث بنيت واحدة في طرابلس وأخرى في بنغازي، وهي مقسمة إلى قسمين عسكري ومدني وقد ظهرت في البداية كمدارس عسكرية قبل أن يتم إنشاء مدارس رشدية مدنية وهي مرحلة تعليمية ثانية بعد المدارس الابتدائية[2]، يدرس بها التلاميذ أربع سنوات بعد انتقالهم من المرحلة الابتدائية، وكان من أهم الشروط المطلوبة للالتحاق بها هو إتقان اللغة العثمانية، مثلما كان يراعى في طلبتها وضعهم الاجتماعي ولياقتهم البدنية، إضافة إلى عدم تجاوزهم سن الاثني عشر سنة[3]، وكانت هذه المدارس الرشدية في البداية تابعة للقيادة العسكرية بحيث يتولى التدريس بها ضباط حامية الولاية، مثلما كان يتوفر بعض هذه المدارس على أقسام داخلية.[4]

وبدأ نطاق المدارس الرشدية يتسع شيئا فشيئا لتنقسم فيما بعد إلى مدارس رشدية مدنية لتخريج موظفين في المصالح الإدارية، وأخرى رشدية عسكرية لتحضير طلبة المدارس العسكرية العليا، ومع حلول سنة1870م كان بطرابلس الغرب خمسة مدارس رشدية في كل من

1 محمد الطيب بن أحمد ادريس الأشهب، **برقة العربية أمس واليوم**، مطبعة الهواري، مصر، 1947، ص ص 546، 547.

2غنيمي، مرجع سابق، ص141.

3الجميلي، مرجع سابق، ص5

4غنيمي، مرجع سابق، ص141.

طرابلس والخمس وبنغازي ودرنة ومرزق قبل أن يتم انشاء مدرسة رشدية للبنات بطرابلس وأخرى ببنغازي[1] غير أنها لم تكن لتعليم بنات الطرابلسيين وإنما هي مخصصة لتعليم بنات الضباط العثمانيين، باستثناء عدد قليل من بنات الأهالي اللواتي زاولن دراستهن بهذه المدارس من بنات الموظفين وأعيان طرابلس من أصحاب الحظوة في إدارة الولاية، وأهم المواد المدرسة بها هي: القرآن الكريم، علوم الدين، الأخلاق، التاريخ، حفظ الصحة، الهندسة، الإدارة المنزلية، حسن الخط، اللغة العربية، الجغرافيا، الرسم، الحساب، الكتابة، اللغة الفارسية، الإملاء والقراءة، القواعد التركية، والنقش والخياطة، كما كانت التلميذات تزاولن دراستها في نفس المدرسة التي درسن بها المرحلة الابتدائية، حيث تدرس صف احتياطي ثم ثلاث سنوات ابتدائي ثم ثلاث سنوات رشدي[2]، وتشير الإحصائيات أن عدد التلميذات اللائي زاولن دراستهن بمدرسة البنات خلال موسم1909/1908م قد بلغ 45تلميذة[3].

وأمّا اللغة المستعملة في التعليم بالمدارس الرشدية المدنية فهي اللغة العثمانية، كما كان جل معلميها من العثمانيين، وظل التعليم بها مضطربا بسبب رحيل هؤلاء المعلمين نحو أهاليهم في اسطنبول ومنهم من كان يرفض العودة فتبقى هذه المدارس متوقفة إلى حين تعيين من

1 الأبيض، مرجع سابق، ص235.

2منذ تأسيسها ظلت مدرسة تعليم البنات لأكثر من خمسة عشر سنة قبل أن يضاف لها سنة1898م مناهج الدراسة الرشدية لتصبح مدرسة ابتدائية رشدية، بهدف منع بنات المسلمين من الالتحاق بالدارس الأجنبية الموجودة بالولاية والتي تقوم على رعايتها الإرساليات التبشيرية، وبذلك أصدر الوالي قرارا بمنع الضباط من ارسال بناتهم لهذه المدارس وأنه قد تقرر فتح مدرسة رشدية بطرابلس تتولى التدريس بها معلمات مقتدرات استقدمن للتدريس من استانبول، واقتصر بذلك تعليم البنات على هذه المدرسة بالإضافة إلى مدرسة ثانية افتتحت ببنغازي زيادة على مدرسة تعليم الفنون والصنائع التي تقبل اليتامى من أبناء وبنات المسلمين. **للمزيد أنظر**: النجار، مرجع سابق، ص ص73، 74.

3غنيمي، مرجع سابق، ص ص147، 148.

يخلفهم، أما برامج التعليم فهي نفسها المطبقة في المدارس الرشدية العسكرية[1]

وقد أنشأت أول مدرسة إعدادية (تعادل المدارس الثانوية حاليا) بطرابلس سنة1867م وحددت مدة الدراسة بها بأربع سنوات قبل أن تصبح خمس سنوات مع بداية القرن العشرين(1909م) وتقوم مناهج الدراسة بها على التوسع في المواد المقررة بالمدارس الرشدية[2] بالإضافة إلى اللغة الفارسية علاوة على العربية والعثمانية التي يتم التدريس بهما[3]، وقد تميزت هذه البرامج بالشمولية بالنظر لألوان المعرفة والمعلومات المقدمة، كما تضمنت جانبين نظري وتطبيقي وهي نفس البرامج التعليمية التي نجدها في مختلف المدارس الإعدادية في ولايات الدولة[4].

ولم تكن هذه المدرسة تقبل جميع التلاميذ الذي زاولوا الدراسة بالمدارس الرشدية، وإنما كانت خاصة فقط بأبناء الضباط وأبناء الأعيان الذين كانت لهم علاقات مع الولاة ورجال الإدارة[5]، كما ظهرت مدارس عليا متخصصة إضافة إلى هذا النظام التعليمي التدريجي كالمدرسة الرشدية العسكرية ومدرسة دار المعلمين التي افتتحت سنة1901م ومدرسة الفنون والصنائع سنة1898م بالإضافة إلى مدارس أخرى ظهرت قبيل الاحتلال الإيطالي كمدرسة العرفان وهي مدرسة شبه خاصة افتتحت سنة1909م وتذكر المصادر أن المواد التي درِّست خلال موسم1868-1869م هي الرياضيات والعلوم والمواد الاجتماعية بالإضافة إلى اللغات العربية والعثمانية والفارسية[6].

1غنيمي، مرجع سابق، ص146.

2هذه المواد هي: القرآن الكريم وتجويده، علوم دينية(فقه)، حساب، هندسة، علم أشياء، معلومات فنية(تاريخ طبيعي)، معلومات (حفظ الصحة)، الجغرافيا، والتاريخ، **للمزيد أنظر**: غنيمي، مرجع سابق، ص ص150، 151.

3 الأبيض، مرجع سابق، ص235.

4غنيمي، مرجع سابق، ص151.

5نفسه، ص149.

6 الأبيض، مرجع سابق، ص235.

ومع انتشار التعليم الحديث وفق المناهج العصرية بطرابلس الغرب قام الوالي كمال باشا (1908/1883م) وبإيعاز من السلطان عبد الحميد الثاني بإصدار قرار في 21جويلية1898م يقضي بمنع أبناء الضباط في الجيش العثماني من الانتساب للمدارس الإيطالية، وتحويلهم إلى المدارس الحكومية العثمانية ومما جاء فيه: "لقد علمت أن الضباط يرسلون أولادهم إلى المدارس الأجنبية، وحيث أن الحكومة قد فتحت العديد من المدارس التي تسير على المنهج السليم، لذلك لم يبق عذر ولا مبرر لإرسال أبناء الضباط إلى المدارس الأجنبية ويمنع هذا رسميا"[1].

وقد أوضح التقرير الذي صدر عام1902م حالة المدارس بمدينة طرابلس حيث استعرض حالة مدارس البنات وأشار إلى أن أنها لم تكن تتعدى الحجرتين واحدة في الطابق الأرضي والثانية في الطابق العلوي وهما ضيقتان ولا تتوافق مع الموصفات الفنية للمدارس كما أنها تفتقد للتهوية والإنارة بالإضافة إلى الاكتظاظ الكبير الذي تعانيه، لهذا كان إقبال الفتيات ضعيفا على التعليم زادته ظروفهن الاجتماعية، رغم أن الوالي محمد راغب باشا كان قد أصدر فرمانا يأمر فيه بتعليم البنات، الذي اقتصر على تعليم البنات القراءة والكتابة وتحفيظهن القرآن الكريم، وتعليمهن بعض الأمور الفقهية الشرعية. رغم كل هذا فإن عدد المدارس الابتدائية لم يكن يتناسب مع عدد السكان ومع احتياجاتهم، مع وجود مكتب اعدادي حربي ومدرسة ثانوية واحدة ومدرسة للفنون والصنائع، وأغلب مواد التعليم فها باللغة التركية، وكان عدد المتخرجين منها قليلة جدا، إضافة إلى ذلك فقد تعثر التعليم وكان يعاني من تقتير الدولة في الإنفاق، والذي كان له تأثير مباشر على الحياة الفكرية[2].

1الويشي، مرجع سابق، ص143.

2 بن سليم، مرجع سابق، ص62.

3-المدارس الأوروبية:

إلى جانب المدارس الحديثة التي ظهرت في طرابلس الغرب في عهد الإصلاحات عدة مدارس أوروبية نذكر منها المدارس التي كانت تحت اشراف الحكومة الإيطالية:

- مدرسة ابتدائية للبنين مع اقسام مسائية عام1876م وبها 13معلما.
- مدرسة ابتدائية للبنات مع اقسام اضافية للتدريب المهني بطرابلس عام 1878م وبها 12 معلما.
- مدرسة فنية تأسست بطرابلس عام1888م مع قسم طبي ومعمل للتحليل وبها 09معلمين غالبية طلابها من الأتراك.
- مدرسة ابتدائية بالخمس تأسست عام1890م بها05معلمين وفي المساء تتحول لمدرسة لتعليم الكبار غير المتعلمين.
- مدرسة ابتدائية للبنين ببنغازي تأسست عام1888م وبها قسم طبي وقسم مسائي لتعليم الكبار وبها 10معلمين. وكانت هذه المدارس تحت الإشراف المباشر للحكومة الإيطالية وتعمل بنفس المناهج المطبقة في ايطاليا، مع اضافة اللغة العربية واللغة الفرنسية في المدارس الابتدائية واللغة عربية في المدارس الثانوية، وقد بلغ تعداد التلاميذ خلال موسم 1911/1910م 840تلميذ وقدرت مصاريفها بـ45275ليرة سنويا غير أن التعليم في المراحل الثانوية لم يكن متاحا لأبناء طرابلس ماعدا بعض أبناء القادة والضباط العثمانيين وقد تطور نظام التعليم في طرابلس بالتوازي مع التوافد الكبير للأفراد والأسر الإيطالية التي لقيت التشجيع من الحكومة الإيطالية[1].

كما ظهرت مدارس أخرى تقوم على مساعدات الهيئات الدينية الأوروبية ونذكر منها:

1غنيمي، مرجع سابق، ص ص118، 124.

- مدرسة للأيتام بطرابلس من إنشاء المجلس التبشيري الوطني الإيطالي.

- مدارس ابتدائية للبنين وأخرى للبنات بطرابلس وببنغازي ودرنة تابعة للبعثة الكاثوليكية.

مثلما وجدت مدارس فرنسية في طرابلس تقوم بشؤونها الجمعية الكاثوليكية وقد بلغت مصاريفها السنوية 18ألف فرنك، وهي تضم 200تلميذ و400تلميذة، وكانت اللغة الفرنسية هي اللغة الأولى في التعليم والإيطالية ثانيا واللغة العربية ثالثا[1].

4- تعليم المهن والصنائع:

عرف أهالي طرابلس الغرب خلال العهد العثماني التعليم المهني الحرفي والذي كان يتم في أماكن هذه النشاطات مباشرة، حيث كان الأهالي يرسلون أبنائهم إلى أصحاب المهن والحرف للتعلم منهم والعمل معهم ولو بأجر زهيد، وكان هؤلاء الحرفيون يعملون على تلقين هذه الحرفة بأصولها لهؤلاء الصبية، وهو ماساهم في ظهور العديد من الحرفيين والصناع المهرة في مجالات الذهب والفضة والنسيج والصابون والأحذية[2]، غير أنه مع ظهور حركة الإصلاح في طرابلس الغرب تأسست مدارس تختص بالتعليم الفني والمهني مثل مدرسة الفنون والصنائع الاسلامية، والمدرسة الزراعية في السنوات الأخيرة من الوجود الثماني بالبلاد، ولم يكن هذا النوع من التعليم يلقى الاهتمام اللازم من الحكومة، ولعل السبب في أن هذا النوع لم يكن مطلوبا من أبناء الضباط العثمانيين ولا حتى من أبناء الأعيان[3].

1غنيمي، مرجع سابق، ص ص120، 121.
2بن إسماعيل، انهيار حكم الأسرة...، مرجع سابق، ص174.
3غنيمي، مرجع سابق، ص152.

كانت أول مدرسة تأسست من هذا النوع هي مدرسة الصنائع في عهد الوالي أحمد عزت باشا (الولاية الثانية1296ه/1879م)ثم تأسست بعد ذلك مدرسة الفنون والصنائع والتي سميت بالمدرسة الحميدية (نسبة للسلطان عبد الحميد) عام 1898م وكان يديرها ضابط برتبة "يوزباشي" أما مصاريف المدرسة فتقطع من الأوقاف التي أوقفها أهل البر والإحسان، ومن ضريبة الحلفاء ومن مداخيل البلدية، وانطلقت المدرسة في نشاطها في زمن الوالي نامق باشا التي كانت تهدف في أساسها إلى تعليم اليتامى والمساكين والفقراء وتدريبهم على بعض الحرف اليدوية كالنجارة وأعمال المعادن والنسيج والطباعة والتجليد وغيره، وكانت المدرسة الوحيدة التي تجمع بين البنين والبنات، ومن بين الشروط المطلوبة للالتحاق بها؛ أن يكون ما بين 11 و15سنة عند الدخول، وأن يكون يتيما، أن يكون غرضه التعلم وليس الطعام أو الكسوة، وكانت تضم خمس مستويات للتعليم من السنة الأولى إلى السنة الخامسة، وبالمدرسة أيضا قسم خاص بالبنات تتولى تعليمهن ثلاث معلمات للنسيج ومعلمة للتعليم العام ومشرفة والتي تظهر أن البنات كن يرغبن في تعلم حرفة النسيج والسجاد، والتي هي في الواقع حرفة مناسبة لهن، وأمّا هؤلاء المعلمات فيتم تعيينهن من طرف نظارة المعارف باستانبول ويتقاضين مرتباتهن من ايرادات المدرسة[1].

ومن مميزات التعليم في هذه المدرسة أن التلاميذ لا يتحملون مصاريف الإقامة والإطعام إلى غاية إنهائهم فترة التكوين، وكان يعطى كل تلميذ في نهاية كل اسبوع قرش ونصف لاقتناء بعض مستلزماته الشخصية مثلما يعطى عند تخرجه مكافئة بعشر جنيهات وأحيانا يعطى أدوات يستعملها في نشاطه المهني وأحيانا كان يعطى له محل بكامل عدته

1غنيمي، مرجع سابق، ص ص152، 154.

وأدواته، وتتكفل المدرسة بتزويج بعضهم ممن يرغبون من بنات المدرسة[1]، وصارت تلعب أدوار تعليمية وتربوية كبيرة، كما كانت تقبل التلاميذ من مختلف مناطق الوطن حتى بلغ تعداد التلاميذ بها سنة1910م في جميع المستويات 104تلاميذ[2].

كما تأسست المدرسة الزراعية بضواحي طرابلس سنة 1909م وكلفت 4500جنيه تركي وكان بعض تلاميذها يقيمون بالقسم الداخلي، بينما كان يضم برنامجها الدراسي إلى جانب الدروس التطبيقية مواد ذات علاقة باستخراج الزيوت وصناعة الأجبان ورعاية المواشي، ويتولى التدريس بها معلمين يتم ارسالهم من طرف نظارة التعليم بإسطنبول، كما كانت تستورد أدوات التدريب بها بينما لم يكن عدد التلاميذ يتجاوزون 15يلميذا[3].

إلى جانب المدارس السابقة الذكر فقد ظهرت سنة 1901م مدرسة خاصة تسمى مدرسة العرفان يرتادها أبناء الضباط وأبناء الأعيان القادرين على دفع مستحقات تعليم أبنائهم وكان الغرض من إنشائها هو منافسة مدارس الجاليات الأجنبية خصوصا المدارس الإيطالية والفرنسية، وكانت تضم قسم رشدي إلى جانب القسم الإعدادي وينتسب إليها حوالي مائة تلميذ يقوم بتدريسهم سبعة معلمين، أما تعليم البنات فلم يلقى الاهتمام الكافي من الدولة لذلك لم تظهر مدارس خاصة بالبنات في طرابلس، كما أن المدارس الأخرى كمدرسة أبناء العشائر التي ظهرت سنة 1892م كان الهدف منها احتواء رؤساء العشائر وكسب ولائهم فقط، بنفس البرامج المطبقة في المدارس الرشدية المدنية والعسكرية[4].

1راسم رشدي، **طرابلس الغرب في الماضي والحاضر**، ط2، دار النيل للطباعة، القاهرة، 1953، ص 112.
2غنيمي، مرجع سابق، ص ص154، 155.
3نفسه، ص ص156، 157.
4نفسه، ص ص158، 159.

ثالثا) جهود العثمانيين في تطوير التعليم بطرابلس الغرب:

ظهرت بطرابلس خلال العهد العثماني العديد من المدارس العثمانية على غرار مدرسة عثمان باشا الساقزلي(1649-1672م) والتي كانت تعد مركزا علميا هاما في نشر العلوم والمعارف خاصة ما يتعلق بالعلوم الدينية[1]ولم يكن التعليم الابتدائي في طرابلس الغرب من مهام الدولة ولم تكن تتحمل نفقاته، وإنما اقتصر دورها فقط في الإشراف على تطبيق الضوابط واللوائح الخاصة به، مثلما لم يكن من مسؤولية الدولة بناء المدارس، بل اقتصر دورها فقط في حث الأهالي على تعليم أبنائهم، ولم تكن تتحمل مصاريف التعليم والمعلمين[2]. وكان يدوم التعليم في المرحلة الابتدائية ثلاث سنوات يدرس خلالها التلاميذ اللغة العربية واللغة التركية والدين الإسلامي، والتاريخ العثماني، والرياضيات والجغرافيا، وتشرف عليها ادارة الولاية غير أنها لا تتحمل أية تكاليف تخص تجهيز وتسيير هذه المدارس، بل يتولى ذلك الأهالي وميسوري الحال الذين يرغبون في تعليم أبنائهم كما يسعون إلى جلب الكتب، كما كان الأهالي هم من يتولون في الغالب انشاء هذه المدارس، حيث كانت كل منطقة أو مدينة يرغب أهلها في إنشاء مدرسة عليهم أن يجمعوا التبرعات اللازمة لإنشائها، ثم يرفعوا طلبا للوالي لفتح هذه المدرسة مع تعهدهم بدفع راتب المعل الذي يختاره الوالي، ولم تكن هذه المدارس ذات انتشار واسع في البلاد إلاّ إذا استثنينا المدن الكبرى كطرابلس وبنغازي[3].

أقر السلطان محمود الثاني(1808-1839م) اصلاحات واسعة نفذها رجال الإصلاح في الدولة من بعده خاصة في مجال التعليم، فقد أسس عددا من المدارس الابتدائية والثانوية الجديدة، ومدرسة للحقوق وأخرى للطب يديرها مدرسون أوروبيون كما أعاد فتح العديد من السفارات في الدول

1شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص ص81، 85.
2الجميلي، مرجع سابق، ص 5.
3غنيمي، مرجع سابق، ص ص132، 133.

الأوروبية، كما فتح باب الهجرة لطلب العلم بأوروبا وظهرت في عهده الصحافة وأولها جريدة الحكومة الرسمية "تقويم وقائع" التي صدر عددها الأول سنة1831م، وأسس ادارة الترجمة "ترجمة أوده سي" التي تحولت فيما بعد إلى وزارة الخارجية، والتي تخرج منها عدد من رجال الدولة الذين واصلوا الإصلاحات من أمثال عالي باشا وفؤاد باشا ونامق كمال بك وغيرهم، كما أسس مجلس للوكلاء (الوزراء) مثلما هو عليه الحال بأوروبا.[1]

وقد حاول بعض ولاة الإيالة الاهتمام بالحياة العلمية من خلال المساهمة في انشاء المراكز العلمية كالمساجد والمدارس وحبسوا لها أوقافا خاصة لخدمتها، ومن جملتها مدرسة مراد آغا بتاجوراء ومدرسة عثمان باشا قرب باب البحر، ومسجد أحمد القرمانلي الذي ألحق به مدرسة،[2]على مساحة إجمالية قدرها 2552متراً مربعاً، أوقف لها أملاكاً كثيرة ضمت العشرات من المتاجر والبساتين، وحدد رواتب مُدرسيها ورواتب لناظر المدرسة والمؤذن، ومَنَحَ لطلبتها مِنَح، كما جعل بالمدرسة حجرات لإقامة الطلبة والمعلمين وجناح للمكتبة، فكانت بذلك من أعظم المدارس بالبلاد في عهد القرمانليين وكذلك مدرسة مصطفى الخوجة التي بنيت على مساحة تقدر بـ8910متر مربع وأوقف لها أوقافا من ماله الخاص، ومدرسة مصطفى قرجي ومدرسة قائد عمورة وغيرها[3].

كما كان هناك اهتمام من ولاة الدولة بالعلماء منذ عهد أحمد باشا القرمانلي الذي أغدق عليهم بالعطايا من جملتهم ابن غلبون صاحب "التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار"[4]، الذي كان

---

1 ابراهيم خليل أحمد، **تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916م**، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، الموصل، 2005، ص189.

2ضيف، مرجع سابق، ص65.

3أبو عجيلة، مرجع سابق، ص ص19، 21.

4مفيد الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي العصر العثماني**، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2009، ص149.

مستشارا لأحمد القرمانلي، لعلم حكام الأسرة القرمانلية بقيمة العلماء في المجتمع، خاصة إذا علمنا أن جلوسهم على العرش كان بدعم من طبقة العلماء، وعرفوا مركزهم بين الناس لذلك توددوا إليهم، وشاركوهم مجالس ادارة شؤون الولاية، كما كانت مساهمتهم بشكل غير مباشر في نشر العلم والثقافة بين الأهالي من خلال استثمارهم لمداخيل الولاية من الرسوم والإتاوات التي كانت تدخل الخزينة وانشائهم للعديد من المساجد والمدارس والكتاتيب والزوايا التي كانت مراكز العلم والثقافة آنذاك وجعلوا من اللغة العربية لغة لتلقين الناشئة[1].

غير أن جهود الولاة لم ترقى إلى المستوى المطلوب منها في مجال تعميم التعليم وإنشاء المدارس في جميع أنحاء القطر، كما لم تجعله اجباريا، بالإضافة إلى أن المدارس التي كانت متوفرة لم تكن تفي بالمطلوب ولا تكفي حاجة السكان[2] ولم يكن هناك اهتمام بالتعليم في مناطق بعيدة مثل فزان وتعللت الحكومة في ذلك بأن سكان البلد أغلبهم من البدو الرحل، وأنهم لا يستقر لهم قرار، بالإضافة إلى المستوى المعيشي المنخفض بسبب نقص مصادر الثروة لوقوعه في عمق الصحراء، لذلك عرف التعليم التقليدي الديني الذي يعتمد على الوسائل والهياكل المحلية فقط[3]، كلها ظروف زادتها سوءا قوانين نظام المعارف العامة1869م التي فرضت على الأهالي التكفل بتكاليف انشاء المدارس الابتدائية ومصاريف المعلمين والمصاريف المتعلقة بالعملية التعليمية، ولم يكن تدخل الدولة إلا قليلا، حيث أنه إلى غاية1872م لم تعرف طرابلس غير ثلاث مدارس رشدية في طرابلس والخمس وفزان، وافتتحت مدرسة اخرى في فزان غير أنها بقيت مغلقة بسبب عدم توفر معلمين بها، ومدرسة خامسة افتتحت لاحقا في بنغازي[4].

---

1 ابو عجيلة، مرجع سابق، ص ص11، 12.
2 الأشهب، مرجع سابق، ص545.
3غنيمي، مرجع سابق، ص168.
4 النجار، مرجع سابق، ص68.

وخلال فترة الحكم المباشر الثاني(1835-1911م)عملت الدولة على تشجيع ودعم التعليم الحديث، بعدما أصبح التعليم الديني في الولاية لا يستجيب لمتطلبات العصر وأصبح من الضروري الإسراع في تحديث التعليم لمواكبة التقدم[1].

وقد ساعد المناخ السائد آنذاك على إنشاء العديد من المرافق التعليمية الأهلية التي شجعت الأهالي على التنافس في جمع التبرعات من أجل تنفيذ العديد من المشاريع التعليمية التي كانوا يسعون للقيام بها[2]، وبالتالي التطور الذي حدث في الحياة العلمية يمكن ربطه بفترة حكم السلطان محمود الثاني(1808-1839م) الذي أصدر فرمانا في 1824م ينص على أن تقوم المدارس بتأمين التعليم الديني للأطفال، والذي أكد على ضرورة تعليم العلوم الشرعية، غير أن هذا الفرمان بقي مجرد حبرا على ورق لعدم مسايرته للحركة العلمية الحديثة إلى غاية صدور خطة شريف كلخانة1839م التي تضمنت إيفاد بعثات علمية للخارج وافتتاح المدارس الرشدية والذي يعبر عن الرغبة التي كانت تحمل السلطان محمود الثاني في تطوير التعليم والمعارف التكنولوجية، وقد واجه في مسعاه هذا معارضة شعبية قادها الدعاة والعلماء، ولكي يتجنب المعارضة لجأ إلى علماء متخصصين حتى يتسنى له التوفيق بين أصحاب الفكر الإصلاحي والمحافظين وقرر إنشاء مجلس أمور النافعة (الأشغال) الذي تكفل بأمور العمارة والتطوير والتنمية في جميع ولايات الدولة والمهم في كل هذ هو تطوير نظام تعليمي بعيد عن المدارس الدينية وقد بحث المجلس مسألة انشاء مدارس جديدة ووضع نظامها التعليمي والتربوي

1الجميلي، مرجع سابق، ص4.

2 الويشي، مرجع سابق، ص138.

خارج نطاق المدارس الدينية، وهي خطوة ربطت من خلالها المدارس التربوية بالحكم المركزي وأصبحت المدرسة أحد أهم مؤسسات الدولة.[1]

ومع الوقت بدأت تتغير بعض المفاهيم مثل مصطلح معارف وفن ونافعة وغيرها واقتصرت المفاهيم الدينية على القرآن والسنة والقياس والإجماع والعلوم النقلية وظهر مصطلح متنور الذي يتصف به كل من يحمل معارف في العلوم الحديثة، وكان مجلس أمور النافعة قد أصدر تقريرا تضمن مجموعة من المسائل والأفكار الإصلاحية والمؤسسات الجديدة، ففي مجال المؤسسات جاء ما يلي[2]:

- ضرورة تشكيل لجنة داخل مجلس أمور النافعة تقوم على إصلاح وتجديد المعارف في الدولة العثمانية.
- إنشاء مؤسسة التفتيش التي تتولى مراقبة وتفتيش جميع المدارس.
- تعيين نظار مدارس المحلات والمدارس السلطانية.

أما في مجال الأفكار المقترحة في هذا التقرير فهي:

- اعتبار العلم والمعرفة مصدر الثروة والسعادة.
- العلم مصدر للإبداع.
- العلوم هي مصدر لتطوير الحياة.
- لا يمكن للدولة تطوير برامجها الصناعية والتجارية والزراعية من دون الاعتماد على العلم.
- ضرورة إصلاح المؤسسات التعليمية وإنشاء مدارس حربية وطبية وبحرية وعلوم الهندسة من أجل تطوير العلوم والمعارف
- ضرورة وضع برامج ونظم جديدة للمدارس الحالية.

1وليد العريض، **إصلاح التعليم و فلسفته في الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر: قراءة في قوانين التنظيمات من عهد محمود الثاني إلى عبد الحميد الثاني 1824 – 1876م**، مجلة التربية، جامعة الأزهر، ع146، ج2، 2011، ص ص424-426.

2العريض، مرجع سابق، ص426.

- تنظيم برامج ومقررات جديدة.
- ضرورة ارسال مفتشين للمكاتب والمدارس.
- رفع عدد الصفوف في المدارس.
- مساعدة الطلاب الفقراء من طرف الدولة.
- عدم تخريج أي طالب لا يتقن الكتابة والقراءة.
- تخضع عملية التدريس لبرامج محددة ومنظمة، ولا تجري على حسب مزاج المدرس وعلى ضرورة الابتعاد عن التلقين أو التحفيظ.[1]

وكان الهدف من إنشاء مكتب المعارف العدلية هو تأهيل موظفي الدولة خاصة الذين لهم علاقة بالجانب المالي، أما المدارس الرشدية فقد افتتحت في اسطنبول فعلا سنة 1845م وبعدها انتشرت في الولايات بعد سنة 1870م وبالتالي فمكتب المعارف العدلية كان بمثابة خطوة أولى في سبيل إنشاء المكاتب الرشدية وتنظيمها، وبالرغم من أن التعليم كان قد انتشر أكثر في عهد السلطان محمود الثاني إلا أنه واجه عدة عقبات أهمها نقص أماكن التدريس إضافة إلى عدم توفر الكتب ووسائل التدريس وعدم اهتمام المدرسين بجدية الرسالة التعليمية، وعلى كل حال فإن فترة حكم السلطان محمود الثاني هي التي أسست للتعليم المدني الحديث.[2]

ولم ترد فيه أي مادة تتعلق بتطوير الحياة العلمية بالدولة في خط شريف كلخانة الذي صدر سنة 1839م، غير أن ذلك لا يعني أن الإصلاحات قد أغلقت تماما ، لأن الفرمان نفسه جاء يدعو في خطوطه العامة إلى إصلاح أحوال الدولة بشكل عام في أحوالها العسكرية والاجتماعية والاقتصادية والعدلية، وقد يراه البعض أنه لم يتطرق لمسألة تحديث التعليم لا من قريب ولا من بعيد، وفي الحقيقة هذا ليس إهمالا من

1العريض، مرجع سابق، ص427.
2نفسه، ص 428.

رجال التنظيمات، ولكنه كان نتيجة حتمية للضغوط التي كان يمارسها معارضي الإصلاح إضافة إلى أوضاع الدولة السياسية والاقتصادية[1]

بدأت حركة إصلاح نظام المعارف في الدولة العثمانية فعليا في عهد الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا الذي قام بإرسال البعثات العلمية إلى أوروبا ، وإذا دل هذا على شيء فإنما يدل على عزم الدولة العثمانية في المضي قدما في سبيل إنشاء نظام تعليمي حديث ومتطور، فقد كان السلطان عبد المجيد من أكبر الداعين إلى إصلاح نظام المعارف باستنساخ النظم التعليمية الأوروبية الحديثة، وأنشأ مجلس المعارف العمومية1846م الذي كان هدفه البحث عن طرق جديدة لتحقيق الإصلاحات المطلوبة بعد فشل نظارة المكاتب الرشدية بسبب سيرها على النظم التعليمية التقليدية وخضوعها لنظارة الأوقاف، ورأى هذا المجلس بضرورة وجود أعضاء على دراية بالثقافة العربية وأنظمة تعليمها المتمكنين من اللغات الأجنبية، وعدم ربطها بشيخ الإسلام، لإبعادها عن النظم التقليدية، وقدم في تقريره الأول اقتراح بتقسيم النظام التعليمي إلى ثلاثة مراحل مثلما هو حاصل في النظم الأوروبية وهي مكاتب الصبيان والرشدية ودار الفنون التي تقرر إنشاؤها سنة1845م[2]، وفعلا تقرر سنة1846م إطلاق إصلاح شامل لنظم التعليم وإعدادا الكتب المدرسية كما تقرر إنشاء العديد من المدارس العليا لتخريج الموظفين وضباط الجيش والبحرية[3].

وبإنشاء مؤسسة المعارف المركزية هذه تم الفصل النهائي بين المدارس الحديثة والمدارس الدينية التي بدأ يضعف تأثيرها في النظام التعليمي الجديد وشكل إصلاح التعليم أولوية في حركة التحديث التي قامت بها الدولة بل تم إعطاؤها أولوية، خاصة وأن حركة التحديث

1العريض، مرجع سابق، ص429.
2نفسه، ص430.
3 الذويبي، مرجع سابق، ص61.

والمعاصرة كانت تعني الحصول على العلوم والتكنولوجيا الأوروبية وتطبيقها.

وتم إنشاء لجنة استشارية للقيام بالتحضير اللازم لإنشاء دار للفنون أو جامعة للفنون التي تقررت في سنة 1845م، لتوضح وظيفتها التي تهدف إلى تأمين نشر الفنون النافعة في الولايات وتأليف الكتب والترجمة من اللغات الأخرى إلى اللغة العثمانية، بالإضافة إلى تأليف كتب جديدة في ميادين اللغة والأدب كما تم خلال الفترة ما بين 1838-1853م استحداث مجموعة من الهياكل الإدارية مثل:

- نظارة المكاتب الرشدية 1838م.
- مجلس المعارف المؤقت 1845م.
- مجلس المعارف العمومية 1846م.
- نظارة المكاتب العمومية 1847م.[1]

أما فيما يخص المدارس الجديدة فإنه تقرر :

- إنشاء مكتب للمعارف العدلية في 1839م للمعارف العدلية والعلوم الأدبية.
- إنشاء خمس مدارس رشدية في إسطنبول سنة1848م.
- إنشاء دار للمعلمين التي تعمل على تزويد الولايات بالمعلمين1848م.

كما تقرر أيضا افتتاح خمسة وعشرين مدرسة رشدية سنة1853م، التي تشكل مرحلة مهمة في طريق الإصلاح والتحديث، غير أنه تأخر إنشاؤها بسبب عدم توفر الهياكل اللازمة وانشغال الدولة العثمانية بحرب القرم التي أنهكت الدولة وأضعفت جهودها الإصلاحية في الوقت الذي تهمتها فيه الدول الأوروبية بعدم الجدية في تنفيذ الإصلاحات، وللرد على

1العريض، مرجع سابق، ص ص433-432.

ذلك سنت الدولة العثمانية فرمانا جديدا عرف بفرمان الإصلاحات سنة 1856م والذي جاء تنفيذا لمعاهدة باريس التي قبلت فيها الدولة العثمانية بأن تكون هذه الإصلاحات تحت الرقابة الأوروبية.[1]

وفي سنة 1858م قرر مجلس الوكلاء (الوزراء) إنشاء نظارة معارف عمومية عين على رأسها المؤرخ سامي عبد الرحمان باشا وحددت وظيفتها كما يلي:

- ربط جميع المدارس بنظارة المعارف ماعدا المكتب الحربي والبحري والطبي المرتبطة بقيادة الجيش.
- تقسيم المدارس إلى ثلاث درجات:
  - الصبيان: وهي تخص المسلمين دون غيرهم.
  - الرشدية: وهي مختلطة بين المسلمين وغيرهم، وتخص كذلك الطلبة المتقدمين الذين يمكن أن تستفيد منهم الدولة .
  - مكتب الفنون المتنوعة: وتظم في صفوفها الطلبة المسلمين وتدرسهم العلوم والفنون.
- اجراء امتحانات للانتقال بين هذه الدرجات.
- التدريس في الصف الأول والثاني يكون باللغة التركية ويشترط توفير معلمين يتقنون اللغة.[2]

غير أن الدولة العثمانية تباطأت في تنفيذ هذه الإصلاحات إلى ما بعد1866م بسبب الظروف التي كانت تمر بها خاصة ثورة كريت، ونتج عن ذلك ضغط الدول الأوروبية التي قدمت جملة من مشاريع الإصلاح ومنها النموذج الفرنسي الذي اختارته الدولة بسبب ضغوطات الباشوات (علي وفؤاد) وبهذا أصبحت نظارة المعارف العثمانية تابعة في برنامجها التعليمي للنظام الفرنسي الذي يفرض على الدولة عدم التمييز بين

1العريض، مرجع سابق، ص433.
2 نفسه، ص434

مواطنيها على اختلاف دياناتهم، مثلما تضمن أحقية غير المسلمين في إنشاء مدارس ومؤسسات خاصة بهم ومدارس متوسطة وتأهيل معلمين لتطوير التعليم الابتدائي ثم إنشاء جامعة لتأهيل المسلمين وغير المسلمين، يتم فيها تدريس الطب والتاريخ والإدارة والحقوق، إضافة إلى تأهيل الموظفين الذين يسهرون على تنفيذ القوانين الجديدة[1].

واستنادا لقانون المعارف العمومية المؤرخ في1869م تشكلت إدارة المعارف العمومية التي تضم مجلس معارف الولايات الذي يسهر على تنفيذ قرارات نظارة المعارف وتطبيق نظام المعارف في الولايات، والإشراف على ميزانية المعارف، والتفتيش على المدارس ومؤسسات المعارف، وتفاديا للمركزية في تسيير نظام المعارف في الولايات تقرر إنشاء مديرية معارف في كل ولاية تسهر على تنفيذ إجراءات الإصلاح وتنفيذ أحكام ومواد نظارة المعارف والإشراف على موظفي المعارف الموجودين في مكاتب الولايات، وتذكر المصادر أنه مع نهاية سنة1891م كانت هناك 25مديرية للمعارف ومع حلول سنة1898م كانت جميع ولايات الدولة بها إدارة للمعارف ماعدا ولاية الحجاز[2].

- الخلاصة:

يعتبر التعليم مظهرا من مظاهر الحياة الفكرية التي ميزت تونس وطرابلس الغرب خلال العهد العثماني، فالتعليم رغم أنه كان في البداية يتم في الكتاتيب والمدارس القرآنية والمساجد والزوايا وفق طرق تقليدية وبوسائل بسيطة، وإليه يعود الفضل في الحفاظ على مقومات الثقافة الشعبية للمجتمع وبفضله استطاع أن يُخَـرِّجَ علماء أعلام تركوا آثار فكرية خالدة في تاريخ المنطقة.

1 العريض، مرجع سابق ص436.
2 نفسه، ص441.

فالتعليم الديني كان يهدف في أصله إلى تنشئة الفرد نشأة دينية من خلال تعليمه الكتابة وتلقينه مبادئ الدين من تحفيظ القرآن ومبادئ النحو والصرف وفنون الشعر وكل ماله علاقة باللغة العربية، بحيث تتكلل جهود التلاميذ في الأخير بالحصول على الإجازات وشهادات الأهلية ثم شهادة التحصيل، ثم شهادة العالمية التي كانت أعلى شهادة، فيتفرغ بعضهم للوظيفة وبعضهم يقصد الجوامع الكبرى للاستزادة من العلم، ففي تونس على سبيل المثال كان تشجيع أحمد باي وخلفاؤه من بعده كبيرا على العلم والمعرفة فنظم التعليم وضبط رواتب المعلمين كما ساوى بين معلمي الحنفية والمالكية في الرواتب، وعين هيئة علمية للإشراف على الدروس ومراقبة احوال المدرسين وسير الادارة واعمال وكلاء الكتب.

لكن مع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهرت في تونس وطرابلس الغرب بوادر إصلاح التعليم، بظهور التعليم الحديث وفق النظم الغربية، فظهرت المدارس الابتدائية والمدارس الرشدية التي تضمنت برامج حديثة، والتي كان الهدف من انشائها هو تخريج عدد من الموظفين الذين تحتاج إليهم مصالح الدولة، ، وظهرت رغبة أيضا في انشاء مدرسة مهنية تأوي الفقراء والمساكين وتعلمهم حرفاً يكسبون بها عيشهم رغم أنها لم تفتح قبل 1900م.

كما ظهرت المدارس الحربية، كالمدرسة الحربية بتونس، والمدرسة العسكرية بطرابلس، التي أقرت مناهج تعليمية جديدة من أجل تكوين عصري للضباط، يتماشى مع التطورات الحديثة، والتي كان لها الفضل تعليم اللغات الأوروبية، وترجمة الكثير من الكتب التي مكنت من تكوين جيل قادر على العبور إلى الثقافة الغربية والاستفادة من نظمها واستيعاب آليات التحديث، وتعززت فيما بعد بصدور مجموعة من القوانين والفرمانات، التي نظمت شؤون التعليم المدني ووضعت برامجه وحددت أهدافه.

الفصل الثالث

الإنتاج الفكري وأعلامه في تونس وطرابلس الغرب خلال العهد العثماني

I- حركة التأليف بتونس .

أولا) طبيعة الكتابة الأدبية في تونس.

ثانيا) أعلام الفكر في تونس.

ثالثا) دور المكتبات.

رابعا) دور المطبعة والصحافة.

II- حركة التأليف بطرابلس الغرب.

أولا) طبيعة الكتابة الأدبية في طرابلس الغرب.

ثانيا) أعلام الفكر في طرابلس الغرب.

ثالثا) دور المكتبات.

رابعا) دور المطبعة والصحافة.

_الخلاصة

يعتبر الإنتاج العلمي في مختلف الفنون والعلوم والآداب مقياس تقاس به المستويات الفكرية التي تميز مجتمع من المجتمعات أو حضارة من الحضارات، ومن ذلك تونس وطرابلس الغرب، التي عرفت حياة علمية وفكرية خلال العهد العثماني كانت امتدادا لأنماط الحركة الفكرية الوسيطة، قبل أن تشهد مع بداية القرن التاسع عشر حركة إصلاح وتحديث وفق المناهج والأساليب الأوروبية.

I- حركة التأليف بتونس :

عرفت الحياة الفكرية بتونس مع بداية الوجود العثماني حالة تدهور وتراجع مقارنة بالعهود السابقة، بسبب الأحداث السياسية التي عرفتها البلاد والتي تركت آثارها على الجوانب الفكرية والعلمية، حيث غاب العلم وافتقدت المكتبات للإنتاج الفكري في مختلف الفنون والعلوم، قبل أن تستعيد مكانتها مع استقرار الأوضاع الأمنية، وتخلص العثمانيين نهائيا من الإسبان، والقضاء على حركات التمرد الداخلية، فانتشر العلم وانتعش التأليف، ولم يكد يحل القرن التاسع عشر حتى كانت تونس مهيأة لنهضة فكرية، ساهم في تطورها ظهور الطباعة والصحافة بتونس.

أولا) طبيعة الكتابة الأدبية في تونس:

شغلت اللغة العربية في الدولة العثمانية مكانة مرموقة، باعتبارها أهم قنوات التعبير في الثقافة والأدب، كما كان تدريس أغلب العلوم بها، وهو ما يفسر ذلك التداخل الحاصل مع اللغة العربية في ذهنيات الأتراك، وتقديرهم لها، كما كان تعلمها يشكل أحد الشروط الضرورية لتولي المناصب العليا في الدولة، خصوصا ما تعلق بالإفتاء والقضاء والتعليم، وبفضلها استطاع العثمانيون التعرف على شخصية ابن خلدون وفكره[1].

1 عبد الجليل التميمي، **دراسات في التاريخ العربي العثماني1453-1918**، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، ط1، 1994، ص15.

وإلى جانب الثقافة الشعبية المنتشرة بتونس، سمحت المؤسسات العلمية خلال العهد العثماني بتخريج مجموعة متميزة من الأدباء والفقهاء الذين شغلوا المناصب الدينية والوظائف التعليمية التربوية من المذهبين المالكي والحنفي، وإليهم يعود الفضل في المحافظة على التراث الإسلامي، وإثراء المكتبات بالثقافة العربية بما جمعوه من صنوف وشروح لمختف المعارف الفقهية، واللغوية والأدبية، والفنون العقلية، فكانت بذلك تشكل استمرارا علمي للعهد الحفصي والموحدي، ومن أشهر الأدباء الذين عرفتهم تونس الشاعر علي الغراب الصفاقسي (ت1769م)، وأبو عبد الله محمد الورغي (ت1776م)، وأبو الحسن علي الرصاع (ت1719م)، وأبو الحسن علي كرباصة (ت1674)، وعاشور بن موسى فيكرين القسنطيني (ت1664م)، وأبو العباس سيدي أحمد الشريف (ت1681م)، ومحمد بن عاشور الأندلسي التونسي (ت1698م)، والشيخ اسماعيل التميمي (ت1882م)، والشيخ إبراهيم الرياحي (ت1850م)[1].

وقد تمتع الفقهاء ورجال العلم في تونس بمكانة اجتماعية مرموقة بالنظر إلى علاقاتهم بالحكام وارتباطهم بالجهاز الإداري وتأثيرهم في العامة وطلبة العلم والموظفين في القطاع الديني، فكانوا بذلك حلقة الوصل بين الحكام والأهالي مثلما كانوا عامل مهم اكتسب من خلاله الحكام شرعيتهم السياسية، لهذا أحسن الحكام إليهم واستعملوهم في الوظائف الشرعية، ومن الملاحظات المهمة على السلطة أنها لم تكن تسمح لرجال العلم بأن يتحولوا إلى قوة ضاغطة ومؤثرة لهذا اقتصرت دورها على خطة الإفتاء والقضاء، حيث تولى خطة القضاء شيخ الإسلام الملقب بالأفندي والذي عادة ما يكون من الأحناف العثمانيين أو الكراغلة أو الحضر الأشراف، وأشهر من تولى هذا المنصب هو الشيخ رمضان أفندي الذي تولى الخطابة والإفتاء بجامع الأحناف(يوسف داي) ثم خلفه الشيخ

1 سعيدوني، مرجع سابق، ص ص145-147.

أحمد الشريف من الكراغلة قبل ان تسند في العهود المتأخرة إلى آل بيرم المشرفين على المدرسة الحنفية والعنقية.[1]

كما لعبت المدارس والزوايا ومؤسسات الوقف دور في المحافظة على الحياة الثقافية السائدة، وسمحت بتأصيل الثقافة العربية الإسلامية، التي استمدتها من التقاليد والعادات المتوارثة من العهود السابقة، مثلما احتضنت الأساليب والطرق الأندلسية، وهو ما جعل الاقتباسات العثمانية لا تتجاوز استعمال اللغة العثمانية في غير مؤسسة الجيش والإدارة والوظائف السامية، كما لم تتمكن الثقافة الأوروبية من ترك بصماتها رغم كثرة الأوروبيين في المدن الساحلية[2].

وكان الفقهاء في تونس على جانب من علم الاجتماع متأثرين بسلفهم عبد الرحمان بن خلدون، وظل كل واحد منهم يغترف من فيضه ويرتشف من مناهله، فعلماء تونس وأعلامها كانت معرفتهم ودرايتهم بعلم الاجتماع تؤهلهم للنظر في علوم السياسة وأحوال المجتمع[3] وقد لعبوا دورا مهما خلال مرحلة الإصلاحات التي شهدتها تونس، فقد اسند إليهم مهمة ترجمة بعض الكتب الغربية خصوصا في التاريخ والأدب الفرنسي[4] بمعهد باردو الحربي الذي كان يشرف عليه الشاعر محمود قبادو، وهو ذات المعهد الذي تخرج منه خير الدين وحسين رستم ومحمد القروي، المعروفين بثقافتهم العالية بفضل التكوين الذي تلقوه في اللغات الأجنبية إضافة إلى رحلاتهم إلى الدول الأوروبية، وتعرفهم عن قرب على المنجزات الحضارية في مجالات الصناعة والتعليم والثقافة والسياسة[5]، فكانت مشاركتهم واضحة في السياسة وهذا ما نجده في مساهمتهم في

1 سعيدوني، مرجع سابق، ص ص152، 154.
2نفسه، ص 164.
3محمد بن عثمان السنوسي، **مسامرات الظريف بحسن التعريف**، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1، 1994، ص403.
4 خليل، مرجع سابق، 218.
5 الطويلي، بناة الدولة...،مرجع سابق، ص09

صياغة ومناقشة بنود عهد الأمان الذي حضره شيخ الجماعة محمد الشاهد وشيخ الإسلام حميدة بن الخوجة والشيوخ محمد الستاري ومحمد النيفر مفتي المالكية وحسونة عباس مفتي الحنفية، كما نجد من العلماء من رفضوا المشاركة في تحرير وشرح قواعد عهد الأمان[1] وهم محمد بيرم الرابع وأحمد بن حسين ومحمد بن الخوجة[2]، وقد تنوعت طبيعة الكتابة والتأليف في مختلف الفنون النثرية والشعرية وظهرت الكتابات التي تصنف في السياق التاريخي.

1- الكتابة النثرية:

هجر الأدب النثري ما كان ملتزما به من السجع وفنون البديع وسلك منهجا بسيطا، مع بداية الوجود العثماني متأثرا بالظروف السياسية القائمة، لكنه صار بعد استقرار أوضاع البلاد يحمل مزيج بين الفصاحة وقوة البيان مع شدة الوضوح وقلة الغلو، واستعمال للمفردات دون استعارات أو كنايات، وهو المحور الذي يعبر عن تطور الأدب بتونس، والذي نلمسه في قلم الشيخ بيرم من مشقة في التخلص من الوقار الذي كان يكتنف الأدب، فظهر نثره ثقيلا، ووجد صعوبة في محاولته الخروج عن المناهج المألوفة، عكس تلميذه الشيخ محمد السنوسي الذي كان منهجه الأدبي غير المنهج القديم المألوف، وتميز نثره بالوضوح والانسجام والسمو الأدبي مالا نجده في نثر أستاذه، وهو ما دفع الباحثين إلى اعتبار الشيخ محمد السنوسي ثمرة المدرسة النثرية لهذا العصر[3].

---

1 عهد الأمان: أعلن قواعده الباي بعد التهديد الذي لقيه من الفرنسيين والإنجليز (عسكريا) مضطرا وهذا بسبب مقتل أحد اليهود المقيمين بتونس على خلفية سبه للدين الإسلامي، وجاء في إحدى عشر قاعدة تليت بنودها بالسرايا الكبرى ببباردو في 09سبتمبر1857م، ووقع عليه المشير محمد باشا. أنظر : السنوسي، مرجع سابق، ص391.

2 نفسه، ص ص393-397.

3 بن عاشور، مرجع سابق، ص36.

وانتعشت حركة الكتابة الأدبية النثرية كثيرا مع ظهور الطباعة والصحافة التي مكنت العديد من الكتاب من نشر مقالاتهم ومؤلفاتهم[1]، وإن لم يكن في بعضه صناعة أدبية راقية إلا أنه سمح لهؤلاء الكتاب من التعبير عن آرائهم بلغة جميلة والإفصاح عن مشاعرهم ومكنوناتهم، وإن كان هذا الأدب قد ظهر في مرحلته الأولى شديد التكلف متأثرا بأسلوب الهمذاني والحريري في الترسل، والإغراق في التكلف بالجناس والطباق وضروب البلاغة القديمة، فإنه تدرج في مرحلته الأخيرة من القرن التاسع عشر إلى التخلص من هذه القيود، والميل إلى الإبانة والوضوح والذي يعزى لعدة أسباب أهمها ظهور أدب الرحلة الذي دفع بالكتاب إلى تسجيل مشاهداتهم، والاجتهاد في نقلها بكل أمانة وصدق دونما تكلف أو افتعال[2].

ومن ذلك نذكر الرحلة الحجازية للشيخ محمد السنوسي(1851م-1900م) التي نقل فيها ما أدركه من مظاهر الحضارة، فأجاد أيما إجادة في أدب الرحلة، بالنظر إلى كثرة المعلومات، وجودة تعبيره، ودقة ملاحظته، بالإضافة إلى الممارسة الصحفية التي ساعدته في صياغة أفكاره بلغة تناسب مستوى الجمهور، وكان منهج عام سلكه أدباء هذه المرحلة من أمثال سالم بوحاجب ومحمد التونسي، الذين سلكوا اسلوب يتماشى مع العصر، خالية من فنون السجع والبديع التي كانت قبل ذلك، ومنه فإن أدب الرحلات ساهم مساهمة كبيرة في تحرير الكتابة الأدبية من قيود البلاغة اللفظية، مثلما لعبت الصحافة دورا في ذلك من خلال تقريب لغة الكتابة من القارئ[3].

1اعتبرت كتابات المؤرخين أمثال (الإتحاف) لابن أبي الضياف، و(أقوم المسالك) لخير الدين، والرحلات التي كتبها الجنرال حسين، ومحمد السنوسي، وعلي الورداني، ومحمد الخضر بن الحسين، من قبيل الكتابة النثرية، بالإضافة إلى المقالات التي حررها بيرم الخامس، ومحمد المناعي، ومصطفى رضوان، ومحمد بن الخوجة، وعبد الرحمان الصادلي، ومحمد الجعايبي. **أنظر:** ، محمد صالح الجابري، **الأدب التونسي الحديث والمعاصر: 1860_1920م، تاريخ الأدب التونسي الحديث والمعاصر**، ط1،المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 1993، ص27.

2نفسه، ص ص27، 28.

3 نفسه، ص ص28، 30.

وتعد الرحلة الحجازية لونا ادبيا متفردا جُمع فيه بين بلاغة الاسلوب ودقة الوصف، وشاعرية اللفظ والمعنى في بعض الاحيان، فقد ضمت الرحلة الحجازية لمحمد السنوسي في بعض مواضعها تفاصيل دقيقة على درجة الإمعان في الوصف والذي نجده في وصفه لبومبيpompei الإيطالية على إثر البركان الذي ضربها[1] في قوله: "وكان أهل البلد مجتمعين في أعظم مجامعهم بالمسرح الكبير ولما أشعروا بما حل بهم انثالوا من المسرح فارين من كل جانب، فحصل أكثرهم على منجاته سوى قوم رجعوا إلى بيوتهم يطلبون استخراج أمتعتهم أو نفائس ذخائرهم وآخرين أثقلهم العجز أو التوان، فإذا بالبركان انفجر بأباريقه وحميمه فصب عليهم الحميم من مذاب المواد البركانية في حالة الاشتعال واحترق بلظاه كل بارق في البلد"[2].

كانت رحلة الشيخ محمد السنوسي أرقى منزلة في الأدب وأوسع في الثقافة، تجلت فيها قوة التحرير وبراعة الوصف الممزوجة بالسهولة والوضوح، حيث يجد قارئها فيها متعة الأدب والفكر، جعلها في ثلاثة أجزاء؛ أفرد جزءا منها بالكلام عن إيطاليا، حتى وُصف بأنه كان أكثر إدراكا وتذوقا بمعطيات الحياة الغربية من أستاذه الشيخ بيرم، وتكلم في الجزء الثاني عن تركيا والحجاز وسوريا ومالطا، وخصص الجزء الثالث لتراجم المشاهير الذين اتصل بهم خلال رحلته، حيث أورد ذكرهم فيها بما يعبر عن قوة شخصيته ودقة ملاحظاته[3].

2-الكتابة الشعرية:

يحتل الشعر مقارنة بأنواع الكتابة الأدبية الأخرى مكانة الصدارة، ويتميز بالوفرة والغزارة، لأنه قلما نجد عالما أو مؤرخ أو أديب إلاّ وله

1الجابري، مرجع سابق، ص 29.

2محمد السنوسي، **الرحلة الحجازية**، تح علي الشنوفي، ج1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1976، ص ص108، 109.

3 بن عاشور، مرجع سابق، ص35.

من الكتابة الشعرية نصيب سواء كان قليلا أو كثيرا، وإن دلت على شيء فإنما تدل على أصالة الثقافة العربية في نفوسهم، واتصالهم العميق بهذا التراث، خاصة وأنه لم يكن بالإمكان الحصول على لقب أديب لأي كاتب كان مالم يكتب شعرا، بما فيهم كتاب التاريخ والرحلات والعلماء وغيرهم، حتى صار تقليدا لإثبات مكانته بين أقرانه، وفضلا عن ذلك كان الشعر يمثل وسيلة ناجعة تتيح لصاحبها مخاطبة ذي السلطان، والتقرب منه في المناسبات، حتى ينال العطايا والمكافئات المادية أو يعزز مركز نفوذه في دوائر الحكم، لهذا كانت أغلب مجالات الشعر عندهم هي الرثاء والمدح للبايات الذين حكموا تونس، وللوزراء الكبار الذين كانوا يمثلون هرم السلطة، والذي يراه من الأسباب التي أدت إلى سوء أمور السياسة من خلال تمجيدهم للأباطيل وإشاعة الخنوع والاستكانة[1].

ومن أشهر ما عرفت تونس من الدواوين الشعرية نذكر **ديوان محمد الرشيد باي**(1122-1172هـ/ 1710-1759م) الذي حكم تونس مدة تقارب الثلاث سنوات فيما بين1756 إلى 1759م، وكتب ديوانه هذا في منفاه بالجزائر[2] فيما بين 1740 إلى1756م ويحمل تصور لحالته

1 الجابري، مرجع سابق، ص ص18، 20.

2كان والد محمد الرشيد متزوج من سيدة عربية غير أنه لم يرزق منها بولد يجعله ولي عرشه، فقرب إليه إبن أخيه علي باشا وبدأ يهيئه لولاية للعهد، لكنه تزوج بعد ذلك من جارية إيطالية أنجبت له محمد الرشيد وثلاثة إخوة آخرين، حينها قرر حسين باي تغيير ولاية العهد وهو مالم يرضي علي باشا الذي كان يتمتع بكثير من الامتيازات، وبدأ يحيك المؤامرات لقلب نظام الحكم وابعاد عمه عن العرش، فلجأ إلى جبل وسلات حيث أعلن الثورة سنة1728م، ودامت الحرب اثني عشر سنة إلى غاية1740م حيث تسربت من وسلات إلى الكاف فالقيروان فالساحل فالجنوب، ولم يكد ينتصر الباشا علي إلا بمناصرة من جيش من الجزائر، وانقسمت البلاد إلى حسينية وباشية فالحسينية حكمت مناطق القيروان والمنستير وسوسة والقلعة الكبرى، وكانت هذه المناطق قد عاشت الويل على يد علي باشا الذي أزهق الأرواح وقطع الزيتون وشرد الأهالي وغرّمهم بالأموال، والتي عبّر عنها صاحب المشرع الملكي "محمد الصغير بن يوسف" الذي كان شاهدا على الأحداث في قوله أن العباد صاروا بين شقي الرحى، وأما حسين باي فقد قتل على يد يونس ابن الرشيد باشا بعد حصار للقيروان دام عام كامل، عند ذلك فرّ الرشيد وإخوته إلى الجزائر، والأمل يحذوهم في العودة خاصة بعد ثورة يونس ضد والده علي باشا، التي أدت إلى تدمير سور تونس من جهة باب البنات وباب السويقة وباب قرطاجة، **أنظر**: الطويلي، في الحضارة...، مرجع سابق، ص ص135، 137.

النفسية وحقده الدفين تجاه ابن عمه، وآماله في الرجوع إلى بلده، وكان يلقى أنسه في رفيقيه اللذان كانا معه في غربته وهما أستاذه محمد الشافعي الباجي[1] وكاتبه أحمد الأصرم القيرواني[2]، وكان نشاطهم بالجزائر يرتكز على نشر العلم بين الناس وصناعة التوثيق، ويسلي نفسه بالمطالعة والمسامرة، وقد كُتب ديوانه بقلم كاتب صفاقسي في حياة صاحبه عند رجوعه لتونس ووضع له عنوان "ديوان محمد باي التونسي أمير المؤمنين قدّس الله روحه الطاهرة"[3].

غير أن ديوان محمد باي لا يحتوي على مقدمة عامة وإنما نجد في أوله خمس قصائد تفوق الخمسين بيت، قافية (53بيت) وميمية (64بيت) وبائية (56بيت) وهائية(84بيت) وضادية (52بيت)، ثم نونية (34بيت)، ورائية (20بيتا)، ثم تليها مقطوعات قصيرة، وقد لوحظ على الرشيد ميله للأدب منذ نشأته إلى آخر حياته[4]، قال فيه الباجي المسعودي : "كان هذا الأمير من صدور الأدباء وفحول الشعراء وسمحاء الملوك ونظمه مدون مشهور منه القصيدتان الميمية والقافية شرح أولهما أبو عبد الله محمد الشافعي والثانية شيخ عصره أبو محمد الكواش بشرحين جليلين أفعماهما بالفوائد العلمية المنتقاة من فنون شتى وصارا ديواني علم ورضتى أدب"[5].

1نشأ محمد الشافعي بن محمد بن القاضي الشريف الباجي الأصل في طلب العلم وأخذ عن علماء تونس، واشتهر بعلمه وذكائه، حتى صار نابغة عهده شعرا ونثرا، وكان قريب من الأمير الحسين ومن أولاده، وشاركهم غربتهم بالجزائر إثنان وعشرون عاما، ولما عاد محمد الرشيد إلى تونس اختار أن يستقر بجبل المنار حتى يتفرغ للعبادة، ومن آثاره شرح القصيدة الميمية للأمير محمد الرشيد والمسماة بمحركات السواكن، ولقلة العناية بالمؤلفات وكذا كساد العلم وغلبة الجهل لم ينتشر هذا الشرح رغم نفاسته في الأدب. للمزيد **أنظر**: النيفر، مرجع سابق، ص ص526، 527.

2هو رئيس الكتاب أبو العباس أحمد الأصرم، الذي نشأ في طلب العلم، حتى صار فارس الكتابة يقول شعرا كثيرا ويكتب نثرا، كان صاحب الرشيد في رحلت إلى الجزائر وكان يحمله إذا أعياه المشي، ولما عاد الرشيد إلى تونس نال الكتابة غير أنه توفي ولم يلبث بها طويلا فأكرم الحسينيون من بعده آله وجعلوا رئاسة الكتابة فيهم، فتداولوها خلفا عن سل، للمزيد **أنظر**: النيفر، مرجع سابق، ص ص530، 531.

3الطويلي، في الحضارة...، مرجع سابق، ص ص135، 139.

4نفسه، ص 139.

5 الباجي المسعودي، **الخلاصة النقية في أمراء إفريقية**، ط1، تح محمد زينهم محمد عزب، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2012، ص254.

وأما أغراض الشعر عند محمد الرشيد فيغلب عليها الاستعطاف والاستغاثة وفيها ميل للبكاء والشكوى بلهجة التوسل والتضرع ممزوجة بعواطف الأسى والحزن والحيرة، والذي يظهر في مقدمة نثرية لقصيدة مطلعها:

أمولاي إن النفس لما تعودت جميلك راحت بالفواضل تنطق

جاء فيها: "... عبيد ربه، الراجي منه غفران ذنبه، المرحوم برحمته رب العالمين محمد باي أمير المؤمنين، ابن المرحوم برحمة الصمد العلي، أمير المؤمنين حسين بن علي لازالت سحب الغفران على ضريحهم هامية، ودرجات في أعلى الجنات سامية، لما لفظتني لهوات الفتن، ولعبت بي صوالج الكروب المحن، فألقتني لقطر الجزائر، وصار القلب في الانقلاب حائر"[1] ومما قاله والأسى يعصر قلبه، وهو في حال غربته عن تونس وأهلها قوله:

أتونس بعد الأنس نالتك وحشة فسحّي دموعا بل دمعا يترقى
ويا أهلها كم قد بلغتم من المنى وأيامكم أعياد والأمن مطلق
..لهفت على تلك الديار ويالها قصور بها حور وفرش ترمق
أمولاي صيّرني على ماقضيته فإني راض غير دمعي يسبق[2]

3-الكتابة التاريخية:

ظهرت خلال الفترة العثمانية عدة أقلام كتبت في التاريخ التونسي، وتراجم التونسيين، ومنهم نذكر الشيخ محمد السنوسي الذي كتب "مسامرات الظريف بحسن التعريف" وأدرج فيه ثلاث سلاسل من سلاسل المناصب التونسية، سلسلة من بداية التاريخ الإسلامي، وسلسلة جامع الزيتونة، وسلسلة قضاة الجماعة[3]، مثلما نجد صفوة الاعتبار للشيخ محمد بيرم والذي طبعت أجزاءه الأربعة الأولى بالمطبعة الإعلامية بمصر

1الطويلي، في الحضارة...، مرجع سابق، ص ص143، 144.
2نفسه، ص145.
3 بن عاشور، مرجع سابق، ص33.

سنة1885م وطبع جزئه الخامس بمطبعة المقتطف سنة 1894م، ومن بين أشهر المصادر التي أرّخت لتونس خلال العهد العثماني نذكر:

1.3- العقد المنضد في أخبار المشير الباشا أحمد:

لصاحبه الشاعر والأديب محمد بن سلامة (ت1850/06/20م) تعلم وتربى على يد جده الفقيه أحمد بن على، ثم قرأ عن الشيخ محمد الشاذلي بن المؤدب وعن العالم إبراهيم الرياحي وأخذ أيضا عن المشايخ محمد بن ملوكة وأحمد الأبّي ومحمد المناعي الأب، ومحمد بيرم الثالث ثم جلس للتدريس بالجامع الأعظم، ثم تدرب على القضاء على يد القاضي محمد البحري، من خلال الاطلاع على فن الوثائق وفقه الأحكام قبل أن يتولى قضاء المحلة[1] التي سافر من خلالها رفقة ولي العهد بالبلاد لتخليص الجباية، وساعدته في الاطلاع على أحوال المدن والقرى التونسية التي سجلها فيما بعد في مؤلفه "العقد المنضد" ثم تولى القضاء بسراية باردو، ثم قضاء الجماعة بالحاضرة[2].

ثم تولى الفتوى في عهد المشير أحمد باي(كاهية باش مفتي)، وقد أرخ في كتابه لحمودة باشا ومن جاء من بعده، مثلما أرخ للخطط العلمية بتونس في العهد الحسيني، وضمنه أيضا طبوغرافيا عن مدينة تونس[3]، عن أسواقها وجوامعها وأبوابها وأبراجها ومبانيها ومنتزهاتها وقصورها، وله

---

1 يطلق اسم محلة على مجموعة عسكرية تخرج من مركز السلطة مرتين في السنة وتتجه في الصيف نحو الشمال الغربي وفي الخريف صوب الجريد، ويمكن اعتبارها "مؤسسة عسكرية جبائية وفي نفس الوقت سلطة متجولة" إذ كان الهدف منها سياسي اقتصادي ، فهي من جهة تحاول فرض النظام بين القبائل، ومن جهة أخرى تستخلص الضرائب، وتؤكد الدراسات أن فكرة المحلة قد نشأت مع الموحدين وتجذرت في نظام الحفصيين ثم ورثها الأتراك، لكنهم تعاملوا معها بطرق مختلفة مقتبسة من عاداتهم ونظمهم الإنكشارية مع إدماج عناصر محلية من القبائل كفرسان المرازقية وعسكر زواوة، ومن الإضافات التي قدمها الأتراك هو إقحامهم للنوبة في صفوفها إلى درجة أنها صارت تمثل أحد شعاراتها الرسمية. **للمزيد أنظر:** أنيس المؤدب، **حفريات في ذاكرة الموسيقى العسكرية التونسية من بداية القرن 17 إلى نهاية القرن19**، ط1، سوتيميديا للنشر والتوزيع، تونس، 2016، ص ص64، 65.

2 الطويلي، في الحضارة...، مرجع سابق، ص ص161، 162.

3 الطويلي، بناة الدولة...، مرجع سابق، ص 23.

بالإضافة إلى مؤلفه هذا عدة مؤلفات أخرى في الفقه والتفسير والأدب، وله ديوان شعر وأرجوزة في تاريخ البايات الحسينيين إلى عهد المشير أحمد باي، وأما دوافعه في التأريخ للباي أحمد باشا فهي بسبب العلاقة الحسنة التي كانت تجمعه به، بالإضافة إلى ميله للأدب وحبه الشديد لتسجيل أخبار الملوك، غير أن هذا الكتاب التاريخي الذي خصه بالباي أحمد باشا فيه كثير من الانحياز والعاطفة، الأمر الذي عرّضه للانتقاد من ابن أبي الضياف الذي قال فيه أنه يشبه المديح وشأنه شأن الكتاب الباشي للمؤرخ حمودة بن عبد العزيز الذي لم يورد شيئا في غير مصلحة المؤرخ له، رغم أن ابن أبي الضياف قد نقل عنه بعض أخبار الباي أحمد، أما عن موضوع الكتاب فقد تناول علم التاريخ والخطط الشرعية والسياسة والشروط التي يجب أن يتحلى بها أصحابها معتمدا في ذلك على ابن خلدون وابن القيم الجوزية، كما تخلل الكتاب بعض الأشعار التي نظمت في حق الباي أحمد في مناسبات عديدة[1].

وكتب القاضي بن سلامة كتابه هذا وأهداه إلي الباي أحمد فقال: "فرأيت أن أرسله هدية لمستحقه وأعطيه هبة للعارف بمقدار حقه، كي ينزه طرفه ويحمد الله على ما نسب من الفضل إليه، لازالت معاليه تؤرخ وآثاره بطيب الثناء تضمّخ" وقال في دوافعه للكتابة: "وإنّي لمّا شبت شيبتي في الأدب، وانسللت لطلبه من كل حدب، وصارت نفسي لأخبار الملوك السابقة، وتراجم شعرائهم ووزرائهم شائقة، وبدأ باطن ذلك لي ظاهر العيان، فتمهرت في الأخبار والوقائع أي مهارة، ووردت من صافي الأدب أنهاره، وعرفت السير من علم الحديث وحثني عليه داعي التصبّي الحث الحثيث، فلبست حلية وقلدت جيدي فرائد الجمان"[2].

1 الطويلي، في الحضارة..، مرجع سابق، ص ص162، 167.
2نفسه، ص163.

2.3- تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد الغرب والسودان:

للرحالة محمد بن عمر التونسي "الذي عاش في دارفور نحو سبع سنوات ونصف سنة، ألمّ خلالها بأحوال البلاد إلماما تاما"[1]، تضمن باب مقدمة كتابه حديث عن نشأته وأصل أسرته في تونس، كما تضمن أخبار الباي حمودة باشا ووزيره يوسف صاحب الطابع[2]، وذكر محاسن حمودة باشا الذي وضع سور تونس وحصّنه بالأبراج والمدافع وأزاح عن المدينة تلك التلال من القمامة التي أساءت لها ولعمرانها منذ زمن الحفصيين وجعل مكانها مزرعة عظيمة الجمال، والتي يراها بعض المؤرخين أنها متممة لما جاء به ابن أبي الضياف في الإتحاف وما جاء به المسعودي في الخلاصة عن أخبار تونس، الذي رأى أن من أسباب رخاء تونس في عهد حمودة باشا واستقرارها هو استوزار يوسف صاحب الطابع الذي وصفه بأنه حسن التدبير وعالي الهمة صاحب خير وذو جود وكرم حتى لقب بصاحب الخيرات[3]، في قوله: "كان يوسف المذكور سعيد الطالع، جيد التدبير، مظفرا في الحروب، ميمون الحركة، سخي الكف، يجذب القلوب بلطفه، حتى أن الباشا جعله رئيسا على العساكر البرية في محاربة صراط"[4] .

ولمّا عاد من بلاد المورة التي كان بها واعظا في احدى فرق المشاة سنة1832م، إلى القاهرة التي كانت مقر مقامه حيث اشتغل بتنقيح الترجمة العربية لكتب الطب التي كانت تدرس في كلية الطب البيطري،

1محمد بن عمر التونسي، **تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان**، تح خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، الدار المصرية للتأليف والأنباء والنشر، القاهرة، 1965، ص13.

2كان يوسف مملوكا لقائد صفاقس محمد الجلولي، ولما بلغ الباشا أن لهذا القائد مملوك على جانب من الجمال والأدب والحياء، أرسل إلى القائد الجلولي رسالة جاء فيها: "إذا وصلك كتابي هذا أرسله صحبة حامله والسلام"، فلما صار عند الباشا أعجب بحسنه وذكاءه وفطنته وصدقه وأمانته، فأنزله منزلة كبيرة ووضعه محل ولده وقلده أمور الولاية، ويعود سبب تسميته بصاحب الطابع إلى أن الباي حمودة باشا كان قد كلفه بالطابع يطبع به المكاتيب. **أنظر**: الطويلي، بناة الدولة...، مرجع سابق، ص ص15، 16.

3نفسه، ص ص13، 14.

4بن عمر، مرجع سابق، ص19.

وهناك التقى بالدكتور "بيرون" الفرنسي، وكان قد تلقى هذا الأخير دروسا في اللغة العربية على يد بن عمر، ولما علم "بيرون" برحلة بن عمر إلى دارفور وبلاد السودان شجعه على كتابة مذكراته، والتي كان الهدف من تأليفها أن تكون كتبا للمطالعة، وله إلى جانب هذا الكتاب مؤلف آخر سمّاه "رحلة واداي"، ومؤلفات علمية أخرى[1].

3.3_ إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان:

للمؤرخ أحمد بن أبي الضياف(1804_1874م) الذي اشتغل بديوان الإنشاء في عهد حسين داي حتى صار كاتم سره، يحضر مجالسه ويشارك برأيه فيما يدور من القرارات والأوامر السياسية، كما رافق الباي أثناء رحلته إلى فرنسا سنة 1846م، وكان يسجل كل ما يشاهده ويلحقه من أخبار تونس ويعلق على سياسة الباي وسياسة من سبقه من البايات مبديا رأيه بكل حيادية وموضوعية، وفي عهد الوزير خير الدين(1873-1877م) كان له سندا ومعينا بحكم الخبرة التي اكتسبها، مثلما سجل بعض الأحداث التي وقعت في عهده، وكانت له أدوار سياسية مهمة في تاريخ تونس خصوصا في عهد البايات الخمسة الأخيرة التي عايشها (حسين ومصطفى وأحمد ومحمد والصادق) فقد تولى في عهد محمد باي[2] تحرير "عهد الامان"1857م مثلما شارك في صياغة الدستور1861م في عهد محمد الصادق باي، كما كتب عديد الخطب باسم الباي المنوهة بالدستور،

1ابن عمر، مرجع سابق، ص ص13، 14.

2تولى الحكم بعد المشير أحمد باشا، والذي ميز فترة حكمه الاختلالات المالية التي وقعت، والذي أحدث تقارب وتنافس بين انجلترا وفرنسا، جعلت الأمير يعطي كل طرف قنصلية ويساوي بينهم في الامتيازات، وهو ما فتح الباب أمام الشركات واستعمال رؤوس الأموال الأجنبية، والتي أنتجت رغبة في إصلاح أجهزة الدولة، رغم أن الباشا كان ينتقد سلفه أشد الانتقاد في تأثره بالحياة الغربية وكان في نفس الوقت شديد التعلق بالدولة العثمانية، لكن الباشا اقتنع أخيرا بضرورة القيام بإصلاحات في البلاد امتثالا لدعاة الإصلاح في الزيتونة، واستسلاما لواجب مجاراة الدولة العثمانية فيما سنته من إصلاحات جاء بها فرمان كلخانة والتنظيمات الخيرية، وشرع في بعث إصلاحات مالية وإدارية وعمرانية، دخلت البلاد من خلالها في عهد دستوري منذ1857م عرف بـــ "عهد الأمان" فكان يعبر عن انطلاق الحركة الإصلاحية بتونس فعليا، **انظر**: بن عاشور، مرجع سابق، ص19.

مثلما كان عضوا فاعلا في المجلس الأكبر الذي كان بمثابة برلمان، ومُنح لقب وزير كما تم ترقيته إلى رتبة أمير آلاي أي جنرال رغم أنه لم يكن من خريجي المعهد الحربي بباردو مثل خير الدين والجنرال حسين والجنرال رستم[1].

ضم الإتحاف في أصله أربعة مجلدات، وهو مرتب على مقدمة وثمانية أبواب وخاتمة وصدر في ثمانية أجزاء، أمّا المقدمة فتضم جزآن، الأول يحتوي على تحليل نظريات المؤلف الإصلاحية ودعوته لتقييد الحكم المطلق في تونس بالشرع و الجزء الثاني: هو ملخص لتاريخ تونس منذ الفتح الإسلامي إلى ما قبل عهد حمودة باشا الحسيني، وأرخ في جزئه الثالث لعهد حمودة باشا منوها بمنجزاته العمرانية في قوله "**ولم تزل المملكة في أيامه ينمو عمرانها، ويكثر سكانها، وتتقوى أعوانها، وتظهر أعيانها ويعظم شأنها**"[2] مثلما أرخ للبايات الذين أتو من بعده عثمان ومحمود باشا وحسين باشا ومصطفي باشا، وأمّا الجزء الرابع فقد تناول فيه عهدي المشيرين أحمد باشا باي ومَحمد باشا باي وأما الجزء الخامس فقد خصصه ابن أبي الضياف لعهد محمد الصادق باشا باي وأما الجزء السادس فهو تتمة لعهد محمد الصادق باي إلى عام 1872م، بينما ضم الجزء السابع والثامن تراجم لأهم الشخصيات التي بلغت 184 شخصية قال فيها من مقدمة الجزء "ورأينا لإتمام الفائدة، أن نلمع بذكر أعيان العلماء الذين ذكرهم الوزير الكاتب العلامة أبو محمد حمودة بن عبد العزيز في تاريخه (الباشي) عند انقراض دولة بني أبي حفص"[3] وتراجم لثلاث وعشرون شيخا من أئمة جامع الزيتونة من أمثال ابن عرفة والغبريني والبرزلي وغيرهم، وصدر كتاب الإتحاف الذي أرخ للدولة الحسينية

1الطويلي، بناة الدولة...، مرجع سابق، ص ص65، 66.

2أحمد بن أبي الضياف، **اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، مج2، ج3، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999، ص88.

3إبن أبي الضياف، مج4، ج7، مرجع سابق، ص11.

خاصة عهود من عاصرهم من البايات وخدمهم سنة1963م عن كتابة الدولة للشؤون الثقافية[1]

4.3- تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد:

لصاحبه أمير الأمراء محمد بن الخوجة مستشار الحكومة التونسية، والذي تضمن بابه الأول الجوامع المالكية التي بدأها بجامع الزيتونة وتحدث فيه عن تاريخه وعن أئمته والأحزاب المرتبة به وبرنامج العلوم والدروس وخزائن كتبه وكذا لجنة إصلاح التعليم الزيتوني، قبل أن يتكلم عن الجوامع الأخرى، وفي الباب الثاني تكلم عن الجوامع الحنفية وفي الباب الثالث تناول مساجد الصلوات الخمس وأما الباب الرابع فقد تناول فيه التعريف بالولاية على إمامة الصلوات الخمس، أما الباب الخامس فقد عرّف فيه بمدارس طلبة العلم بتونس قبل وأثناء الوجود العثماني، وقد ذكر الكاتب سبب قيامه بإصدار هذا الكتاب الذي لم يتقدمه في الطبع والنشر شيء من نوعه بتونس وجاء ردا على صدور كتاب باللغة الفرنسية تضمن تاريخ نشأة الكنائس النصرانية بتونس، وقد وافق نشره إقامة مهرجان ضخم من طرف يهود تونس بمناسبة بيعة جديدة أسسوها لهم، لذلك رأى صاحب هذا الكتاب أنه من الواجب تأليف كتاب يُذّكر به مجد أسلافه ويحيي مآثرهم التي كادت أن تطمس[2].

5.3- الخلاصة النقية في أمراء إفريقية:

للباجي المسعودي الذي تولى الكتابة في بيت الوزير خزندار ثم في ديوان الإنشاء لدى البايات أحمد ومحمد باي، ومحمد الصادق باي، وكان يرافق ولي العهد في الأمحال، ولم يرتقي المسعودي في خطة ديوان الإنشاء إلّا بعدما تولى خير الدين الوزارة فعينه رئيسا للقسم الثاني، وطبع كتابه بمطبعة الرائد التونسي سنة1283هـ/ 1867م، وكان المسعودي قبل

1الطويلي، بناة الدولة...، مرجع سابق، ص 66.

2بن الخوجة، تاريخ معالم...، مرجع سابق، ص ص01، 02.

ذلك قد قرأ الكثير من الكتب التاريخية الخاصة بالبلاد التونسية فجمع تاريخها المبعثر[1] وأخذ لنفسه منهجية خاصة في التأريخ واصفا إياها في الخلاصة النقية بأن "هذه تذكرة جمعتها من كتب عديدة ودفاتر شتى، وملكت في تلخصها طريقة مثلى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا"[2] ووعد أن يكون منهجه للتأريخ للدولة الحسينية خاصة عهد احمد باي منهجا مدحيا ذاتيا غير ملتزم بالموضوعية وكان قد عزم أن يؤلفه في كتاب خاص به لكنه لم ينل به مراده، وهو منهج سابقيه من المؤرخين من أمثال ابن أبي دينار والوزير السراج وحمودة بن عبد العزيز[3].

6.3- أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك:

اشتمل الكتاب الذي درس عشرين دولة من ضمنها الدولة العثمانية، على مقدمة عرض فيها أسباب تأخر العالم الإسلامي ووسائل نهضته، وذلك باستنساخ عوامل النهضة الأوروبية الحديثة، وضرورة حدوث اتحاد بين أهل العلم ورجال السياسة، وما يحقق ذلك من سعادة الأمة وتحررها، وجعل من نظرية الحكم الدكتاتوري مبدأ للسبيل الذي سلكه رفقة جماعته لتحقيق برامجهم الإصلاحية، من خلال تولي الوزارة والإبقاء على الدستور معطلا، وهو الأمر الذي جعل خير الدين يتبوأ أرفع المناصب بالإضافة إلى كونه رجل فكر وإصلاح أراد من خلال مقالاته إحداث تحول نوعي في مؤسسات الدولة والمجتمع[4].

وكان يهدف خير الدين من خلال كتابه إلى نقطتين: الأولى وتتمثل في إصلاح وتحديث مؤسسات الدولة القائمة، والثانية في إقامة الدولة السياسية والاجتماعية التي لم تكن موجودة أصلا، ثم مواجهة الغزو

---

1 الطويلي، بناة الدولة...، مرجع سابق، ص 67.

2 المسعودي، مرجع سابق، ص55.

3 الطويلي، بناة الدولة...، مرجع سابق، ص 67.

4 سمير أبو حمدان، **موسوعة عصر النهضة خير الدين التونسي**، دار الكتاب العالمي، بيروت، 1992، ص80.

الأوربي الوشيك الذي كان يهدف إلى نهب ثروات المسلمين وطمس شخصيتهم الثقافية والحضارية، وفي سبيل هذا كان عليه مواجهة التيارات التحديثية بالموازاة مع مواجهة الزحف الأوروبي والذي وقع في عهد محمد الصادق كما كان عليه إقناع البعض من عوام المسلمين الذين كانوا يرفضون الغرب وكل ما يأتي منهم جملة وتفصيلا[1].

رغم أن خير الدين لقي تجاوبا واسعا من سائر فئات الشعب التونسي إزاء موقفه من مواجهة الاستعمار الغربي بكل أوجهه السياسية والعسكرية والثقافية والاقتصادية، إلا أن توجهه نحو تحديث مؤسسات الدولة وفق النمط الغربي لم يلقى ترحيبا واسعا، وهو ما أراد تبيانه من خلال كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" في فوائد التحديث ومحاسنه، خاصة بين رجال السياسة وعلماء الدين المعاصرين، التي تنهض بالدولة وترتقي بها إلى مستوى الحضارة الغربية[2]، التي كان يرغب في الاستفادة من إنجازاتها الحضارية في مختلف أوجه الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وفق أسس عقلانية واضحة، تستوعب مختلف التيارات الاجتماعية والسياسية الموجودة في البلاد[3].

وبالتالي فإن كتاب "أقوم المسالك" جاء مبشرا بالنهضة وبالمجتمع الحديث، غير أنه يتوجب الوقوف عنده قليلا، لأن خير الدين لم ينطلق من فراغ، بل أجبره ظرف تاريخي كان فيه التحديث ضرورة من ضروريات الدولة الحديثة، التي آمنت بها شريحة واسعة من المجتمع شكلت تربة خصبة ساعدت خير الدين وتقبلت أفكاره وأكسبته سمعة حسنة وشهرة واسعة[4] وأما الهدف من تأليف الكتاب فقد كان من أجل إغراء ذوي الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم، بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة

1 أبو حمدان، مرجع سابق ص81
2 نفسه، ص ص81، 83.
3 خير الدين، مرجع سابق، ص05.
4أبو حمدان، مرجع سابق، ص83.

إلى حسن حال الأمة الإسلامية، وتنمية أسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان، وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة وترويج سائر الصناعات، والقضاء على أسباب البطالة، وأساس جميع ذلك حسن الإمارة المتولد من الأمن[1].

إن كتاب خير الدين هذا يمكن أن يصنف ضمن أبرز الكتب التي صدرت خلال القرن التاسع عشر، لما له إسهام كبير في إيقاظ الشعور بالتجديد والتحديث داخل المجتمعات العربية، على غرار "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" لرفاعة الطهطاوي و"طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" لعبد الرحمان الكواكبي و"علم الدين" لعلي مبارك وغيرها من الكتب التي ظهرت في إطار مشروع النهضة، وقد وازن خير الدين في كتابه بين مصدرين، تمثل الأول في الإسلام والثاني في الثقافة والحضارة الغربية[2].

خرج هذا الكتاب سنة1867م، ومع صدوره بدأت المساعي لإصلاح العلاقة بين محمد الصادق[3] والوزير خير الدين، والتي انتهت باستدعائه لتولي منصب نائب مفوض عن الوزير الأكبر سنة1869م، ثم وزير أكبر سنة1873م، قبل أن يستقيل من الوزارة بسبب تعكر العلاقة بينه وبين محمد الصادق، وعلى اثر ذلك استغل خصوم الدعوة الإصلاحية

---

1 أبو حمدان، مرجع سابق، ص70.

2نفسه، ص ص85، 86.

3دخل محمد الصادق الحكم في فترة النظام الدستوري، وعمل على تطبيق الإصلاحات التي قررها شقيقه، من خلال مده لسلك البرق بين تونس وأوروبا عبر التراب الجزائري، وتأسيس المطبعة الرسمية وجريدة الرائد التونسي، وتأسيس المجلس التشريعي والمجالس البلدية بداية من سنة 1861م، وظهر معه النفوذ الفرنسي في البلاد ممثلا في شخص ملكها نابوليون الثالث المتظاهر برعاية التقدم وحماية الحرية والإعانة على استقلال الشعوب وتحررها في نطاق ذاتيتها "القومية"، حتى أن محمد الصادق ذهب بنفسه لملاقاة الإمبراطور أثناء زيارته للجزائر حتى يطلعه بما تم من إصلاحات، وتسليمه إياه نص "عهد الأمان". قبل أن يصطدم هذا العهد بثورة سنة1864م التي اسقطت البلاد في حالة فوضى وعدم استقرار قضت بتعطيل النظام الدستوري وتوقف عمل المجالس وأصابت البلاد أوبئة ومجاعات قاربت الستة سنوات، وتنصبت لجنة دولية لمراقبة العمليات المالية. **انظر** : بن عاشور، مرجع سابق، ص21.

فرصة الحال الذي أصيحت عليه الدولة للتنديد والتشهير بهم وبسياستهم الدستورية، فأصبح ينظر إليهم على أنهم هم سبب الويلات التي أصابت البلاد، وهو ما دعا خير الدين وحسين رستم إلى التخلي عن مناصبهم، كما دفعت أصحاب المناصب العلمية والمقامات الأدبية إلى الانعزال كأمثال بيرم وأبو حاجب[1]، وغادر خير الدين تونس سنة1878م نحو الأستانة حيث تولى الصدارة العظمى، وبقي فيها حتى توفي سنة 1890م،[2]وأمّا الكتاب فقد صدر في طبعة ثانية سنة1875م، ثم سنة1887م وترجمت مقدمته إلى الفرنسية وطبعت سنة1868م تحت عنوان:

Reformes nécessaires aux Etat musulmans, essai formant la première partie de l'ouvrage politique et statistique : la plus sure direction pour connaitre l'Etat des nations.

وترجمت المقدمة إلى الإنجليزية بأثينا سنة1874م ثم بأمريكا على يد المستشرق الإمريكي كارل ليون براون تحت عنوان:

The surest path ; the political Treatise of a Nineteenth- century Muslim Statesman, Cambridge (mars)1967.

مثلما ترجم إلى التركية في جوان 1876م ونشر متسلسلا في جريدة الجوائب لأحمد فارس الشدياق، قبل أن يصدر مترجما عن مطبعة جريدة الجوائب على يد عبد الرحمان أفندي[3]، وكان خير الدين الذي تربى في قصر الباي قد وجد في رفوف مكتبة القصر كتبا ومخطوطات نادرة، خاصة وأنه لم يكن ميالا لشيء مثل ميله للقراءة عموما ولكتب التاريخ خصوصا، حيث كانت المكتبة تزخر بأشهر المراجع والمصنفات التاريخية كـ"مروج الذهب" للمسعودي و"الكامل في التاريخ" لابن الأثير و"تاريخ الأمم والملوك" للطبري وغيرها، فكان يدرس تلك الكتب التي كانت تأخذ في أسلوبها بالتفسير العقلاني للتاريخ وتأخذ بالسببية في المنهج، كما

1ابن عاشور، مرجع سابق، ص 22.
2نفسه، ص22-24.
3الطويلي، بناة الدولة...، مرجع سابق، ص ص55، 56.

كان شديد الإعجاب بابن خلدون وتاريخه، حتى شبه بعضهم منهجه بمنهج ابن خلدون خاصة في مقدمة الكتاب[1].

وجاءت مقدمة كتابه طويلة حلل فيها أوضاع البلاد العربية والإسلامية المنضوية تحت لواء الخلافة العثمانية، وأبرز ما يراه من حلول لمشاكلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ثم وضع وصفا لعشرين بلدا أوروبيا منها الدولة العثمانية والتي زارها فيما بين 1853 و1867م في مخمات دبلوماسية مختلفة،[2] وخلال هذه الفترة دخل الوزير خير الدين في عزلة وتفكير تفرغ خلالها لدراسة عوامل قوة الحضارة الأوروبية الحديثة، وامكانيات الإصلاح الممكنة، وأقبل على أهل العلم والسياسة ممن كانوا يترددون عليه، الذين اشتركوا رفقته في دراسة تلك النظريات التي حررها الوزير خير الدين والتي أنتجت هذا الكتاب[3].

وكان قد وصف خير الدين في كتابه مظاهر الحضارة والتقدم في البلاد الأوروبية، خصوصا ما تعلق بالمجالات الاقتصادية والتشريعية وفي مجالات العلوم والآداب والتعليم، ووضح أسباب تقدم الغرب سياسيا واقتصاديا وثقافيا وعلميا وصناعيا، واعتبرها حضارة مزدهرة متقدمة ومتطورة في نفس الوقت الذي يعيش فيه المسلمون التأخر والتخلف عن الركب الحضاري، ودرس في كتابه أيضا أسباب التطور في المعارف والتنظيمات، والتي تبنى على أسس من العدل والحرية والمساواة، ودعا رجال السياسة وأهل العلم لأن يتدبروا هذا الكتاب ويأخذوا منه كل ما من شأنه أن يصلح حال الأمة[4]، فالأمة الإسلامية حسب منظوره لم تلق تلك المكانة في العهود السابقة من القوة والمنعة إلا من خلال حسن تدبير أمرائها وعدلهم واستجلابهم رضا الله[5].

1أبو حمدان، مرجع سابق، ص59، 60.
2خير الدين، مرجع سابق، ص21.
3بن عاشور، مرجع سابق، ص21-22.
4الطويلي، بناة الدولة...، مرجع سابق، ص 56.
5خير الدين، مرجع سابق، ص120.

ولئن كانت الوقائع والأحداث التي سجلت أثناء فترة تأليف الكتاب تؤكد عدم قدرة خير الدين على تطبيق ما نظّر له في كتابه من رؤى سياسية، بسبب كثرة المعارضين لمشروعه الإصلاحي، إلّا أن كتابه لايزال إلى اليوم يعد من أبرز المؤلفات التي كتبت في مجال الإصلاح والدعوة إلى تطبيق مبادئ العدل والمساواة، والذي لا يصلح لإصلاح أوضاع تونس فقط وإنما لكامل أقاليم وولايات الدولة العثمانية[1]، وهو الذي ذهب إليه في قوله أن ما كان للأمة الإسلامية من نمو في العمران وسعة في الثروة والقوة الحربية إنما مرده إلى العدل واجتماع كلمة المسلمين، وأخوة المماليك واتحادها في السياسة، واعتنائها بالعلوم والصناعات ونحوها من المعارف التي نسج عليها الأوروبيون، وشهد بها المنصفون منهم[2].

7.3- صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار:

لصاحبه محمد بيرم الخامس[3]، والذي جاء في خمسة أجزاء، طبع الأجزاء الأربعة الأولى بنفسه سنة1885م أما الجزء الخامس فتولى نشره

1خير الدين، مرجع سابق، ص05_ 22.

2نفسه، ص122.

3ولد بتونس في محرم1256هـ/1840م وتوفي في 25 ربيع الثاني1307هـ/18ديسمبر 1889م في حلوان بمصر، والدته ابنة القائد محمود خوجة وزير البحرية بالدولة التونسية، تربى وتعلم على يد شيوخ عصره في الزيتونة أمثال محمد بن الخوجة وأحمد بيرم، ومحمد معاوية والطاهر بن عاشور والشاذلي بن صالح ومحمد الشاهد وعلي العفيف ومحمود قابادو، تولى مشيخة المدرسة العنقية سنة1861م وتولى التدريس بالزيتونة سنة1284ه/1867م، وكان على تفاهم وتواصل مع خير الدين التونسي الذي كان آنذاك رئيسا للمجلس الأكبر، ومن الصفات المشتركة التي جمعتهما هي إيمانهما بأن الحرية والشورى هما القوتان اللتان ستحفظ لتونس كيانها وأمنها، لذلك كلفه خير الدين بإدارة جمعية الأوقاف 17صفر1291ه/05أفريل 1874م، مثلما أشركه في لجنة تنظيم التعليم بالصادقية سنة1292ه/1875م، والمشاركة في إصلاح التعليم الزيتوني وإصلاح المحاكم الشرعية وتأسيس المكتبة الصادقية بالزيتونة، كما أسندت إليه في نفس السنة إدارة المطبعة الرسمية وجريدة الرائد التونسي ونظارة المطبوعات، وزار إيطاليا وفرنسا سنة1293ه/1876م بغرض التداوي، ثم عاد مرة أخرى سنة1295ه/1878م فشهد معرض باريس العام ولقي الإكرام من قبل الرئيس الفرنسي ماكماهون وعاد إلى تونس عن طريق الجزائر، ثم عاد في سفرة ثالثة سنة1296ه/1879م إلى إيطاليا ثم فرنسا ثم انجلترا وفي فرنسا قدم رسالة من الوزير مصطفى بن اسماعيل إلى رئيس مجلس النواب الفرنسي، فكانت سفرة للتداوي وللسياسة، وفي 15شوال 1296ه/02أكتوبر1879م سافر لأداء الحج حيث التقى مدحت باشا

ابنه البكر محمد الهادي في مطبعة "المقتطف" سنة 1311ه/1894م، وكان الهدف من تأليفه حسب قول صاحبه: "جبت بحارا وقفار، ومدنا وأمصار، على حسب ما يسره المقدور، وساعفت الوسائل على الوصول إلى ما شاهدته من المعمور، ورأيت بعين البصر والبصيرة، أمورا عجيبة خطيرة، أحببت نظمها في عجالة حفظا لها من الإهمال، وتطفلا على منح العلماء أولى الكمال، كل سر جاوز الاثنين شاع، كل علم ليس في القرطاس ضاع...لكنها على كل حال بضاعة من علم، تلاحظها بالإغضاء أعين أهل العلم، فلعل الله بفضله يفيد بها أهل وطننا وإخواننا المسلمين، ويهدينا إلى إحياء معالم ديننا المتين".[1]

وأما الكتاب فقد سماه صاحبه "رحلة" تتضمن مقدمة ومقصد وخاتمة، فالمقدمة فيها ثلاث أبواب؛ الباب الأول في السفر ويحتوي على ثلاث فصول، والباب الثاني في السفر لغير بلاد الإسلام وفيه فصلان، والباب الثالث فيه تقسيم أحوال أهل الأرض وفيه خمسة أقسام وستة وثمانون فصلا، وأما المقصد فيه ثلاثة عشر بابا؛ الأول في السفر والثاني في مملكة تونس، والثالث في مملكة إيطاليا، والرابع في مملكة فرنسا، والخامس في قطر الجزائر، والسادس في مملكة انجلترا، والسابع في جزيرة مالطة، والثامن في قطر مصر، والتاسع في الحجاز وجزيرة العرب، والعاشر في بقية مماليك الدولة العثمانية، والحادي عشر في مملكة سويسرا، والثاني عشر في مملكة النمسا، والثالث عشر في المملكة الرومانية، وكل باب من هذه الأبواب يشتمل على فصول، والخاتمة ضمنها ما ينبغي على الأمة

مؤسس الدستور العثماني (القانون الأساسي) سنة1875م، وسافر بعدها إلى الأستانة من 1880م إلى 1881م حيث أنهى الجزئين الأولين من صفوة الاعتبار، ثم عاد إلى الآستانة التي بقي فيها من 1881م إلى 1884م حيث أنهى الجزء الثالث، بعد رحلة أخرى في أوروبا ثم تونس، غير أنه لم يستطع الاستقرار بالآستانة فرحل إلى مصر وعاش هناك إلى أن وافاه الأجل بعدما أتم الجزأين الرابع والخامس. **للمزيد أنظر:** محمد بيرم الخامس، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، تح علي بن الطاهر الشنوفي، ج1، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 1999، ص ص05، 11. **وأيضا:** محمد الصالح المهيدي، **تونس في تراجم أعلامها**، ج1، د.ط، المركز الوطني للاتصال الثقافي، تونس، 2012، ص ص67، 74.

1بيرم الخامس، مرجع سابق، ص11.

الإسلامية اتخاذه من بث المعارف وما تثمره تلك المعارف من خيرات، وأما المجالات التي تناولها بيرم الخامس في رحلته فإنه تناول مختلف المسائل الاقتصادية والسياسية والمسائل العلمية والفقهية والأخلاقية والاجتماعية[1].

وله أيضا "تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص" و"مختصر في فن العروض" و"رسالة في جواز اسدال شعر الرأس" والتي حررها عندما تولى إدارة المطبعة الرسمية ونظارة المطبوعات سنة1292ه/1875م[2].

ثانيا)أعلام الفكر في تونس:

يحظى التعريف بأعلام الفكر والترجمة لهم وذكر آثارهم بمكانة مهمة، لما يقدمه من توضيح لأهم جوانب حياة المجتمع بصفة عامة وطبيعة الحياة الثقافية بصفة خاصة، ولذلك أردنا التعريف بأهم وأشهر الشخصيات التي عاشت وتركت آثارا فكرية خلال العهد العثماني ومنهم نذكر:

1. **<u>الشيخ قبادو(ولد 1228ه/1812م):</u>** ينتمي إلى إحدى الأُسر التي هاجرت من الأندلس ولجأت إلى تونس، فرارا من محاكم التفتيش حيث استقر والده بتونس "وكان من طبقة الصنائعية (زنّادا) يعمل أزندة البنادق"[3] ولد بتونس وحفظ القرآن عن شيوخها ونهل من العلوم حتى نال أعلى المراتب العلمية، سافر بعدها إلى اسطنبول ثم عاد واشتغل مدرسا للعلوم الرياضية بالمكتب الحربي بالمحمدية[4]، ساهم في انجاح مسعى المشير أحمد ووزيره صاحب الطابع في الإصلاحات التي وقعت بتونس،

1بيرم الخامس، مرجع سابق، ص ص12، 13.
2نفسه، ص ص08، 09.
3زين العابدين السنوسي، محمود قبادو، مكتبة العرب، تونس، 1951، ص3.
4 السنوسي، قبادو...، مرجع سابق، ص9.

كانت نشأته صوفية صاحب همة وعزيمة، كما أحاط بالمذاهب والنظريات، وتوسع في فنون الحكمة من العقلي والرياضي والطبيعي، مثلما عُرف بتمكنه من اللغة والأدب ومعرفته بالتاريخ أيضا، إذ اعتبر في عصره أكبر لغوي وأول أديب وأعظم شاعر، امتاز شعره بصحة المباني، وسمو المعاني، وعمق الفكر، وطول النفس، وبلاغة القول، وقد انتشر فكره في أوساط طلبة المدرسة الحربية مثلما انتشر في جامع الزيتونة الذي أثر فيه بطريقته النقدية، وبالتالي استطاع ان يكوِّن نخبة واعية متعلمة حاملة لمشروع إصلاحي، تبناه الأمير ودعا إليه شيوخ الدولة من أمثال أحمد بن أبي الضياف والوزير مصطفى آغا، وإليه ينسب هذا المذهب الفكري الجديد الذي ساد على الحياة العقلية وتطورت به الحياة الأدبية[1].

من أهم آثاره كتاب "الحرب" الذي كان قد ترجم سنة1255ه، وهو أحد الكتب المعتمدة في مكتب الحرب الذي أسسه أحمد باي الأول في بلدة المحمدية[2]، وديوان شعري تضمن قصائد اجتماعية وعمرانية كما تضمن قصائد عن الإصلاحات التشريعية والاجتماعية[3].

2. **<u>محمد بن الحاج عمر البكباشي</u>**: الذي تعتبر مؤلفاته بمثابة دائرة معارف عسكرية من خلال تقديمه لأضخم عمل في التأليف العسكري، وفي نقل العلوم العسكرية لاسيما تلك المكتوبة باللغة الفرنسية، والتي اهتم فيها بعدة قضايا وأهمها القضايا الفنية المتعلقة بكيفية تركيب العسكر وأصنافه وطرق حمل السلاح وصيانته واستخدام المدافع، ومن أشهر مؤلفاته في هذا المجال:

- رسالة في الخدمة العسكرية بالمعاقل والقشل وكيفية انتظام آليات التريس والخيالة.
- كتاب ترتيب العسكر وتنظيم الطوابير.

1ابن عاشور، مرجع سابق، ص ص14، 15.
2السنوسي، قبادو...، مرجع سابق، ص20.
3نفسه، ص10.

- مؤلف في تركيب الجيش وبيان أصنافه وضباط أركان الحرب.
- رسالة فيما يتعلق بالمدافع.
- تأليف في علم السلاح المحمول وكيفية المحافظة عليه.

مثلما تناول في بعض مؤلفاته القضايا التشريعية التي تخص استحداث ترتيبات قانونية للخدمة العسكرية داخل المعاقل وآليات العقاب وأدواته ومن أهم مؤلفاته في هذا المجال:

- قانون خدمة المعاقل وترتيب المراكز بها.
- قانون في الخدمة الداخلية العسكرية.
- قانون في الجزاء العسكري وكيفية تركيب المجالس الحربية.
- عشرة قوانين خاصة بالعسكر[1].

وقد ساعده في هذا كله شغله لمنصب رئيس القسم الأول بوزارة الحرب، والذي جعله يواكب ما كان يجري بفرنسا من تحديث للمؤسسة العسكرية، مثلما ساعده اتقان اللغة الفرنسية من الاطلاع على حركة التأليف في الجوانب العسكرية بفرنسا، لذلك كان حرصه شديدا على اقتناء المؤلفات العسكرية الفرنسية والعمل على تعريبها، كما اقتنى مجموعة من القواميس المساعدة له في ذلك، وأشهرها: قاموس فرنسي عربي، وقاموس فرنسي، وقاموس عسكري في ثمانية أجزاء، وجملة من الكتب منها: كتاب في أحوال حصون المدن والسفر، وكتاب في شرح أشكال الحصون، وكتاب في الأحكام العسكرية، وكتاب في مهمات العسكر، وكتاب في كيفية صنع البارود وأنواع العقارات النارية، وثلاث كتب أحدها في خدمة السفر والثاني في خدمة الخطر والثالث في خدمة الثغور، وبالنظر لعناوين الكتب المقتناة يظهر التنوع والرغبة في نقل التراث العسكري الفرنسي[2].

1بوعلي، مرجع سابق، ص 213.
2نفسه، ص ص213، 214.

3. **أبو عبد الله محمد بن الوزير السراج (ت1725م)**: الذي ينتسب إلى أسرة أندلسية، ووصفه حسين خوجة في كتابه "ذيل بشائر أهل الإيمان" بالفاضل الفقيه النبيه والأديب البارع، ومن أهم آثاره كتاب التاريخ المشهور بتاريخ الوزير السراج الذي نشر في ثلاثة أجزاء.[1]

4. **أبو عبد الله محمد بن حسين بيرم**: المشهور ببيرم الاول وهو مؤسس المجد العلمي للبيت البيرمي، الذي ترجم له ابنه محمد بيرم الثاني في كتابه "تراجم المفتين الحنفية" أنه ولد في شوال1130هـ وأنه جدّ في طلب العلم فأخذ عنه منقولا ومعقولا، فروعا وأصولا عن جهابذة عصره أمثال السويسي والماكودي وقاسم المحجوب وغيرهم، مثلما ذكره تلميذه حمودة بن عبد العزيز في تاريخه الباشي قائلا في شأنه أنه من علماء الحنفية بالمغرب وأنه لم يوجد من مثله منذ زمن بعيد، وذكر أنه توفي يوم الأربعاء آخر شوال 1214هـ، عن أربع وثمانين سنة[2]، من أشهر مؤلفاته "اختصار انفع الوسائل" للطرسوسي(ت785هـ) الذي سماه "بغية السائل باختصار انفع الوسائل لتحرير المسائل".

وله تقريض على شرح العلامة مصطفى الطرودي على رسالة "العبادية" في العروض[3]ورسالة في السياسة الشرعية بها من الأدلة ما يجعلها محط رحال الإفتاء بالديار التونسية، عرّفها بأنها ما يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، ثم أشار إلى ذم التصرفات السياسية فيما بين التفريط والإفراط[4]، وله رسالة في الحمامات المعدنية كتبها سنة1758م لمحمد باي(1756-1759م)، ضمنها الفوائد العلاجية للحمامات وهي في الواقع ترجمة لرسالة يوسف قير، وهو طبيب يهودي

1النيفر، مرجع سابق، ص508.
2نفسه، ص ص218، 219. **وانظر أيضا:** ابن أبي الضياف، مج4، ج7، مرجع سابق، ص ص30، 35.
3ابن أبي الضياف، مج4، ج7، مرجع سابق، ص34.
4خير الدين، مرجع سابق، ص148.

من أصل أوروبي، وقد نشرت باللغة الفرنسية من قبل "ألفونس روسو" سمّاها "notice médicale sur les eaux d'hamma-lif"[1].

5. **عبد الله حمودة بن عبد العزيز (ت1787م)**: ولد بتونس حيث نشأ وطلب العلم بها، وأخذ العلم عن علمائها، حتى برع في الإقراء بالجامع الأعظم، وتخرج على يديه علماء أعلام على رأسهم محمد بيرم الثاني وعالما المالكية الشيخ محمد المحجوب وعمر المحجوب وله حاشية على الوسطى، وعدد من الرسائل الكلامية وديوان شعر، وظفه الأمير علي باي في خطة الإنشاء وهو ما ساعده على تأليف كتابه "تاريخ الباشي"[2].

6. **حسين خوجة (ت1169ه/1755م)**: صاحب "الذيل لكتاب بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان" والذي اشتغل في عهد الدولة الحسينية رئيسا لديوان الإنشاء، وترجمان الدولة، وطبع الكتاب بالمطبعة الرسمية بتونس سنة1908م، تضمن تراجم لنخبة من فضلاء ومشايخ وأعيان تونس، كما ذكر بعض من المشايخ الذين لقيهم المؤلف في رحلته إلى الحج في مصر ومكة ودمشق، كما تضمن خبر استقرار العساكر العثمانيين بتونس وتصرفاتهم مع أهالي المدينة[3]، ومحمد أبو راس الجربي صاحب "مؤنس الأحبة في أخبار جربة" ومحمد بن محمد الصغير بن يوسف الباجي (ت1763م) صاحب "المشرع الملكي في سلطنة أولاد التركي"، ومحمود بن سعيد مقديش الصفاقسي(ت1813م) صاحب "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار".[4]

7. **أبو عبد الله بيرم الثاني** : المولود في 16ذي القعدة1162ه/ 1748/10/28م في بيت علم ومجد، خطب بجامع يوسف داي نيابة عن

1 Baya Abidi-belhadj, **Dar el-Bey d'Hammam-lif aux XVIII^e- XIX^e Siècles : Prémices Larchitecture Thermale à Tunis**, Al-sabil ; rRevue d'histoire d'Archéologie et d'Architecture Maghrébines, N°2 ,Tunis, 2018, p04.

2النيفر، مرجع سابق، ص ص623، 624.

3حسين خوجة، **الذيل لكتاب بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان**، المطبعة الرسمية العربية، تونس، 1908، ص ص01، 02.

4 سعيدوني، مرجع سابق، ص ص150، 153.

والده، وتولى القضاء مرتين واستقال منها كما تولى نقابة الأشراف بعد وفاة الشيخ عبد الكبير الشريف عام(1206/1791_ 1792م)، ثم تقلد خطة الفتوى في 15محرم1215ه/08جوان1880م بعد وفاة والده، له محررات علمية منها رسالة في بيع الوفاء وأخرى في رجوع الوصي عن وصيته وله منظومة في الهلال وأخرى في المفتين على مذهب أبي حنيفة، توفي في16جمادى الأولى1247ه/23أكتوبر1831م[1].

8. **أبو عبد الله محمد بيرم الثالث**: الذي ولد في 27ربيع الأول1201هـ في بيت علم، كان عارفا بالمعقول والمنقول، تولى مشيخة المدرسة العنقية وكانت حالتها سيئة جدا حتى صارت مرمى للنفايات، فجمع ما ستطاع من أوقافها وبادر إلى ترميمها إلى أن أحياها وبعثها من جديد في جمادى الأولى سنة 1236هـ[2]، تولى الخطابة بجامع صاحب الخيرات يوسف صاحب الطابع وكان أول خطيب فيه، تقدم للفتوى في حياة والده، وبعد وفاته تولى رئاسة المجلس الشرعي الحنفي وخطة نقابة الأشراف، توفي في27ربيع الأول1259هـ[3].

9. **أبو اسحاق ابراهيم بن عبد القادر الرياحي(ت1266هـ)**: الذي يعود أصله إلى قبيلة المحاميد القاطنة بطرابلس، والذين دخلوا إفريقية زمن الصنهاجيين، كان قد ولد بتستور سنة1181هـ[4]، وتفرغ للعلم حتى بلغ مراده، تولى قضاء الجماعة ثم رئاسة الفتوى ثم تدريس التفسير والحديث بجامع الحلفاوين، بطلب من الأمير حسين باشا. له رسائل في مسائل كثيرة في فنون متعددة، وله فتاوى تبلغ جزءا ضخما وديوان خطب يبلغ تسع وتسعون خطبة، وله ديوان شعر جمعه حفيده أبو العباس أحمد الرياحي نحو العشرة كراريس، توفي ليلة 28رمضان1266هـ[5].

1ابن أبي الضياف، مج4، ج7، مرجع سابق، ص ص158، 162.
2السنوسي، مرجع سابق، ج2، ص90.
3النيفر، مرجع سابق، ج2، ص ص717 ،718.
4ورد في مصدر آخر أنه ولد في1880هـ. **انظر**: السنوسي، مرجع سابق، ج1، ص252.
5النيفر، مرجع سابق ج2، ص724-726.

10. **أبو عبد الله محمد بيرم الرابع:** ولد في جمادى الأولى1220هـ تلقى العلم على يد جده بيرم الثاني وتولى الفتوى في عهد جده، ثم ولاه الأمير أحمد باشا رئاسة الفتوى الحنفية ونقابة السادة الأشراف مكان والده وتولى الخطابة بجامع صاحب الطابع ثم الجامع اليوسفي، وهو أول من تلقب بشيخ الإسلام في تونس وكان الأمير يقربه ويستشيره في المهام ويصله بأسنى العطايا ولما تولى الخلافة الأمير محمد باشا قربه أيضا وولّاه أمر الخطط الدينية، من آثاره "تراجم خطباء الحنفية" وكتاب "الجواهر السنية في شعر المتأخرين" ورسالة شرح فيها قواعد عهد الأمان، ومحررات فقهية في مسائل مهمة، توفي في04جمادى الأولى1278هـ[1].

11. **محمد بن محمد الطيب ابن محمد النيفر:** صاحب "عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب" ولد في شعبان 1277هـ وتوفي في السادس رمضان1330هـ، نشأ في بيت علم، حصل على شهادة التطويع سنة 1299هـ، تولى التدريس بجامع الزيتونة1312هـ ثم انتخب عضوا في لجنة تحرير فهرست كتب المكتبة الصادقية، ثم اختير عضو أول لتحرير فهرست كتب المكتبة الأحمدية، ثم تقلد خطة حاكم معاون بالمجلس المختلط العقاري، ثم عين عضو اللجنة المشكلة للنظر في إصلاح التعليم بجامع الزيتونة مثلما عين كعضو بلجنة النظر في الأراضي المشتركة بين العروش، ثم نائب الدولة لدى النظارة العلمية بجامع الزيتونة سنة1329هـ[2].

ومن أشهر مؤلفاته "واسطة التاج فيما إليه من عيون الحكم والوصايا يحتاج" وكتاب "تقويم المنطق الحضري بكف اللسان المضري" وكتاب "اللآلئ النضيدة بتاج اليقوتة الفريدة" ورجز سماه "جلاء العين بذكر الوزير خير الدين" الذي تبلغ أبياته زهاء الثلاث مائة وخمسين بيت

1النيفر، مرجع سابق ج2، ص ص853-854.
2نفسه، ص ص1036-1040.

وكتاب "برهان البقية من أدب أهل إفريقية" وكتاب "التحفة السنية في الأخلاق والسيرة المدنية العقلية" وكتاب "حسن البيان عما بلغته افريقية في الإسلام من السطوة والعمران" في ثلاثة أجزاء، إضافة إلى رسائل كثيرة[1].

12. **محمد بن عثمان السنوسي**: أصل عائلته من قلعة سنان في الشمال الغربي من القطر التونسي، قبل أن تنتقل إلى الكاف،[2] ولد في 22ذو القعدة 1267هـ/18 سبتمبر1851م، نال شهادة التطويع بالزيتونة في 04جويلية1870م، ثم عين معلما خاصا للأمير محمد الناصر باي، وفي ديسمبر 1874م عين كاتب أول لجمعية الأوقاف، وفي 26 أوت 1876م عين محررا بجريدة الرائد التونسي، وفي 1877م نشر ديوان الشيخ قابادو عن المطبعة الرسمية، وفي 1880م نشر مؤلفه الموسوم بـ: "مسامرات الظريف بحسن التعريف"، وفي 1882م حرر نبذة تاريخية عن نشأة الوزير مصطفى بن اسماعيل، وفي 5فيفري 1883عاد إلى تونس من رحلته الحجازية التي بدأها بالسفر نحو إيطاليا في25 ماي 1882م، وحرر كتابه الرحلة الحجازية في ثلاثة أجزاء فيما بين1883 و1886م، ثم عين مدرسا بجامع حمودة باشا في1884م، وألف تحفة الأخيار بمولد المختار سنة1885م، وفي 21ماي من نفس السنة عزل عن جميع الوظائف وأُبعد إلى قابس بعد المظاهرة التي تزعمها في 04أفريل من نفس السنة، ثم عاد من منفاه بعد ثلاثة أشهر[3].

وفي 1886م عين كاتبا بالمجلس المختلط العقاري، حيث ألف مطلع الدراري والروض الزاهر، وفي سنة1887م عين كاتبا بمحكمة الوزارة، وفيها أيضا ألف الخلاصة النازلة التونسية، وفي 1888م ألف "نظام المدينة" وأسس جريدة الحاضرة تحت إدارة علي بوشوشة، وفي

1النيفر، مرجع سابق ج2، ص ص1036-1043.
2للمزيد عن شجرة نسب العائلة **انظر**: السنوسي، مسامرات...،مرجع سابق، ص ص14، 15.
3السنوسي، الرحلة...، مرجع سابق، ص ص10، 12.

04جويلية سافر إلى باريس لمشاهدة المعرض الدولي والتي دامت شهرا كاملا، وفي أكتوبر1889م عين حاكما نائبا بالمجلس المختلط العقاري، وفي نفس السنة ألّف "الرياض النضرة"، وفي سنة1891م طبع "الاستطلاعات الباريزية" على نفقة الحكومة، وألف "المورد المعين" وشرع في تأليف ديوان شعر، وفي سنة 1894م حرر رسالته المجبى، وفي سنة1897م حرر رسالة في المرأة، و"رسالة نشر البساط في نازلة الفسطاط"، وفي سنة 1900م زاد المرض عليه وأمره الطبيب بالراحة والتوقف عن النشاط الفكري، وتوفي ليلة السبت 17نوفمبر1900م[1]، وكانت له مشاركة في كتابة تاريخ الحسينيين ضمن "دائرة المعارف" عندما زار بيروت[2].

كما احتفظت خزائن المكتبات التونسية بأسماء كبيرة في تاريخ الحياة الفكرية من خلال ماتركته من تراث علمي في مختلف العلوم والفنون من أمثال أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم المعروف بابن أبي دينار (ت1698م) الذي جمع علما وأدبا واشتهر بين بلغاء عصره، واعتنى بالتاريخ فألّف "المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس" الذي أرخ فيه للمراديين، وذكر فيه بعض علماء عصره[3]. ومحمد بن الشيخ محمد بن محمد الشريف الذي نشأ بتونس وأخذ العلم عن علمائها، ولما بلغ درجة من التحصيل تصدر لنشر العلم، وبذلك اشتهر ومن آثاره "مفاتيح النصر في التعريف بعلماء العصر"،وأبو العباس أحمد الأصرم المعروف برئيس الكتاب، الذي كان ملازما للأمير محمد الرشيد الذي لجأ إلى إيالة الجزائر، وكان ذا حضوة عند أمراء الدولة الذين أكرموا أبناءه من بعده، ويضاف لهم أبو الحسن علي غراب من الذين اشتهروا بعلوم الحساب

1السنوسي، الرحلة...، مرجع سابق، ص ص10، 12.
2النيفر، مرجع سابق،ج2، ص953.
3النيفر، مرجع سابق،ج1، ص477.

والفلك والمنطق وعلم التاريخ والبلاغة، وكان مجيدا للشعر، وقد اعترف به أهل الفضل مشرقا ومغربا.[1]

والشيخ محمد بن علي بن سعيد الحجري صاحب حاشية على "شرح الأشموني على ألفية الإمام مالك" و"حاشية على شرح الخبيصي على التهذيب" وحاشية على "السكتاني" في علم الكلام، وله رسالة في علم المنطق سمّاها "اللوامع" وديوان شعر سماه "الفلك المشحون" جمع فيه شعره وجملة من نثره، وكانت له مكاتبات مع مشاهير العلماء الذين نوهوا بما وجدوا في محرراته العلمية، وكان قد راسله الأمير حمودة باشا لتولي خطة كتابة الإنشاء لكنه رفض الوظيفة وفضل مزاولة دروسه.[2]

وأمير الأمراء رشيد[3] الذي اعتنى هو الآخر بتعريب كتب الصناعة الحربية ومن أشهر الكتب التي عرّبها: كتاب "أصل خدمة النظام العسكري" سنة1857م، وكتاب "ترتيب الشروط المخصوصة للدخول في السلك العسكري" سنة1862م، كما أدخل علم رسم الخرائط إلى المدرسة الحربية ببباردو، وجعله اجباريا في التكوين العلمي للتلاميذ، والقائم مقام أحمد الموالي الذي كان من المماليك وله اسهام كبير في التأليف العسكري، ومن ذلك: اختصار قانون خدمة العسكر في السفر1859م، وكنز فنون الضباط الصغار، وكان من بين من اختارتهم الدولة لمواصلة تعليمهم بمدرسة سانسير الفرنسية، ويضاف إليهم الكثير ممن تركوا آثارهم الفكرية في مجال الترجمة والتعريب، ومنهم البنباشي

1النيفر، مرجع سابق،ج1، ص ص518، 532.

2نفسه، ص ص549، 550.

3كان من مماليك الوزير أبي الربيع سليمان كاهية، وهو من القرج، قرأ بعض من القرآن الكريم، ثم أخذه الباشا أبو عبد الله حسين باي، وأضافه إلى ابنه أبي محمد حمودة باي، ثم نقله للخدمة العسكرية، إلى أن صار أمير آلاي بعسكر سوسة، ثم أضيف إليه قيادتها بعد مقتل الوزير شاكير صاحب الطابع، فخدمها قليلا من الزمن ثم استعفى منها، وكان مولوع بعلم الصناعة الحربية، وكان أول من اعتنى بتعريف كتبها، وحصل له من علمها ملكة كبيرة. **انظر**: ابن أبي الضياف، مرجع سابق، ج8، ص148.

أحمد بن عبد الرحمان، والصادق قرجوم الذي ألّف "رسالة في قانون خدمة طبجية[1] الوطن" [2].

وقد عرف العثمانيون خلال تاريخهم الطويل التعددية المذهبية، كما عُرفوا بالتفتح على أنماط أخرى من التنظيمات الإجتماعية، وهو الأمر الذي ساهم في تشكل تنوع ثقافي وإجتماعي، ورغم أن العثمانيين قدموا العلماء الأحناف على غيرهم إلا أن هذا التقديم كان في المناصب العليا فقط، فقد تولى الشافعية والمالكية مناصب الفتوى والتدريس والإمامة والأوقاف، كما تذكر الدراسات أن الأحناف قد تضائل وجودهم في المناصب العليا مع بداية القرن السابع عشر، صاحبه تزايد في تولي العرب للمناصب العليا في الدولة.[3]

ثالثا) دور المكتبات:

تعد المكتبات من أهم فضاءات نشر العلم والثقافة في البلاد لذلك وجدت بتونس منذ العهد الحفصي الذي شهد ظهور المكتبة العبدلية التي أنشأها السلطان محمد الحفصي في القرن العاشر الهجري، قبل أن يتم إنشاء مكتبة عامة سميت بالمكتبة الأحمدية في مكانها، حيث زادت التحبيسات عليها مثلما لقيت الدعم من المشير أحمد باي الذي كان اهتمامه كبيرا بجمع الكتب وتحبيسها على مكتبة الجامع وقد ضمت في عهده 2696مجلدا[4]، جعلها في عشرين خزانة ووضع إحداها في صدر الجامع بالصف الأول وملأها كتبا من مختلف الفنون[5]، وجعل بها نظاما

1**الطبجية** جمع طبجي تنطق بالعثمانية بباء مثلثة وتعني مدفعي (رجال المدفعية)، **انظر:** عمار محمد جحيدر، **معجم اليوميات الليبية**، ج1، ط1، مجمع اللغة العربية، طرابلس، 2021، ص224.
2بوعلي، مرجع سابق، ص ص215، 216.
3 مزاحم، مرجع سابق، ص07.
4بنبلغيث، فصول في...، مرجع سابق، ص113.
5الطويلي، بناة الدولة...، مرجع سابق، ص 43.

دقيق، بشكل حديث، وفق نظم المكتبات الأوروبية[1]، في ترتيب الكتب وتنظيم الفهارس، وطريقة المناولة[2] على عكس ما كانت عليه هذه الكتب في خزانة الأوقاف التي كانت متفرقة في المدارس والمساجد[3]، وجعل فهارسها في دفتر مرتب ونظم على حسب فنون الكتب التي فاقت الثلاثة والعشرون فنا، واشترط على وكيلي المكتبة حضور أحدهما يوميا من طلوع الشمس إلى غروبها ليعير الكتب لمن أرادها، بعد تقييد اسم طالب الكتاب وعنوان الكتاب، وإن أضاعه فإنه يغرم بالكتاب الذي أضاعه ولا تقبل منه قيمة الكتاب نقدا[4]، وهو ما يعكس التوجه الجديد نحو الإصلاح، من خلال توفير أماكن يلتقي فيها المثقفون، للتشجع على المطالعة، والرفع من المستوى الثقافي. إضافة إلى ذلك فقد ضمت المكتبة في رفوفها مجموعة من المطبوعات الحديثة الصادرة في المشرق وحتى في أوروبا، وكذا الصحف ونصوص القوانين الخاصة بالبلاد التونسية أو بغيرها، والتي كانت تشكل عاملا مهما في ربط مدارك المثقفين بتيارات عصرهم، فشاعت بذلك المعارف وانتشرت الآداب، وزاد شغف الناس بالمطالعة، التي ساهمت في تغذية أفكارهم وتوسيع مداركهم، والتي نجد بعض منها في جريدة الرائد التي حملت بين صفحاتها قصائد وموشحات، وعديد المقالات لكبار الأساتذة وحتى لبعض الطلبة[5].

1 تفتح خزائن الكتب للطلبة الراغبين في الاستفادة منها يوميا بقدر خمس أو ستّ ساعات ومنها ما يفتح بالليل قدر ثلاث ساعات، عدا يوم الأحد وأيام الأعياد التي لا تتجاوز في مجملها شهر في السنة، ولها نظّار ووكلاء بقدر الكفاية، وحولها حجرات يتم تدفئتها خلال فصل الشتاء، كما تتوفر على آلات الكتابة دون الورق الذي يأتي به الطالب، وعند خروجه يسلم الكتب، وهي متاحة للأهالي وللأجانب على حد سواء. **أنظر**: خير الدين، مرجع سابق، ص ص188، 189.

2 قال فيها ابن أبي الضياف: "يا له من عمل ذلل صعاب العلوم وراضها، وأنشأ حدائقها ورياضها، وأجرى جداولها وحياضها، وأصاب شواكلها وأغراضها. نسخ على غير مثال، انهلّ به ودق العلم وانثال، وسرى ذاكره مسرى الأمثال" **أنظر**: ابن أبي الضياف، مرجع سابق، ج4، ص 50.

3بن عاشور، مرجع سابق، ص26.

4بنبلغيث، فصول في...، مرجع سابق، ص113.

5بن عاشور، مرجع سابق، ص26.

ولما أنشأت المكتبة الصادقية أرسل خير الدين إلى رئيس جمعية الأوقاف بالجامع وطلب منه إصلاح ما يلزم إصلاحه من الكتب المجمعة من مدارس الحاضرة قبل ضمها للخزانة الجديدة، مثلما طلب من جمعية الأوقاف ضبط الكتب الموقوفة للانتفاع بها والتي بلغت 1977كتابا كانت موزعة بين المدرسة الجديدة ومدرسة باردو والمدرسة السليمانية ومدرسة بئر الحجار وجامع حمودة باشا والجامع الجديد ومدرسة النخلة والحسينية الصغرى والتوفيقية وحوانيت عاشور وجامع محمد باي، ومدرسة صاحب الطابع والباشية وخزانة شيخ الإسلام ومحمد بيرم وجامع صاحب الطابع، وكَتب إلى رئيس الجمعية بتاريخ06صفر 1292هـ/ 14مارس 1875م يؤكد له فيها بأن الدولة قد استجابت لطلبه وخصصت ستة آلاف ريال لبناء منشأة لوضع الكتب الجديدة بها[1].

وصدرت بعد ذلك أمرية في 12ربيع الثاني 1292هـ/18 ماي1875م تتعلق بطريقة ترتيب الكتب على النحو التالي:

- الفصل الأول: يجعل دفتر للكتب وترتب حسب الفنون وبين كل فن وآخر يترك فراغ لإلحاق ما عسى أن يضم.
- الفصل الثاني: يزود كل كتاب بعدد يكون مطابقا لما في الدفتر.
- الفصل الثالث: يبين ما في المجموع من كتب.
- الفصل الرابع: تفتح المكتبة بعد نصف ساعة من صلاة الصبح إلى صلاة العشاء، أما في الصيف فتغلق عند الزوال.
- الفصل الخامس: كل من يدخل الجامع له أن يدخل المكتبة.
- الفصل السادس: منع الإعارة الخارجية.
- الفصل السابع: يمكّن للمستعير من الكتب ولو تكرر منه الطلب في الوقت الواحد مرارا.
- الفصل الثامن: للسابق حق الأفضلية في مطالعة الكتاب على اللاحق.

1بنبلغيث، فصول في...، مرجع سابق، ص ص114، 115.

- الفصل التاسع: ترتيب الكتب في الخزانة حسب الفنون.
- الفصل العاشر: هناك تفاضل في الكتب فالأشرف يوضع فوق.
- الفصل الحادي عشر: تزويد المكتبة بقيِّمين اثنين وناظر عليهما.
- الفصل الثاني عشر: على القيّمين حمل المطالعين على احترام الكتب وعدم الإضرار بها.
- الفصل ثالث عشر: توفير الناظر للمحابر والأقلام.
- الفصل الرابع عشر: يراجع الناظر المكلف من الدولة في شأن إصلاح بعض الكتب والخزائن.
- الفصل الخامس عشر: يراقب الناظر الدخول والخروج عند الباب.
- الفصل السادس عشر: ليس للمستعير أخذ ما يريد بنفسه بل لابد من الاستعانة بالقيم[1].

وبهذا فإن خير الدين قد وضع أحدث أسلوب في الإهتمام بالكتب والمكتبات، وجعل دار للمطالعة ليؤكد بذلك إرتباط المكتبة بالتعلم والثقافة في تونس، وعلى نفس النهج سار خلفاؤه من بعده فقد بعث الوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل إلى الشيخ محمد بيرم رئيس الجمعية المكلف بالمكتبة الصادقية، يُعلمه بأنه قد بعث إليه 191مجلد ليضعها بالمكتبة وهي 68 كتابا عربيا والباقي بالتركية[2].

وضُم للمكتبة فيما بعد كتب المدرسة الحسينية بالكاف التي وجدت في غاية الإهمال بسبب عدم وجود قيم عليها، كما ضم إليها الصادق باي تحابيس مكتبة مصطفى خزندار، وكتب الشيخ ابن أبي الضياف التي بلغت1798كتابا، وأوقف بها أيضا خزانة كتبه التي بلغت300كتاب، وأضاف إليها الوزير مصطفى بن اسماعيل كتب الفريق عصمان، وحبس بها محمد خزندار خزانتين من الكتب المعتبرة، وتوالت التحابيس من طرف

1بنبلغيث، فصول في....، مرجع سابق، ص ص115، 116.
2نفسه، ص ص116، 117.

الشيوخ والقادة من داخل الحاضرة ومن خارجها إلى أن بلغت مايزيد عن7833 مجلدا أغلبها مخطوطات[1].

رابعا) دور المطبعة والصحافة:

كانت تونس عند وفاة المشير أحمد باي مهيأة للسير في سبيل التمدن الأوروبي والذي كان قد شاهده خلال زيارته لباريس1262ه/1845م، واقتبس من بعضه أسس نظام دولته، لكنه لم يكتب له أن يدخل الطباعة إلى تونس التي عرفتها مع إعتلاء المشير الثاني محمد باي عرش الدولة، حيث قرر جلب مطبعة حجرية يكتب من خلالها أوامره ونواهيه، جعل مقرها بالحفصية[2] بمقر مصنع المدافع سنة1856م، واستحضر قطعها من باريس وفق ما كان عازما عليه سلفه، وكان أول ما طبع بها تراتيب داخلية، ثم جلب لها أحرف معدنية من دار الطباعة بباريس[3].

وبعد تولي حكم البلاد من طرف أخيه المشير الثالث محمد الصادق تأسست جريدة الرائد التونسي1860م، والتي خص قسما منها لنشر الأمور الرسمية، وجعل الشيخ محمود قابادو رئيس تحريرها، وكان قد أعطى امتياز المطبعة لأحد الإنجليز قبل أن يأممها سنة 1860م[4]، كما استقدم إليها بعض العلماء العرب ممن لهم خبرة ميدانية في مجال الطباعة من أمثال أحمد فارس الشدياق ومنصو كريتلي وحمزة فتح الله وغيرهم للاستفادة من خبرتهم في شؤون ادارة جريدة الرائد وكذا دعم جهود

1بنبلغيث، فصول في....، مرجع سابق، ص117.

2 دار الحفصية كانت مصنعا للمدافع في عهد الدولة الحفصية (1236_1574م) والدولة المرادية والحسينية، إلى زمن المشير أحمد باي، كما كانت تحتوي على معمل لضرب السكة في السابق، وبعدما وضعت بها المطبعة حوالي ربع قرن، تقرر نقلها إلى المحل الذي كان اسطبلا لسمو الباي ببطحاء القصبة، ومنها نقلت إلى دار الداي الملاصقة لدريبة الدولاتي عام 1319هـ/1901م. **انظر**: بن الخوجة، مرجع سابق، ص166.

3نفسه، ص166.

4 الطويلي، بناة الدولة...، ص35.

الكتاب التونسيين الذين انتدبوا للإشراف على الجريدة من أمثال محمود قابادو ومحمد بيرم الخامس ومحمد السنوسي[1].

وقد ساهمت المطبعة في تعميم نشر هذا التوجه الجديد بتونس خارج أسوار المدرسة في وسط عامة الناس، بالترويج لهذا الفكر الجديد(الفكر الإصلاحي)[2]، ولم يمض غير وقت قصير حتى أقبل الناس على هذا المشروع الجديد، للاستفادة من نتائج المطبعة والصحافة، وسعوا لنشر بعض كتب الأدب والتاريخ، والكتب الدينية في الحديث والتوحيد والتصوف، وأول ما طبع مجموعة قوانين دولية ثم جدول في المقابلة بين التواريخ للشيخ حسن لازغلي المسمى "البهجة الحسينية في التواريخ الحالية"، وكتاب "سلوان المطاع" لإبن ظفر، وكتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" لإبن زيان، ثم تسلسل الطبع والنشر للكتب من كل علم وفن[3].

وصارت المطبعة تشكل أكبر عوامل تطور الحياة الفكرية والأدبية، ولهذا كان اهتمام الوزير خير الدين بها كبيرا، وأسند مهمة الإشراف على جريدة الرائد للشيخ محمد بيرم، والإدارة لمنصور كرليتي الفرنسي المستعرب الذي نشأ في بيروت وتخرج من كلية اليسوعيين؛ كما وسع نطاق النشر في المجلة للكتب الأدبية والتاريخية، مثلما عين المصري فتح الله الاسكندراني لتصحيح الكتب وجريدة الرائد، وبذلك التقت جهود النشر بتونس بنظيرتيها في بيروت ومصر، التي ساهمت في تضاعف حجم المبادلات والمراسلات، وتوسع معها باب جلب المطبوعات من المشرق وترويجها بتونس، مثلما كانت المطبعة تصدر تقويما سنويا تحت اسم "النزهة الخيرية" الذي كان يسهر على وضعه وتحريره كاتب من

1 الجابري، مرجع سابق، ص11.
2 بن عاشور، مرجع سابق، ص25.
3بن الخوجة، مرجع سابق، ص167.

الجالية الجزائرية بتونس هو الشيخ حسن لاض أوغلي الذي كان برع في علم الأدب والحساب والفلك[1].

وقد أتاحت المطبعة لعدد كبير من الأدباء من الكتابة والنشر عبر صفحات جريدة الرائد التونسي، فالمطبعة لم تقتصر على نشر الوثائق التي تتعلق بأمور الدولة من مراسيم وقرارات، وإنما نشرت عديد القصائد لشعراء تونسيين كانوا قد برزوا خلال الفترة في مناسبات مختلفة، كما نشرت عدة مقالات ودراسات تنوعت مواضيعها التي عالجتها بين التاريخ والجغرافيا والطب والأدب والفنون والتعليم والتربية والفكر السياسي والاقتصادي، سواء كانت تحريرا من قبل المشرفين على الجريدة أو نقلا عن بعض الصحف والمجلات العربية في المشرق[2].

وكانت جريدة الرائد تتكون من قسمين؛ قسم رسمي توضع فيه الأوامر والقوانين والتسميات، وقسم غير رسمي تنشر فيه الأخبار بالتعليق؛ دعاية للوزير ولسياسته وتنويها بثمار عهده، مثلما تنشر فيه أخبار مماليك ودول أوروبا والعالم، وأخبار العلم والاكتشافات، وكذا مقالات مترجمة عن الصحف الأوروبية تحمل تقارير علمية في التاريخ والجغرافية وعلم الاجتماع، ولم تكن الجريدة تقتصر على نقل الأخبار فحسب بل فتحت الباب أمام المقالات الأدبية والتوعوية التي ترتبط بالوضع الحالي والتي كان بعضها يصدر عن أفكار الوزير، ومنها ما كان يقوم هو بتحريره أو بمشاركته مثل مقال "التربية" بمناسبة تأسيس المدرسة الصادقية، ومقال "المدار على الرجال" يفند فيه الأخبار التي شاعت عن سحب الملك ثقته من الوزير، وفي سنة1876م عين الشيخ محمد السنوسي تلميذ الشيخ قبادو لتحرير الرائد، فأصبحت الجريدة لا تخلو من مقال توجيهي عام بطابع أدبي يتسم بضبط الموضوع لغويا، تثريه النصوص القرآنية وأحاديث الرسول وكلام البلغاء والحكماء شعرا ونثرا،

1ابن عاشور، مرجع سابق، ص26.
2 الجابري، مرجع سابق، ص 13.

بأسلوب مسترسل يكسوه طابع التحرير العلمي بمزيج من الأدب على نسق كتاب "أدب الدين والدنيا" للماوردي، أو كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي، فجاءت عناوينها بها شيء من الاختصار والمعنى مثل: الاتحاد، السعي، أصول التسديد، الرأي، الوفاء، إجارة الجار[1]، وساهمت الجريدة في حفظ أسماء كثير من الأدباء[2] الذين تألقوا خلال هذه الفترة ونشروا مقالاتهم على صفحاتها، ومن أبرزهم محمد بيرم الخامس، ومحمد السنوسي، ومحمد بن الخوجة، ومحمد بن عثمان الحشائشي، بالإضافة إلى تشجيعها للشعراء والأدباء، من خلال اهتمامها بنشر المطبوعات والكتب التعليمية، وكتب الرحلات وبعض المؤلفات الأدبية والنقدية، كما عملت المطبعة على إصدار العديد من المؤلفات[3] خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي ظهرت فيها عدة مؤلفات لأدباء أعلام تركوا تراثا أدبيا وفكريا، أهمهم أحمد بن أبي الضياف وخير الدين التونسي،

1ابن عاشور، مرجع سابق، ص ص27، 28.

2من جملتهم نذكر: محمود قابادو، محمد التطاويني، محمد بن عثمان الحشائشي، علي الشواشي، أحمد كريم، الباجي المسعودي، محمد البارودي، محمد المختار شويخة، محمد الرياحي، محمد الطاهر بن عاشور، محمد الصادق ثابت، محمد ابن مالك، الشيخ الخضار، سالم بوحاجب، ابراهيم بوعلاق، محمد السنوسي، محمد عمار، محمد الطاهر بن جعفر، أحمد المزيو، وعلي الحبيب، الشاذلي الصدام، ابراهيم البحتري، أحمد بن الخوجة، محمد طريفة، المكي بن عزوز، محمد بن الخوجة وغيرهم. **أنظر** : الجابري، مرجع سابق، ص ص13، 14.

3من بين المؤلفات التي صدرت عن المطبعة بالإضافة إلى ما سبق: "سلوان المطاع في عدوان الأتباع" للمكي و "ختم في الحديث" للنيفر سنة 1862م، و"مناقب الأيمة الأربعة" للحريفيشي، و"لوعة الشاكي ودمعة الباكي" للصفدي، و"الواسطة في معرفة أحوال مالطة" وكشف المخبا عن فنون أوروبا" للشدياق، و"كتاب الموطأ" سنة1863م، و"ديوان حسان بن ثابت" و"حاشية على قطر الندى" للشيخ حسن بن عبد الكريم الشريف سنة1864م، وكتاب "كنز فنون الضباط الصغار" للمورالي، وكتاب خدمة ضباط عسكر التريس عام 1865م، و"الخلاصة النقية في أمراء إفريقية" للباجي المسعودي، و"شرح الرسالة السمرقندية" لأبي الليث السمرقندي عام 1866م، وكتاب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" لخير الدين التونسي، و"شرح متن الأجرومية" للأزهري، عام 1867م، و"المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس" لابن أبي دينار، وكتاب "تعليم المتعلم طريق التعلم" للزرنوجي، عام1869م، وقطعة مما نشرته الرائد التونسي من كتاب "الحلل السندسية في الأخبار التونسي" للوزير السراج سنة 1870م، و"تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية" للزركشي، و"زواهر الكواكب لبواهر المواكب" لمحمد بن علي بن سعيد ام 1873م، وديوان الشيخ قابادو، وغيرها من المؤلفات التي أصدرتها المطبعة. **أنظر**: الجابري، مرجع سابق، ص14، وبن الخوجة، مرجع سابق، ص ص168، 175.

ومحمد بيرم الخامس، محمد المناعي وابن الخوجة، والحشائشي، السابقين الذكر، وفي نفس الوقت كان ظهور بعض الشعراء والكتاب غير لافت بسبب ضعف إنتاجهم الأدبي[1].

وبدأت شيئا فشيئا تظهر جرائد جديدة على غرار جريدة الحاضرة التي تأسست سنة1888م كأول جريدة وطنية مستقلة، تولى رئاسة تحريرها ثلة من رجال الإصلاح، وعلى صفحاتها نشر محمد السنوسي ومحمد بن الخوجة وسالم بوحاجب مقالاتهم الأدبية والفكرية، إلى جانب المقالات التي نشرتها أسرة تحرير الجريدة والتي كانت تعالج القضايا المحلية، بالاعتماد على الكاتبين علي بوشوشة والبشير صفر اللذان قاما بدور مميز في إعادة الروح للحركة الأدبية والسياسية من خلال العمل الصحفي، وإلى جانب معالجتها للقضايا السياسية والمتصلة بالحياة الوطنية، نشرت العديد من المقالات والرحلات والقصائد الشعرية التي لم تخرج في مجملها عن طابع المديح والرثاء والتهاني، كما اتسم اسلوبها بالتكلف والتصنع، والعناية بظواهر البلاغة اللفظية[2]، وبذلك فإنها أسهمت في ظهور أدب المقالة الذي دفع بهؤلاء الكتاب إلى الكتابة بلغة العصر، وبذلك تحرر النثر ونزع إلى الخطابة والإهتمام أكثر بالشؤون المحلية مع الانفتاح على العالم الخارجي وتقريب القراء واطلاعهم على ما يحدث في المحيط الدولي، وقد أسهم هذا التحرر العام من قيود الأدب إلى ظهور نثر أدبي فني تمثل في الرواية والقصة والمسرح مع بداية القرن العشرين بتونس[3].

وتميزت نهاية القرن التاسع عشر بكثرة الأحداث السياسية التي عرفت تردي الأوضاع الداخلية، والاضطرابات التي هيأت أسباب الاحتلال الفرنسي سنة1881م، رغم ظهور جهود الإصلاح التي قام بها خير الدين

1الجابري، مرجع سابق، ص ص13، 14.
2نفسه، ص ص15، 16.
3نفسه، ص ص31، 32.

والجماعة المؤيدة له من العلماء والمفكرين لتفادي الكارثة المتوقعة، لكنها باءت بالفشل، وأما على الصعيد الفكري والأدبي فإن أهم ما ميز الفترة هو ظهور حركة الطباعة والنشر في تونس ، والتي ساهمت في ظهور الكثير من الكتاب والأدباء، الذين أثروا الساحة الثقافية من جهة ودفعوا إلى إنشاء مزيد من الصحف الوطنية من جهة ثانية[1].

II- حركة التأليف بطرابلس الغرب:

اولا) طبيعة الكتابة الأدبية في طرابلس الغرب:

تأثرت الحياة العلمية وحركة الإنتاج الفكري في مختلف الفنون والعلوم بالأوضاع السياسية التي ميزت البلاد، منذ انهيار الحكم الحفصي وسيطرة الإسبان وفرسان مالطة إلى غاية انضمام طرابلس الغرب لحضيرة الدولة العثمانية، قبل أن تشهد تحول إيجابي بعدما تمكن العثمانيون من فرض الأمن وتوحيد البلاد تحت سلطتهم، خاصة زمن القرمانليين(1711_1835م).

1-الكتابة النثرية:

تأثر الأدب النثري بطرابلس الغرب بالأنماط التي كانت سائدة في البلاد العربية من الولع بالمحسنات اللفظية الذي تمثل في أدب الرسائل والخطابة، أما الرسائل فهي نوعان رسائل ديوانية أو رسمية ورسائل اخوانية، فالرسائل الديوانية تشمل الأوامر والطلبات التي يصدرها السلاطين والحكومات وكانت كثيرة بسبب المعاملات الإقتصادية والسياسية مع الإيالات العربية والدول الأوروبية، وكان لها ديوان خاص يسمى "ديوان الإنشاء"[2]، يُعين على رأسه من كان ذا شهرة في العلم فيجمع بذلك بين العلم والسياسة في تولي كتابة أدق أمور الدولة كالعلاقات

1الجابري، مرجع سابق، ص ص17، 18.
2أبو عجيلة، مرجع سابق، ص31

الخارجية وعقد المعاهدات، وقد دونت الكثير من هذه المعاملات باللغة العثمانية في العهد القرمانلي ولم يكتب بالعربية إلاّ القليل، والذي يشير إلى إهتمام الحكام القرمانليين باللغة العربية، وأشهر من تولى هذا المنصب خلال العهد القرمانلي: أحمد قاسم زمرون في عهد أحمد باشا، ومصطفى الخوجة في عهد علي باشا، ومحمد عثمان ومحمد الدغيس وابنه حسونة في عهد يوسف باشا، وكان يتميز أسلوب هؤلاء بمقدمة يكثر فيها الحمد والاستشهاد بالنصوص القرآنية، وتختم بتحية المرسل إليه والدعاء له بطول العمر[1].

أما الرسائل الإخوانية فهي نوع من أنواع الأدب التي تكون في العادة مكاتبة بين الأصدقاء أو مناظرات أدبية تحمل وصف مشاهدات أو فكاهات أو مواضيع تاريخية والتزموا فيها بالأسلوب الأدبي المليئ بالاستعارات والسجع والتشبيه، مع بعض الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية وما اشتهر من المحفوظات والروائع الشعرية، ومن أشهر من كتب في هذا اللون "أحمد القليبي" (أديب وشاعر تونسي من بلدة القليبة بتونس) في الرسائل التي كانت بينه وبين صديقه محمد شلبي صاحب بيت المال، فهذه الرسائل من الناحية التاريخية تحتوي على الكثير من المعطيات بما حملته من معلومات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، وبالتالي فهي تحمل مادة تاريخية مهمة لدراسة الجوانب الاقتصادية والثقافية والاجتماعية للبلاد خلال الفترة[2].

أما الخطابة التي كانت بالمساجد، فإن الهدف منها تبصرة الناس بأمور دينهم، وكان الخطيب يعتلي المنبر في الجُمع والأعياد ويبدأ خطبته بالتسبيح والصلاة على النبي وينهيها بالأدعية والابتهالات، بينما يختلف أسلوب الخطابة من خطيب لآخر حسب قدراتهم اللغوية والبلاغية، وقد أشاد كثير من الرحالة بمستوى الخطابة بطرابلس في أثناء نزولهم بها

1أبو عجيلة، مرجع سابق، ص ص31، 32.
2نفسه، ص ص32، 33.

فقد ذكر محمد بن الطيب الفاسي(ت1171هـ) الذي زارها (1139-1140هـ/1727-1728م) "وأصبحت الجمعة فتوجهنا لصلاتها واغتنام صلاتها ودرجنا مع من درج لإيقاعها في جامع الدرج[1] فرقي المنبر إمامه المسن الخير الأكبر الشيخ أبو محمد عبد القادر الحنفي، وأبدى خطبة رائقة رقيقة جمعت لطيف الوعظ ورقيقه"[2].مثلما ذكر في معرض حديثه عن الشيخ أبو العباس أحمد في قوله: "ومنهم الفقيه الخطيب وغصن الفصاحة الرطيب الشيخ أحمد كنت، الخطيب بجامع الترك الأعظم، وقد صلينا معه الجمعة الثانية فأبدى خطبة بالغ فيها في أمر الحاج وعظم مع فصاحة المنطق وانطلاق اللسان، والإتقان في تحكيم الألفاظ والإحسان"[3].

اهتم حكام الدولة القرمنلية بالعلم وأهله كثيرا من خلال سعيهم لاقتناء الكتب وتشجيع حركة النسخ، التي أوجدت مناخا ملائما يجذب إليه أهل العلم، ومن الأمور التي ساهمت في انتعاش الحركة الأدبية هو اتخاذهم اللغة العربية كلغة رسمية للبلاد، يتم من خلالها كتابة الوثائق الرسمية للدولة وجعلها لغة التعليم في المدارس التي أنشأها رجال الدولة، وتبلورت هذه الحركة الأدبية الفكرية في مجالس الأدباء التي كانت تسمى بالصالونات الأدبية، وكانت تلقى الرعاية بمساهمة نخبة من المثقفين الذين يستقبلونهم في مسامرات أدبية ليلية، وأشهر هذه البيوت بيت النائب الأنصاري، وبيت مصطفى الكاتب وهي أسر عريقة تداول أفرادها خطط الإفتاء والقضاء بالإيالة، وساعدهم وضعهم المادي على إنشاء مكتبات كبيرة في بيوتهم تضم أمهات الكتب، توارثها أفراد الأسرة جيلا بعد جيل، ضمت كتب الفقه والأدب وقواميس اللغة العربية وشروحها،

1يقصد جامع الدروج.

2محمد الطيب الفاسي، **رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة**، تح عارف أحمد عبد الغني، دار العراب ودار حوران للدراسات والنشر والترجمة، سوريا، 2014، ص115.

3نفسه، ص 117.

ودواوين المتنبي وأبو العلاء المعري، وأبو تمام وأحمد البهلول الطرابلسي، بالإضافة إلى مقامات الحريري وكتب الجاحظ[1].

2-الكتابة الشعرية:

بمأن الشعر عند العرب هو سجل يجمع فيه أخلاقهم وما كان من معتقداتهم في القصائد التي كانت تحكمها أوزانها وقافيتها، فإن طرابلس الغرب عرفت ظهور عدة دواوين للشعر أشهرها ديوان أحمد البهلول لصاحبه أحمد بن حسين بن أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن قائد بن أحمد، المولود بطرابلس خلال القرن الحادي عشر الهجري، حيث تعلم ودرس، ثم انتقل إلى الأزهر ليواصل تعليمه هناكّ، وقد ترجم له النائب في المنهل ونفحات النسرين والبغدادي في هداية العارفين وقال عنه ابن غلبون في التذكار أنه: "ارتحل إلى مصر ولقي بها الشيخ أحمد البشبيشي الكبير، والشيخ سيدي محمد الخرشي والشيخ عبد الباقي الزرقاني، والشيخ حسن الشرنبلالي وغيرهم، وتفقه بهم في كل العلوم، وأخذ عنهم الحديث، والتفسير، والكلام، واللغة، والأصول، والنحو، والتصريف، والقراءات، والحكمة"[2] ، وله عدة مؤلفات في الفقه والأدب والشعر أشهرها: تخميس القصيدة العياضية في مدح خير البرية والمعروفة بديوان البهلول، ومنظومة درة العقائد في سبعين بيتا التي لم يرى مثلها في سلامة النظم وعذوبة اللفظ، ومنظومة المعينة في مذهب أبي حنيفة، ومنظومة العزية في فقه مالك، والمقامة النورية وديوان شعر في الغزل، وكانت وفاته بطرابلس في 02رجب1113هـ/1701م وديوانه هذا عرفه أهل الشرق وأهل الغرب ، فقد مُدح في قصائد كثيرة لو جمعت لكانت ديوانا كاملا ومما قيل فيه :

يا فاضلاً فضله بين الورى ظهرا وعاقلا وهو بالبهلول قد شهرا

1أبو عجيلة، مرجع سابق، ص ص24، 25.

2أبي عبد الله محمد بن خليل بن غلبون، **التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار**، تص الطاهر أحمد الزاوي، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004، ص ص277، 278.

ويا فقيـــها له في الفقه مرتبة أبدى بها سر ما أخفى من اختصرا
وعالما بتقارير الشفا شفـــى أمراض قلب الذي في درسه حضرا
وصح لما روى عنـــه مشافهة صحيح متن(البخاري) وارتوى دررا
لقد حباك إله العرش جل بمـا حباك مما به قد صرت مشتهـــرا
يا ابن الحسين جزاك الله مكرمة أبديت في كل علم للورى عبرا[1]

ولم تكن شهرته بين أهل الأدب فقـط وإنمـا كانـت كـل بيوتـات طرابلس تقرأ ديوانه، الذي يصنف ضمن الشـعر الصـوفي والحامـل لأرقـى وأرق التصورات الأدبية، ومما دلت عليه أبياته سعة ثقافته وتنوع مواضـيعه الشعرية بين الجمال والحب والخير والفضيلة، رغم أن الشعر عند الصوفية كان يعبر عن مضـامين الـنفس، غيـر أن البهلـول كـان بعيـدا عـن هـذه الظاهرة الأدبية التي أبتلي بها الأدب الصوفي، أو أدب الفلاسفة المتصوفة .

وظلت الصالونات الأدبيـة التـي تعتبـر ميـزة فريـدة فـي المجتمـع الطرابلسي والتي كانت تسمى محليا بالمرابيع، بمثابة متنفس للمواهب في أدب الرواية والسير وفي فنون الشعر، تقام أسبوعيا مثلما تعقد فـي بعـض المناسبات والمواسم، وهو ما يعني أن الشعر كان على أفضل حـال والـذي ساهم فيه خبرتهم من خلال الرحلات العلمية التي كانوا يخوضونها، والتي أسهمت في ظهور عديد الشعراء من أمثال:

1.2- **<u>أحمد بن عبد الدائم الأنصاري</u>**: وهو من شعراء القرن الثامن عشر، الذي ذكره الطاهر أحمد الزاوي أنه قد حاز على نبذة صغيرة عـن حياتـه كتبها إليه أحمد بن محمد الفقيه حسن، قال فيها أنه وجد كتاب مخطوط لمحمد بن عبد الكريم بن عبد الكريم بن عبـد الرحمـان الأنصـاري، الـذي يحتـوي علـى تـراجم لآبائـه وأجـداده، والـذي فـرغ مـن تأليفـه فـي محرم1212هـ، ومن جملة أجداد المؤلف الذين ترجم لهـم، الشـيخ أحمـد بن عبد الدائم الطرابلسي الأنصاري، وهو جده من أمه، وهي ترجمـة أهمـل

1 ابن غلبون، مرجع سابق، ص278.

فيها تاريخ ميلاده ووفاته[1]، وكان قد تلقى تعليمه في تونس ومصر والجزائر، وعرف بأدبه الجميل وفصاحة لسانه، ودرايته بالتاريخ الإسلامي، وله تعليق على البخاري وعلى متن الأجرومية، ومن أشهر قصائده تلك التي استنجد من خلالها بالسلطان العثماني أحمد خان الثالث ضد الحصار الفرنسي لطرابلس عام1140هـ/1728م وجاء فيها:

يا حامي الإسلام يا بحر الوفاء يامن على الأفلاك شائك يعترى
لازلت كهف الخافقين ملاذهم عبث اللهو فأتى بوقت محمل
شيدت منارات الشريعة منذ إذ تسمو على هام السماك الأعزل
وإذا الملوك تحججت عن وافد فهو الذي عنه المكارم تتجلى

ثم يقول:

يا واحدا ما في البسيطة مثله ملك الملوك بتاجه المتكلل
فاسمع لقصة من أتاك ببرقة خد ثاره من كل خصم مبطل
إنا لنرجو منك أخذ الثأر من شعب الفرنسيس اللئيم الأرذل[2]

وأشهر قصائده[3] تلك التي نظمها ردا على الوزير الإسحاقي الذي هجا طرابلس وقال فيها: "بلدة شعثة الساحة لا يجد القلب فيها راحة ضعيفة المعاش عديمة لرياش شابت فيها الحضارة وشبت بها البداوة، وأهلها في قلوبهم مرض، وعلى أبصارهم غشاوة، ويكفي في وصفها قول العبدري في رحلته بعد تأمله في ذهابه وجيئه، ومدينة طرابلس هي للجهل مأتم وما للعلم بها عرس"[4]، واقد شرحها ابن غلبون في كتابه "التذكار" بطلب من الوالي أحمد القرمانلي، وجاء في مطلعها:

أرى زمنا قد جاء يقتنص المها بلا جارح والأسد في فلواتها
رأى اقيض مُبْيضّا بمزبلة الحمى فقال كفاني إنه من صفاتها

1ابن غلبون، مرجع سابق، ص13.
2أبو عجيلة، مرجع سابق، ص ص26، 27.
3 لمطالعة القصيدة كاملة **انظر**: ابن غلبون، مرجع سابق، ص ص309، 311.
4 عبد الهادي التازي، **أمير مغربي في طرابلس1143هـ/1731م او ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي**، د م ن، د س ن، ص143.

أتى أهله يَهــوِي وبشّر أنــه بربقة من ظِبيانها ومهاتـــــها
فألقى قشورا باليات وقد رمى بدائه أرباب الحجى من نهاتها
كمن رَامَ أن يُبري العليل بحية وزارع شوك يرتجي ثمراتـها[1]

وفي القصيدة نجد معاني القومية في دفاع الشاعر عن وطنه، وإن لم تكن القومية آنذاك واضحة المعالم، إلا أنها تعطينا إشارة إلى وجودهـا فـي نفوس الطرابلسيين منذ زمن وليست وليدة القرن التاسع عشر كما يـروج لها[2].

2.2- **محمد بن العربي بن حمودة الصغير الهاشمي**: الذي نشأ وتعلم في طرابلس قبل أن يرحل إلى مصر والحرمين الشريفين طالبا للعلم، عاد إلـى طرابلس حوالي1130هـ/1717م وصـار مجيـدا عارفـا بالشـعر وفنونـه، ينظم القصائد ويلقي الخطب ومن أشعاره القصيدة التي مـدح فيهـا أحمـد باي القرمانلي:

وكــن خالعا نعليك بيــن مرابع مقدسة تبلـــغ مــناك وترفع
هناك العــز والمــنى حيــن تقطعت تمائمه والمجد منك بمسمع
به صادحات الورق تسجع في الضحى تنادي هديلا بين أدواج أجرع
يحاكيني إذا شط عني وليــهم وقد خلفوا جمر الغضا بين أضلعي

ومن الملاحظ على القصيدة التي يظهر من مطلعها أنهـا جـاءت فـي نسق قصائد الشعر التقليدي بما حملته من تشبيه واستعارات بلاغية وصـيغ لفظية[3].

3.2- **عبد الكريم أحمد النائب**: وهو أحد علماء طرابلس وقضاتها وكان محدثا لغويا وخطيبا متفننا وأحد شعراء طـرابلس المتميـزين فـي الشـعر الديني الصوفي، وكان هذا اللون أكثر انتشارا خلال العهد العثماني، والذي

1إبن غلبون، مرجع سابق، ص309.
2أبو عجيلة، مرجع سابق، ص28.
3نفسه، ص26.

كان يميل للتوجيه والإصلاح أكثر من مدح الأولياء، ومن أشهر أشعاره القصيدة التي يقول فيها:

يامشتكي حزني شرخ الباب نما والشيب زارني فعلق العمر ضاع سدا
ناديت بالويل إذ بانت طلائعه ورفده دام للفودين أن يغدا
وقلت ماتبقى مما كلفت به لودت من قبل ذا من أجله لودا
أجابني بلسان الحال ينشدني لاتبتئس يافتى فالعيش عيش غدا
يوم نرى فيه من خاف الإله على كثبان مسك فلا يخشون فيه ردا
وجوههم أسفرت بالبشر ضاحكة والمليون استجابوا بالبكا عددا[1].

4.2- **<u>محمد بن أحمد عبد الكريم النائب</u>**: وهو من شعراء الصوفية الذين تميز شعرهم بهذا اللون، وكان على جانب كبير من العلم، وتولى القضاء بعد أخيه عبد الكريم بن أحمد النائب بالمحكمة الشرعية بطرابلس[2] ومن قصائده الصوفية ما يلي:

هذه أنوار ليلي قد بدت وجلاها النور في أحسن زي
هزمت جيش النفوس سطوة وأسلب العقل يا صاحي تهى
فالفتى من سلبته جملة وأزالت عن حياة الغطى
ذاك الذي حاز الوصال دفعة لا الذي تسلبه شيئا فشى
لانرى في شمسها طل السوى قد طوت بساطه الأنوار طي
عجبا ترفل في وحدتها وهي شمس وهي ظل وهي في[3]

ومما سبق يظهر جليا أن الشعر الذي كان سائدا خلال العهد القرمانلي (1711-1835م) هو الشعر الديني رغم تنوع التيارات الأدبية الموجودة وكان هذا التوجه قد لقي قبول وتأييد حكام الدولة[4].

1أبو عجيلة، مرجع سابق، ص30.
2نفسه، ص30.
3 محمد عبد المنعم خفاجي، **قصة الأدب في ليبيا العربية**، ط1، دار الجيل، بيروت، 1992، ص185.
4أبو عجيلة، مرجع سابق، ص 30.

وإلى جانب ذلك فقد سادت اللغة العربية على المعاملات الرسمية والإدارية ورعاها الحكام القرملنليين، إلاّ أنها لم تعد كذلك خلال المرحلة الموالية، رغم ذلك فقد عرفت البلاد ظهور أعلام فضلاء في الأدب بمختلف فنونه، ومنهم أحمد اليربوعي(1071ه) وأحمد المكنى(1101ه) وأحمد بن عبد المحسن(1147ه) وحسين الأنصاري، وابن غلبون، وعمر المسلاتي(1848-1923م) وغيرهم، مثلما نهض الشعر الذي عُرف بالرصانة والقوة عند بعضهم بسبب رحلاتهم في طلب العلم إلى الأزهر والزيتونة، فقد نجد التكلف والتصنع في شعر محمد بن المنصور وتكلف البديع في شعر عبد الكريم الطرابلسي ونجد الرقة والعذوبة والموهبة في شعر البهلول وزكري[1] وغيرهم من شعراء العصر، فقد كان بطرابلس خلال القرن التاسع عشر مجالس للأدباء، يقع فيها حديث المسامرات، وفنون من الشعر وأدب الرواية والحفظ، وكانت أنماط وألوان تحاكي الشعر القديم، فكانت مدعاة لحفظ شعر الفحول من الشعراء المشاهير المتقدمين، وطرائف الأدب، وكانوا يرون أن التكوين الأدبي يكمن في الإقبال على أمهات الكتب مثل العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلس(246-328هـ)، والبيان والتبيين للجاحظ(159-255هـ)[2].

كما عملت البيوتات الميسورة على اقتناء الكتب التي كانت تتوارث خزانتها جيلا عن جيل، مثلما احتوت الزاوية الأسمرية بزليتن وزاوية الزروق بمصراتة وزاوية الدوكالي بمسلاتة ومعهد الجغبوب، ومدرسة أحمد باشا ومدرسة عثمان باشا على رصيد من الكتب في خزائنها، وبمأن

1أديب وشاعر نشأ ودرس في طرابلس (1853-1918م) وتلقى علوم الدين والعربية، وتعلم اللغة العثمانية التي كانت لغة الدواوين والمراسلات، اختير عضوا في مجلس إدارة الولاية في عهد حسني باشا، ورئيسا لمكتب الفنون والصنائع بمدينة طرابلس في عهد رجب باشا، وكان يجمع معها وظيفة مستشار الولاية، كما كانت له رحلات إلى مصر وفرنسا، وفي عام 1310هـ أدى فريضة الحج وطبع ديوانه المشهور بمصر، ويحتوي ديوانه على فنون عديدة في المدح والغزل، ومن أطرف ما في ديوانه محكمة الحب، وقاضي الغرام، والأدوار التي يمر بها العاشق الولهان، وكان له في الأدب جولات كثيرة، جعلت منه عميد أدباء طرابلس. **للمزيد أنظر:** خفاجي، مرجع سابق، ص ص193، 194.

2نفسه، ص ص174 ، 176.

دائرة الثقافة كانت ضيقة ومجالات الأدب قليلة فإن ذلك جعل شغف الطلاب بقرض الشعر أشبه ما يكون بالتقليد والاجترار، إلّا من كانت له ملكة وهمة ومثابرة على المطالعة والمجالسة[1].

ومن أشهر من زار طرابلس الغرب من الرحالة الأوروبيين نذكر الرحالة فولني الذي وصف طرابلس في رحلته نحو الشرق العربي وتركيا بأن الجهل قد شاع وانتشر، وهذا إنما ينم عن جهله أو تجاهله للشعر الديني الصوفي في القرن التاسع عشر والذي كان منهج أكثر الشعراء، إذ كان يرى أهله أن الأدب الذي لا يتصل بالدين لا يجب أن يحفل به[2]، وأشهر هؤلاء محمد بن الأديب حسن الفقيه(1259-1304هـ) الذي كان من أسرة عريقة في العلم بطرابلس، وكان قد درس على علماء طرابلس وتعلم اللغة التركية والعلوم الحديثة في المدارس المستحدثة، وشغل منصب رئيس القلم التي ظل بها خمسة وعشرين سنة، وكانت له ندوة خاصة يتردد عليها أفاضل البلاد وعلمائها وأدباءها في مقدمتهم عبد الرحمان البوصيري، ومحمد فريد باشا، وعبد الرحمان نور الدين، وكان قد ترجم لأحد الفرنسيين رحلة كان قد كتبها عن الشمال الإفريقي، وله ديوان شعر صغير في الهجاء والغزل وتخميسة لرائية ابن الفارض[3].

ومن الأدباء الذين اشتهروا خلال المرحلة الأخيرة من العهد العثماني بطرابلس نذكر: عبد الرحيم المغبوب البرقي الذي كان على علاقة حسنة مع السيد محمد علي السنوسي، وكانت له رحلات إلى مصر والحجاز وهو من شعراء الحركة السنوسية، وتولى التدريس بزاوية الجغبوب، وكان أديبا فاضلا وشاعرا ممتازا، وكذلك الشيخ عمران بركة (1211-1310هـ) الذي استدعاه السنوسي للتدريس بالزاوية البيضاء1257ه وزاوية الجغبوب، وتتلمذ على يديه السيد المهدي السنوسي، وأخوه السيد

1خفاجي، مرجع سابق، ص176.
2محمد الصادق عفيفي، **الشعر والشعراء في ليبيا**، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، د س ن، ص20.
3خفاجي، مرجع سابق، ص ص185، 188.

الشريف، وكثير من الإخوان السنوسيين، ونذكر أيضا مقرب أبو يوسف الذي درس على الإمام السنوسي بالبيضاء والجغبوب وتولى التدريس بالجغبوب، وفالح الظاهري[1] الذي تعلم بالجغبوب وصار من شيوخه، وأحمد الطائفي، وعلي عبد الحق القوصي وغيرهم[2].

3- الكتابة التاريخية:

على الصعيد الفكري عرفت طرابلس الغرب قبل أن تقع بيد الإيطاليين نهضة أدبية زاهرة بظهور الكثير من الأدباء نذكر منهم الشيخ علي سيالة صاحب المعلقات الشهيرة والشيخ محمد نديم بن موسى[3] والشيخ ابراهيم باكير والعلامة الشيخ سعيد المسعودي اضافة إلى ابن غلبون وأحمد النائب الأنصاري وغيرهم كثير رغم ما تخلل الساحة السياسية من ضعف[4]، ومن أشهر المؤلفات التي كُتبت في تاريخ طرابلس الغرب نذكر:

1هو محمد فالح بن عبد الله بن فالح المهنوي الظاهري، من منطقة الحمراء بالحجاز، ولد حوالي1258هـ/1824م، وتوفي عام1328هـ/1910، وقد تلقى العلم عن الشيخ محمد بن علي السنوسي بمكة، وعن الشيخ عبد الرحيم، والشيخ عمران بن بركة، وعن الشيخ أحمد الريفي بزاوية الجغبوب بعد تأسيسها عام1855م، حيث أظهر نبوغا وتطلعا واسعا في العلوم الإسلامية واللغة والتاريخ والحساب، وأشهر آثاره كتاب أنجح المساعي في الجمع بين صفتي السامع والواعي في الفقه على مذهب أهل الحديث. **للمزيد أنظر:** السنوسي يونس علي وأحميدة سالم حماد، **الإمتداد الفكري للدعوة السنوسية (الشيخ فالح الظاهري وعبد العالي الإدريسي نموذجا)**، أعمال الندوة العلمية الثانية المنعقدة بالجغبوب يومي 23-24ديسمبر2019م السنوسية من الزاوية إلى الدولة 1841-1969م، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2019، ص ص237، 238.

2خفاجي، مرجع سابق، ص ص203، 211.

3ولد بطرابلس سنة 1876م في بيت من بيوت العلم، تعلم ودرس بطرابلس ثم انتقل إلى الأزهر حيث نال الإجازة العالمية، وكان خلال إقامته بطرابلس يحضر دروس الشي محمد عبده، ولما عاد إلى طرابلس جاء حاملا لمبادئ الإصلاح والدعوة إلى النهضة الشاملة، حيث امتهن التدريس بجامع احمد باشا، والمحاماة الشرعية، وقضاء زوارة، وشارك في تحرير "الترقي" و "أبي قشة" و"المرصاد" ثم انفرد بإصدار "الرقيب" في آخر العهد العثماني، وتوفي في 1937/06/08م. **أنظر:** بن سليم، مرجع سابق، ص ص275، 276.

4عطية بن فتحي الويشي، **العثمانيون بطرابلس الغرب جدلية العلاقة بين المجتمع والدولة**، المجلة العربية للعلوم الانسانية، مج35، ع140، جامعة الكويت، 2017، ص139.

1.3- التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار: لأبي عبد الله محمد بن خليل ابن غلبون الذي تلقى تعليمه بالأزهر، ودرس علوم العقل والنقل ومكث به سنين طوال، عاصر فيها الشيخ عبد الرزاق البشبيشي وأبي يحي السوسي[1]، ثم عاد إلى بلده مصراتة سنة 1113هـ/1701م[2]، وكان محبا للتاريخ وبخاصة تاريخ طرابلس الذي تملّكه وصار يبحث فيه في القصاصات والمخطوطات ويفصل ويبوب ويلم شتات أخبار الأعلام والمعالم، وينقل ويراجع ويهمش حتى تمكن من تأليف كتاب مرجعي عن تاريخ البلد في عصوره العربية الإسلامية، اعتمد فيه على مصادر متنوعة مثل البكري والتجاني وابن بطوطة من الرحالين ونزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي، كما اعتمد على بعض المؤرخين من أمثال ابن عبد الحكيم وابن الأثير إضافة إلى تاريخ البهلول ابن حسين بن أحمد الذي أشار إليه في ثنايا كتابه[3].

وعلاوة على ما ذكر من المصادر، فقد اعتمد ابن غلبون في بعض أخباره على المشافهة والملاحظات العامة، ومعلومات ووقائع وأحداث جرت في عصره أثبتها وسطرها، وإذا ما استثني كتاب البهلول الذي كان خاصا بطرابلس فإن التذكار يعتبر أول مؤلف في تاريخ طرابلس في عصورها الإسلامية باللغة العربية، الذي تناول فيه تاريخ البلاد منذ أن وضع عمرو بن العاص راية الإسلام حتى عام1150هـ/1737م زمن أحمد القرمانلي، وهي السنة التي انتهى فيها من مؤلفه الذي جاء مختصرا وموجزا، مع كثير من الغربلة والتمحيص، والتاريخ هو في أصله فن يحتاج إلى غربلة ومقارنات، وإلّا صار ضربا من الخرافات والأساطير، ترجم فيه لكثير من العلماء والأدباء الطرابلسيين حتى بلغت33علما[4]، سواء منهم من رحل

1علي مصطفى المصراتي، **أعلام من طرابلس**، ط4، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، 1986، ص 131.

2ابن غلبون، مرجع سابق، ص288.

3 المصراتي، مرجع سابق، ص ص131، 133.

4نفسه، ص ص133، 134.

لتحصيل العلم، أو من تعلم بطرابلس، وذكر كثير من البلدان والأمكنة التي عرضت له أثناء التدوين، وكانت نسخته الأولى قد كتبت بخط مغربي جميل قام بتحقيقه الطاهر أحمد الزاوي مستعينا بنسخة ثانية جاءته عن طريق احمد تيمور باشا[1]

وأما دوافع ابن غلون في تأليفه لهذا الكتاب فقد أوردها في مقدمة كتابه بقوله: "لم أرى من تعرض لجمعها على حدة من المؤرخين، وإنما ذُكرت مشتتة في الصحف والدواوين، فقد أمرني بجمعها من أدام الله سعوده، وحرس لإحياء الدين والمكرمات وجوده...، أحمد بن يوسف بن محمود بن مصطفى، ...فامتثلت أمره العالي تيمنا ببركاته، وتلقيا للنّجح باقتفاء مراسمه من جميع جهاته، وانتصبت لذكر ما حضرني من أخبارها، مما رويت أو شاهدت من آثارها، سالكا فيه سبيل الاختصار، راجيا التوفيق والمعونة من القادر الغفار... وسميته التذكار، فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار"[2].

واعتبر العديد من المؤرخين أن التذكار بما احتواه من مادة تاريخية يعتبر تجسيدا كتابيا للوحدة الترابية، ومنهم من يرى أن هناك علاقة بين التذكار ومؤلفه بتكوين الدولة الحديثة التي أنشأها أحمد باشا ودامت لأكثر من قرن وربع قرن، وكان من السمات التي عرف بها القرمانلي استقطابه لفئة العلماء إلى جانبه تعزيزا لشرعية دولته، كما عكس الكتاب تكوين ابن غلبون الحضري والفقهي، ونجد بين دفتيه ترجمة لفئتين من العلماء، الفئة الأولى لها ارتباط بالمجتمع وذات توجه صوفي من أمثال الزروقي، والتوجه الثاني الموالي للسلطة والذي جسده ابن غلبون كواحد من العلماء السلفيين، وقد يتساءل البعض عن اكتفاء ابن غلبون بنماذج معينة، غير أن المسألة لم تكن لها علاقة بوجود خلافات

1ابن غلبون، مرجع سابق، ص ص5، 6.
2نفسه، ص36.

فكرية، وإنما هو أراد الاكتفاء ببعض النماذج من مختلف التيارات الموالية للسلطة والمعارضة لها[1].

كما تناول في كتابه مسألة الجباية باعتبارها أصل كل مشكل بين السلطة والرعية، وليست هي المشكلة وإنما غياب قوانين ثابتة لها هي المشكل، وكذا عدم تحديد مقاييس ثابتة لها والتي كانت قابلة للتغيير دائما حسب هوى الوالي والعمال، وكان هذا الاضطراب قد شغل ابن غلبون أكثر مما شغلته أنواع الضرائب ومقاديرها، وهو ما جعله يرى في الجباية الحل الوحيد، مع اقراره بأن المستحدثات في الجباية تفرضها ظروف الإيالة[2].

2.3- المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب: لأحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي[3] من أعيان طرابلس الغرب في القرن التاسع عشر، زمن السلطان عبد الحميد الثاني وصدرت طبعته الأولى في اسطنبول عام1899م، وله أيضا كتاب: "نفحات النسرين والريحان فيمن كان

1عفاف أحمد الباشا، **المؤرخون الليبيون في القرن التاسع عشر**، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2008، ص ص61، 71.

2 الباشا، مرجع نفسه، ص ص97، 99.

3ولد سنة1264هـ/1847م، اشتغل في منصب كاتب ثاني في مجلس الحقوق في الولاية سنة1282ه/1866م ثم ترقى إلى وظيفة باش كاتب عربي لنفس المجلس في نفس السنة، قبل أن يعين مستنطقا بديوان التمييز سنة 1289هت/1872م، وفي سنة1295هـ/1877م عين معاونا فخريا لرئيس البلدية وفي العام الموالي رقي إلى رئاستها وفي عام1298هـ/1880تم ايفاده في مهمة رئيسية إلى تونس بقرار من مجلس إدارة الولاية، وظل في منصب رئيس بلدية إلى غاية 1300هـ/1882م، وهو من أسرة وفدت إلى طرابلس في آخر القرن السابع الهجري/13م، بسبب المضايقات التي عاشها المسلمون هناك، وعرفت اسرته بمستوى مادي جيد بسبب ممارستها للتجارة، ومكانة علمية وكذا تواصلها مع المجتمع الأهلي من خلال الاهتمام بالمزارات الصوفية، اذ بنت اسرته مسجدين الأول بطرابلس قرب سورها الغربي والثاني في غريان قبل ان يستولي عليها الإسبان 1510م، كما بنت اسرته في طرابلس ضريح الشيخ سيدي عمران جعلت لها منصب النيابة الشرعية في مدينة طرابلس من بداية القرن السابع عشر حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حيث تولى أحمد بن عبد العزيز المتوفي1023هـ/1614م منصب النيابة الشرعية، وحافظت الأسرة على علاقتها بالجانبين الفقهي والصوفي حتى نهاية القرن التاسع عشر، ولم تُعنَ أسرة النائب بالرحلة في طلب العلم خارج البلاد مثلما جرت العادة على الأسر التي حظيت بمكانة وظيفية متوارثة في السُلّم الوظيفي الديني، وتوثقت علاقتها بأسر الأعيان في طرابلس كأسرة القرقني وأسرة الفقيه حسن. **<u>للمزيد أنظر</u>**: أحمد الباشا، مرجع سابق، ص ص110، 113.

بطرابلس من الأعيان"[1] وقد أجمع كثير من الباحثين، أن النائب قد قدم خدمة جليلة للتاريخ الليبي من خلال المنهل الذي لايزال مصدرا مهما للتاريخ الطرابلسي الحديث[2]، وكان أسلوبه في التراجم يشبه منهج الأقدمين، في ترجمته للأعلام، حيث يبدأ بسنة الوفاة والذي نجده في وفيات الأعيان لابن خلكان[3].

ومن المصادر التي اعتمد عليها هي كتب الرحلات ومنها نذكر رحلة التيجاني ورحلة العبدري ورحلة العياشي ورحلة البكري والرحلة الظافرية للشيخ ظافر المدني مثلما اعتمد على بعض الكتب ككتاب "معالم الإيمان، في أخبار تونس والقيروان" لأبي يزيد الدباغ، و "خلاصة الأثر" و "الإستقصا في أخبار المغرب الأقصى"[4] ومما ذكره في مقدمته عن الكتاب "هذه وريقات جمعت فيها ما وقفت عليه بغاية الاختصار من أخبار [طرابلس الغرب] من ابتداء الفتح ونبأ من تولاّها من الولاة وسميتها[المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب]"[5] والذي يعالج تاريخ طرابلس منذ بدء العهد الإسلامي إلى غاية عصر المؤلف (ولاية أحمد راسم)، من خلال تتبع الولاة الذين تعاقبوا على طرابلس الغرب، مع فصل الأحداث التي تشترك مع عواصم مغاربية أخرى في المرحلة الإسلامية، عكس ابن غلبون الذي أرخها في سياقها العام، والذي يعطي دلالات عن الشعور الوطني القطري.

ومما يؤاخذ عليه النائب أنه أغفل في مؤلفه تعددية المجتمع تبعا لتعدد اقتصاده، والتي عالجها من منظور وطني شامل، وقد عكس مؤلفه من جهة وجهته الايديولوجية وانتماؤه العثماني وعكست من جهة ثانية نزعته

1أحمد النائب الأنصاري، **المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب**، ج1، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، د س ن، ص05.

2الأنصاري، مرجع سابق، ص05.

3المصراتي، مرجع سابق، ص143.

4نفسه، ص ص140، 141.

5الأنصاري، مرجع سابق، ص08.

الوطنية، وكان قد ألفه النائب بإسطنبول بمعنى أن هذا الكتاب لم يتم تقديمه ليقرأ في إطار طرابلسي محدود وإنما ليقرأ في إطار عثماني عام، ومما يقرأ في تأريخه للولّاة والعلماء هو رؤيته للتاريخ على أنه تاريخ السياسة والدين، بمعنى أن من كان وراء الدولة العثمانية هو حضورها وشخصيتها السياسية من جهة وكذا الدعم والمشاركة التي لقيتها من العلماء من جهة ثانية، ولو لم يترجم لتلك الشخصيات لكان من الممكن أن ينتقد في أن تأريخه كان للسلطة والذي يعكس لامركزية في الرؤية[1].

ويحمل المنهل خلاصة فكر الأنصاري من حيث رؤيته الحضارية وانتماؤه العثماني وحسه الوطني، فقد انتزع النائب تلك التراجم من حيزها الاجتماعي والسياسي والفكري الذي وجدت فيه من الطبقات المخصصة للفقهاء والقضاة والصحابة والمذاهب، ويوزعها على الولاية بمراكزها وأطرافها، ساعيا إلى نسب التراجم للولاية ما أمكن ذلك، وفي النفحات قدم ترجمة أعلام طرابلس بشكل حاول من خلاله إظهار مساهمتهم في التأسيس للثقافة الإسلامية، ويكشف تفكير الأنصاري عن غياب هاجس إصلاحي سببه غياب هم جماعي وبروز هم فئوي محض، يتجه إلى علاقة فئة بالدولة لا علاقة المجتمع بفئاته الواسعة بالدولة، وظل الأنصاري يتأرجح في ولائه بين الدولة العثمانية الساعية للتحديث وبين فئته التي باتت مهددة بنتائج هذه العملية، لهذا جاءت كتابته في المنهل والنسرين تعبر عن هذا القلق، وعن عدم قدرته على استيعاب اشكاليات التحديث والذي ما نجده في كتابته عن أحمد راسم[2].

وكان أسلوب الكتاب ولغته سيئة في البداية تكاد تنزل إلى درجة العامية، وهو ما دعاه إلى إعادة صياغته من جديد بعدما عرضه على استاذه فالح الظاهري ليعلق عليه ويقدم له، ومن الآثار العلمية التي تركها مكتبته التي كانت من أكبر المكتبات في شمال إفريقيا، وكانت تضاهي

1 الباشا، مرجع سابق، ص ص129، 133.
2 نفسه، ص ص140، 144.

مكتبة أحمد تيمور ومكتبة أحمد زكي في مصر ومكتبة الكتاني في مراكش، جمع فيها كل قيم وثمين، من مصادر ومخطوطات نادرة ، ورقاع شرقية وغربية وأندلسية، لكنها ضاعت بعد وفاته وبيعت في المزاد العلني، وضاعت بذلك كنوز أندلسية وتراث مغاربي ومؤلفات طرابلسية[1].

3.3- اليوميات الليبية: لصاحبها حسن الفقيه[2] الذي سجل وأرّخ من خلالها لأحداث القطر الطرابلسي طوال أربعين سنة، في كل مشاهداته أو ما وصل مسامعه، وما رآه في مجلس الباشا، وما كان يقع في مجالس العلماء، وأخبار التجارة وشؤون الزراعة، وأخبار الفتن والثورات الشعبية على غرار ثورة غومة، وغيرها من الأحداث التي عايشها بنفسه[3]، فقد ذكر حفيده علي الفقيه حسن أن هذه اليوميات التاريخية فيها من الأخبار الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي واكبها المؤلف زمن يوسف باشا القرمانلي وابنه علي، كما واكب الأحداث عن كثب زمن مصطفى نجيب باشا وعلي عشقر باشا ومحمد أمين باشا وغيرهم من ولاة طرابلس الغرب إلى عهد محمود نديم باشا[4].

وهي أخبار قيمة تشكل مصدر للخبر، ذات أهمية كبيرة في دراسة المجتمع الليبي خلال القرن الثامن عشر، وأوائل التاسع عشر، جاء تسجيلها في آنها وبأسلوب بسيط يغلب عليه العفوية والأمانة في نقل الخبر، وسجل هذه الأحداث بتواريخ في غالبها بالتاريخ الهجري، وسجل شؤون الإدارة من

1المصراتي، مرجع سابق، ص ص139، 142.

2ولد بمدينة طرابلس عام 1198هـ/1783م، ودخل المكتب القرآني حيث حفظ بعض من القرآن وتعلم الحساب، ثم عمل بالتجارة التي كانت مهنة والده، الذي كان تاجرا كبيرا من أعيان البلد، ، وقد كان الفقيه حسن مغرما بالتاريخ، شغوفا بتدوين الوقائع، والذي ساعده في ذلك ما وجده في مكتبة والده من كتب وكنانيش، وتوفي سنة1284ه/1868م. **للمزيد أنظر:** علي مصطفى المصراتي، **مؤرخون من ليبيا مؤلفاتهم ومناهجهم**، ط2، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ، مصراتة، 2002، ص 164.

3المصراتي، مرجع سابق، ص 161.

4حسن الفقيه حسن، **اليوميات الليبية**، ج1، ط2، تح محمد الأسطى وعمار جحيدر، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، 2001، ص ص13، 14.

تعيين الموظفين وعزلهم، وجباية الضرائب والأعشار وسك النقود، وفرمانات السلاطين وأوامر الولاة وحركات الجباة، بالإضافة إلى الأحداث السياسية التي عاشتها البلاد خلال السنوات الأخيرة من حكم الأسرة القرمانلية، وقد تسرب شيء من مخطوطاته إلى المكتبة الإيطالية عندما ترجم المؤرخ إتوري روسي بعض من أخباره وضمنها كتابه "ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة1911" مثلما نقل عنها المؤرخ اسماعيل كمالي، وعندما وقع الاحتلال الإيطالي ضاعت بعض الأوراق من هذه اليوميات[1]، وفي ذلك يذكر أيضا حفيده أنه خلال التفتيش السياسي الذي جرى في بيت الأسرة سنة1922م صودرت أوراق العائلة لأجل مراقبتها، غير أنها لمّا أعيدت نقص منها عدد كبير من الأوراق التاريخية، مثلما صودرت مرة ثانية في 17فيفري1948م زمن الإدارة البريطانية مع الكثير من الوثائق التاريخية والسياسية، وبذلك فقد ضاع خلال حملتي التفتيش الوثائق المؤرخة للفترة مابين1224 و1240هـ.[2]

وجاءت هذه اليوميات في ثلاثة أجزاء، حيث ارخ في جزئها الأول للفترة الواقعة بين 11شعبان958هـ/1551م إلى 26صفر1248هـ/1832م، والتي بلغت 1706يومية منها أكثر من120يومية تعود لفترات ما قبل زمن المؤلف، بينما تغطي اليوميات الأصيلة في هذا الجزء معظم عهد يوسف باشا القرمانلي(1795-1832م)، أما الجزء الثاني فيتناول الفترة مابين28 صفر1248ه/1832م إلى أواخر محرم1251ه/1835م، ويضم 2804 يومية تقع في 54ورقة مع ثلاثة عشر ورقة تضمنت قوائم بالوفيات، وقد أرخ للحرب الأهلية التي وقعت بين علي باشا ومحمد باشا (بفتح الميم) حفيد يوسف باشا الذي نصبه الثوار زعيما عليهم، وأما الجزء الثالث فقد أرخ للفترة مابين21محرم 1251هـ/1835م إلى 04شوال

1المصراتي، مرجع سابق، ص ص161، 167.
2الفقيه، مرجع سابق، ص 15.

1277هـ/1861م والتي تتوافق مع السنوات الأخيرة التي أدركها المؤلف من العهد العثماني الثاني وأرّخ لها[1].

ثانيا)أعلام الفكر في طرابلس الغرب

يهدف التعريف بأعلام الفكر إلى الترجمة لأشهر العلماء والمشايخ بطرابلس الغرب خلال الفترة العثمانية الذين تركوا آثارا فكرية في مختلف العلوم وذكر هذا التراث الفكري، ومن جملة هؤلاء نذكر:

1- **عبد السلام الأسمر**: الذي ولد ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأول880هـ الموافق لعام1475م بمدينة زليطن، حفظ القرآن وأخذ عن عمه مبادئ الفقه والنحو والتوحيد، والمنطق وغيرها من العلوم فكان أول أساتذته[2]، وقرأ على يد عبد الرحمان الوسلاتي والشيخ أحمد الزروق إلى أن تجاوز الاثني عشرة سنة، ، ثم سافر لتلقي العلم على يد الشيخ عبد الواحد الدوكالي الذي مكث عنده سبع سنوات[3]، نقل النائب الأنصاري عنه أنه قال "ومما أنعم الله به علي أني لم أفارق حلقة شيخنا الدكالي منذ عرفته إلى أن مات رحمه الله، وكنت أقرأ عليه المختصر والرسالة ومقدمة الإمام الأشعري في علم التوحيد"[4].

وبعدها زار عديد المناطق مثل طرابلس ثم قلعة سوف الجين ثم تاورغاء ثم مصراتة وبعدها استقر في مسقط رأسه التي أسس بها مسجد وزاوية، وتوفي في شهر رمضان970هـ الموافق لـ1573م ودفن بزاويته بزليتن، ومن أهم آثاره العلمية "العظمة في التحدث بالنعمة" و"الأنوار السنية في أساليب الطريقة السنوسية" و"التحفة القدسية لمن أراد الدخول في الطريقة العروسية" بالإضافة إلى مجموعة من النصائح أهمها "نصائح

1 الفقيه، مرجع سابق، ص ص30، 32.
2الزاوي، اعلام...، مرجع سابق، ص223.
3 القطعاني، **القطب الأنور عبد السلام الأسمر881- 981ه**، ط2، دار الكتاب الليبي، ليبيا، 1993، ص ص43، 51.
4 الأنصاري، مرجع سابق، ص 208.

التقريب في الفقراء والنقيب" ونصيحة المريدين في الأولياء الصالحين"، وأشهر من تتلمذ على يديه الشيخ عمر بن محمد بن جحا، والشيخ محمد بن عبد النبي الجبالي، والشيخ صالح بن مبارك، والشيخ أحمد بن مدين السقفي، و الشيخ أحمد عبد الله الكمودي، والشيخ عبد الرحمان المكي، والشيخ محمد علي السملقي البرمكي، والشيخ محمد أبو طبل، والشيخ أحمد بحر السماح وغيرهم من التلاميذ الذين اخذو عنه العلم[1].

كما كان على جانب من العلم، حيث كان يقرأ على طلبته في الزاوية التوحيد، ومختصر خليل في الفقه، والحكم لابن عطاء الله، والنحو والمنطق[2]، أما الزاوية التي بناها الشيخ فقد استمرت في التدريس والتعليم واخرجت أجيال من طلبة العلم إلى اليوم، وهو مؤسس الطريقة السلامية إحدى فروع الطريقة العروسية المنسوبة للشيخ أحمد بن عروس، والتي ارتبطت(هذه الأخيرة) بالفئات المهمشة من الحرفيين وصغار التجار، منذ تأسيسها في القرن السابع الهجري، وارتبطت بالسلامية عدة أسر ذات مكانة دينية وصوفية مهمة في المجتمع الطرابلسي من أمثال أسرة الصيد وأسرة المكني وأسرة بن مساهل مفتي طرابلس واسرة بن مقيل الذي تولى الإفتاء أيضا، وجملة من مقدمي الطريقة في تاجوراء[3].

وبعد وفاة الشيخ (981هـ/1574م) وقع اتلاف لمكتبته الكبيرة مثلما قتل ابنه عمران، وضاعت أغلب آثاره التي كتبها في التصوف والتاريخ والتراجم، وأشهر مؤلفاته: كتاب "الأنوار السنية في أسانيد الطريقة العروسية" وهو رسالة تحمل بعض الأدعية وبعض الواقعات الصوفية، والوصية الكبرى (نصيحة المريدين في الأولياء والصالحين) والتي ضمت معظم أركان وآداب الطريقة العروسية، والتي طبعت مرارا، والوصية الوسطى التي ألفها سنة973هـ، والوصية الصغرى والوصية

1شقلوف وأخرون، مرجع سابق، ص ص187، 188.
2الزاوي، أعلام...، مرجع سابق، ص 224.
3 الباشا، مرجع سابق، ص ص72، 76.

الكبرى مع اختصار قليل وتسمى أيضا "الوصية الصغرى لمن أراد الدخول في طريقتنا مع الفقرا"، و"العظمة في التحدث بالنعمة"، و"التحفة القدسية لمن أراد الدخول في الطريقة العروسية"، بالإضافة إلى رسائل وتوجيهات ونصائح بعث بها لأتباعه بتمبكتو بمالي وتونس وغريان واطرابلس والمغرب الأقصى، وبعض الرسائل لخاصة مريديه[1].

2- **مصطفى خوجة**: من مواليد القرن الثامن عشر(ت1213هـ/1799م)، درس وتعلم على يد الفقيه الشاعر محمد بن سالم الفطيس، والفقيه عبد السلام بن محمد بن ناصر، والشيخ محمد عبد الرحمان الكانوي البرناوي، ولم يكتف بذلك فعمد إلى اقتناء الكتب ونسخها، فتكونت عنده مكتبة جيدة صارت فيما بعد نواة مكتبة طرابلس العامة، وكانت تعرف في ذلك الوقت بمكتبة الكاتب، وظهر ميوله للأدب حتى صار كاتبا يجيد الإنشاء والتدوين وتحرير الرسائل ونسخ الكتب لذلك لقِّب بالكاتب، كما استطاع مصطفى خوجة أن يبني لنفسه ثروة كبيرة ومركزا اجتماعيا عاليا، وهو ما أدى بعلي باشا القرمانلي(1754-1793م) لأن يقربه منه ويجعله صديقا له، وجعله مستشارا، وعهد إليه برئاسة ديوان الإنشاء، واستطاع من خلال وظيفته من أن يوسع نفوذه السياسي والاجتماعي، وينسج علاقات مع ممثلي الدول الأجنبية في طرابلس، ولم تمنعه الثروة والجاه والوظيفة من الانشغال بالمسائل الثقافية، فقد كان حريصا على مجالسة العلماء والاستفادة من الزائرين لطرابلس، ومواصلة اقتناء واستنساخ ما أمكنه من الكتب، كما بنى مسجدا سنة1183ه/1769م، وألحق به مدرسة ولاتزال الشواهد على ذلك في اللوحة الرخامية عند مدخل المسجد والمدرسة الواقعة في المدينة القديمة بطرابلس، قرب السور الشرقي، وقد أوقف عليها عدة عقارات وأشجار وبساتين وأراضي زراعية في مناطق مختلفة من الولاية، بالإضافة إلى

1القطعاني، مرجع سابق، ص ص118، 120.

مكتبة ضخمة بها أكثر من خمسمائة مخطوط في مختلف العلوم والمعارف[1].

وأما مخطوط مصطفى باشا الذي يحمل تواريخ طرابلس، وهو من بين المصادر الثمينة التي أرخت لطرابلس، بما يحمله من مادة تاريخية عن مدينة فزان خلال الحكم العثماني المباشر الأول (1551-1711م)، ثم فترة حكم الأسرة القرمانلية إلى عهد علي باشا الأول (1711-1753م)والذي تم الإشارة إليه في المجلة الآسيوية في يناير1847م، وترجمت نسخته إلى الفرنسية ووضعت بالمكتبة الوطنية بباريس، ومن أهم المصادر التي اعتمد عليها صاحب المؤلف كتاب "التذكار" لابن غلبون[2].

3- **<u>محمد بن عبد الجليل سيف النصر</u>**: صاحب "ري الغليل في أخبار بني عبد الجليل"، الذي سجل فيه اخبار وأحداث تاريخية، عن بلاده وعن البلاد العربية التي لجأ إليها، والتي نقلها بأسلوب مثير عن ما شاهده في الصحراء الليبية، بين أرض فزان وصحراء سيوة، وريف مصر، ومشاهداته في الحجاز وتونس والجزائر، فيما كان تأليف هذا الكتاب بطلب من الفرنسيين الذين جمعتهم به علاقة ثقة، وقد وصف مشاهد المعركة التي لقي فيها والده مصرعه، وفرار صاحب المؤلف في الصحراء في رحلة شاقة عسيرة، نقل من خلالها مشاهداته وصورها بدقة، غير أنه لم يسجل الأيام والأشهر، ورغم ذلك ستضل مادته ذات قيمة كبيرة لدراسة تلك المرحلة المهمة من تاريخ طرابلس الغرب، وقد فرغ من مؤلفه هذا سنة1852م، بعد عشر سنوات من مصرع والده، ويقال أن القنصل الإنجليزي في طرابلس الغرب طلب لقاءه من أجل مساعدته ضد الدولة العثماني غير أن ذلك كان سرابا فقط، فقد كان القنصلان الفرنسي

1مصطفى خوجة، **تاريخ فزان**، تح حبيب وداعة الحسناوي، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، 1979، ص ص19، 22.
2نفسه، ص ص29، 32.

والإنجليزي بطرابلس الغرب يتلاعبان بالحركات الشعبية ويستغلانها من أجل تحطيم أركان الدولة العثمانية، مثلما يمثل حالة الصراع بين فرنسا وانجلترا على المنطقة ككل[1].

4- **عبد الرحمان البوصيري**: المولود بغدامس في 22ذي القعدة 1258هـ، ولم يكن من كتاب المقالة فحسب بل خاض أيضا غمار التصنيف في علوم مختلفة كالأصول والحديث والبلاغة، وكان ينظم الشعر على طريقة الفقهاء وأغلب شعره في باب المناسبة، وهو الشاعر العصامي الذي قضى معظم شبابه بين السفر طلبا للعلم في تونس ومصر والآستانة، وبين التجارة، كان رئيس قلم المحكمة الشرعية، ثم قاضي بالنواحي الأربعة، ثم قاضي بالزاوية، وظل في وظيفة القضاء الشرعي حتى بعد الاحتلال الإيطالي، بالموازاة مع اشتغاله بالتدريس في المساجد، وهو من رواد الكتابة في الفترة العثمانية، وقد مهّد الطريق لمن جاء بعده، من خلال أسلوبه في صناعة المقالة ورصانة قلمه واعتداله، وهو من أبرز كُتّاب المقالة التاريخية، وقد توفي بطرابلس يوم15محرم1354هـ/ 19أفريل1935م[2]، وله مؤلفات كثيرة أشهرها "فاكهة اللّب المصون على شرح الجوهر المكنون" في البلاغة، و "نزهة الثقلين في رياض إمام الحرمين" في علم الأصول، و"الجواهر الزكية في مصطلح حديث خير البرية" في مصطلح الحديث، و"مبتكرات اللآلي والدرر في المحاكمة بين العيني وابن حجر"، وكذا "الدرر المجنية من حديث خير البرية"[3].

إضافة إلى الإخوة المؤرخين الثلاثة، محمود ناجي ومحمد نوري واسماعيل كمالي، وهم اخوة أشقاء أنجبتهم طرابلس من أسرة مثقفة، كتبوا في مجال التاريخ وكان شغفهم كبير بالوطن من جميع النواحي الفكرية والاجتماعية والتاريخية، مثلما يمثلون نموذج للأسرة المثقفة حيث تنوعت مؤلفاتهم بين اللغات الشرقية والغربية، كما عرفوا في مجال

1المصراتي، مرجع سابق، ص ص211، 212.
2بن سليم، مرجع سابق، ص ص269، 271.
3الزاوي، اعلام...، مرجع سابق، ص214.

الإصلاح، وفي الميدان العسكري وحتى النشاط السياسي قبيل الغزو الإيطالي للبلاد، أما ألقابهم التي أضيفت لأسمائهم فهي من العادات المتوارثة عن العثمانيين الذين كانوا يضيفون لقبا لإسم الشخص يميزه ويعرف به، ويكون من اختيار الوالد أو المدرسة التي يقبلون عليها، ومن بين الآثار الفكرية التي تركوها كتاب "تاريخ طرابلس غرب" الذي ألفه الأخوان محمود ومحمد باللغة التركية اعتمادا على قدر وافر من المصادر والوثائق والخرائط، وكانت به احصائيات وجداول وموازنات، مثلما انتقدوا فيه اهمال المشاريع الإصلاحية من جانب السلطة العثمانية، مثلما حمّلا مسؤولية التأخر والفساد في البلاد على عاتق الولاة الذين حكموا خلال العهد العثماني الأخير[1].

كما نذكر الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري، الذي عاصر ابن غلبون وكانت له عدة مؤلفات أشهرها "تذييل المعيار" في الفقه و"فتح العليم"، في سير الصالحين[2]، ومصطفى الكاتب العالم الأديب(ت1213ه)، الذي تلقى العلوم على يد الشيخ محمد بن سالم الفطيسي والشيخ محمد بن عبد الرحمان الكانوي والشيخ عبد السلام بن محمد بن ناصر، وصاحب "كتاب المسائل المهمة والفوائد الجمة فيما يطلبه المرء لما أهمه"، وبسبب نباهته وضعه علي باشا في خدمته لذلك لقب بالكاتب، ومن آثاره المسجد والمدرسة اللتان تحملان اسمه، وكذا خزانة كتب قيمة[3].

ثالثا) دور المكتبات:

تعد خزائن الكتب من الأمور المتعلقة بالتعليم والمرتبطة بالحياة الفكرية في البلاد، لهذا ظهرت المكتبات في طرابلس الغرب منذ العهود الإسلامية السابقة، وكانت على صنفين، صنف خاص تحتفظ به بعض الأسر

1المصراتي، مرجع سابق، ص ص229، 240.
2لزاوي، اعلام...، مرجع سابق، ص227.
3نفسه، ص400.

وصنف عام كانت ملحقة بالمساجد والزوايا والمدارس، وكانت تضم كنوز من المخطوطات في علوم الدين والأدب والتاريخ ومن أشهرها:

1- **مكتبة الزاوية الزروقية**: والتي كانت تحتوي على كتب ومخطوطات في مختلف فروع المعرفة، جاء بها الشيخ أحمد زروق[1] من القاهرة وتونس وحبسها على طلبة العلم بالإضافة إلى مؤلفاته.

2- **مكتبة زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر**: والتي لا تقل أهمية عن مكتبة الزاوية الزروقية، حيث تضم حوالي 500 عنوان من المخطوطات والكتب في مختلف العلوم والفنون، وهي موقوفة عليها وعلى طلبة العلم[2].

3- **مكتبة عثمان باشا الساقزلي**: والتي شيدت بجانب مدرسة عثمان باشا وهي تضم 230من الكتب والمخطوطات في مختلف العلوم خاصة كتب الفقه والتفسير والعقيدة والحديث، وقد لقيت الرعاية من الحكام القرمانليين الذين زادوا من أوقافهم عليها.

4- **مكتبة أحمد القرمانلي**: التي كانت بجانب مدرسته وكانت عامرة بالكتب والمخطوطات التي وفرها أحمد باشا لطلبة المدرسة ومعلميها، من خلال اقتناءه للعديد من الكتب الأكثر تداولا بين طلبة العلم آنذاك في الأدب والنحو والصرف والتفسير والسير والعقائد، وأوقف عليها اثنان وثلاثون حانوتا صغيرا والتي بفضلها زادت الكتب، حتى ذاع صيتها في جميع أرجاء البلد، وصارت مقصد لطلبة العلم.

---

1 ولد يوم الخميس 28 محرم 846هـ، حفظ القرآن في العاشرة من عمره، قرأ علوم القرآن على يد القوري والزرهوني، والمجاصي، والأستاذ الصغير واشتغل بالتصوف، فأخذ الرسالة القدسية وعقائد الطوسي على الشيخ عبد الرحمان المجدولي، وبعض التنوير على القوري، ومن شيوخه عبد الرحمان الثعالبي وابراهيم التازي، والمشذالي، والشيخ حلولو، والسراج الصغير، والرصاع، وأحمد بن سعيد الحباك، والحافظ التنسي، والإمام السنوسي وغيرهم، وأما مؤلفاته فكثيرة، فقد انفرد بمعرفة وجودة التأليف، منها: "شرحان على الرسالة" و"شرح إرشاد ابن عسكر" و"شرح مختصر خليل" و"شرح الوغليسية" و"شرح القرطبية" و"شرح الغافقية" و"شرح العقيدة القدسية للغزالي" وهي في جملتها تزيد عن العشرين شرحا، وله كتب كثيرة أشهرها "النصح الأنفع والجنة للمعتصم من البدع، وله رسائل كثيرة لأصحابه تشمل حكم ومواعظ. **أنظر**: أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989، ص ص130، 132.

2أبو عجيلة، مرجع سابق، ص ص22، 23.

5- **مكتبة آل عمار**: والتي كانت ملحقة بزاوية آل عمار بتاجوراء وكانت تضم ثمانية وأربعون كتابا في مختلف العلوم الدينية، والأدبية والفلك وغيرها[1].

6- **مكتبة مصطفى الكاتب**: وهي ملحقة بمدرسته التي أنشأها بطرابلس، وتعتبر أول مكتبة عامة، فقد جعلها للجميع ممن يرغبون في المطالعة، ووضع بها كتب كان قد اقتناها خلال رحلته إلى الأزهر، مثلما قام بنسخ الكثير من الكتب بمساعدة طلاب المدرسة، وأوقف على خدمتها وقفية من عقارات وبساتين ودوّن عليها الكتب التي تتوفر عليها المكتبة وهي مائتان وستة وثلاثون مخطوطا، واشترط في الوقفية أيضا عدم اعارتها للطلبة باستثناء شيخ المدرسة الذي يحق له استعارة كتابين وصاحب المكتبة كتاب واحد، وتقيد الكتب بخط المستعير في سجل المكتبة، وقد اهتم الولّاة القرمانليين بالمكتبة وبرصيدها من خلال عملية النسخ واقتناء الكتب لتعزيز رصيدها من المراجع، حيث ازدهرت حركة النسخ كثيرا خلال فترة حكم الأسرة القرمانلية(1711-1835م) وكانت تنسخ بوتيرة منتظمة وبشكل يكاد يكون موحدا، فقد كانت الصفحات تتراوح اسطرها بين الخمسة عشر والخمسة والعشرون سطرا، مع كتابة العناوين بلون مميز، وقد شملت حركة النسخ جميع أنواع العلوم من القرآن الكريم والفقه والتصوف والفلك واللغة العربية وكتب التفاسير والحديث وكذا كتب التاريخ، والتي تدل على مدى اجتهاد العلماء في طلب العلم، ومن أبرز من اشتهر بالنسخ في العهد القرمانلي؛ مصطفى الخوجة، وعبد الله بن أحمد بن محمد عبد الصادق الجبالي، وحسونة الدغيس الطرابلسي[2].

رابعا) دور المطبعة والصحافة:

رغم المستوى الجيد الذي عرفه فن الخطابة في طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الأول وفترة حكم الأسرة القرمانلية، إلاّ أن الصحافة

1أبو عجيلة، مرجع سابق، ص ص23، 24.
2نفسه، ص ص24، 25.

لم يكن لها ظهور بالولاية، رغم أن الطباعة قد دخلت البلاد العربية خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر في مصر سنة1821م (مطبعة بولاق)، والسبب قد يرد للأزمات السياسية والاقتصادية التي مرت بها البلاد بسبب التنافس الإنجليزي الفرنسي على الولاية، وهو الأمر الذي نجح فيه القنصل الفرنسي الذي كسب الباشا إلى جانبه، وأصدر جريدة المنقب الإفريقي في 31جويلية1827م باللغة الفرنسية[1] وهي مخطوطة باليد، والسبب وراء تسميتها بالمنقب كان من أجل نشر الأبحاث التي قام بها المنقبون الفرنسيون في افريقيا، وكانت ممولة من طرف القنصل الفرنسي والتي توقفت عن الظهور بعدما ساءت العلاقة بين الباشا والقنصل الفرنسي[2].

لعبت الطباعة بطرابلس الغرب دورا مهما في التأسيس للحياة الفكرية في البلاد، منذ ظهور الطباعة الحجرية سنة1859م، واقتصر نشاطها آنذاك على طباعة الأوراق الرسمية الحكومية للولاية، ولم تسهم في النشاط الصحفي إلاّ بعد سبع سنوات[3]، حيث شهدت طرابلس الغرب ميلاد أول صحيفة سنة1866م وهي صحيفة طرابلس الغرب، غير أن العدد الأول منها غير متوفر، كما ظهرت عناوين أخرى مثل: الترقي، ومجلة الفنون، وتعميم حريت، وسالنامة[4] الولاية، وتعتبر هذه الأخيرة بمثابة

1يذكر القنصل الإسباني غوميث إيرادور(J.Gomez Herrador) ضمن مراسلات القناصل الأوروبيين أن صاحب الفكرة في إنشاء صحيفة المنقب الإفريقي هو قنصل السويد غرايبر دي هامسو (Graber de-Hemso) وهو أديب وأكاديمي، وقد طرح فكرته سنة 1825م في إنشاء دورية تنشر فيها آراء القناصل، ولكنه عدل عنها بعدما بين له إيرادور المشاكل التي يمكن أن يواجهها، ومع مجيئ المستشرق والأثري الفرنسي روسو (Jean-baptiste Rousseau) أعيد طرح الفكرة من جديد بالرغم من أنه قد تم تنبيهه إلّا أنه قرر إصدارها رفقة دي هامسو. **أنظر**: سمير عبد الرسول، الصحف الليبية نشأتها وتطورها (1827-1897) دراسة تاريخية، مركز المنتصرية لدراسات العربية والدولية، الجامعة المستنصرية، د.س.ن، ص03.

2أبو عجيلة، مرجع سابق، ص ص34، 35.

3 بن سليم، مرجع سابق، ص63.

4هي كلمة فارسية الأصل مركبة من جزآن، الأول "سال" وتعني سنة، والثاني "نامة" وتعني أوراق، وهي بذلك تعني الأوراق السنوية أو الحولية، وتضمنت السالنامات تفصيلات مستنبطة من التقسيمات والتشكيلات الإدارية، كما تضمنت أسماء كار موظفي الولاية ورتبهم وتاريخ تعيينهم وعزلهم، **أنظر**: عبد العزيز عوض، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864-1914م**، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1969، ص372.

الجريدة الرسمية التي تحمل معلومات هامة عن الولاية، كما تحتوي على أسماء الموظفين وبعض المعلومات الفلكية والجغرافية، أما بالنسبة للمخطوطات العربية فلم تلقى اهتماما كبيرا وكانت في أغلبها غير مكتملة الفصول[1].

ثم جلبت مطبعة عصرية إلى طرابلس الغرب سنة 1869م وطبعت بها سالنامة الولاية بالإضافة إلى صحيفة طرابلس الغرب في نفس السنة، ثم جلبت لها حروف حجرية من إسطنبول سنة1892م وقطعة مكملة لها من أوروبا للطبع بالحجر، قبل أن يتم استيراد مطبعة حديثة أكثر تطورا من أوروبا بجميع معداتها سنة 1897م، ولم تعرف المدن الكبرى الأخرى في طرابلس الغرب ظهور المطبعة خلال العهد العثماني عدا العاصمة طرابلس [2].

غير أن هذه المطبعتين اللتان عرفتهما طرابلس الغرب خلال العهد العثماني لم تسهم في عملية طبع الكتب ونشرها، والتي تعود لعدة أسباب، ولعل أقربها للحقيقة هي سيطرة اليهود والإيطاليين عليها، بالإضافة إلى غلاء أسعار الورق، والذي أدى بالمطابع إلى الانصراف نحو طباعة الأوراق التجارية، بالإضافة إلى الأوضاع السياسية الصعبة والتي صرفت بعض الكتاب عن طباعة مؤلفاتهم، ومنهم من فضل طبعها خارج الولاية، ومن هؤلاء نذكر محمد كامل بن مصطفى[3] الذي طبع كتابه "الفتاوى

---

1 عريبي، مرجع سابق، ص47.

2بن سليم، مرجع سابق، ص64.

3من مواليد الزاوية سنة1244هـ حيث تعلم وحفظ القرآن، قبل أن يرحل إلى طرابلس لمواصلة تعليمه، ثم رحل إلى الأزهر سنة 1293هـ وبقي هناك سبع سنوات يأخذ العلم عن مشايخه، وعاد إلى طرابلس سنة1300هـ وبدأ في النشاط العلمي حتى لفت إليه الأنظار، وكلف من طرف مديرية المعارف بإلقاء دروس الفقه والأخلاق على تلاميذ المدارس زيادة على تقديمه للدروس في مدرسة عثمان وجامع قرجي لكبار الطلبة، له كتاب "الفتاوى الكاملية في الحوادث الطرابلسية" المطبوع سنة 1313هـ، وله حواشي على تفسير البيضاوي غير مطبوع، وحواشي على السعد وبعض كتب البلاغة (غير مطبوعة) حتى لقبه البعض بسيبويه زمانه، تولى الإفتاء في طرابلس من 1311إلى 1315هـ كان فيه مثال للنزاهة والأمانة حتى أدركه الأجل سنة 1315هـ. **انظر:** الزاوي، مرجع سابق، ص ص383، 384.

الكاملية في الحوادث الطرابلسية" بالقاهرة سنة1895م، وأحمد النائب الأنصاري الذي طبع كتابه "المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب" بالأستانة سنة 1899م، وطبع محمد البشير المدني صاحب الطريقة المدنية رسالة في تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعة بالقاهرة سنة1904م وكتابا في التراجم والسير عنوانه "طبقات المالكية" طبع جزئه الأول سنة1906م، وطبع عبد الله الباروني كتاب في التعريف بالمذهب الإباضي عنوانه "سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين" بمصر سنة1906م، أردفه نجله سليمان الباروني بكتاب في نفس الموضوع تحت عنوان "الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية" وطبع بمطبعة الأزهار البارونية بالقاهرة سنة1907م[1].

أمّا في الأدب فلم يطبع سوى ثلاث دواوين شعر هي: ديوان مصطفى بن زكري[2]، وديوان عبد الله الباروني سنة 1897م، وديوان سليمان الباروني سنة1908م، بالإضافة إلى كتاب آخر كان قد طبع بمطبعة بولاق سنة 1900م جاء تحت عنوان "تقريب المرام في شرح تهذيب الكلام" لأبي مسعود أفندي عضو محكمة الاستئناف بطرابلس، ومن هنا يظهر أن طباعة الكتب لم تكن متاحة وأن أغلب المؤلفات طبعت بالخارج، لذلك يوجد البعض من الباحثين من وصفوا هذه المرحلة بأنها مرحلة ركود فكري بسبب قلة الإنتاج والكتابة العلمية، والبعض الآخر اعتبرها

1بن سليم، مرجع سابق، ص ص65، 66.

2بن زكري هو من أعلام المقالة الصحفية، وعلم من أعلام الأدب والشعر في طرابلس، ولد فيها عام1853م من أصول مغربية أندلسية، وفي أصل عائلته يقول:

وينسبني للترك والروم معشر ولست بتركي ولست برومانى

ولكنني من يعلم الله سره ويعلم بالإسلام وجدي ووجداني

تعلم ودرس على يد أكبر اشهر علماء طرابلس، فنال قسطا وافرا من العلوم الحديثة، ومن اللغات الأجنبية، وقد تقلد عضوية مجلس الولاية ورئاسة مكتب الفنون والصنائع، وأمّا مقالاته فكانت تصب في صالح حكومة طرابلس الغرب خاصة والرابطة العثمانية عامة، وبعدما أدرك التوجه العنصري للاتحاديين غير مواقفه وبدأ يتطلع للاستقلال وهو ما جعل البعض يشك في وطنيته، وفي آخر حياته أتعبه المرض، فهجر الكتابة، وتوفي سنة 1917م. **انظر**: بن سليم، مرجع سابق، ص ص255، 258.

بداية الانطلاقة لعجلة النهضة الفكرية مع صدور سبع صحف في البلاد وهو أكبر دليل على وجود فئة مثقفة كانت تسعى للرفع من المستوى الثقافي العام[1].

وقد كان انطلاق الصحافة في طرابلس مع الصحافة الرسمية، فصحيفة طرابلس الغرب كانت تابعة للدولة في جميع أمورها، وتتبع الأخبار المتعلقة بالولاية في المقام الأول، ثم أخبار الدولة العثمانية، قبل أن يزداد المجال المخصص للمقالة وأصبح يأخذ حيزا كبيرا، أمّا مواضيعها فقد تنوعت بين انتقاد العادات السيئة ومناصرة التعليم، والتأكيد على الهوية التاريخية من خلال البحث في جذور الانتماء التاريخي، كما اسهمت المقالة العلمية في تنوير الناس بإيجابيات النهضة العلمية التي عرفها العالم وأوروبا خصوصا مع نهاية القرن التاسع عشر[2]، مع شيء من الإعلانات التي كانت في غالبيتها للدولة مع تخصيص جزء بسيط للإعلانات التجارية، ومن الأخبار التي كانت تنشرها أيضا رحلات الحج التي تغطي كل تنقلات الحجاج، غير أن لغة الصحافة كانت لغة ركيكة تكاد تنزل إلى لغة العوام، الذي يراه البعض أن الغرض منه كان ايصال الخبر إلى طبقة العامة من الناس[3].

الخلاصة:

ظلت حركة التأليف على ما كانت عليه خلال العهود السابقة في فنون الأدب والشعر، بالإضافة إلى بعض المؤلفات في العلوم والفنون الأخرى، رغم الأوضاع السياسية التي كانت تسوء بين الحين والآخر إلاّ أن هذا الإنتاج كان راقيا ومعبرا، وهذا لتمكنهم من اللغة العربية وفنونها، وللدور الذي لعبته أيضا الرحلات نحو المشرق العربي وكان تأثيرها واضح في مؤلفاتهم.

1ابن سليم، مرجع سابق، ص ص66، 67.
2نفسه، ص 78.
3نفسه، ص ص69، 70.

ومن أشهر ما ترك هؤلاء الأدباء دواوين شعرية لاتزال إلى اليوم تمثل تراثا فكريا يؤرخ لحقبة زمنية مهمة في تاريخ المنطقة، ومن أشهرها ديوان محمد الرشيد باي بتونس، وديوان البهلول بطرابلس الغرب، إضافة إلى مؤلفات أخرى في التاريخ كالإتحاف الذي جاء في ثمانية أجزاء، يؤرخ لتونس منذ الفتح الإسلامي إلى غاية 1872م، والمنهل العذب للنائب الأنصاري الذي عُدّ من أفضل الكتب التي أرّخت لطرابلس الغرب، كما عرفت الفترة ظهور كثير من الشخصيات التي وردت أسماؤها في كتب التراجم، والتي تركت تراثا فكريا مهما، ضمته مكتبات المساجد والزوايا والمدارس وكان خير زاد لطلبة العلم.

ومع بداية النصف الثاني من القرن العشرين ظهرت في تونس وطرابلس الغرب الطباعة، التي لعبت دورا مهما في الترويج للأفكار الإصلاحية، التي أطلقتها الدولة العثمانية في جميع ولاياتها، مثلما ساهمت في الترويج لمحاسن الحضارة الأوروبية، من خلال مجموعة من الجرائد التي ظهرت خلال الفترة، كما ساهمت المطبعة في نشر عديد المؤلفات التي أثرت الساحة الثقافية، وفتحت المجال أمام الكُتّاب لتحرير مؤلفاتهم في مختلف الآداب والفنون.

الفصل الرابع:

التأثير العمراني والفكري العثماني في تونس وطرابلس الغرب

أولا - التأثير العمراني العثماني بتونس .

ثانيا- التأثير الفكري العثماني بتونس .

ثالثا- التأثير العمراني العثماني بطرابلس الغرب.

رابعا- التأثير الفكري العثماني بطرابلس الغرب.

- الخلاصة.

مرّ تاريخ العمارة العثمانية بمرحلتين مهمتين، المرحلة الأولى وهي الفترة السلجوقية التي تمتد فيما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وهي فترة تأثر فيها العثمانيون بالتراث الفني السلجوقي[1] الذي وجدوه خاصة في عاصمتهم قونية في مساجدها ومدارسها وقصورها وخاناتها وحماماتها، وما وجدوه بقصر السلطان علاء الدين الذي تعلموا منه الكثير من أصول الفن الإسلامي في زخرفة الجدران والنقش على الخشب وخطوط الكوفي والنسخ الذي استعملوه في التزيين، مثلما استلهموا بعض الفنون الهندسية من التراث الأندلسي الذي نجده في قصر مراد الأول (1362_1389م) والذي كان شبيه قصر الحمراء بالأندلس[2].

كما ظهرت القباب المتعددة والمتماثلة التي نجدها في جامع بورصة الكبير الذي بُني عام1396م ومن ثم ظهر الشكل الهندسي للمعمار الإسلامي في شكل حرف (T) بالمقلوب ومن أمثلة ذلك المرادية التي أنشأت بأمر من السلطان العثماني مراد الثاني عام1434م[3]، وأمّا المرحلة الثانية فهي المرحلة العثمانية الكلاسيكية التي تمتد بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر التي حدث خلالها فتح القسطنطنية1453م[4]، قبل أن يظهر نموذج معماري جديد، ميزته القبة المركزية التي تغطي المباني الشاهقة، متأثرا في ذلك بالفن المعماري السلجوقي[5]، وبكنيسة أيا صوفيا

1مصباح، مرجع سابق، ص13.

2حنان محمد علي بن نافع، **العناصر الزخرفية المعمارية بمدينة طرابلس خلال العهد العثماني (1551_1911م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المرقب، ليبيا، 2006_2007، ص93.

3محمود زين العابدين، **عمارة المساجد العثمانية**، ط1، بيروت، دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع، 2006، ص 111.

4مصباح، مرجع سابق، ص13.

5بما أن أي حضارة في العالم تحمل بعض من معالم الحضارات السابقة فإننا نجد بعض من المؤثرات السلجوقية والرومانية في العمارة العثمانية، وهو الذي ألهم المهندسين العثمانيين للأخذ من محاسنها ومن ذلك التأثر العمراني ما نجده بآيا صوفيا في معمار المساجد العثمانية بالأناضول.

من حيث ضخامة القبة وارتفاعها مع انعدام الأعمدة الداخلية التي تعطي فراغات أكثر[1] مع ادخال بعض التغييرات من خلال ادماج الزخرفة في صلب العمارة والذي نلمسه في "جامع شاهزادي"1548م الذي يعتبر أول تحفة فنية للمعماري "سنان"[2] والذي يحمل الكثير من أوجه الشبه مع "جامع محمد باي بتونس"[3].

أولا- التأثير العمراني العثماني بتونس:

رغم الأوضاع الأمنية السيئة التي شهدتها تونس خلال القرن السادس عشر إلاّ أنها حافظت على نظام المدينة القديم الذي يتميز بتواجد المسجد والأسواق في محور التقاء المحاور الكبرى، بالإضافة إلى وجود أسوار كانت تحمي المدينة وربضيها، وأما أزقتها فقد تميزت بالضيق[4] وانعدام

1زين العابدين، مرجع سابق، ص111.

2ولد سنة 1489م في قرية أغرناس قرب قيصرية، وكان انكشاريا في صفوف الجيش العثماني بعدما خضع لنظام الدفشرمة، وبعد انتهاء تكوينه العسكري سنة1512م ساهم في حملة بلغراد سنة1521م، مثلما شارك في حملات سليم الأول في مصر والشام وبلاد فارس والعراق، وكان قد حظي بتقدير السلطان اثناء حملة مولدافيا1538م عندما بنى جسرا فوق نهر بروت في 13يوما وبنى جسرا آخر في الدانوب، ولم يبلغ سن الخمسين حتى كان قد شيد أزيد من 364بناء في مختلف أقاليم الدولة، وكان يمزج فيها بين مشاهداته في المناطق التي يحل بها وبين التقاليد المعمارية العثمانية، وكان أول أعماله تتمثل في محاولة ايجاد فراغ أكبر في المنشآت التي شيدها، مع الأخذ بعين الاعتبار التقاليد المعمارية العثمانية التي شاعت في بورصة وازنيك، فكانت أول أعماله مبنى الخسروية بحلب بطلب من خسرو باشا والي دمشق، أما أشهر أعماله فهي مسجد شهزادة ومسجد السليمانية بإستانبول والسليمية بأدرنة، وقد عاصر أربعة سلاطين قبل أن يتوفاه الأجل سنة996ه/1588م.**<u>للمزيد أنظر</u>**: أوقطاي آصلانآبا، **فنون الترك وعمائرهم**، تر أحمد محمد عيسى، ط1، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، استانبول، 1987، ص ص195 ، 206.

3مصباح، مرجع سابق، ص13.

4من أهم أسباب التي جعلت أزقة المدينة ضيقة هو عدم وجود تخطيط مسبق للمدن العربية ، ولم يكن يشكل أولوية، وهو ما أضفى عليها بعض مظاهر الفوضى التي تظهر بشكل واضح على مستوى التقسيمات الجزئية للأجزاء العمرانية للمدينة، كما أن السلطة لم تكن تشرف وتتدخل إلا عل مستوى المحاور الكبرى للمدينة وكذا تنظيم الأسواق. **<u>للمزيد</u>**: بوسعيدي، مرجع سابق، ص32.

تام لمظاهر الزخرفة[1]، ومع بداية القرن السابع عشر عرفت المدينة حركة عمرانية واسعة[2]، سمحت باستعادة بعض من نشاطها وحركيتها خاصة مع ظهور أسواق جديدة واسعة كسوق البشامقية أو سوق البركة (سوق الرقيق) الذي أُلغي نشاطه لاحقا، وسوق الترك الخاص بالخياطين، وسوق الشواشية[3] كما رافق ذلك ظهور مجموعة من المباني وفق الطراز الهندسي العثماني من مساجد وفنادق وحمامات وقصور وغيرها، والتي حملت ملامح نوع جديد في العمران يختلف في كثير من تفاصيله الهندسية والزخرفية عن الطراز المعماري الذي عرفته تونس قبل هذه الفترة، وقد انتشر هذا الطراز الجديد خارج مدينة تونس، فعرفته عديد المدن ودواخل الأقاليم[4]، رغم ذلك فإننا نجد بعض من التداخل والتأثر في العمارة العثمانية مع خصائص العمارة المحلية، حيث نجد بعض الدور التي بناها البايات تشبه المباني العربية في الفناء المفتوح وسط الدار التي تسمى أحيانا الحوش، ونجد وراء هذا الانفتاح على الداخل عدة عوامل مناخية واجتماعية ووظيفية، ومثال ذلك ما نجده في دار الباي التي أنشأها الباي حسين بن علي بالقيروان والتي تتميز بالصحن المركزي[5].

1الدولاتي، مرجع سابق، ص190.

2شهد مطلع القرن السابع عشر بتونس العديد من الأحداث التي غيرت من حال الإيالة، حيث عرفت عدم استقرار بسبب ثورات الجند المتكررة وحركات تمرد القبائل، وبقيام نظام الدايات مع ولاية عثمان داي (1594_1610م) التي اتسمت بالهيمنة والتوسع وردع تمردات القبائل، وتعزيز السلطة الجديدة وتمتعت البلاد بالأمن والاستقرار، وشرع في تحصين مدينة تونس وإصلاح عمرانها، وعلى نفس النهج سار خلفه يوسف داي(1610_1637م) الذي عمل على اعمار وترميم ما خربه الإسبان. **أنظر:** بية عبيدي الحاج، **برج يوسف داي بالبطان التأثيرات العثمانية في عمارة المنتزهات بأحواز مدينة تونس خلال القرن السابع عشر**، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع45، جامعة قسنطينة2، 2016، ص ص98، 99.

3الدولاتي، مرجع سابق، ص189.

4عبيدي، مرجع سابق، ص98.

5 المالكي، مرجع سابق، ص197.

أما ربضي باب سويقة وباب الجزيرة فقد كان لهما سلطة ادارية مستقلة عن سلطة شيخ المدينة خلال العهد العثماني، وظهر بها عدة مباني جميلة وأنيقة وفق الطراز المعماري الجديد،[1]، كما كان هذين الربضين ضمن السور الذي بناه حمودة باشا وبنى سور سنة1797م حول المدينة باستثناء حومة الأندلسيين التي بقيت خارج السور قرب سبخة باب السويقة[2]، ومن الإضافات التي شهدتها المدينة النواة هي إعادة تعمير وتهيئة معمار الأجزاء التي تهدمت بسبب حروب الإسبان، في حي تربة الباي في القسم الجنوبي من المدينة زمن عثمان داي(1598_ 1610م)، كما ظهرت في أواخر القرن السابع عشر مباني جديد في حومة السبخة وحومة الدباغين وحومة ترنجة[3] (خارج سور المدينة الجديد) تشبه في تخطيطها المورفولوجي شكل العمود الفقري(تفرع الشارع الرئيسي إلى شوارع ثانوية)[4]، وقد شهدت تونس ظهور العديد من المنشآت المعمارية من غير المساجد والمدارس ودور البايات، والتي لم نأتي على ذكرها لأنها لا تمثل في أصلها تأثيرا عمرانيا بل هي منشآت مؤقتة كالأبراج التي انتشرت كثيرا حول سور المدينة، والقشل الخمس الكبرى التي كانت مخصصة لسكنى الجند وغيرها من المنشآت[5].

1الطويلي، صفحات...، مرجع سابق، ص ص352، 353.

2بوسعيدي، مرجع سابق، ص22.

3ارتبط تأسيس هذا الحي بالجالية الأندلسية التي سكنت تونس، وهو امتداد لحومة الأندلسيين (حومة السبخة) خارج باب سويقة، ومن أهم معالمه مسجد ترنجة الذي تأسس حسب بعض وثائق أوقافه في النصف الثاني من القرن السابع عشر (حوالي1073ه/1662م) **للمزيد أنظر**: بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص151، 164.

4بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص34، 40.

5للمزيد عن هذه المنشآت أنظر: ابن أبي الضياف، مرجع سابق، ج3، ص38.

1- الجانب الهندسي:

رغم ظهور الكثير المنشآت المعمارية الدينية وفق الطراز العثماني مثل جامع سيدي محرز ذي القبة المركزية(1675م/1086هـ) إلاّ أن العثمانيون بتونس قد صادفوا تراثا معماريا محليا تمثل في التراث الحفصي، والذي دعا إلى تعايش هذا الطابع المعماري الجديد مع الطابع الهندسي المحلي التقليدي[1].

ومن بين العناصر المعمارية الهامة التي استعملها العثمانيون وأدخلوها في المنشآت المعمارية خلال الفترة نذكر التيجان التي استعملت في العديد من المساجد، والتي تم جلب بعضها من المواقع الرومانية القديمة، وأطلق عليها اسم "التيجان المعادة الاستعمال"، إلى جانب التيجان ذات الطراز الحفصي والأندلسي والعثماني، بالإضافة إلى العقود التي وضعت لإعطاء جمالية للمساجد عند مداخلها وفي وسط قاعة الصلاة وهي بالموازاة تساهم في رفع السقف وتوزيع الثقل المركز عليه، وهي وإن لم تكن خاصة بالعهد العثماني إلاّ أنها جاءت في عدة أشكال، حيث يتم تشكيلها من الحجارة الرملية، أو من حجارة الكذال أو من فقرات رخامية متناوبة بين الأبيض والأسود[2].

وتعد القبة من أبرز المؤثرات المعمارية العثمانية في هندسة المساجد إذ تعتبر القبة المركزية من العناصر التي ترمز إلى المثل العليا في عمارة المساجد العثمانية، والتي كانت تسعى إليها الدولة، مثلما ترمز في نفس الوقت إلى نظامها المركزي وإلى صرامتها[3]. ونجدها أول ما ظهرت في مسجد محمد باي المرادي (1686-1696م) الذي جاء وفق

1 ميسانا، مرجع سابق، ص58.
2بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص373، 376.
3ميسانا، مرجع سابق، ص92.

الطراز العثماني، بقبة مركزية، والذي كان قد انفرد في هندسته وزخرفته عن جملة المساجد التي عرفتها تونس من قبل[1]. ومن مميزات هذا الطراز الهندسي هو سماحه بوجود فراغ مركزي أكبر في وسط قاعة الصلاة، أما تقنية تسقيف المساجد بقبيبات فلم يستعملها العثمانيون بمدينة تونس بربضيها، باستثناء ما قد نجده فوق محراب بعض المساجد كمسجد سيدي البلاغ ومسجد حرمل ومسجد المهراس، وهي تقنية تعود إلى العصر الوسيط والتي نجدها أكثر انتشارا في مساجد جربة[2].

وأما الصحن الذي يعد من من مميزات المساجد العثمانية فهو يحيط بالقاعة الرئيسية للصلاة من جميع جوانبها (مثل جامع محمد باي) ومن ايجابيات الصحون أنها توفر إضاءة طبيعية إضافية لقاعة الصلاة، مثلما تساهم في تسهيل الحركة داخل المسجد، رغم أن ميزة وجود الصحون حول بيت الصلاة كانت موجودة بتونس قبل دخول العثمانيين إلاّ أنها كانت قليلة الانتشار، ومثال ذلك ما نجده في أحد المساجد الذي تأسس عام1375م/777ه زمن الدولة الحفصية وهو جامع الحلق[3].

كما تعد المئذنة من العناصر المعمارية الأساسية في هندسة المساجد والجوامع، إلاّ أننا من الممكن أن لا نجدها في بعض مساجد الأحياء بتونس[4] وهي على صنفين رئيسيين، الأول وتمثله مآذن ذات طراز

1مصباح، مرجع سابق، ص 02.

2بوسعيدي، مرجع سابق، ص366.

3ميسانا، مرجع سابق، 186.

4استنادا لإحصائيات عام 1756م فإن عدد المساجد بباب سويقة قد بلغ 92مسجدا ولكن 25منها فقط التي كان بها مآذن، بينما كان بها خمسة جوامع كانت كلها بها مآذن، وبالمدينة العتيقة نجد 16 مسجدا فقط به مآذن من أصل 134مسجد، بينما جوامع المدينة الثمانية كلها بها مآذن، وبباب الجزيرة نجد سبعة(07) مساجد بها مآذن من أصل 52مسجدا، بينما احتوت جوامعها الأربعة كلها على مآذن، وبالتالي فإن المآذن لم تكن تشكل عنصرا أساسيا في هندسة المساجد بتونس، بينما يكون الأمر مغايرا في الجوامع التي يصلى بها صلاة الجمعة. **للمزيد أنظر:** بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص338، 341.

حفصي تعرف من خلال شكلها الهندسي المربع الذي جاءت عليه مئذنة جامع القصبة، والصنف الثاني وهو الطراز العثماني الذي نجده في شكل سداسي أو ثماني، والذي نجده في مئذنة جامع يوسف داي، وجامع حمودة باشا[1] والتي تستمد جذورها من الطابع المحلي في القاعدة المربعة بينما يصمم بدن المئذنة في أشكال ثمانية أو سداسية، وتنتهي بقمة مخروطية الشكل تُغطى أحيانا بالقرميد الأحمر، في أعلاها ثلاث كريات حديدية(تسمى رمانات) وهلال[2]، كما نجد بعض المآذن العثمانية التي جاءت على شكل اسطواني تنتهي بقمة مخروطية.

ومن الإضافات المعمارية التي وجدت في معمار تونس هي ظهور مجمعات تظم المسجد بصحونه الثلاث ومدرسة وكُتّاب وحمام وتربة مؤسس الجامع، وتميز أيضا بظهور مدارس تضم ضمن مرافقها مسجد بعدما كانت المدرسة وحدة تابعة للمسجد[3]، فضلا عن المحلات التجارية الموجودة بالطابق الأرضي، كما عرفت أيضا ظهور نماذج هندسية تعتمد على فناء كبير يلتف حول قاعة الصلاة عوض الفناء المحاذي لها[4].

وأما المحاريب العثمانية فالمقصود بها تلك المحاريب التي بنيت خلال العهد العثماني أو التي وقع ترميمها وتجديدها والتي ميزتها الزخارف المحيطة به، إضافة إلى العقود ذات الفقرات المتناوبة، والتي نجدها تتجلى بشكل واضح في محراب مسجد حرمل الواقع بسوق الصباغين، الذي أعاد ترميمه وتجديد بناءه الوزير علي ثابت (ت1041ه/1631م)، وزخرف بفقرات متناوبة بين اللونين الأبيض والأسود، في مقابل المحفل المخصص لجلوس الخوجات والأئمة الحنفية

1بوسعيدي، مرجع سابق، ص 338.
2نفسه، ص ص344، 345.
3بن نافع، مرجع سابق، ص180.
4مصباح، مرجع سابق، ص12.

وهو من العناصر المحدثة خلال العهد العثماني[1]، كما نجدها في محراب المسجد الحبيبي الذي أعيد ترميمه في عهد محمد الحبيب باي والذي حافظ على هندسته المحلية غير أن محرابه حمل تأثيرات عثمانية من خلال تزيينه بإطار مستطيل الشكل تحيط به وريدات صغيرة[2]، وكذلك بمسجد سيدي عبد الحق الذي حمل محرابه خصائص الزخرفة العثمانية من خلال الزخرفة التي تحيط بعقده، وخاصة زخرفة طبلة العقد[3]، بينما شكل مسجد لاز(خلال القرن17م) بداية النقلة النوعية، حيث أصبحت طاقية المحراب أقل عمقا، يتم تغطيتها بالجص المزخرف، على العكس تماما من خصائص محاريب الفترة الوسيطة التي تميزت بعمق طاقية المحراب[4].

كذلك من الإضافات التي أدخلها العثمانيون على بيت الصلاة نجد المحفل وهو منصة خشبية تخصص للخوجات لترتيل القرآن[5]، وهو تقليد عثماني وجد في العديد من المساجد المغاربية ومن أمثلة ذلك جامع حمودة باشا بتونس 1066هـ/1655م[6]. مثلما قد نجد في نفس الوقت بعض المساجد التي أعيد ترميمها خلال الفترة العثمانية، والتي حافظت على معالمها الأصلية، ومن ذلك نذكر مسجد الكيال الموجود بحومة حوانيت عاشور كما يعد من المساجد القليلة جدا التي تحتوي على صحنين، ومسجد السيل الموجود بنهج محسن ببطحاء حمام الدولاتي الذي تم ترميمه سنة1756م[7].

1بوسعيدي، مرجع سابق، ص78.
2بوسعيدي، مرجع سابق، ص108.
3نفسه، ص262.
4 بوسعيدي، مرجع سابق، ص330.
5مصباح، مرجع سابق، ص12.
6البهنسي، مرجع سابق، ص57.
7بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص117، 129.

وإلى جانب التراث العثماني وجدت بعض من التأثيرات الأندلسية في الجوانب الهندسية والزخرفة كالقباب البصلية الشكل المغطاة بالقرميد المتشابك، والقباب المغطاة بسقوف هرمية الشكل باستعمال القرميد النصف اسطواني، وهو تقليد لبعض الثقافات المنتشرة بالأندلس، كما ظهرت الساعات الحائطية واستعمل أيضا في الزخرفة نوع خاص من السيراميك الذي جاء به اللاجئون الأندلسيون[1]، اضافة إلى المآذن التي حملت بعض من ثقافاتهم كمئذنة مسجد حمام الرميمي الواقع بنهج حمام الرميمي الذي سكنه الأندلسيون الأوائل، وقد حملت في زخرفتها بعض معالم الثقافة الأندلسية[2].

2- الجانب الزخرفي:

تميزت مساجد تونس خلال الفترات السابقة للعهد العثماني ببساطة هندستها وتواضع زخرفتها، وأمّا ما أدخله العثمانيون من عناصر زخرفية، فنجدها على الأسطح الرخامية والخشبية والحديدية كالزخارف الهندسية (مربعات ومستطيلات ومعينات) بالتناوب مع الزخارف النباتية[3]، وأدخلوا أيضا زخارف هندسية جديدة تمثلت في المضلعات والنجوم الثمانية والعشرية والاثني عشرية، والتي أنتجت نماذج معقدة اختفت من خلالها الزخارف النباتية في بعض جوانب المساجد، وقد جاءت منحوتة أو محفورة يدويا ومطعمة بالرصاص[4]، واختلفت بين مسجد وآخر، ففي مسجد حمودة

1 مصباح، مرجع سابق، ص11.

2 بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص188، 194.

3 عرفت الزخارف النباتية التي تصور فيها الأزهار والأشجار بمختلف أصنافها بكونها تراثا إسلاميا أطلق عليه مصطلح "أرابيسك" حيث حملت وحدات نباتية ذات جمال فني تميزت به عن فنون الزخرفة الأخرى، عكس التراث الأوروبي الغربي الذي يحمل صور آدمية وحيوانية، **للمزيد أنظر:** محمد عبد العزيز مرزوق، **الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه**، مطبعة أسعد، بغداد، 1965، ص ص180، 185.

4 مصباح، مرجع سابق، ص ص06، 07.

حمودة باشا وجدت بعض الزخارف الهندسية المتكررة في باطن العقود، بينما تداخلت هذه الزخارف الهندسية مع زخارف نباتية على مستوى جدران المسجد والأبواب والمحاريب في مسجد حرمل والأنصاري والفلاري وغيرهم[1]، واستعملت بشكل واسع في الزخرفة على الحجر والرخام والخشب، وعلى بلاطات السيراميك والتي اختص بها جامع محمد باي المرادي[2] وكان استعمال العثمانيين للزخارف النباتية في التزيين قد عرف تطورا بعدما ادخلوا عليه عناصر نباتية جديدة على غرار أزهار القرنفل والوردة البرية والياقوتة، وزهرة العسل وصور لأشجار السرول وسعف النخيل والصنوبر وغيرها مع العناصر الزخرفية النباتية القديمة والتي ستكون أكثر ثراء أكثر مع العناصر الجديدة التي أضافها العثمانيون خلال القرن التاسع عشر والتي تم جلبها من أوروبا[3]، كما لا ننسى المساهمة الكبيرة للأندلسيين الذين استقروا بالبلاد في إثراء المواضيع الزخرفية خاصة منها التي نُفِّذت على الجص، بالإضافة إلى صناعة الزليج (الخزف) الذي تزينت به بعض جدران بيوت الصلاة [4]

أمّا الزخارف الكتابية فقد ظهرت في شكل شرائط خطية يتم نقشها على الجص بطريقة بارزة، بحيث تشكل جزءا لا يتجزأ عن باقي العناصر الزخرفية، كما ظهر نوع آخر من الزخارف الكتابية التي نقشت على محمل من الجص وتتمثل في آيات من القرآن الكريم، بالإضافة إلى كتابات أخرى والتي نُفِّذت على الرخام وعلى الخشب[5]، وكانت أغلبها بالخط الكوفي لتميز حروف هذا الخط في الكتابة الزخرفية مقارنة بالخطوط الأخرى.

1بوسعيدي، مرجع سابق، ص376.
2مصباح، مرجع سابق، ص07.
3نفسه، ص08.
4بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص372، 373.
5مصباح، مرجع سابق، ص08.

كذلك من بين الإضافات التي زادها العثمانيون هي زخرفة المحراب والمنبر وجدار القبلة وبعض الزوايا في جدران القاعة، والتي امتزجت فيها الزخارف النباتية بالهندسية، واستعملت فيها بعض الأشكال الجديدة كالهلال الذي هو من رموز وشعارات الدولة العثمانية[1]، وقد انتشرت الزخرفة على الرخام كثيرا في المساجد التي أسسها ولاة الدولة ورجالها، والذي قد لا نجده في مساجد الصلوات الخمس التي قام ببنائها المحسنون أو من تبرعات الأهالي، وهذا بسبب ثمنه الباهض.

واهتم العثمانيون بزخرفة المداخل والجدران الخارجية للمساجد والمباني التي أنشأوها، وكانت هذه السمة غائبة في الآثار المعمارية الإسلامية السابقة بسبب الاكتظاظ الذي ميز النسيج العمراني، والذي كانت تعاني منه المدن القديمة، وبالتالي فإن الواجهات الخارجية كانت أقل مساحة، من الداخلية التي كانت زخرفتها تعبر عن المستوى الاجتماعي لصاحب البيت[2].

إضافة إلى ما سبق فإن بعض المنشآت العمرانية العثمانية قد جمعت بين الثقافات المحلية والعثمانية وبعض من الثقافات الأوروبية، ومن ذلك جامع حمودة باشا الذي زُيّنت واجهته بحجارة الحرش في تناسق جميل مع واجهة دار الباي المجاورة له، إضافة إلى القطع الزخرفية التي زينت جدران بيت الصلاة، والقطع الرخامية التي تزين بها المحراب، فكان بذلك قد جمع بين مزيج من المؤثرات الشرقية والغربية مع المحافظة على التقاليد المغاربية التي نجدها في تقنية ربط الأعمدة مع بعضها بقضبان حديدية حتى تمنع الأقواس من الانحناء، مثلما استعمل فيه المدخل الحفصي المستطيل، وزين بالتيجان العثمانية، وجلبت له لوحات خزفية من

1مصباح، مرجع سابق، ص12.
2المالكي، مرجع سابق، ص197.

مختلف الأشكال والألوان[1]، والتي تتشابه في طرازها الزخرفي وأساليبها الصناعية مع البلاطات التي اشتهرت بها مدينة ازنيق خلال القرن السابع عشر والتي نجها في مختلف ولايات الدولة العثمانية، مثلما نجد بالعمارة العثمانية البلاطات الخزفية التي تعود في طرازها إلى مصانع منطقة "تكفور سراي" بإستانبول والتي اُشتُهرت خلال القرن الثامن عشر(القرن12ه) إضافة إلى الاستعمال الواسع للأعمدة الرخامية الإيطالية الصنع[2]

وبالتالي فإن أهم ما ميّز المساجد العثمانية هي الزخرفة الكثيفة، حيث نجد أن الجدران قد كسيت بالزليج اللماع(مسجد حمودة باشا) وأما المحاريب فتميزها العقود النصف دائرية أو على شكل حدوة الفرس، وتزينها أُطُر من الرخام أو من حجارة الكذال، وأما عقود المحاريب فقد تزينت بفقرات من الرخام أو من حجارة الكذال متناوبة بين الأسود والأبيض، بالإضافة إلى استعمال بلاطات رخامية وخزفية في تزيين باطن المحاريب، بالإضافة إلى الزخرفة التي حملتها مداخل بعض المساجد[3]، ويظهر تأثر الزخرفة المعمارية بالفنون والصناعات الزخرفية الإيطالية في المنشآت التي أقامها العثمانيون، والتي وفدت مع الأسرى الإيطاليين الذين تم أسرهم، وزاد توظيف هذه الفنون في زخرفة العمران خلال القرن السابع عشر والقرون الموالية، خاصة المصنوعات الرخامية والتيجان والنافورات، والتي أعطت مزيجا ثقافيا راقي ميز الفن المعماري بتونس[4].

1بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص100، 101.

2ربيع حامد خليفة، **بلاطات خزفية عثمانية في الجامع الجديد بمدينة تونس (1136_1139/1723_1727)**، مجلة دراسات في آثار الوطن العربي، د.ع، د.س.ن، ص ص851، 852.

3بوسعيدي، مرجع سابق، ص ص382، 383.

4عبيدي، مرجع سابق، ص115

3- دور الوقف في الجوانب العمرانية والعلمية:

شجع العثمانيون كثيرا على الوقف الذي كان له دور كبير في تشييد والمحافظة على ديمومة نشاط المنشآت المعمارية سواء كانت مساجد أو مدارس أو غير ذلك من المنشآت العامة والسبب في هذا يعود إلى المرونة التي يتميز بها المذهب الحنفي في مجال الوقف، كما ساهم العثمانيون في انتشار هذا المذهب من خلال إلحاقهم للمدارس القرآنية بالمساجد وجعل المذهب الحنفي هو المعتمد في التعليم على غرار مدرسة يوسف داي التي ألحقت بالجامع وعين القاضي الحنفي رمضان أفندي للتدريس بها[1]، وكان للوقف دور كبير في خدمة الكتب والمكتبات، فقد عمل أحمد باي على إحياء مكتبة جامع الزيتونة ورغّب في تحبيس الكتب بها وكان سبّاقا بنفسه في ذلك[2]، وقد حمل المؤلف الذي صدر سنة 1327ه(1910م) تحت عنوان "برنامج المكتبة العبدلية" أسماء الواقفين من رجال الدولة ومن الأهالي التونسيين الذين زاد عددهم عن 33شخصية[3]، ومن الأمور التي صرفت في سبيلها أموال الأوقاف أيضا تهيئة وترميم بعض الأجزاء من المساجد على غرار جامع الزيتونة الذي أعيد ترميم صومعته القديمة والتي بلغ ارتفاعها عن الثلاثة وأربعين مترا.

غير أنه مع مرور الوقت استدعى الأمر تدخل الباي لمراقبة تسيير أموال الوقف وعين لها من أهل العلم والصاح، فقد ولّى المشير أحمد باي (1837-1855م) الآلاي أول مصطفى بن عبد النبي وكيلا على الأوقاف، مثلما ولّى محمد باي(1855-1859م) القاضي مصطفى بيرم بالاحتساب،

1أحمد السعداوي، **جوامع عثمانية في بلاد المغارب دراسة في صلة المركز بالأطراف في مجال العمارة والفنون**، مجلة السبيل، ع3، 2017، ص ص02، 05.

2بنبلغيث، مرجع سابق، ص113.

3د.م، **جامع الزيتونة الأعظم (برنامج المكتبة العبدلية)**، ج2، المطبعة الرسمية العربية بتونس، تونس، 1327.

وقد جمع أموالا كثيرة كانت معطلة من وكلاء الجوامع والزوايا ودفعه للوالي يصرفه في سبل البر والإحسان، قبل أن تتحول إدارتها إلى مسؤولية المجلس البلدي الذي يتولى تصريفه في مصالح البلاد[1]، وقد أظهرت الوثائق التاريخية التي سجلت أموال الأوقاف لسنة1257ه/ 1841-1842م أن إيرادات الأوقاف قد تجاوزت ثمانية عشر ألف وثمانمائة وواحد وسبعون ريالا(18871ريال)، كما أوردت هذه المصادر الأوجه التي صرفت فيها بين أجور وإصلاحات عمرانية خلال نفس السنة1257ه والتي تجاوزت السبعة آلاف وثلاثمائة وأربع ريالات (7304ريال)[2].

وقد شهدت تونس مع نهاية العهد العثماني بتونس نظام البلديات[3] في30أوت1858م[4]، في إطار الإصلاحات التي شرعت فيها الدولة، حيث تأسست بلدية تونس على غرار نظام المدينة بأوروبا، وكان أول رئيس لها

1بنبلغيث، فصول...، مرجع سابق، ص ص27,29.

2انظر الملحق رقم 02، ص ص349، 350.

3 ظهر نظام البلديات في الدولة العثمانية أول مرة بيوغلو غلسطة في 07جويلية1858م كأول بلدية عثمانية، بعد إلغاء نظارة الاحتساب للمدن سنة1855م، والتي جعل من مهامها الصحة والبريد والإنارة وغيرها من الخدمات، كما أنها تشكل أصغر حلقة في سلسلة التنظيمات الإدارية للولايات. **أنظر:** عسى عفاف البشير المبروك، **الإصلاحات العثمانية في ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني المجالس البلدية نموذجا**، ج97، د.ع، مجلة فكر وإبداع، 2015ص ص453، 454.

4ظهرت بلدية تونس بمقتضى القانون المؤرخ في 20محرم1275هـ الموافق لـ30أوت 1858م، الذي يحتوي على أربعة وعشرين فصلا تتعلق بتركيبة المجلس ومواعيد انعقاده، والمهام المنوطة به، حيث ينص الفصل الخامس عشر منه على عدم السماح بوضع أي معيقات في الطرق العامة بالمدينة(كراسي، علب، دواب، أو أمتعة) وتغريم فاعلها بستة ريالات في حال المخالفة للمرة الثانية، وبعشر ريالات في حال المخالفة الثالثة، وتنص المادة السادسة عشر منه على منع وضع نصبة أو دكانة من خشب أو غير ذلك، حتى لا تؤذي المارة بالطريق، وإن خالف ذلك أحدهم فإنه يغرم من ريالين إلى عشر ريالات، ومن ذلك يظهر أن الهدف ليس جبائيا بقدر ما هو تنظيمي للمدينة، وينص الفصل الثامن عشر على أن البلدية هي من تتكفل بنظافة الطرقات العامة والأرصفة، وأنه ليسمح لأحد من السكان أو التجار من أن يرمي الأوساخ في الطريق، ومن خالف ذلك فإنه يغرم من ريال واجد إلى خمسة ريالات. **للمزيد أنظر:** الطويلي، بناة الدولة...، مرجع سابق، ص ص137، 139.

هو الجنرال حسين، ومن المهام التي كانت تقوم بها هي ترميم المباني العامة كالمساجد والأسوار وغرس الأشجار وتحسين بعض الطرق بالحجارة وإنشاء الأرصفة، مثلما تولت انشاء السوق المركزية ببطحاء القصبة وغيرها[1]، وكانت تقوم بإحصاء المنشآت العامة بالمدينة وكذا المنازل والمحلات وغيرها، وقد عرفت تونس إضافة إلى ظهور نظام البلديات ظهور جهاز الشرطة الذي صدر قانونه في الفاتح محرم1277هـ الموافق لـ20جويلية1860م، وطبع قانونها بمطبعة تونس، ولم تكد تفرض فرنسا الحماية على تونس حتى صارت مؤسسة الأمن (الشرطة) مهيكلة ومنتشرة في سائر مقاطعات البلاد، وكان الهدف من إنشائها هو ضمان الأمن داخل المدن وضمان راحة الناس[2].

ثانيا- التأثير الفكري العثماني بتونس:

مرت الدولة العثمانية عبر تاريخها الطويل بمرحلتين مهمتين في توجهها الحضاري، حيث اصطبغت كل مرحلة بمميزات ثقافية وحضارية مختلفة عن الأخرى، فالمرحلة الأولى هي المرحلة الممتدة من تأسيس الدولة(نهاية القرن13م) إلى بداية القرن الثامن عشر والتي يعتبرها المؤرخون العصر الذهبي للدولة العثمانية، والذي اعتمدت فيه على التراث الفكري الإسلامي الذي انتج حضارة عثمانية قوية، وهي ترمز في نفس الوقت إلى المكانة القوية التي حازت عليها الدولة، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة التأثر بالحضارة الأوروبية ومحاولة الأخذ بنظمها الاقتصادية والعسكرية والسياسية، وهو ما سمح بظهور حياة فكرية جديدة تختلف في

1الطويلي، بناة الدولة...، مرجع سابق، ص49.
2نفسه، ص ص139، 148.

مضمونها عن مميزات المرحلة السابقة، التي رأت فيها الدولة مخرجا لحالة الركود التي ميزتها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[1].

كانت الدولة العثمانية عبر تاريخها قد توارثت تقاليد سياسية وحضارية منذ تأسيسها إلى غاية القرن التاسع الذي حيث تعرضت فيه لصدمات وصفت بالحضارية والتي أدت إلى ظهور نزعة الإصلاح[2] والتجديد في الدولة العثمانية، والتي رأى فيها روادها أنه بالإمكان أن تحل القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تعاني منها الدولة من خلال تغيير منظومتها المدرسية ومناهجها التعليمية وكذا تطوير موادها الدراسية[3]، والذي استدعى انتهاج هذا المسار، وبما أن المدرسة في أصلها كانت تعبر عن الحياة الفكرية في المرحلة الأولى والثانية، فإنها كانت تعبر أيضا عن توجهها الفكري من جهة وعاملاً مؤثرا في تكوين واعداد رجال الدولة وموظفيها في جل القطاعات الإدارية والعدلية وغيرها، ومن رجال الدولة الذين أدركوا أنه من الضروري القيام بتطوير ظروف التعليم نجد الوزير

1 ماجدة صلاح مخلوف، **احمد جودت باشا وتطوير المدرسة العثمانية**، بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، مج1، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، 2000، ص209.

2 هناك من يعتقد أن الإصلاحات بدأت تتسرب إلى الدولة منذ زمن سليم الثالث(1789-1807م)الذي كان عارفا بالعلوم الإسلامية، ويقول الشعر وذا ملكة في فنون الخط والرسم، وكان قد عمل على وضع خطة لتوسيع نشر التعليم في الدولة من خلال افتتاح العديد من المدارس والمعاهد، كما أدخل خطط لتحديث الجيش وتنظيمه وفق النظم الأوروبية خاصة بعد انهزام الجيش العثماني أمام روسيا1774م التي أثبتت تفوق الغرب في مجال السلاح والتدريب العصري، كما كان للهزائم الأخيرة التي مني بها الجيش أمام النمسا وروسيا في اقتناع السلطان سليم الثالث بضرورة الإصلاح والأخذ ببعض النظم الغربية خاصة فرنسا التي لا طالما كانت حليفة للدولة العثمانية، كما ظهرت الرغبة في التخلص من الانكشارية التي وقفت في وجه هذه المشاريع الإصلاحية. **<u>للمزيد أنظر</u>**: سيار الجمل، **العثمنة الجديدة القطيعة في التاريخ الموازي بين العرب والأتراك**، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، 2015، ص105. والمبروك، مرجع سابق، ص448.

3 نفسه، ص100.

"أحمد جودت باشا"[1] الذي رأى أن الثقافة التي تقدمها المدرسة لا تفي بمتطلبات العصر الذي تختلف ظروفه عن ظروف العصور السابقة، ودعا إلى الاهتمام بالمواد ذات الطابع العلمي كالجبر والهندسة وعلم الهيئة، وغيرها من العلوم الطبيعية، كما ألحّ على ضرورة تعليم اللغات الأوروبية الحديثة خاصة اللغة الفرنسية، إذ يرى أن التعليم أساس انتشار العمران والمدنية، وأساس تنظيم أمور الدولة، وسبيل استمراريتها وبقائها، ورفاهية الناس[2].

1-الجانب الأدبي:

عرفت البلاد التونسية مع نهاية العهد الحفصي وبداية العهد العثماني خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين(ق16م)، حالة ركود أدبي، انقطعت معه أخبار الأدباء في كتب المؤرخين، لكن مع نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر شهدت البلاد نهضة أدبية جديدة ساهمت فيها حالة الاستقرار السياسي للبلاد والذي أدى إلى ظهور جملة من الأدباء على غرار الشيخ حمودة بن عبد العزيز والشاعران أبو عبد الله محمد

1 ولد بمدينة "لوفجة" التابعة لمدينة الطونة سنة 1238ه، وكان والده من أعيان لوفجة وأحد أعضاء مجلسها، ثم رحل إلى الأستانة 1255ه زمن السلطان حمود الثاني، وتلقى بها العلوم والآداب على أحسن شيوخها، فأتقن الفقه وأصول الحديث والتفسير وعلم الكلام والمنطق والفلسفة، والرياضيات والجغرافيا والتاريخ واللسان الفارسي، وأتقن أيضا اللسان التركي والعربي، حتى نظم الشعر فيها جميعا، وشرع في التأليف حتى ذاع صيته، فانتدبته الدولة عضوا في مجلس المعارف العمومية1266ه، ثم عضوا في المجلس العلمي العثماني، وفي سنة1271هـ تقلد كتابة وقائع البلاد، وفي السنة الموالية عين قاضيا لغلطة أحد أقسام الأستانة الثلاثة، ثم عين باي على ولاية مكة سنة1273ه، كما تولى العديد من المهام في البوسنة وجبال القوزاق، وحلب، ومهام داخلية في جلس الشورى وفي نظارة الأوقاف الهيمايونية، ونظارة المعارف العمومية، ونظارة العدلية، كما تولى الصدارة العظمى مؤقتا سنة 1296ه. وتوفي في 02ذي الحجة1312ه من أشهر مؤلفاته تاريخ آل عثمان المعروف بتاريخ جودت الذي طبع بالتركية في تسع مجلدات. **للمزيد أنظر:** .جرجي زيدان، **تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر**، ج2، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2012، ص ص211، 214.

2مخلوف، مرجع سابق، ص ص210، 211.

الورغي وأبو الحسن علي غراب المعروفين بديوانيهما الشعريين، قبل أن ينتعش المجال الأدبي أكثر مع حلول القرن التاسع عشر الذي شهد هو الآخر ظهور أدباء أعلام من أمثال الشيخ محمد الخضار، والشيخ ابراهيم الرياحي، والشيخ بيرم الرابع، والشيخ محمود قابادو، وأحمد بن أبي الضياف الذي تولى رئاسة الديوان في عهد الأمير أحمد باي وكان بارعا في نسج مراسلاته بعدما صارت مراسلات الدولة باللغة العربية، وكان ذلك من نتائج الرعاية التي أولاها أمراء الدولة للحياة العلمية في إطار الإصلاحات الواسعة التي مست المدارس واصلاح التعليم الزيتوني ورعاية شيوخه وكذا اعتنائهم بالكتب والمكتبات وتنظيمها[1].

وقد كان للعلماء إسهامات كبيرة في النشاط الفكري من خلال ما نشروه من بحوث وشروح وتفاسير دينية، وما ألّفوه من تراجم ودواوين شعرية، مثلما ساهم في هذا المجال موظفو الدولة وشيوخ الصوفية ومن هؤلاء محمد الرشيد الذي اشتهر بديوانه الشعري الذي ألف بعضه في غربته بالجزائر وكان يفتخر فيه ببلده تونس، كما كان مضطلع بالموسيقى وإليه يرجف فضل جمع وترتيب الأغاني الشعبية التونسية والأندلسية تحت مسمى المالوف[2]، وبمأن النظام التعليمي كان يميزه الطابع الديني، فإن العلاقة بين الحياة الدينية والحياة الفكرية في المجتمع لم تكن منفصلة عن بعضها بل شكلت تكامل مميز، وهو مالا يعني أن موظفي الشؤون الدينية كانوا على ثقافة عالية بل على العكس تماما فمعظمهم لم يتركوا آثارا مكتوبة ولم يشاركوا في نقاشات علمية[3]، إذا ما استثنينا البعض منهم من أمثال حسين بن علي الثاني الذي كان شاعرا

1محمد الخضر حسين، **تونس وجامع الزيتونة**، الدار الحسينية للكتاب، د.م.ن، 2000، ص ص14، 15.

2ضيف، مرجع سابق، ص243.

3هاشاواي، مرجع سابق، ص ص173، 174.

أديبا، ومن شعره القصيدة الميمية التي شرحها أبو عبد الله محمد الشافعي، والقافية التي شرحها محمد صالح الكواش، كما كان علي باي بن حسين بن علي من المحبين للعلم، وقرّب إليه أهله وعظم مقامهم، وفي ذلك دليل على المكانة التي حظي بها العلم وأهله عند بعض أمراء الدولة[1].

وممن تأثروا بالعثمانيين في التأريخ لسلاطين الدولة نذكر الشيخ محمد بيرم الثاني الذي نظم قصيدة ذكر فيها أسماء سلاطين آل عثمان منذ ظهور دولتهم699ه/1299م إلى آخر سلطان عاصره (سليم خان الثالث)، وتناقلها الأدباء من بعده، والتي نشرها بيرم الخامس وأتبعها بذيل، ابتدأه من حيث انتهى سلفه، وأنهاه بدولة السلطان عبد الحميد خان الثاني[2]، إضافة إلى المؤرخ الكبير ابن أبي الضياف كاتب سر البايات الحسينيين، وكان تاريخه مادة مصدرية مهمة في دراسة تاريخ تونس، والباجي المسعودي الذي أرّخ هو الآخر للحسينيين اعتمادا على المصادر التاريخية التي درسها، متأثرا بسابقيه مثل ابن أبي دينار والوزير السراج وحمودة بن عبد العزيز، لذلك جاء منهجه يغلب عليه الذاتية، وليس فيه من الموضوعية التاريخية وإنما هو تأثر وانسياق[3].

ومن حسنات العثمانيين على أهل تونس عنايتهم بالرصيد العلمي لمكتبة جامع الزيتونة من خلال إعادة ترتيبه وترميم الآثار الفكرية والعلمية التي خربها الإسبان ومزقوها كل ممزق، بالإضافة إلى اجتهاد ولاة الدولة في اثراءها بالمقتنيات الجديدة واعادة ترتيبها وفق النظم الأوروبية الحديثة، كما سعوا بالمقابل في جلب الكتب النادرة وعمروا بها مكتبات المساجد وقصر باردو، ومكتبات المدارس التي أسسوها، ومكتبات

1الخضر، مرجع سابق، ص21.
2الطويلي، صفحات...، مرجع سابق، ص39.
3الطويلي، بناة الدولة...، مرجع سابق، ص67.

المساجد التي ظلت خالية من الكتب منذ زمن الاحتلال الإسباني إلى آخر زمن العثمانيين عندما جرت على البلاد حركة اصلاحات مست هذا الجانب العلمي مثلما مست جوانب أخرى، وصارت بعد تنظيمها تسمح للقراء بمطالعتها بعدما كانت مفقودة

2-الجانب العلمي:

لم يكن التعليم الديني في الكتاتيب ما قبل مرحلة الإصلاحات مبني على قواعد بيداغوجية سليمة تضمن للطفل بناء شخصيته واستكمال نمو ملكاته بالوجه الذي نعرفه اليوم، والذي يدرسه علم النفس الحديث، ذلك أن الكتاب أصلا تم تأسيسه لتحفيظ القرآن بالدرجة الأولى ثم تلقين أصول الدين وكل ما يتطلب من علوم مساعدة، ومع ذلك فإن هذه المؤسسة قامت بدور هام في الحياة العلمية والثقافية، لأن التعليم في هذه الكتاتيب ظل الوسيلة الوحيدة التي تؤهل الطلبة لمواصلة مشوارهم العلمي في المستويات الأعلى، مثلما كان لها دور مهم في محاربة الجهل وتفتيح الأذهان والبصائر، بدليل أن أغلب رجال الفكر والعلم والأدب الذين تفوقوا واشتهروا في العالم الإسلامي زاولوا تعليمهم الابتدائي في الكتاتيب[1]، ومن هنا كان اهتمام أمراء الدولة بها واعتنائهم بالعلم وأهله وتهيئة وسائله، من خلال بناء الكتاتيب والمدارس التي أوقفوا لها أوقافا كثيرة تخدمها[2].

وكان لحركة الإصلاحات في الحركة التعليمية التي أطلقتها الدولة العثمانية (إصلاحات1846م، وقانون المعارف العثماني الصادر سنة1869م الذي بلغت مواده 198مادة)، دور مهم في تنظيم وتحديث نظم التعليم التي قسمت المدارس الحكومية إلى خمسة أصناف هي المدارس الابتدائية والرشدية والإعدادية والعالية والملكية الشاهانية وبموجب هذا

1التوزري، مرجع سابق، ص ص128، 129.
2الخضر، مرجع سابق، ص21.

القانون الأخير تشكل مجلس المعارف في العاصمة استانبول، ومجلس معارف في الولايات والتي أوكل إليها مهمة إدارة التعليم وتنفيذ الأوامر التي تصدرها نظارة المعارف، ورفع التقارير السنوية التي بموجبها يتم تحديد مستويات التعليم بالولايات[1]، غير أن جودت باشا رأى أن هذه الإصلاحات لم تحقق أهدافها المنشودة لعدة أسباب أهمها عدم التدرج في مراحل التعليم الثلاثة بين مدارس الصبيان والمدارس الرشدية وبين دار الفنون، إضافة إلى عدم تبعية المدارس كلها لجهة إدارية واحدة، كما أنه لم يتم اختيار الأعضاء المناسبين لهذه المهمة بشكل جيد، وأن أعضاء المجمع العلمي قد تم اختيارهم بالمجاملة، وليس بما تقتضيه المصلحة العامة[2].

وقد لعبت المدرسة الحربية ببباردو دورا محوريا مهما في تحول الإيالة التونسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى عالم التحديث، رغم أن نشاطها لم يكن بمستوى المدارس العسكرية التي كانت في تركيا ومصر، إلّا أنها مهدت لظهور المدرسة الصادقية1875م، كما ساهمت في التأسيس لحركة الترجمة والعمل على نقل جزء هام من التراث الفكري الأوروبي خاصة منه الفرنسي إلى البلاد التونسية، علاوة على التراث العلمي والثقافي الذي عزز مفهوم الوطن والسيادة وأعطى للدولة القطرية أبعادا جديدة، ومن أهم الشخصيات لتي اهتمت بالترجمة عن الفرنسية[3] نذكر الحاج محمد بن عمر البنباشي إلى جانب أحمد بن

---

1 هيثم محي الدين طالب الجبوري وزينب حسن عبد الجبوري، **أثر حركة الإصلاح العثماني في تطور الحركة الفكرية في الوطن العربي في العهد العثماني المتأخر**، مجلة جامعة بابل، مج23، ع3، 2015، ص ص1450، 1452.

2مخلوف، مرجع سابق، ص ص213، 214.

3استعانت تونس في الترجمة عن اللغة الفرنسية بمعجمية تركية كانت قد سبقت في اقتباس المصطلحات الفرنسية، بسبب أن الباب العالي، كان قد سبق الإيالة التونسية في إصلاح المؤسسة العسكرية في سبيل التخلص من نظام الانكشارية، وإنشاء فرق مدربة تدريبا عسكريا على منوال

عبد الرحمان في حين برع الجنرال رشيد في الترجمة عن التركية، إلى جانب شخصيات أخرى كان لها الفضل في الترجمة والتأليف في عدة مجالات من أمثال الصادق قرجوم[1].

وقد شكل عائق اللغة مانعا حال دون تعاطي التونسيين مع التراث الحضاري الأوروبي وخاصة الفرنسي، بسبب ضعف التعليم في اللغات الأوروبية الحديثة وقلة من يجيدون الترجمة عن هذه اللغات، لذلك كان من الواجب على رجال الإصلاح في تونس أن يعولوا على أمثال الجنرال رشيد الذين برعوا في هذا المجال في الأخذ عن التراث الحداثي الفرنسي وتيسيره للقراء باللغة العربية، مثلما استوعب رجال الإصلاح جزء مهم مما توصل إليه دعاة الإصلاح في اسطنبول من نقلهم للقوانين الفرنسية المنظمة للخدمة العسكرية، وبالتالي زال العائق اللغوي في الاستفادة من هذا التراث من خلال استخدام المعجمية العسكرية العثمانية (التركية) وهو نفس السبيل الذي كان قد سلكه محمد علي بمصر من قبل[2]، وهنا تظهر حالة التأثير والتأثر في حركة الإصلاحات بين محمد علي بمصر وأحمد باي بتونس، انطلاقا من حركة الترجمة والتحديث تحت غطاء الدولة العثمانية.

وكان تأثير المدرسة واضحا من خلال تخريج عدد من تلاميذ المدرسة الذين اشتهروا في الميدان السياسي والعسكري ووصلوا إلى مراكز عليا نذكر منهم حسين ورستم المملوكيين اللذين لعبا دورا هاما حيث تولى الأول رئاسة المجلس البلدي وأصبح الثاني وزيرا للحرب

الجيوش الأوروبية، لذلك أخذت الدولة العثمانية من التراث الفرنسي نموذجا في سبيل إصلاح المؤسسة العسكرية، وعملت على تصدير هذا النموذج للولايات العربية خاصة مصر وتونس. **للمزيد انظر**: بوعلي، مرجع سابق، ص208.

1نفسه، ص ص207، 208.

2نفسه، ص ص208، 209.

وكلاهما كانا صديقين للوزير خير الدين وعملا معه مدة طويلة، إضافة إلى الرائد محمد بلحاج عمر الذي أصبح ملحقا بوزارة الحرب وترجم عدة كتب حربية والعربي زروق الذي أصبح رئيسا للمجلس البلدي والمدرسة الصادقية ومحمد القروي الذي تولى بعض المناصب الإدارية الهامة كإدارة المدرسة الصادقية وعثمان هاشم الذي عمل مساعدا لخير الدين مثلما تولى عدة مهام سياسية أخرى[1].

وقد رأى بعض المؤرخين أن تونس كانت مع نهاية القرن الثامن عشر على أعتاب نهضة فكرية في التأليف كان أشهرها "المشرع الملكي" للباجي و"الباشي" لرجل الدولة حمودة بن عبد العزيز[2]، قبل أن تعرف البلاد ظهور الكثير من المؤلفات التي كتبت والتي ترجمت في عهد أحمد باي، عن اللغة التركية أو الفرنسية أو تلك التي ألفها ضباط تونسيون ممن تخرجوا من المدرسة وعملوا بها في مواضيع قانونية وتعليمية[3]، وبالتالي تأثير المدرسة العسكرية الحربية ببباردو كان واضح من خلال تطور مناهج التعليم الزيتوني الذي شمله الإصلاح هو الآخر.

كما ساهمت المدرسة الصادقية التي تأسست سنة1875م في التعريف بالاكتشافات العلمية والمستجدات العصرية التي شهدتها أوروبا، والتي رأى فيها أصحابها أنها السبيل الوحيد للنهوض بالأمة التونسية، من خلال نشر العلوم في مختلف ربوعها سواء منها القديمة أو الحديثة وجعلها في المكان الذي يليق بها، تأسيا بمحمد علي باشا والي مصر الذي عزز تدريس العلوم العربية بالأزهر وأدخل تعليم الفنون العربية، بالموازاة مع

1بنبلغيث، مرجع سابق، ص57.
2 الهادي الشريف، مرجع سابق، ص92.
3بنبلغيث، مرجع سابق، ص57.

إرسال البعثات العلمية نحو الخارج وبعث حركة الترجمة في كتب الطب والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا[1].

ولهذا أقرّ خير الدين احتفالات خاصة لطلبة المدرسة بمناسبة تفوقهم في الامتحانات بسراية المملكة، تحت إشراف الباي وبحضور قناصل وسفراء الدول وأعيان البلد، حيث تقدم الهدايا والجوائز للتلاميذ الذين نبغوا وتميزوا عن أقرانهم في مختلف العلوم العربية والفنون العصرية[2].

ومن الإنجازات المحمودة للإصلاحات التي قامت بها الدولة أنها وضعت وهذبت مناهج التعليم بالزيتونة، في عهد الأمير محمد الصادق باي، ووزيره المصلح خير الدين الذي كان دائم التردد على حلقات الدروس بالجامع، فكان ذلك مدعاة للإقبال والتنافس في مختلف العلوم[3]، وقد شارك في حركة الإصلاح هذه جملة من مشايخ الزيتونة من خلال التقارير التي قدموها عن حالة التعليم بالجامع ومن بينهم نذكر الشيخ محمد العزيز بوعتور والجنرال حسين أحد مساعدي خير الدين والمؤرخ ابن أبي الضياف، ومحمد البكوش المستشار بالوزارة الكبرى، وكان قد انتقد الجنرال حسين في تقريره حال التعليم بالجامع بسبب كثرة التأليف في مختلف العلوم والفنون، وعدم وجود مؤلفات في كيفيات وطرق التعليم، مثلما رأى بأن الإصلاح لا يمكن أن يتم على المستوى القريب بل سيأخذ وقتا طويلا، وأنه من الواجب الشروع في الإصلاح والتأكيد على ديمومتها.[4]

1ابن الخوجة، صفحات...، مرجع سابق، ص ص309، 310.
2نفسه، ص 314.
3الخضر، مرجع سابق، ص23.
4الطويلي، بناة الدولة...، مرجع سابق، ص ص94، 96.

وقد اعتنى بايات الدولة بشيوخ الزيتونة وعلمائها الذين صار لهم مرتبات ثابتة مثل الجيش النظامي على قدم المساواة مع إخوانهم من الحنفية وهو الأمر الذي ترك أثرا كبيرا في نفوسهم وأدى إلى ازدهار التعليم بمساهمة هؤلاء العلماء في النهضة العلمية والأدبية التي شهدتها تونس[1]، ووجد فيهم أمراء الدولة بعد الإصلاحات التي أقاموها في المجالات السياسية والعلمية والاجتماعية السند والدعم بحكم إدراكهم لمقتضيات العصر التي تسعها الشريعة الإسلامية، وصار لهؤلاء العلماء مكان في مجالس الدولة لاستشارتهم وللاستنارة بآرائهم، ومن بعض هؤلاء نذكر الشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ سالم أبي حاجب والشيخ مصطفى رضوان2.

أما القضاة فكانوا يستقدمون من الأستانة، منذ انضمام تونس للدولة العثمانية عام 1574م، وهم على مذهب أبي حنيفة، لكن بعد انتشار التعليم بتونس وقيام الدولة بعدة اصلاحات، ظهر بعض العلماء التونسيين في هذا المذهب، بالموازاة مع وجود علماء على المذهب المالكي، لهذا رأى الأمير محمد الحسين باي أن البلاد صارت في غنى عن القضاة الذين يتم ارسالهم من الأستانة، وعين قضاة من تونس عن المذهب الحنفي وقضاة عن المذهب المالكي، وما كاد يحل القرن الثالث عشر(19م) حتى صارت تونس عامرة بعلمائها بعد أعمال الإصلاح التي أدخلها الأمير أحمد باي في التعليم الزيتوني سنة1256ه/1840م، حيث أقبل أهل البلد على العلم وبفضله تولّوا المناصب العلمية الراقية في الفتوى والقضاء ومن هؤلاء نذكر فقهاء المالكية من آل عاشور وآل النيفر، وفقهاء الحنفية من آل بيرم وآل أبي الخوجة، وتأسست أيضا بالبلاد محاكم على المذهب المالكي ومحاكم على المذهب الحنفي بمأن المجتمع كان منقسم فقهيا إلى مذهبين الأول يتبع المذهب الرسمي الذي عليه والي الولاية ورجالها من العثمانيين،

1بنبلغيث، مرجع سابق، ص62.
2الخضر، مرجع سابق، ص10.

والثاني من المالكية الذين يشكلون غالبية الأهالي، ، كما كانت تضم المحاكم قاض ورئيس للفتوى بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة مفتين، ومراعاة لخصوصية الأهالي فإنه كان يتم تعيين قضاة على المذهب المالكي في المناطق التي يقل فيها أو ينعدم أتباع المذهب الحنفي، وكان لأئمة المساجد الدور الأكبر في انتشار هذا المذهب أو ذاك [1]، مثلما ساهم عدم تشدد العثمانيين لمذهبهم في ذلك حيث كانت بعض الساجد تتبع المذهب المالكي والبعض الآخر حنيفية المذهب وكانت تزيد عن الحمسين مسجد بمدينة تونس وحدها[2].

3-تأثير الصحافة والطباعة:

كان لظهور الطباعة بتونس سنة 1860م تأثير كبير على الحياة الفكرية من خلال إصدارها للجرائد وطبعها للكثير من أمهات الكتب، وكانت أول جريدة أصدرتها هي "الرائد التونسي"[3] وكان الهدف الذي أرادته الدولة من إنشاء الصحافة هو إخراج تونس من عزلتها وإطلاع المواطن التونسي عن ما يجري حوله وبذلك صارت تونس ثالث دولة عربية عرفت الطباعة بعد مصر1828م والجزائر1847م[4]، والتي تعبر بشكل واضح عن التأثر العثماني بالحضارة الغربية فكريا، رغم أن الصحافة

---

1 الخضر، مرجع سابق، ص ص09، 10.

2 Marius BERNARD, A**utour de la Méditerranée les Cotes Barbaresques de Tripoli à Tunis**, librairie renouard, Paris, 1981, p324.

3جريدة الرائد هي جريدة أسبوعية من أربع صفحات، تحتوي على قسمين أحدهما رسمي لإذاعة الأوامر والبلاغات الحكومية، وقسم ثان غير رسمي تنشر فيه الأخبار السياسية والاقتصادية والأدبية التي ترسل من قبل الوزارة الكبرى، والتي تمر على لجنة مكونة من مترجمين في اللغات التركية والإيطالية والفرنسية، **أنظر**: محمد الصالح المهيدي، **تاريخ الطباعة والنشر بتونس**، السلسلة الأولى، المطبعة الرسمية، تونس، 1965، ص09.

4، نفسه، ص 09.

في البداية لم تكن تخضع لقانون واضح ينظمها، وهو ما جعل حكومة الباب العالي تصدر "منشور التنظيمات الصحفية" سنة1875م الذي يهدف إلى تنظيم اصدار الصحف والمطبوعات، أما إدارة شؤون الصحافة فكانت ترتبط بنظارة المعارف ونظارة الداخلية، وقد ظهر أول قوانينها تحت اسم "نظام المطابع والمطبوعات" الذي صدر في الخامس شعبان1271هـ/1864م، وتضمن خمس وثلاثين مادة، حيث نصّت مادته الأولى على ضرورة الحصول على اجازة من الحكومة لإصدار جريدة[1]

ولم تقتصر المطبعة على نشر قرارات ومراسيم الدولة فقط، بل أتاحت الفرصة أمام عدد كبير من الأدباء والكُتاب لنشر مقالاتهم وقصائدهم، وقد تعدد المواضيع التي عالجتها في مختلف الميادين كالحضارة والتاريخ والجغرافيا والطب واللغة، والتي كانت بعضها تحرر من قبل المشرفين على الجريدة وبعضها تنقل عن المجلات والجرائد العربية المشرقية، وكانت جريدة الرائد التونسي قد حفظت أسماء عدد كبير من الشعراء والأدباء التونسيين[2].

وبالتالي فإن مساهمة الطباعة والصحافة قد لعبت دورا محوريا نشر الثقافة والترويج للأفكار الاصلاحية، فكان من نتائج انتشار التعليم الحديث والطباعة والصحافة والإرساليات العلمية أن تعرف الأهالي على التطور الحاصل في جوانب الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية في أوروبا وتفاعلوا معها، فظهر عدد ممن تأثروا بالأدب الغربي وبالمسرح، ومن برعوا في كتابة التاريخ وفق المنهج العلمي الحديث، وقد انعكس هذا على الحياة الثقافية ايجابا من خلال نمو الوعي السياسي الذي أدى إلى ظهور

1الجبوري، مرجع نفسه، ص1455.
2الجابري، مرجع سابق، ص13.

فئة مثقفة في المجتمع طرحت أفكارها الإصلاحية التي كانت تدعوا إلى اشراك الأهالي في ادارة شؤونهم[1].

كما كان من دوافع ظهور الصحافة بتونس في عهد الصادق باي(1859-1882م) هو رغبته في اثراء الخزانة التونسية بالمراجع العلمية التي تحتاجها المدرسة الحربية بباردو والتي ستمكن من بعث حركة إصلاحية شاملة من شأنها أن تقرب الكتب والصحف من القارئ التونسي بعدما كانت مقصورة في السابق على الأغنياء فقط[2]، فصدرت عن المطبعة الحكومية كتب عديدة في الفقه وعلوم الدين وفي التاريخ والجغرافيا وفي الأدب والقانون، مثلما أصدرت كتب للمعلمين وأخرى للتلاميذ خصوصا المنتسبين للمدرسة الحربية[3].

وقد نخطئ ونقول أن الدولة العثمانية حاولت إعطاء صبغة عثمانية لوجودها بالبلاد العربية إلا أن الحقيقة أن الدولة العثمانية هي التي اصطبغت بصبغة شرقية اسلامية أكثر من ذي قبل، فأسلوب الحياة العثمانية لم يتمكن من التغلغل في المجتمعات العربية التي بقيت محافظة على ثقافتها وتقاليدها العربية المحلية، وهو ما يجمع عليه العديد من الباحثين في أن الدولة العثمانية طيلة وجودها بالبلاد العربية لم تعمل على تتريك العرب وإنما العكس هو الذي حصل[4]، ومن الإصلاحات التي ادخلها العثمانيون على تونس القانون الذي سنه محمد باي الثاني المشهور بعهد الأمان والذي ساوى بين سائر أهالي البلد على اختلاف مذاهبهم في حرية التدين واللباس، مثلما ساوى بينهم في الحقوق العامة، وقد جاء في إحدى عشرة مادة، تقرر العمل بمقتضاه ابتداء من 10سبتمبر1857م،

1الجبوري، مرجع نفسه، ص ص1460، 1461.
2السميراني، مرجع سابق، ص259.
3المهيدي، مرجع سابق، ص ص10، 13.
4الونشي، مرجع سابق، ص ص142، 143.

واستبشر به الأهالي من مختلف الجنسيات خيرا لما فيه من حفظ للحريات العامة وحماية للمال والعرض[1].

ثالثا- التأثير العمراني العثماني بطرابلس الغرب

من الناحية المعمارية لم يجد العثمانيون بطرابلس الغرب مدارس عريقة تشكل مجال خصب للنشاط الفني والحرفي مثلما كان عليه الحال في تونس التي عرفت توافد أجناس كثيرة من مختلف الملل والنحل، كما أن طرابلس الغرب مع مطلع القرن السادس عشر لم تكن تستقطب سوى القادة العسكريين والتجار بسبب دورها الريادي الذي كانت تلعبه في المجال التجاري[2]، يضاف إلى ذلك الظروف السيئة التي عرفتها البلاد والتي لم تكن تسمح بظهور فرص حقيقة للتعمير أو للقيام بالإصلاحات، إلّا أن هذا لم يمنع حكام الدولة من انجاز بعض المنشآت المعمارية، والتي ساهمت في انتشار ملامح ومميزات العمارة العثمانية الدينية بطرابلس الغرب[3] ومنشآت معمارية أخرى ذات طابع عسكري تمثلت في القلاع، غير أنها لم تحمل مؤثرات عثمانية واضحة حسبما ذكره الرحالة الإيطالي "هايمان" الذي زار قلعة القيقب سنة1881م ورأى أنه يحمل سمات الفن المعماري الذي يميز العصور الوسطى، رغم أن تأسيسها كان خلال العهد العثماني الثاني سنة1852م[4].

ولاشك أن طرابلس مثلها مثل أي إيالة خاضعة للحكم العثماني كانت قد تأثرت بالطراز المعماري والفني للعثمانيين، سواء كان ذلك من

---

1 BERNARD, op cit, P300.

2ميسانا، مرجع سابق، ص59.

3نجم الدين غالب الكبير، **مدينة طرابلس عبر التاريخ**، ط2، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1978، ص ص93، 95. **انظر أيضا:** عبده، مرجع سابق، ص73.

4عبد الله كامل موسى عبده، **دراسات في الحضارة والآثار الإسلامية**، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2002، ص110.

خلال التخطيط الهندسي للمنشآت المعمارية فيما يخص تخطيط بيت الصلاة وطرق تغطيتها، وكذا تخطيط المدارس أو من خلال فنون الزخرفة التي تعتمد على الزخارف الهندسية والنباتية المعروفة لدى العثمانيين كشجرة السرو وزهرة القرنفل والأشكال الهندسية السداسية والنجمية وغيرها من الفنون التي وفدت معهم[1].

وقد شهدت طرابلس الغرب خلال العهد العثماني نهضة في العمران مع قدوم طراز جديد بالنظر إلى جملة المنشآت المعمارية التي تأسست أو تلك التي أعيد ترميمها وتأهيلها من جديد، والتي تميزت بالجمال والرونق سواء في الإنشاء أو الزخرفة في شكل قاعة الصلاة وتعدد القباب وشكل المئذنة والذي تتحكم فيه طبيعة البلاد[2]، وبمأن المسجد كان يشكل مركز المدينة، ومركز النشاطات التجارية والإدارية على اختلاف انواعها، فإنه أخذ حصة الأسد من الفنون الهندسية والزخرفية وتحولت إلى مراكز ثقافية واجتماعية، عكس ما كانت عليه قبل الوجود العثماني حيث ضمت بعض المساجد إلى جانب بيت الصلاة ملحقات إضافية كالمحكمة الشرعية والمدرسة والحمام والمستشفى، وهو ما نجده في جامع أحمد باشا القرمانلي بطرابلس[3].

ولاتزال العديد من الآثار المعمارية شاهدة على الفن العثماني في حي المنشية خارج سور المدينة القديم والتي تعود لفترة الحكم العثماني المباشر الأول(1551-1711م) والعهود التي جاءت بعده، وقد تمثلت في المنازل التي أنشأها ولاة طرابلس(محمد باشا الساقزلي وعثمان باشا)، مثلما لاتزال العديد من المنازل الخاصة بولاة الدولة داخل المدينة القديمة

1البهنسي، مرجع سابق، ص79.

2 Dhif, op cit , pp03, 04.

3ميسانا، مرجع سابق، ص145.

والتي تعود بعضها للعهد القرمانلي وأشهرها منزل القرمانلي[1] ومنزل بن موسى ومنزل قورجي وهي أكثر احتفاظا بالعناصر الزخرفية والمعمارية العثمانية[2]، وهو نفس الأمر الذي كان ببرقة(المرج) التي لم يبقى من آثارها العمرانية الدينية والحربية والمدنية إلاّ ما أنشأه العثمانيون خلال الفترة 1551_1911م، وأما ما قبل ذلك من الآثار قد اندثر وزال وهو ما أكدته كتابات الرحالة العرب الذين مروا على المنطقة[3]، أما في مدينة بنغازي التي أنشأ بها العثمانيون عدة معالم بضاحية البركة، وأعادوا ترميم ميناءها القديم، ومن بين الإنشاءات التي أدخلها الحكام المحليين بالمدينة هو القضاء على المباني القديمة وانشاء بدلها قصر للحاكم ومستشفى عسكري، بالإضافة إلى العديد من الثكنات العسكرية التي أنشأها رشيد باشا وطاهر باشا[4].

عرفت طرابلس الغرب قبل الوجود العثماني عدة مساجد ذات قبيبات في غريان وبرقة وواحة أوجلة وغيرها، حيث يرى بعض المؤرخين أن اشتقاق المسجد الطرابلسي من مثيله في الأناضول إنما سببه الانكشارية الذين انتقلت عن طريقهم الكثير من العادات والتقاليد والأساليب الفنية العثمانية إلى شمال إفريقيا[5].

---

1 أجمل حجرات هذا المنزل هي دار القبو التي تتميز بسقفها الخشبي الذي تزينه الزخارف المنقوشة به، ويتميز بمدخل ذا باب مقوس بشكل منكسر حتى لا يسمح بالرؤيا، وسقيفة بها حجرة المربوعة التي يراعى فيها قربها من المدخل، أما الفناء فهو يتوسط المنزل وتحيط به الحجرات من جميع جوانبه بالإضافة إلى المطبخ والحمام. **للمزيد أنظر:** مفيدة محمد جبران، **حوش حرملك حريم الباشا القرمانلي**، ط1، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا، 2020، ص32.

2البهنسي، مرجع سابق، ص82.

3 عبده، مرجع سابق، ص55.

4ر. ج. جود تشايلد، ، **تاريخ مدينة بنغازي**، ط2، تر: صالح جبريل، ليبيا، الإدارة العامة للسياحة، 1970، ص55.

5ميسانا، مرجع سابق، ص62.

1- الجانب الهندسي:

من المؤثرات العثمانية في تصميم المساجد هو وجود بعض المساجد التي جاءت هندستها في شكل حرف "T" باللغة اللاتينية(الفضاء الداخلي للمسجد)، والذي نجده في تصميم مسجد طرغوت باشا وهو تصميم جديد غير مألوف في هندسة المساجد بطرابلس[1]، وقد احدث العثمانيون ثورة في مجال العمران من خلال التغيير الذي أحدثوه في هندسة المساجد والتي كانت قديما عبارة عن فناء مربع الأضلاع تحيط به الأروقة في جوانبه، أما المسجد العثماني فقد فصل بين بيت الصلاة والصحن حيث استقل الأول عن الثاني وصار الثاني ملحقا بالأول، وصارت بيت الصلاة تمثل الجزء الرئيسي في المسجد والتي كانت إما مربعة الشكل أو مستطيلة يغطي سقفها قبة كبيرة تحملها دعائم كبيرة الحجم[2]، ومن مميزات المعمار العثماني هو اهتمامه بالمظاهر الجمالية للمسجد من الداخل والخارج وإيلاء هذا الجانب أهمية كبيرة. فقد شيدت المساجد وجعلت لها قبة مركزية تحيط بها قبيبات[3] نصف كروية، إضافة إلى المآذن التي تفنن فيها المهندسون وفتنت اعين الناس[4].

إضافة إلى ذلك فإننا نلاحظ على المسجد الطرابلسي أنه يختلف عن العثماني في جمال وسعة الفضاء الداخلي الذي يميز العثماني عن الطرابلسي حيث ينقسم فضاؤه الداخلي إلى عناصره متساوية فيما بينها ومتناسبة مع قامة الإنسان، ويحيط بالقاعة الرئيسية للصلاة في المساجد

1ميسانا، مرجع سابق، ص159.

2نفسه، ص47.

3ظهرت هذه الهندسة في تسقيف المساجد في نموذجين أحدها في الغرب وهو مسجد بيب مردوم بطليطلة الذي حمل سقفه تسع قباب، والذي يرجع بناؤه للقرن العاشر للميلاد غير أنه جرى تحويله الآن إلى كنيسة "مسيح النور_Cristo Della Luz" والنموذج الثاني ظهر في جامع برقوق الذي بني في القرن الرابع عشر، والمسقوف بقبيبات. **للمزيد انظر:** ميسانا، مرجع سابق، ص ص60، 61.

4نفسه، ص ص48، 49.

العثمانية صحن أو عدة صحون، ونجده في مسجد أحمد باشا القرمانلي1738م الذي تحيط به ثلاثة صحون ونجده أيضا بتونس في جامع يوسف داي(1616م/1025ه) وجامع حمودة باشا(1655م/1066ه)[1].وتستغل هذه الصحون للصلاة في حال عدم وجود اماكن داخل القاعة الرئيسية، ويتحول إلى رواق يخرج من خلاله المصلون بعد الفراغ من الصلاة مثلما يستغل في تعليم الصبية والطلبة عوض القاعة الرئيسية للصلاة، وإلى جانب المساجد فقد تأثرت الزوايا هي الأخرى بالهندسة المعمارية العثمانية في تعدد الصحون حيث نجد بعض زوايا عرفت ظهور عدة صحون مثل زاوية عبد الواحد الدوكالي بمسلاتة خلال القرن السادس عشر التي كان بعا أربعة صحون، بينما نجد في الزوايا الأخرى صحن واحد تحيط به الخلاوي على غرار زاوية عبد السلام الأسمر بزليتن(القرن10ه/16م) الذي تحيط به الخلاوي من جميع الجهات وزاوية علي الفرجاني بالخمس(القرن10ه/16م) الذي تحيط به الخلاوي من جانبين، وزاوية المنتصر بمصراتة (منتصف القرن12هـ/18م) الذي تحيط به من ثلاث جهات، وهي نفس النموذج الذي أنشأت عليه المدارس فيما بعد بوجود صحن مكشوف يتوسط المدرسة وتحيط به حجرات الطلبة وكذلك المدارس الملحقة بالمساجد كمدرسة أحمد باشا القرمانلي1150ه/1738م، ومدرسة مصطفى قورجي1249ه/1833م[2].

ومن المميزات التي يتميز بها المعمار العثماني أيضا هو وجود شرفات داخلية، على جوانب بيت الصلاة عدا جدار القبلة، تدعمها أعمدة

1ميسانا، مرجع سابق، ص186.

2عبد الله كامل، **الزوايا في العمارة الدينية الليبية خلال العصر العثماني دراسة حضارية أثرية**، مجلة دراسات في آثار الوطن العربي، ع4، د.م.ن ص ص845، 848.

ظاهرة من الخارج والتي تشكل أيضا سقف للرواق المحيط بقاعة الصلاة[1]، حيث قد نجدها في جانب واحد مثل جامع درغوث باشا، وجامع محمد باشا شائب العين وجامع خليل باشا، وقد نجدها في عدة جوانب مثل جامع أحمد باشا القرمانلي وجامع قرجي[2]، كما عرفت المساجد استقلالية عن المباني السكنية أو التجارية، متأثرين بهندسة سنان باشا الذي أحاط بالمسجد بسور عال يحيط بالمسجد وملحقاته[3].

أما الأضرحة التي ظهرت كملاحق للمساجد بجانب قاعات الصلاة فإن أول ظهور لها كان في القرن الحادي عشر ميلادي، وشاعت ظاهرة بناء أضرحة الشخصيات المشهورة والبارزة بجانب حجرات الصلاة أو المساجد والجوامع، في عهد السلاجقة الذين شيدوا لأنفسهم أضرحة تخلد ذكراهم في نفوس الأجيال اللاحقة[4]، وصارت من الخصائص التي حملتها هندسة المساجد العثمانية في إضافة ضريح صاحب المسجد إلى جوار قاعة الصلاة، والذي نجده في مسجد درغوث باشا والمساجد العثمانية التي تأسست بعده وصار تقليدا متبعا في العمارة الدينية العثمانية خلال العهد العثماني الأول والعهود اللاحقة[5]، حيث نجده خلف جدار القبلة ويتم الوصول إليه عبر باب أو عبر عدة نوافذ في نفس الجدار، أما المدفن (التربة) ففي الغالب ما نجده في أحد جوانب بيت الصلاة، ويقتطع من الفناء الخارجي المحيط ببيت الصلاة[6].

1ميسانا، مرجع سابق، ص190.
2البهنسي، مرجع سابق، ص75.
3 محمود زين العابدين، **عمارة المساجد العثمانية**، ط1، بيروت، دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع، 2006، ص 109.
4ميسانا، مرجع سابق، ص46.
5البهنسي، مرجع سابق، ص42.
6نفسه، ص78.

وقد لجأ السلاجقة في عمرانهم الديني إلى استعمال القبة بالنظر ما توحيه القباب في النفس من شعور بالعظمة والإيجابية، وقد انتشرت الأضرحة بشكل واسع في البلاد المغاربية بقبابها البيضاء الجاثمة على حجرات صغيرة مربعة الشكل[1]،أما القبة التي تغطي المساجد فإن هندستها تعود لمدرسة سنان باشا، وهي تعبر في نفس الوقت عن المُثُل العليا التي كانت تصبوا إليها الدولة، كما يرمز للنظام المركزي الذي كانت تسعى إليه[2]، وفيما يتعلق بالإضاءة فإن سنان باشا قد عمل على الإكثار من النوافذ في جدران العمائر والقباب، والتي تعمل بدورها على توزيع الضوء بشكل جيد داخلها[3]، كما ألبس الفضاء الداخلي للمسجد نفس القيمة من العظمة والجمال التي ميزت المظهر الخارجي[4].

إضافة إلى ما جاءت به مدرسة سنان باشا فإن العثمانيين قد أنشأوا مساجد عديدة ذات قبيبات وإن كانت هذه المساجد ذات القبيبات ليست نمط معماري خاص بالعثمانيين وليسوا هم من استحدثوها في البلاد الطرابلسية وإنما هو تقليد معماري وموروث طرابلسي خاص، تبناه المجتمع الطرابلسي وحافظ على تصميمه خلال قرون طويلة مثلما تبناه بعض الحكام القرمانليين[5] وبهذا جاءت هندسة جامع الناقة وجامع قرجي وغيرها من المساجد الطرابلسية التي ظهرت خلال الفترة العثمانية، التي حملت تقليدا للتصميم الأناضولي (العثماني) في الأقواس والأعمدة والقبيبات التي تعلو سقف المسجد، كما كانت هذه الهندسة هي المعتمدة

1ميسانا، مرجع سابق، ص45.
2نفسه، ص92.
3سامح فكري البنا، **العناصر المعمارية والزخرفية المملوكية وأثرها على مثيلاتها بالعصر العثماني في ضوء نماذج من مصر وتركيا**، مجلة دراسات في آثار الوطن العربي ع18، د.م.ن، د.س.ن، ص1026.
4ميسانا، مرجع سابق، ص48.
5نفسه، ص64.

بدليل أن المسجد الذي استحدث في قلعة طرابلس جاء سقفه بقبيبات على نفس النمط المعماري المحلي، لكن مع تعيين سنان باشا مهندسا للبلاط السلطاني، صار المسجد ذو القبة المركزية رمزا وعنوان الهندسة للعثمانية في عمارة المساجد، بالتوازي مع ظهور مساجد ذات قبيبات كمسجد بيالي[1] باشا 1573م بالأستانة بسقف تعلوه ست قباب موزعة على صفين، والذي امتنع النقاد من أن ينسبوه للمهندس سنان باشا بسبب عدم وجود أي علاقة بينه وبين النمط الجديد الذي جاء به سنان باشا[2].

بينما تمكن هذا الطراز المعماري من الانتشار بإيالتي تونس والجزائر خاصة فيما يخص القبة المركزية فإن طرابلس الغرب قد حافظت على تقاليدها في انشاء المساجد ذات القبيبات[3]، إلى غاية ظهور جامع أحمد باشا القرمانلي الذي كان بداية ظهور الجوامع الرسمية بطرابلس الغرب والذي تأثر بمسجد الصباغين بتونس وبالعمارة العثمانية، وكان نموذجا اتبع في بناء المساجد التي ظهرت فيما بعد ومن ذلك مسجد مصطفى قرجي الذي تأسس سنة1833م وكان أكثر تأثرا بمخطط وزخرفة جامع أحمد باشا[4].

إضافة إلى ذلك فقد تأثر العمران الديني في طرابلس الغرب بالمعمار العثماني وهو ما نلاحظه في جامعي بوقلاز والجامع العتيق ببنغازي في أواخر القرن التاسع عشر، واللذان تميزهما القبة المركزية

1هذا المسجد يعبر عن حالة التأثير المزدوج في الثقافة المعمارية، لأن "بيالي باشا" كان قائدا بحريا نشيطا، وقد قضى فترة من الزمن بين وهران وبنزرت وجربة وطرابلس، وقد عرف عنه حبه لهذه البلاد، لذلك اطلق اسم ميدان كروم تونس على الميدان الذي كان هضبة قبلا تسويتها في ضاحية أوسكودار، وأنه هو من أشار على سنان باشا بأن يشيد المسجد الذي أراد انشاءه هناك وفق هندسة المساجد التي اعتاد ارتيادها بطرابلس. **انظر**: ميسانا، مرجع سابق، ص ص63، 64.

2نفسه، ص ص61، 63.

3نفسه، ص 65.

4السعداوي، مرجع سابق، ص10.

والمئذنة[1] الأسطوانية وفق الطراز العثماني، تعلوها قمة مخروطية الشكل، إلا أننا نجد بهما مئذنة واحدة فقط بدل أربعة مآذن وهي المألوفة في المساجد العثمانية مع غياب الصحن الذي يعد من أهم مميزات المسجد العثماني التقليدي، والذي يحمل في نفس الوقت مواصفات المساجد التي صممها المهندسون العثمانيون بالأستانة [2]، وعلى نفس الطراز جاءت مآذن مسجد سالم المشاط ومسجد محمود وجامع خليل باشا، ولم يخرج عن القاعدة سوى جامع محمد شائب العين الذي جاءت مئذنته ثمانية الشكل[3] التي يضيق جوفها كلما زاد ارتفاعها، وقد يتراوح ارتفاعها بين خمسة أمتار وخمسة وثلاثين مترا، تعلوها شرفة تنتهي بقمة مخروطية، إلى جانب ذلك انتشرت المآذن المغاربية التي تتميز بالشكل المربع وتعلوها عدة شرفات وهو ما نجده في جامع الناقة[4].

أما مظاهر تأثر المدارس بالطراز الهندسي العثماني فإننا نجده في وجود صحن مركزي كبير مكشوف تحيط به الأروقة من أربع جوانب، وتقع خلفه خلاوي الطلبة، ونجد بها بيت للصلاة مغطاة بقبة، وتذكر المصادر التاريخية أن هذا التقليد الهندسي قد وصل إلى العثمانيين عن طريق السلاجقة والذي نجده في مدرسة هفت منار بقيصرية602هـ/1205م، وانتقل فيما بعد إلى العمارة العثمانية حيث

1عرفت مئذنة المسجد الطرابلسي عدة أنواع، أشهرها المئذنة ذات الطراز المغربي والتي جاءت مربعة الشكل، وكذلك الطراز الذي عُرف بالمئذنة السلم وهو الأكثر شيوعا ببرقة وفزان، مثلما وُجد نوع آخر مزيج بين المئذنة المربعة والمئذنة السلم، إضافة إلى المئذنة المثمنة التي ظهرت بطرابلس الغرب خلال القرن الخامس الهجري على حسب ما ذكره البكري(المسالك، ج2، 651)، وفيما ذكره التجاني في رحلته، عن جامع طرابلس الأعظم أن "به منار متسع مرتفع قائم من الأرض على أعمدة مستديرة، فلما تم نصفه كذلك سدس وكان بناؤه في العام المكمل للمائة الثالثة على يد خليل بن اسحاق" **انظر**: عبده، مرجع سابق، ص ص87، 88. وأيضا: التيجاني، مرجع سابق، ص253.

2 ميسانا، مرجع سابق، ص98.

3البهنسي، مرجع سابق، ص41.

4ميسانا، مرجع سابق، ص 100.

ظهر في مدرسة بايزيد الأول ببورصة803هـ/1400م، ثم انتقل إلى الولايات العثمانية، ومنها طرابلس الغرب التي نجد بعض مدارسها تتفق مع المدارس العثمانية في خلوها من مئذنة مثل مدرسة عثمان باشا، وفي كثرة الزخارف التي تزينها التي تركز على نموذج شجرة السرو والوريدات[1].

كما عرفت المدارس العثمانية أيضا بطرابلس الغرب تأثرا بفنون العمارة الأوروبية على غرار مدرسة عثمان باشا، التي تميزت فيها قبة المسجد والضريح بتساوي أجزاء الرقبة الحاملة لها بواسطة الأعمدة والقواعد والتيجان، وهي مشابهة لقبة كاتدرائية فلورنسا، حيث يرى بعض المؤرخين أن السبب في ذلك يعود إلى اعتماد عثمان باشا على العمالة الأوروبية في تنفيذ المشروع والتي غرست بصورة غير مباشرة بعض من ملامح العمارة الأوروبية[2].

أما في ما يخص المساكن الخاصة أو قصور الحكام فلم تذكر المصادر عن وجود قصور للولاة العثمانيين بطرابلس لسبب وحيد وهو أن الولاة اتخذوا من قلعة طرابلس مقرا لإقامتهم، عدا طرغوت باشا الذي شيد قصرا لإقامته، والذي تميز بسقفه المغطى بالقرميد الأحمر حتى يتميز عن باقي المنازل، أما المساكن الفاخرة التي ظهرت منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر فقد حملت بعض مميزات الهندسة العثمانية، فقد بنيت من طابقين، وأغلب غرفها تفتح على وسط البيت، أما نوافذها فتفتح على الشارع وهي مدعمة بشبابيك حديدية[3]. وبمأن تصور المدينة في

1البهنسي، مرجع سابق، ص72.
2نفسه، ص ص74، 75.
3ميسانا، مرجع سابق، ص 130.

التخطيط العثماني[1] يشبه كثيرا الطابع العربي، فإن توسع مدينة طرابلس خلال الفترة العثمانية كان هدفه إجراء بعض التوسيعات لإنشاء سوق الترك[2] وسوق المشير وما تبعه من اعمار للمدينة بالحوانيت والفنادق[3] والمساجد وغيرها ولم تمس أبدا من جوهرها العربي الإسلامي[4] رغم إدخال العثمانيين لبعض التغييرات على ملامح المدينة القديمة غير أن هذا التغيير لم يؤثر في جوهر المدينة وفي طابعها العربي الإسلامي، والذي يمكن أن يعزى إلى تشابه التصورات في تخطيط المدينة العثمانية مع نظيرتها في المنطقة المغاربية[5].

أما المميزات التي عرفتها القلاع في ليبيا فتتلخص في كونها عمارات كبيرة مستطيلة أو مربعة الشكل فيها أبراج عند أركانها، تبنى بالحجارة وتغطى أحيانا بطبقة من الملاط، ونجدها من طابقين أو ثلاثة مع إمكانية الصعود على سطحها من الداخل باستعمال السلالم الخشبية، وكانت تنشأ فوق مرتفع من الأرض والذي يشكل نواة لنمو القرى من

1المدينة عبارة عن كتلة متراصة من المساكن تخترقها أزقة ملتوية تنتهي بالشارع الرئيس المؤدي نحو البحر شمالا، وقلما نجد في بيوت المدينة نوافذ إلى الشارع، كما تفتقد إلى أماكن وساحات عامة مفتوحة ماعدا الأسواق التي نجد أغلبها في أطراف المدينة، **انظر**: ميسانا، مرجع سابق، ص254.

2أنشأ هذا السوق من طرف محمد باشا شائب العين سنة1110هـ/1688م ومن أشهر الرحالة الغربيين الذين زاروه نذكر توللي وتحنجال وكاوير هذا الأخير الذي زار طرابلس سنة1895م وقال عنه أنه سوق تركية مستقيمة الشكل، وأنه يمكن أن يشتري منها أي شيء، وهي تضم دكاكين ذات واجهات زجاجية، وإن كانت طبيعة السوق شرقية إلّا أن السلع المعروضة بها تكاد تكون كلها غربية. **أنظر**: البهنسي، مرجع سابق، ص89.

3وجدت الكثير من الفنادق خلال العهد العثماني والتي كانت تقوم باستقبال التجار الأجانب، وقدرت الإحصائيات أن عددها فاق ال35فندقا، تواصل استغلالها حتى أثناء فترة الاحتلال الإيطالي، غير أن عددا كبيرا منها أصابه الدمار خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، ومنها التي استغلت من طرف الحرفيين ومنها التي صارت مساكن لبعض العائلات. **أنظر**: البهنسي، مرجع سابق، ص91.

4ميسانا، مرجع سابق، ص 253.

5خير الله، مرجع سابق، ص178.

حولها تدريجيا[1]. أما القلاع التي قام العثمانيون بترميمها فقد أدخلوا عليها بعض الإضافات كالمسجد الذي أضيف لقلعة مرزق في فزان بعدما تمكنوا من دخولها عام1840[2].

ورغم غياب مدرسة معمارية في طرابلس الغرب خلال العهد العثماني كاملا إلا أننا نجد هناك تقليدا واضح للتصميم الأناضولي للمساجد في طرابلس والذي يشترك في كثير من العناصر، والواقع أن فنون العمارة الطرابلسية رغم تأثرها بالطراز المعماري العثماني في التخطيط والزخرفة إلا أنها استطاعت الجمع بين الأسلوبين المحلي والعثماني الوافد عليها[3].

كما ظهر بطرابلس الغرب المجمعات المعمارية[4] التي تضم إلى جانب المسجد المدرسة وضريح مؤسس المسجد ومدفن أسرته، مثل جامع درغوث وجامع محمد باشا شائب العين وجامع أحمد باشا القرمانلي، ومن هذه المجمعات التي تضم مجموعة حوانيت في الأسوار الخارجية[5].

2-الجانب الزخرفي:

أما المنابر فقد لقيت اهتماما خاصا من قبل الفنيين الذين استعملوا الخشب الذي تم تزيينه بزخارف نباتية[6] وهندسية وكتابية، تعكس الفن العثماني، كما تم تزيين قبته المخروطية التي صممت على نفس شكل قمة المآذن العثمانية، غير أنه لابد من الإشارة إلى أن غالبية المنابر العثمانية يتم انشاؤها من الحجر تزين بالرخام الذي تشكل عليه وريدات وأهلة

1ميسانا، مرجع سابق، ص 122.
2نفسه، ص 245.
3خير الله، مرجع سابق، ص183.
4أنظر الملحق رقم13، ص362.
5البهنسي، مرجع سابق، ص ص77، 78.
6ميسانا، مرجع سابق، ص 192.

ونجوم خماسية وسداسية وهو ما نجده في منبر شائب العين[1]، ويعد المحراب هو من العناصر المهمة في هندسة المساجد، لذلك نجده في الجدار الواقع في جهة القبلة، ويأتي جوفه نصف دائري في طرفيه عمودان صغيران، يعلوهما تيجان ينتصب عليهما عقد نصف دائري أو مدبب أو دائري، وتغطي جوفه قبة ربع كروية[2].

لم تكن مساجد طرابلس الغرب قبل الوجود العثماني تركز على الزخرفة إلا قليلا، ولكن مع انضمامها للدولة العثمانية زاد هذا الاهتمام بزخرفة المساجد والمنشآت الدينية، وتزايد أكثر خلال العهد القرمانلي(1711-1835م) حيث تنوعت طرق الزخرفة[3]، والتي ادخلت عليها مواد كثيرة لم يسبق أن استعملت من قبل في المباني الدينية، ومن بينه هذه المواد التي نفذت على الزخارف على الرخام والحجر والرخام المطعم بأنواع أخرى من الرخام مثل الذي نجده في منبر ومحراب جامع قرجي[4]، وتعد واجهات المباني سواء العامة أو الخاصة من أهم الفضاءات التي تجلب خيال الرسامين والمهندسين بهدف تزيينها وزخرفتها باستخدام قطع حجرية أو رخامية حملت تأثيرا عثمانيا، وقد ذكرت المصادر أن مادة الرخام الأبيض كان يتم جلبه من اسطنبول، وأنها قد اختلفت طرق تنفيذها بين حفر بارز وتطعيم وتلبيس، وصاحب هذه النقوش زخارف ذات طابع عثماني[5] منها زخرفة الرومي وزهرة اللالة، والزهرة المتفتحة،

1البهنسي، مرجع سابق، ص50.
2ميسانا، مرجع سابق، ص 104.
3البهنسي، مرجع سابق، ص76.
4بن نافع، مرجع سابق، ص165.
5 ظلت البساطة والابتعاد عن البهرجة تميز زخرفة المساجد الطرابلسية إلى غاية نهاية القرن السادس عشر وبداية السابع عشر، وكانت العناصر الزخرفية محفورة على الرخام والحجر تزين مداخل المساجد ومداخل بيت الصلاة، ومن أمثلة ذلك جامع محمد شائب العين1699م الذي تزينت مداخله الثمانية بالزخارف المنحوتة على الرخام والحجر الجيري الوردي اللون، واستعمل في تزيين المباني المدنية بلاطات القاشاني (ذات الوريدات) في مباني المدينة القديمة، واستمر زخرفة

والأعلام العثمانية[1]، وامتدت لتشمل الزخرفة على الرخام أجزاء أخرى إضافة إلى ما سبق، حيث نجدها في ميضأة مدرسة عثمان باشا الساقزلي[2]، ولاتزال المنشآت المعمارية العثمانية الباقية تحمل زخارف جصية على نطاق واسع في جدران المساجد خصوصا جامع أحمد القرمانلي، وجامع قرجي بالمدينة القديمة، وكذلك في قبابهما وجدران الأضرحة الملحقة بهما[3].

ومن أشهر عناصر الزخرفة الهندسية التي ميزت الفترة هي الأقواس[4] (العقود) على اختلاف اشكالها والتي كانت تصنع محليا أو يتم جلبها من تونس التي كانت تتميز بتفوقها في هذا المجال بفعل توافد أجناس عديدة عليها حملت معها مهارات في هذا الفن، أما القبوات والقباب فكانت منتشرة في طرابلس الغرب قبل الوجود العثماني، كما وجدت

مداخل المباني الدينية والمدنية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالزخارف المنحوتة على مداخلها ومن أمثلة ذلك جامع أحمد القرمانلي1738م. **للمزيد أنظر:** دون مؤلّف، **الزخارف على المداخل والأبواب والنوافذ**، ط1، المطابع الدولية، بيروت، 1998، ص ص07، 09.

1خير الله، مرجع سابق، ص186.

2البهنسي، مرجع سابق، ص77.

3د.م، **الزخارف الجصية**، الكتاب السادس، ط1، مشروع تنظيم وإدارة المدينة القديمة إطرابلس، طرابلس، 1998، ص06.

4هي الأقدم والأكثر استعمالا في فنون العمارة الرومانية والبيزنطية، وقد استعملت في المداخل وفي تزيين الفضاءات الداخلية وانتقل استخدامه إلى العمارة الإسلامية في ما بين القرنين السابع والثامن للميلاد(01-02هـ)، وهي عدة أنواع، منها الدائري الذي يتجاوز نصف الدائرة قليلا، ومنها الأقواس المدببة وهي الأكثر انتشارا، ومنها المدبب المثلثي المنكسر (أحادي المركز) والذي عثر عليه في المواقع الأثرية لمدينة أور السومرية، ومنها القوس المدبب دو المركزين وهو نوع مطور عن القوس والعقد المدبب والذي ظهر في الجامع الأموي بدمشق، والقوس المدبب ذو الأربعة مراكز الفارسي، والقوس الفاطمي المدبب، والقوس المدبب المرتد، والقوس المركب ثلاثي الفصوص، والقوس والعقد المتجاوز والذي انتشر أكثر في بلاد المغرب الإسلامي، والقوس والعقد المدبب أو الحدوي المتجاوز، وغيرها من أنواع الأقواس التي كان الهدف من وضعها هو توزيع الثقل المركز عليه من سقف هذه المنشآت المعمارية. **للمزيد أنظر:** محمد شعلان الطيار، **الأقواس والعقود في العمارة الإسلامية**، مجلة التراث العربي، عدد مزدوج140-141، إتحاد الكتاب العرب، ص ص37، 50.

التيجان في بعض المساجد وهي من مصادر مختلفة فبعضها محلي الصنع وبعضها يعود للعهد الحفصي مثلما برز للوجود فيما بعد تيجان قرمانلية أكثر جمال وزخرفة من سابقيها[1].

وكان ولاة الدولة قد اعتمدوا في كثير من الأحيان على عناصر هندسية وزخرفية محلية في تصميم أو ترميم بعض العمائر وهو ما نجده في جامع محمد باشا1698م (شائب العين) وجامع درغوث باشا، الذي غطى سقفه بقبيبات وفق التقاليد المحلية، وحمل في داخله بعض الزخرفة الكتابية في السقف والتي تميز الذوق العثماني، كما زينت جدرانه بكتابات بالخط الكوفي[2]، الذي استخدم كثيرا في تسجيل أسماء الشخصيات التي قامت بتأسيس هذه المنشآت أو صيانتها والتي تهدف في نفس الوقت إلى التحفيز على أعمال البر، كما استعملت بالموازاة مع ذلك تزيين بعض الأماكن[3].

ومن أهم عناصر الزخرفة التي ميزت الطراز العثماني في الزخرفة هو استعمالهم للأهلة والنجوم والحلي المستديرة المقترنة بنخلات وشجيرات السرو والتي تنقش بشكل كثيف على الأطر المرمرية والأبواب الخشبية، بينما زينت بطون العقود بزخارف مخضبة بالزهور وعلى المساحات المغطاة بالجص في داخل الجامع وخارج بيت الصلاة[4]، واستخدم العثمانيون عناصر زخرفية نباتية قريبة من الطبيعة، حيث وجد العثمانيون في نباتات وأزهار بلادهم مصدرا غنيا، اخذوا منه أسلوبهم في الزخرفة،

1ميسانا، مرجع سابق، ص ص134، 137.
2نفسه، ص163.
3خير الله، مرجع سابق، ص170.
4ميسانا، مرجع سابق، ص182.

فمن الأزهار اختاروا زهرة القرنفل ومن الفاكهة أخذوا الرمان والعنب ومن الأوراق أخذوا ذات الشكل المسنن[1].

واستعمل في تزيين جدران المساجد عدة أنواع من الزليج الذي يحمل صور نباتات وأشكال هندسية خضراء وصفراء وزرقاء يوضع إلى ارتفاع ثلاثة أمتار والباقي من الجدار يتم تغطيته بالجص الذي ينقش فيه اشكال هندسية ونباتية[2]، بالإضافة إلى التأثر ببعض فنون الزخرفة الأوروبية الذي نجده في جامع قورجي1249هـ/1834م حيث جمع بين فنون الزخرفة التقليدية العثمانية وبين الفنون الزخرفية الأوروبية[3].ويعود مصدر هذا التأثر إلى العلاقات التجارية التي كانت تربط طرابلس الغرب ببعض الدول الأوروبية والتي كانت سببا في انتقال هذا التأثير إليها.

ومع نهاية القرن التاسع عش(1872م) ظهر نظام البلديات في طرابلس الغرب، وإن كان معروفا من قبل ويمارسه "شيخ البلد"[4]، وقد ظهر استجابة لحركة الإصلاحات التي شهدتها الولاية منذ زمن أحمد راسم باشا(1867-1886م) الذي استطاع ان يكسب ثقة الباب العالي، ويباشر حركة اصلاحات عمرانية، كان أهمها العزم على انجاز منشآت عمرانية جديدة خارج أسوار المدينة القديمة، بسبب عدم كفاية المدينة مع التزايد السكاني، وبالتالي الوصول إلى متنفس يسمح للوالي إطلاق خططه

1خير الله، مرجع سابق،ص176.

2ميسانا، مرجع سابق، ص 192.

3البهنسي، مرجع سابق، ص62.

4كانت البلدة مقسمة إلى 22حارة ولكل حارة شيخ أو "مختار" خاص بها بمثابة حلقة وصل بين الإدارة وسكان حيه، وخلال العهد القرمانلي كان عمدة البلد يلقب بـ"شيخ البلد" ويعين من قبل الأمير الحاكم، وأما مهامه فهي نفس المهام التي يقوم بها رئيس البلدية في الوقت الحالي، وكان هذا الأمر جاريا في مختلف المدن قبل أن يستبدل بنظام البلديات الذي ظهر في الأستانة 1871م وتم تعميمه في طرابلس الغرب في العام الموالي. **أنظر:** انتوني جوزيف كاكيا، **ليبيا في العهد العثماني الثاني(1835_1911)**، تر يوسف حسن العسلي، دار احياء الكتب العربية، د.م.ن، ص105.

الإصلاحية[1]، ومن ثم تسمح لمصالح البلدية التي نمت وتوسعت خارج الأسوار القديمة، والتي جاءت في شكل عصري متقدم عكس المباني القديمة الغير منتظمة العمران والضيقة الشوارع، من أن تنفذ الإصلاحات التي أوجدت مرافق جديدة كمدرسة الفنون والصنائع التي ظهرت زمن الوالي نامق باشا(1882_1898م) وظهرت معها مرافق عمومية أخرى كالمستشفيات[2] والمحاكم والمطابع وغيرها من المرافق التي ميزت المدينة الحديثة، ومن ثم بدأ التفكير أيضا في جلب المياه عبر القنوات إلى المدينة[3].

وكان يتشكل المجلس البلدي للمدينة من عشرة أفراد، يشترط أن يفوق سنهم الخامسة والعشرون من عمرهم، فيما يتم اختيار رئيس المجلس من طرف الوالي من بين الأشخاص الذين انتخبهم الأهالي، وأما مهام المجلس البلدي فهي السهر على مراقبة الأسواق وتنظيمها، وإطفاء الحرائق، وتنظيف البلدة، وغيرها، ويعقد اجتماعاته مرتين في الأسبوع، وأما ميزانيته فيستخلصها من مكوس الأسواق ومحالِّ الذبح وضرائب المقاييس والمكاييل والأوزان[4].

1غالب، مرجع سابق، ص ص104، 105.

2كان المستشفى البلدي يضم خمسين سريرا، أما المستشفى الحكومي العسكري فكان يضم 250سريرا، بالإضافة إلى المستشفى الثالث المعروف بالمستشفى المسيحي، وكان بالمدينة قبل عام 1911م دارين للسينما(الصور المتحركة) وثلاث فنادق أشهرها فندق "منيرفا"، وخمسة مطاعم كان أحسنه مطعم المالطيين، واثنان وسبعون مقهى. **أنظر**: كاكيا، مرجع سابق، ص ص106، 107.

3غالب، مرجع سابق، ص ص107، 108.

4كاكيا، مرجع سابق، ص ص105، 106.

3- دور الوقف في الجوانب العمرانية والعلمية:

يعد الوقف أحد الركائز المهمة في النظم الإسلامية وهو ذو أبعاد اجتماعية وإنسانية وثقافية تعليمية لمساهمته الفعّالة في النهوض بالتعليم من خلال دعم المؤسسات العلمية بما من شأنه أن يحقق استمرار عملها[1].

وقد ساهم العثمانيون كثيرا في الترويج لفضيلة الوقف بين الأهالي بطرابلس وكانوا السباقين إليها فقد أوقف رجال الدولة العديد من الأوقاف خدمة للصالح العام كبناء أسوار المدينة وجراية المياه العذبة إليها مثلما قام به أحمد باشا القرمانلي رغم شح مداخيل الدولة وكثرة شكوى الرعية[2]، وتفيد الدراسات التاريخية أن العهد العثماني الثاني(1911/1835م) أوجد مناخ مناسب لبداية العمل التنظيمي الأهلي في طرابلس الغرب، فتأسست العديد من المرافق التربوية التي دفعت بالأهالي نحو التنافس في جمع التبرعات في سبيل تنفيذ المشاريع التعليمية التي كانوا يسعون لإنشائها كمدرسة الفنون والصنائع الإسلامية التي تبرع لها الوالي نامق باشا(1315هـ/1898م) بقطعة أرض، ومن المعلوم أن معظم دور العلم والمراكز الدينية كان يتحمل مصاريفها الأهالي خاصة ميسوري الحال منهم أو ينفق عليها من أموال الأوقاف الخاصة بها، والتي كانت في نظر الأهالي الطرابلسيين ذات قدسية لدرجة أنهم لم يفرقون في حرمتها بين المساجد وبين الأوقاف التابعة لها[3]، وقد رعت الدولة الأوقاف من خلال انشاء ادارة خاصة بهم تدعى نظارة الأوقاف

---

1 يحي امحمد عطية محمد، **دور الجانب التعليمي في إثراء الحياة الاجتماعية بولاية طرابلس الغرب أثناء الحكم العثماني الثاني**، مجلة العلوم الإنسانية والعلمية والاجتماعية، ع2، جامعة المرقب ليبيا، 2016، ص 63.

2عطية بن فتحي الويشي، **العثمانيون بطرابلس الغرب جدلية العلاقة بين المجتمع والدولة958-1330/ 1551- 1912م**، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مج35، ع140، جامعة الكويت، 2017، ص137.

3 الونشي، مرجع نفسه، ص138.

تقوم بشؤونه وتهتم لأوجه صرفه سواء كانت أوقاف رجال الدولة (الأوقاف العامة) أو أوقاف المحسنين القائمين على رعاية المساجد والزوايا[1]، مثلما كانت هي الأساس الذي نشأت بفضله عديد المؤسسات الدينية والتعليمية، كما كانت بالمقابل تعمل على رعاية التعليم وتمويل العلماء والمدرسين والقائمين على شؤون هذه المؤسسات.

رابعا- التأثير الفكري العثماني بطرابلس الغرب:

1- الجانب العلمي:

من التقاليد التي حملها العثمانيون إلى البلاد المغاربية هي النظام التعليمي الذي كان يتم في المساجد والذي يعرف بالمسجد المدرسة وقد لقي انتشارا كبيرا[2]، وبذلك ساهم العثمانيون في النهوض بالحياة الفكرية بطرابلس الغرب من خلال السماح بإقامة المدارس الدينية التي كانت تعنى بتلقين العلوم الأساسية للناشئة والتي يعود لها الفضل في تخريج عدد كبير من الطلاب على غرار مدرسة أحمد باشا القرمانلي ومدرسة الكاتب قرجي ومدرسة ميزران ومدرسة عمورة ومدارس الجبل الغربي الكثيرة[3]، والتي كان يراد بها إضافة إلى ما سبق تخريج موظفي الدولة، من خلال تعليمهم وتكوينهم في مختلف العلوم والفنون[4]، وفيما عدا هذه المدارس ظل التعليم يعتمد على الجهود الأهلية سواء في ناحية الوقف أو في نظم ومناهج التعليم ولم يكن تدخل الدولة إلاّ فيما يختص بمتابعة نظارة الوقف التي كانت تتدخل في عملية اختيار المتقدمين لشغل وظيفة

1امحمد عطية، مرجع سابق، ص 65.
2ميسانا، مرجع سابق، ص 46.
3منصور، مرجع سابق، ص ص532، 541.
4ضيف، مرجع سابق، ص44.

التدريس، أو الخطابة بالمساجد والزوايا، والذين كانت تمنحهم بعض المزايا الإضافية[1].

كما ساهمت الرحلات العلمية التي كانت نشطة بين أقطار وإيالات الدولة العثمانية في إثراء الحياة الفكرية من خلال نقل العلوم وأصولها على يد شيوخ نهلوا العلوم والمعارف من مختلف معاهدها، ولم تكن السلطة تمنع ذلك بل بالعكس، وهو الأمر الذي سهل استمرار وجودها، وأشهر هذه المعاهد التي كانت تشكل وجهة للعلماء وطلبة العلم جامع الزيتونة بتونس والأزهر بمصر مثلما عرفت رحلات نحو الشام والحجاز واسطنبول ساهمت في النهوض بمختلف العلوم وتأثرت بثقافاتها، والذين بفضلهم انتقلت العلوم والمعارف بين الأجيال، فحفظوا اللغة العربية وأدبها، وورّثوا تراثا علميا ظل منهلا وموردا يستقي منه طلبة العلم في مختلف العلوم والفنون، ومن أشهر الأدباء المتأخرين الذين كانت لهم رحلات لطلب العلم عبد الله يحي الباروني(1831-1913م) والشيخ أحمد بن محمود (ت1933م) والشيخ سالم المبروك الورشفاني، والشيخ محمد كامل بن مصطفى (1828-1897م) والشيخ سليمان الباروني (1873-1940م) والذين كانت لهم اسهامات فكرية فعّالة في سبيل النهوض بالحياة الثقافية والعلمية[2].

وقد رأى سلاطين الدولة العثمانية ورجال السياسة والجماعة المثقفين والمتنورين المتأثرين بالحضارة الغربية أن علاج الحالة التي صارت عليها الدولة من انحطاط يكمن في بعث حركة اصلاحات واسعة، بالاقتباس من السبل التي نقلت أوروبا من الضعف إلى القوة، وعليه أصبحت حركة الإصلاح تستهدف تطبيق الأنظمة الأوروبية الحديثة في مجالات

1 امحمد عطية، مرجع سابق، ص66.
2 نفسه، ص ص61، 62.

الحياة المختلفة مع عدم التفريط في النظم الإسلامية، بينما ترى عديد الدراسات أن السبب في بعثها هي الضغوطات التي مارستها الدول الأوروبية على الدولة العثمانية[1]، غير أن هذه الإصلاحات لم تظهر في الميدان إلا مع نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر، بسبب الأوضاع السياسية في البلاد التي خلفتها الثورات الداخلية وعلى رأسها ثورة الجبل الغربي التي قادها الشيخ غومة المحمودي فيما بين1835 و1858م، والتي أثرت حتى على الجوانب الاقتصادية للبلاد[2]، فيما يرى بعض من المؤرخين أن السبب يكمن في رجال البلاط بالأستانة الذين كانوا يسعون للوشاية واحاكة الدسائس والعمل على خلع الولاة الذين يرغبون في بعث مشاريع واصلاحات لتحسين أحوال الولاية[3]، ولم يظهر التعليم الحكومي بالولاية إلا مع الربع الأخير من القرن العشرين، بدعوى أن أغلب السكان من البدو الرحل وبالتالي فلا يمكن إقامة المدارس لهم، ولأنهم كانوا كثيرا ما يشقوا عصا الطاعة، ولم تكن بطرابلس وبنغازي والخمس ودرنة ومرزق غير مدرسة رشدية(إعدادية) واحدة في كل منها، أما المدن الأخرى فلم يرد في مقررات مجلس الولاية العمومي ذكر أي مدرسة بها، وكان طلبتها من الطامحين لتحصيل العلوم والمعارف يراجعوا فضلاء المشايخ، فيتعلموا منهم العقائد والقواعد اللسانية في محالهم وجوامعهم ومساجدهم[4]، أما فيما يخص علاقة العثمانيين بالأهالي في عمق الصحراء فإن العثمانيين قد وجدوا في الطرقية ورجال الصوفية سبيلا في تثبيت حكمهم من خلال

1هيثم محي الدين طالب الجبوري وزينب حسن عبد الجبوري، **أثر حركة الإصلاح العثماني في تطور الحركة الفكرية في الوطن العربي في العهد العثماني المتأخر**، مجلة جامعة بابل، مج23، ع3، 2015، ص1447.

2عبد الكريم عي ابراهيم، **مجلس الإدارة في ليبيا في العهد العثماني**، مجلة البحوث التاريخية، ع01، س02، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1980، ص13.

3أحمد عمران بن سليم، **المقالة في ليبيا نشأتها وتطورها خلال العهد العثماني الثاني1866-1911**، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، د س ن، ص8.

4 نفسه، ص ص61، 62.

احباط محاولات المقاومة، فقد كان لكل قرية شيخها ووليها الصوفي الذي تتبرك به وتخصه بالزيارات، مثلما وجد هؤلاء المتصوفون الحماية والمنعة من حكام الدولة الذين قرّبوهم وعظموا مقامهم[1].

وقد شرعت الدولة العثمانية في انشاء العديد من المدارس الحديثة التي تعتمد على الأنظمة الأوروبية الحديثة وذلك مع نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر، والتي تزامنت مع قيام الدولة بحركة تحديث في مؤسساتها العسكرية والمدنية، من خلال إعادة النظر في التكوين الحضاري للدولة والأخذ بالتجارب الأوروبية في جوانبها العلمية والفكرية وبأساليب ووسائل الحضارة الحديثة، والذي لن يتحقق بإصلاح أنظمة التعليم العسكري والتطوير وفق تقنيات الصناعة الأوروبية فحسب وإنما عن طريق اصلاح حضاري شامل، يشمل تنظيم مختلف هياكل الإدارات الحكومية باستخدام العناصر المؤهلة والقادرة على التمشي مع الأنظمة المستحدثة، وبالتالي أصبح من الضروري انشاء مدارس حديثة والاهتمام بشؤون التعليم المدني الذي ينسجم مع حركة الإصلاح والتحديث[2].

كما إعتنت الدولة بأساليب التعليم والتدريب العسكري، بسبب الظروف التي كانت تميز المرحلة وإدراكها له، كما أن الاهتمام به سيساهم كذلك في تأمين وجودها بالمنطقة، لهذا افتتحت مدرستين عسكريتين سنة1857م ومدرسة عسكرية إعدادية سنة1887م لاستقبال الطلبة المتخرجين من المدارس الرشدية، الذين كان يتم ارسالهم إلى اسطنبول لمواصلة تكوينهم العسكري[3].

1امحمد عطية، مرجع سابق، ص ص59، 60.

2جميل موسى النجار، **السياسة التعليمية العثمانية وانعكاسها على ولاية طرابلس الغرب من عهد الوالي أحمد عزت باشا إلى نهاية الحكم العثماني1858-1911م**، مجلة جامعة الملك سعود للآداب، مج14، ع1، 2002، جامعة الملك سعود –كلية الآداب، ص ص 55، 60.

3امحمد عطية، مرجع سابق، ص ص68، 69.

من جانب آخر فإنه يمكن القول بأن عملية تأسيس المدارس الرسمية كانت ترتبط بتحقيق أهداف آنية والذي كان كثيرا ما يتوقف في حال لم تكن الدولة بحاجة له وبالتالي فإن التعليم في الأساس كان يرتبط بمصلحة الدولة في الحفاظ على حكمها، وكانت هذه السياسة واضحة في عملية تأسيس مدرسة الفنون والصنائع التي دامت أكثر من ربع قرن، كما أن المدارس التي أنشأتها الدولة بطرابلس كانت قليلة جدا بالمقارنة مع تعداد السكان ومع قرارات الدولة التي رسمها القانون العثماني العام، والذي نص في بعض بنوده على أن تتأسس مدرسة في كل قصبة يتجاوز عدد سكانها الخمسمائة بيت، أي لكل تجمع سكاني يتجاوز الألفان وخمسمائة نسمة، لكن الولاة لم يفتحوا غير خمس مدارس والتي تتناسب حسابيا مع مائتي ألف نسمة[1]

ولذلك نجد ممن يرى بأن السياسة العثمانية بطرابلس الغرب فيما يتعلق بتوزيع المدارس وتمويل التعليم ومناهجه ولغة التدريس واستقدام المعلمين كانت تعبر عن توجه واضح لأن تأسيس المدارس الحديثة لم يكن يهدف إلى نشر العلم والثقافة في المجتمع حتى يحصل الرقي الفكري والعلمي والتقني، مثلما أن المدارس التي فتحت لم تكن لتلبي الطلب بل اقتصرت في الغالب على تعليم ابناء الموظفين الكبار في الولاية وأبناء الضباط، مثلما أن التعليم الابتدائي ظل يعتمد على تبرعات المحسنين وذلك لقلة مخصصات التعليم في ميزانية الولاية، فقد بلغت ميزانية المعارف 30624قرشا من أصل 4570406قرش التي كانت تمثل ميزانية الولاية سنة1884م ولم تزداد قيمة المخصصات سنة1892 إلّا ب960قرش، وبالإضافة إلى ذلك شكلت قلة المدارس ولغة التعليم عائقا

1 النجار، مرجع سابق، ص ص80، 81.

أمام السكان[1]، فقد فرض التعليم باللغة العثمانية، ولم تراعى فيه خصوصية البلد كبلد عربي، كما أنها فرضت على الأهالي تحمل مسؤولية إنشاء المؤسسات التعليمية وتأثيثها، ودفع رواتب معلميها، وتميز نظامها التعليمي بمدة الدراسة التي لا تفوق الأربع سنوات، لذلك وجدت غالبية من الأهالي في بعض المدن والأرياف لم يهتموا بفكرة بناء المدارس لأجل تعليم أبنائهم وفق النظم الدراسية الحديثة، واستمروا في إرسال أبنائهم إلى الكتاتيب والمساجد لتحفيظهم القرآن وتعاليم الدين وفق الطرق التقليدية[2].

وتذكر الدراسات بأنه كان في ولاية طرابلس قبيل الاحتلال الإيطالي 166مدرسة بين ابتدائية ورشدية لتعليم التلاميذ وفق برامج الإصلاح الحديثة، ومنها التي كانت تقوم على نفقات الأهالي وعائدات الأوقاف[3]

وإلى جانب ذلك فقد وجدت بطرابلس الغرب العديد من الزوايا كالعروسية والعيساوية والرفاعية والسعدية قبل ظهور زوايا السنوسية[4] بوقت طويل، وكان لشيخ الطريقة حظوة ومقام عند الحاكم المحلي الذي كان يستشيره في العديد من الأمور، وبذلك تعززت مكانة السنوسية في

1النجار، مرجع سابق، ص ص83، 84.

2محمد يونس حسن، **الأوضاع الإدارية والاقتصادية والثقافية في ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني 1835-1911م**، مجلة سبها للعلوم الإنسانية، مج9، ع3، جامعة سبها، ليبيا، 2010،ص ص08، 09.

3 رشدي ، مرجع سابق، ص112.

4ظهرت الطريقة السنوسية بزواياها في طرابلس الغرب على يد الشيخ محمد بن علي السنوسي الحسني الخطابي الإدريسي، من سلالة ملوك الدولة الإدريسية، وقال الحشائشي في أصله " أما أصل الشيخ سيدي محمد السنوسي فمن أرض الجزائر من مدينة مستغانم من قبيلة الخطاطبة، وجده سيدي عبد الله الخطاب من مشاهير عصره" **انظر:** عبد الله كامل، مرجع سابق، ص830. أيضا: الحشائشي، مرجع سابق، ص147.

البلاد وزاد انتشارها بين الناس[1] منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث أخذت من واحة الجغبوب ببنغازي مركزا لها، وكانت السنوسية قد أعطت مفهوما مغايرا لدور الطريقة الصوفية، فهي لم تكن منعزلة عن الأحداث العامة، بل أخذت على عاتقها مهمة التربية والتعليم بتنقية الممارسات الدنية من شوائب البدع، والتكوين الروحي والعسكري لمنتسبي الطريقة، وقد لعبت دور كبير في تهيئة أهالي طرابلس لمواجهة الغزو الإيطالي سنة1911م[2].

رغم ندرة الكتب وقلة انتشار المطبوعات، إلا مما جلبه وجهاء البلد وأعيانها من الميسورين ماديا، فإن الحياة الأدبية في طرابلس الغرب كانت زاهية بإقبال طلبة العلم وشغفهم بالإقبال على مجالس الشعر والأدب والرواية، التي كانت فيها محاكاة للأدب والشعر القديم، من خلال حفظ شعر الفحول من الشعراء وطرائف الأدب والإقبال على أمهات كتب الأدب العربي، وهي بالموازاة تشكل متنفسا لأصحاب المواهب في الأدب وفنونه[3].

2-الجانب الأدبي:

لعب الإنتاج الفكري والأدبي الذي قدمه النائب الأنصاري وابن غلبون وغيرهم دورا مهما في نشر الأفكار الإصلاحية والتأسيس للجمعيات والأندية الأدبية وإنشاء الصحف التي ازدانت بها الأجواء الثقافية في كل ربوع الوطن، رغم حالة الضعف السياسي التي ميزت الفترة[4].

1تشايلد، مرجع سابق، ص56.
2أبو القاسم سعد الله، **تيارات اليقظة والإصلاح في المغرب العربي(1830-1956)**، مجلة المصادر، ع8، ص332.
3خفاجي، مرجع سابق، ص ص175، 176.
4الونشي، مرجع نفسه، ص139.

أما ما يخص الإنتاج الفكري فإنه جاء في سياق الإصلاحات المنتهجة من طرف الدولة، كما جاء عاكسا لطبيعة التكوين الاجتماعي والعلمي لهؤلاء الكتاب ومن هؤلاء النائب الأنصاري صاحب المنهل العذب ونفحات النسرين، الذي عالج مادته وفق التاريخ العام للولاية دونما ربطه بالتاريخ المغاربي، مثلما حمل في طياته معالم الولاء للدولة العثمانية، والتي تؤكد عمق التأثير العثماني في الإنتاج الفكري للنائب الأنصاري[1]، شأنه شأن ابن غلبون الذي اعتبر مؤرخ السلطة القرمانلية في امتدادها الجغرافي، حيث طرح مؤلفه العديد من الإشكالات فيما يخص التأريخ للامتداد الحقيقي للسلطة[2].

مثلما نجد من المفكرين الذين لم تكن لهم ميولات وعدم انسياق وتأثر بالتوجه الفكري العثماني ومن هؤلاء نذكر محمد بن علي السنوسي الذي أراد إخراج السنوسية من عزلتها الصوفية، وبناء مشروع سياسي اجتماعي مغاير، حيث اعتبر مشروعه المؤثرات الفكرية السائدة من المكتسبات التي يمكن توجيهها إلى الصالح العام والانطلاق منها عوض إلغائها، كما لم يكن مفهومه للإصلاح كالذي ذهبت فيه الدولة بل رأى أن الأساس هو أن تؤدي الدولة دورها في مجال التعمير وفرض الأمن وضمان التماسك الاجتماعي الذي يعد أول ركيزة في مواجهة الغرب[3].

3- تأثير الصحافة والطباعة:

رغم أن المطبعة لم تسهم كثيرا في طباعة الكتب ونشرها بطرابلس الغرب والتي أرجعها البعض إلى انصراف أصحابها إلى طباعة الأوراق التجارية، وإلى غلاء سعر الورق، وهو ما أدى بالكتاب الطرابلسيين

1 الباشا، مرجع سابق، ص ص29، 39.
2نفسه، ص ص61، 64.
3نفسه، ص ص237، 241.

إلى طبع كتبهم خارج طرابلس، أشهرها كتاب "الفتاوى الكاملية في الحوادث الطرابلسية" الذي طبع بالقاهرة سنة1895م، و"المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب" للأديب الأنصاري الذي طبع بالأستانة سنة1899م وأما في الأدب فقد صدر عن المطبعة ثلاث دواوين هي ديوان مصطفى بن زكري سنة1892م، وديوان عبد الله الباروني الذي ذكرت بعض المصادر أنه طبع بالقاهرة سنة1897م، وديوان سليمان الباروني سنة1908م،[1] وكان بالبلاد مطبعتان كبيرتان، الأولى بمدرسة الصنائع والثانية هي مطبعة الحكومة التي أنشأت عام 1277هـ/1863م.[2]

أما في مجال الصحافة فقد كان للمطبعة اسهام كبير في بعث الحياة الفكرية في طرابلس الغرب مباشرة مع جلب آلة الطباعة سنة1859م، حيث شرعت في طباعة صحيفة "طرابلس الغرب"[3] سنة 1866م[4]، رافقه التشجيع الذي لقيته الصحافة من العثمانيين، فكانت تصدر بالبلاد ثمانية جرائد اسبوعية[5]، سبعة منها باللغة العربية وواحدة فقط

1بن سليم، مرجع سابق، ص ص64، 66.

2 رشدي، مرجع سابق، ص112.

3أول ما صدرت هذه الصحيفة كان سنة1866 في عهد الوالي محمود نديم باشا، وهي أول صحيفة تصدر باللغة العربية وتحمل اسم البلد، وكان أول رئيس تحرير لها هو أحمد بن شتوان، واعتبرت مصدر اخباري مهم عن الأحداث والوقائع التي كانت تمر بها البلاد، بالإضافة إلى أنها كانت تمثل وجهة نظر الحاكم، مثلما نجد بعض أقسامها يصدر باللغة التركية وعنى بنشر الأخبار الرسمية. **انظر**: امحمد عطية، مرجع سابق، ص 72.

4بن سليم، مرجع سابق، ص63.

5أهم الصحف التي ظهرت خلال الفترة نذكر: صحيفة الترقي 1897م وترأس تحريرها الشيخ محمد البوصيري، وصحيفة العصر الجديد1908م التي ترأس تحريرها محمد علي البارودي، وصحيفة الكشاف 1908م التي ترأس تحريرها محمد بك النائب الأنصاري، وصحيفة أبو قشة التي جاءت بلسان هزلي عامي وترأس تحريرها التونسي محمد الهاشمي المكي، وصحيفة تعميم حريات 1908م التي ترأس تحريرها المحامي محمد فوزي وهي صحيفة أسبوعية أيضا وتصدر باللغة التركية، وصحيفة المرصاد 1910م وترأس تحريرها الصحفي أحمد الفساطوي، وصحيفة الأسد الإسلامي 1908م التي أصدرها الشيخ سليمان الباروني من مصر، وصحيفة دار الخلافة 1908م وترأس تحريرها الصحفي عبد الوهاب عبد الصمد، بالإضافة إلى بعض الصحف التي ظهرت أثناء الاحتلال الإيطالي كصحيفة الرقيب 1914 وصحيفة اللواء الطرابلسي1919م، وصحيفة البلاغ

كانت تصدر باللغة العثمانية، إلى جانب مجلة علمية شهرية كان يصدرها محمد داوود بك أحد كبار موظفي مكتب الوالي[1]، وكانت مواضيعها على ارتباط وثيق بالحياة الفكرية في العالم العربي والإسلامي، من خلال تناولها للقضايا المعاصرة والذي من شأنه أن تجعل المثقف الطرابلسي على دراية بمجريات الحياة داخل الولاية وخارجها[2]، كما عرفت الصحافة ازدهارا كبير مع بداية القرن العشرين أثناء فترة تطبيق الدستور العثماني(1908-1911م) ولعبت دورا مهما في بعث الحركة الأدبية التي بدورها حركت الشعور بالانتماء الوطني القومي لدى الأهالي، ومن ثم اذكاء روح المقاومة ضد الاحتلال الإيطالي فيما بعد[3].

وفي الأخير فإن موضوع الإصلاحات في الدولة العثمانية يراه بعض المؤرخين الذين تناولوا موضوع الإصلاحات في الدولة العثمانية من أمثال "صلاح الدين يلدريم" أن جل جهود الإصلاح التي بذلت في جميع المجالات من أجل إحداث تغيير في الواقع لم تكن كافية، وهو ما دفعها إلى الاهتمام أكثر بالفكر الغربي من خلال حركة الترجمة والاقتباس من النظم والعلوم الأوروبية، والذي أدى إلى ظهور عدة علماء متخصصين في الطب والهندسة وعلم الفلك والرياضيات وغيرها، وقد صدرت مؤلفاتهم في غالبيتها باللغة العربية[4]، وأن القرن الثامن عشر كان قد شهد ظهور تغيرات في معظم جوانب الحياة وفي مقدمتها النظم الإدارية والعسكرية، لتتعدى إلى مؤسسات التعليم، بالموازاة مع استمرار النظم الاجتماعية

وصحيفة الوقت وصحيفة الذكرى1921م، وصحيفة الإصلاح1921م وصحيفة العدل1921، وصحيفة بريد برقة1921م. **للمزيد أنظر:** امحمد عطية، مرجع سابق، ص ص72، 77.

1 رشدي، مرجع سابق، ص112.

2بن سليم مرجع سابق، ص 66.

3يونس حسن، مرجع سابق، ص ص05، 10.

4 Selahattin YILDIRIM، المحدثون العثمانيون في القرن الثامن عشر ومؤلفاتهم، ONDOKUZ MAYIS UNIVERSITESI ILAHIYAT DERGISI، 2015، SAYI39، ص ص06 ،08.

والفكرية التقليدية، غير أنه لابد من التأكيد على أن هذا الاقتباس قد جلب ضغوط داخلية وخارجية، أثرت بشكل كبير على الحياة العلمية والفكرية المحلية[1].

وفي الأخير يمكن الوصول إلى استنتاج مهم فيما يخص العلاقة بين المنشآت المعمارية خاصة منها التعليمية وبين الحياة العلمية في أن البحث في المستوى العلمي والفكري في العهود السابقة كان عن طريق دراسة تراجم الأعلام ومعرفة الشيوخ الذي درسوا علي أيديهم وفيما أخذوا الإجازة، وكان من الصعب بمكان على الباحثين في تحديد نظم التعليم المنتهجة من طرف هؤلاء، بينما صار أسهل بعد ظهور هذه الهياكل الجديدة خاصة منها التي نشأت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وصار يوصف الأعلام فيقال درس بالصادقية أو بالمدرسة الحربية أو بمدرسة كذا وكذا، وصار المتعلم يستمد هيبته من هيبة المدرسة التي انتمى إليها[2]، وحتى النظام التعليمي بالزيتونة استحدثت مناهجه وصارت أكثر تنوع وثراء من ذي قبل، وكان تأثير المساجد والجوامع التي أسسها حكام الدولة بتونس وطرابلس الغرب كبيرا في الدفع بالحياة الفكرية والتعليمية بالبلاد، خاصة وأن ولاة هذه الأقطار قد رغبوا الأهالي في التعليم وأوقفوا لخدمته أوقافا كثيرة.

1 YILDIRIM، مرجع سابق، ص25.

2حياة الماجري، **مأسسة التعليم في تونس في القرن التاسع عشر**، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2021، ص43.

- الخلاصة:

حمل العهد العثماني في تونس وطرابلس الغرب ملامح نمط معماري جديد، بالإضافة إلى تحكمهم وتأثيرهم في مختلف شؤون الحياة، فقد ترك العثمانيون تراثا معماريا هاما يحمل مميزات فنية فريدة ومختلفة عن التراث المحلي، والذي نلمسه خصوصا في هندسة العمارة الدينية في المساجد والمدارس، التي أخذت بعض مميزات العمارة المحلية التقليدية، لذلك حاولنا خلال هذا الفصل دراسة خصوصيات العمارة العثمانية بمميزاتها الزخرفية، في بعض أجزاء هذه العمائر كالمنبر والمحراب وقاعة الصلاة والقبة، وما يتبعها كالميضأة والمئذنة وغيرهما. وابراز مميزات هذا النمط الجديد في الهندسة والزخرفة والإضافات الجمالية التي قدمها العثمانيون في مختلف المنشآت المعمارية التي تم دراستها، والتي عبرت بحق عن قيمة فنية نوعية ميزت العمران المغاربي خلال الفترة، دون أن نقلل من قيمة التراث المحلي الذي امتزج في كثير من الأحيان مع المؤثرات العثمانية.

وفي المجال الفكري كان ظهور المدرسة الحربية بتونس خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بتونس، يمثل حدث مهم مثلما كان لها دور كبير في بعث نهضة فكرية من جديد وفق الحداثة الغربية، بالنظر للمواد التي كان يتلقاها التلاميذ والطلبة، والتي ساهمت أيضا في تكوين نخبة وطنية كان لها الفضل في نقل التراث الفكري الأوروبي من خلال حركة الترجمة.

كما ساهم ظهور الصحافة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في تفهّم الأحداث السياسية في الولاية وخارجها، والتي تشكل مادة تاريخية مهمة نتعرف من خلالها على مرحلة التنظيمات والإصلاحات التي شهدتها الدولة العثمانية والولايات التابعة لها، ولم يكن ليتأتى هذا دون المساهمة

التي قدمتها الطباعة التي عرفتها البلاد من خلال طبعها للوثـائق الرسـمية وكذا اصدارها للصحف، وطبع الكتب ودواوين الشعر.

الخاتمة

يعبر التراث المعماري والفكري العثماني عن الكثير من الصور الحضارية بالرغم من بعض المواقف السلبية منه والمتجاهلة للإنجازات الفنية التي قدمها العثمانيون طيلة فترة زادت عن الثلاثة قرون، التي حملت في بعضها مزيج من المؤثرات العثمانية والمحلية مع الأجنبية، وما قام به العثمانيون من اصلاحات للمنشآت السابقة، وأعمال توسعة مست النسيج الحضري.

مثلما كانت مساهمة العثمانيين واضحة في المجالات الفكرية، من خلال رعايتهم للتعليم وأهله، حيث انشأوا المدارس ورغبوا الأهالي فيها وعينوا المعلمين وأجروا لهم رواتبهم، وأوقفوا لهذه المرافق أوقافا ترعاها وتضمن استمراريتها.

ومن أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال دراسة الجوانب العمرانية والفكرية العثمانية فيما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر بتونس وطرابلس الغرب هي :

- اهتمام رجال الدولة بالتحصينات خاصة الأسوار التي تحيط بالمدينة والتي اعتبرت من قبيل الإنشاءات الحربية التي تهدف إلى حماية المدينة من الهجمات الأجنبية، مثلما سهر ولاة تونس وطرابلس الغرب على ترميم الأسوار القديمة وتدعيمها بأبراج المراقبة، خاصة من جهة الساحل.
- تعتبر المساجد من أرقى المنشآت المعمارية التي اهتم ولاة ورجال الدولة العثمانية ببنائها في البلاد المغاربية، والتي حملت بصمتهم وأسلوبهم مثلما حملتها المنشآت التي اعيد ترميمها وإعادة تأهيلها.
- تميز معمار المسجد بطرابلس الغرب في الفترة العثمانية الأولى والفترة القرمانلية بوجود وحدة فراغية واحدة في بيت الصلاة تعلوها قبة، وبعضها من عدة وحدات فراغية مسقوفة بقباب صغيرة، أما خلال الفترة العثمانية الثانية (1835-1911م) فقد امتازت المساجد بالتنوع في

التخطيط والتصميم بحيث نجد بعض المساجد ذات وحدات فراغية مسقوفة بأقبية برميلية، وبعضها مسقوفة بمزيج بين الأقبية البرميلية والقباب، ونوع ثالث يتميز بوحدات فراغية غير متماثلة المساحة مسقوف بقبة كبيرة وأخرى صغيرة، والتي تحكم فيها الطبيعة الجغرافية للبلاد.

- مثلما يلاحظ تواصل التقليد الهندسي في بناء المساجد بطرابلس الغرب، خاصة في السقف المسطح للمسجد الذي ميز مساجد برقة في الشرق وفزان في الجنوب والذي استمر دون انقطاع وبدون تغير يذكر سواء قبل العهد العثماني أو بعده، وهذا لأن العثمانيون لم يفرضوا نمطهم الهندسي المعماري على الأهالي، بل تركوا لهم حرية الاختيار في الشكل الهندسي وفي تركيبة المباني العمرانية وفي زخرفتها، وهو الذي أدى إلى حدوث تمازج في الهندسة وفي زخرفة العديد من المساجد التي ظهرت خلال العهد العثماني.

- تجلت الخصوصية العثمانية في المنشآت المعمارية خاصة منها الدينية المخصصة للأهالي العثمانيين ورجال الدولة وقد ظهر هذا التميز بين المساجد المالكية والحنفية في البداية عندما بدأت عملية تهيئة المساجد القديمة وأحدثت بها إصلاحات وتعديلات وفق النمط الهندسي العثماني، فاستبدل المنبر الخشبي بالحجري الرخامي وأقيم المحفل الخاص بالخواجة والمؤذنين كالذي نجده في جامع القصبة بمدينة تونس.

- من الاستنتاجات التي نصل إليها من خلال دراسة المنشآت المعمارية خلال الفترة أن الطراز العثماني لم يكن المؤثر الوحيد في الجانب المعماري في البلاد المغاربية بل صاحبه وجود وتوافد مؤثرات أخرى (أندلسية وأوروبية) إلى جانب التقاليد المحلية.

- أما العناصر المعمارية المكونة لهيكل المسجد من غير بيت الصلاة فقد بقيت نفسها في كل الفترات، عدا بعض الاختلافات البسيطة التي نجدها في المآذن الأسطوانية والمآذن المثمنة التي تنتهي برأس مخروطي، والقبة المركزية في بيت الصلاة.

- عرفت المباني المعمارية خلال العهد العثماني انماط زخرفية جديدة تختلف بين الزخارف النباتية والهندسية والكتابية، نُحتت على الرخام وعلى الحجر الجيري والخشب، على عكس ما كانت عليه قبل ذلك.

- عمل العثمانيون على تحفيز المحسنين وبث الرغبة فيهم لتشييد المعالم المعمارية خاصة منها الدينية، من خلال تخليد أسماء مؤسسيها عند مداخل الجوامع والمدارس والحصون والتي تحمل من جهة أخرى معطيات تاريخية تعبر عن المرحلة.

- كما ننوه بالدور الذي لعبه الوقف في ظهور المنشآت المعمارية خاصة ذات الطابع الديني، فقد اهتم رجال الدولة به وحفزوا الأهالي عليه خاصة الأهالي الميسورين، والفضل في ذلك كله يعود للمذهب الحنفي الذي كان مذهب الدولة، والذي يتميز بالمرونة في مجال الوقف الإسلامي.

وإذ تعد العمارة العثمانية وجها من أوجه الحضارة وصورة عن قوة الدولة التي وقفت في وجه التيارات والأطماع الغربية، فقد كانت ولازالت مدرسة سنان باشا بطرازها المعماري الفريد مصدرا يقتبس منه المعماريون العرب والأتراك، ومن أمثلة ذلك ما قام به المعماري "وداد دالو كايا" الذي قام بتصميم مسجد "كوجاتبة" على الطراز العثماني سنة1987م، والمعماري "نجيب دينج" الذي صمم كلية وجامع "صابونجي" بأدرنة سنة1988م.

أما الجوانب العلمية في البلاد المغاربية (تونس وطرابلس الغرب) فقد عرفت الضعف والتدهور خلال المرحلة الأولى من الوجود العثماني بسبب عدم استقرار الأوضاع السياسية، قبل أن تتحسن الأوضاع وتظهر العديد من المجمعات العمرانية والمنشآت المعمارية التعليمية (المدارس والمساجد)، كنتيجة لتحسن الأوضاع الاقتصادية التي عرفت الرخاء والتنوع في موارد الخزينة، لكنه ظل تعليم تقليدي وفق ما كان عليه

خلال العهود الإسلامية السابقة، في البرامج والوسائل والهياكل، وأهم نتائج الدراسة في المجال الفكري نذكر:

- عدم الاهتمام الكاف من الولاة العثمانيون بشؤون التعليم، فقد استمر على نفس النظم التقليدية السابقة في الكتاتيب والمدارس الملحقة بالمساجد والزوايا وغيرها إلى غاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

- اهتمام ولاة تونس وطرابلس الغرب بفئة العلماء بعدما اكتشفوا مكانتهم لدى العامة، فأحسنوا إليهم وتوددوا لهم، وكان يؤخذ برأيهم في بعض المسائل، تأسياً بالسلاطين العثمانيين الذين عْرفوا باهتمامهم بالعلماء وتقديرهم لهم.

- مع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر عرفت تونس وطرابلس الغرب سلسلة من الإصلاحات وفق النمط الحداثي الأوروبي، والتي كانت امتداد للإصلاحات التي أقرها السلاطين العثمانيون، فشهدت البلاد المغاربية ظهور مدارس عسكرية ومدنية جديدة، بنظم ومناهج أكثر عصرنة، استطاعت أن تنتقل بالمستوى العلمي والفكري إلى مستوى التفكير الأوروبي، غير أننا عندما نعقد مقارنة بين عدد المؤسسات وعدد السكان في تونس وطرابلس الغرب مع نهاية العهد العثماني نجد أن فرص التعليم الحديث كانت ضئيلة جدا، حيث كان لا ينالها إلا عدد قليل من أهالي المدن الكبرى.

- ساهم ظهور الطباعة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر في انتشار العلوم خاصة منها التي نقلت عن اللسان الأوروبي، إضافة إلى الصحافة التي شكلت متنفسا ومجالا للأقلام الأدبية المختلفة، التي كانت أكثر قربا من الأهالي، وساهمت في تعريفهم بما يجري في العالم، وإليها يعود الفضل في زيادة نسبة المتعلمين الذين أقبلوا على قراءة الصحف والجرائد والمؤلفات التي تنوعت موضوعاتها بين العلمية والأدبية والسياسية وغيرها.

- تميز التراث الفكري في تونس وطرابلس الغرب خلال العهد العثماني بالتنوع والثراء رغم أن الفترة وصفت بالركود، فكان الانتاج الفكري لمفكري هذا العهد يعبر عن حالة ثقافية تميز بها، مثلما يعبر عن أوضاع هذا المجتمع في بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية وهو بذلك يشكل مادة خام تساعد الدارسين والباحثين للتعرف على أوضاع المنطقة.

ومن التوصيات التي نذكرها هي:

- بعث دراسات متخصصة تتناول مميزات العمارة العثمانية في تونس وطرابلس الغرب والبحث في هندسة بنائها ومكوناتها الرئيسة وأنماط زخرفتها.

- الدعوة إلى البحث والتنقيب عن المؤثرات الفكرية العثمانية بالبلاد المغاربية والاهتمام أكثر بهذا النوع من الدراسات من خلال تحليل واستقراء لمميزاتها.

لذلك سيبقى هذا العمل قابلا للتوسع كلما توفرت مصادر جديدة تتناوله بالبحث والدراسة.

الملاحق

1- تقديم الملاحق.

2- الوثائق الأرشيفية.

3- الصور.

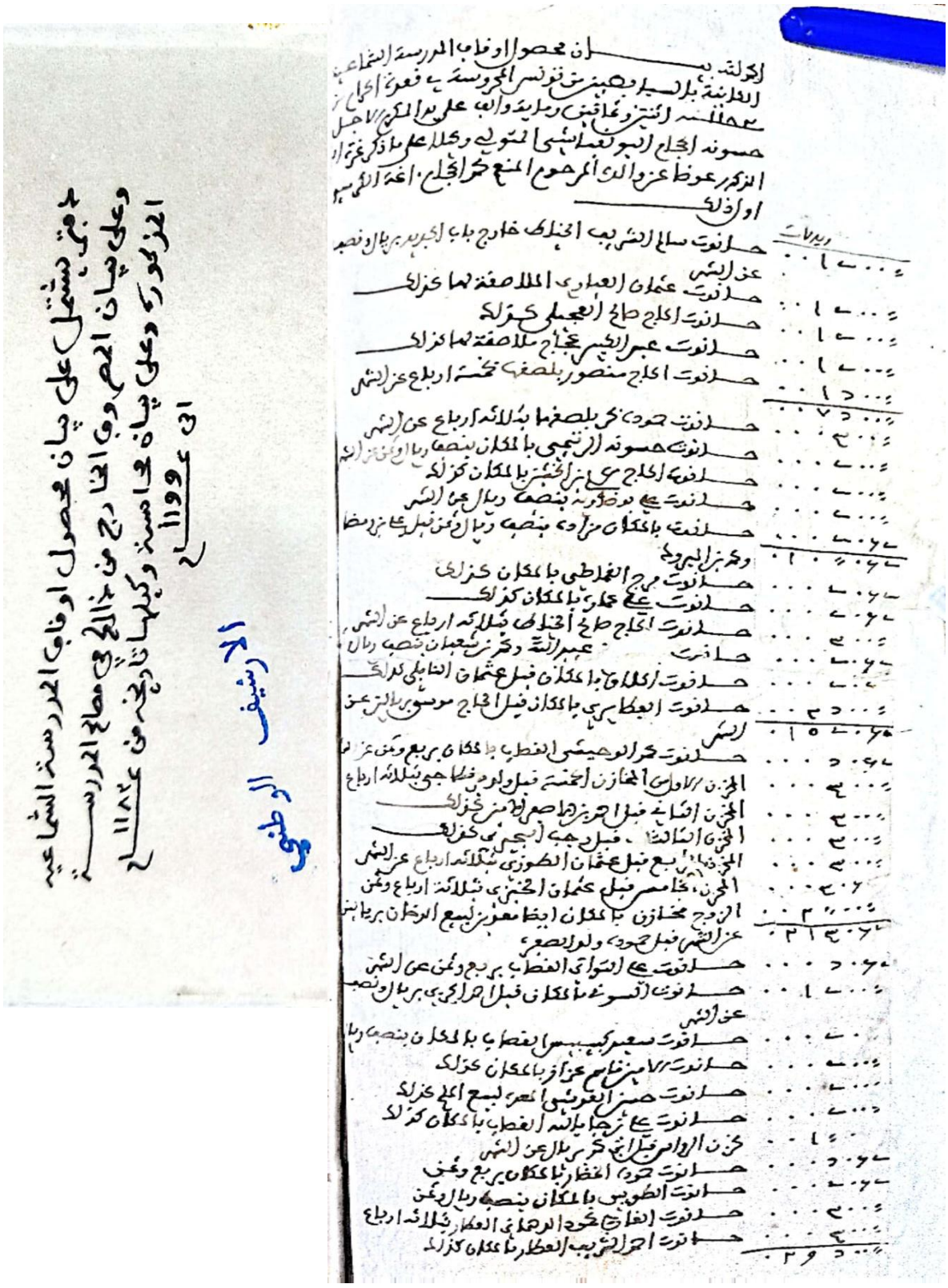
1- تقديم الملاحق:

- **-الملحق رقم 01:** عبارة عن صورة للصفحة الأولى والصفحتين الأخيرتين من الدفتر رقم2304 (أ. و. ت) الخاص بإيرادات أوقاف المدرسة الشماعية فيما بين 1182 و1199ه، ويضم قيمة المداخيل والمصالح التي صرفت فيها.
- **الملحق رقم 02:** هو صورة عن الصفحتين الأولى والثانية والصفحتان الأخيرتان من الدفتر رقم 2310 (أ. و. ت) الخاص بالأوقاف التي جمعها وكيل الأوقاف سنة1257ه/ 1841_1842م
- **الملحق رقم 03:** عبارة عن ثلاث صور لفنادق بطرابلس الغرب خلال العهد العثماني.
- **الملحق رقم 04:** عبارة عن صور للمنازل الطرابلسية ذات الطراز العثماني، ونماذج للزخارف التي كانت تزينها
- **الملحق رقم 05:** صور عن الزخارف العثمانية التي كانت تزين جامع قرجي بطرابلس.
- **الملحق رقم 06:**صورة لمئذنة جامع الزيتونة بعدما تم ترميمها.
- **الملحق رقم 07:** صورتين لكيفية توزيع الأعمدة داخل مسجد أحمد باشا القرمانلي بطرابلس، كما توضح نوع وطراز الأعمدة المستعملة.
- **الملحق رقم 08:** صورتين لمدخل جامع محمدباشا (شائب العين) بطرابلس، توضح نماذج للزخرفة التي تزين بها.
- **الملحق رقم 09:** صورة توضح توزيع الأعمدة داخل قاعة الصلاة بجامع محمد باشا (شائب العين) بطرابلس، وتوضح شكل المنبر وزخرفته.
- **الملحق رقم 10:** صورة عن المحفل الي عرفته بعض المساجد العثمانية بطرابلس على غرار جامع أحمد باشا القرمانلي.
- **الملحق رقم 11:**عبارة عن صورة توضح هندسة وزخرفة منبر ومحراب جامع أحمد باشا القرمانلي بطرابلس.

- **الملحق رقم 12**: عبارة عن صورة لسقف ومئذنة جامع احمد باشا القرمانلي بطرابلس، والتي تحمل مميزات الطراز العثماني في شكل المئذنة وطريقة التسقيف.
- **الملحق رقم 13**: هو عبارة عن مخطط لمجمع أحمد باشا القرمانل ومجمع درغوث باشا بطرابلس والذي يضم إلى جانب المسجد ومرافقه المدرسة والتربة والحمام.
- **الملحق رقم 14**: صورة لمئذنة جامع قرجي والتي يظهر فيها التأثير العثماني واضحا.
- **الملحق رقم 15**: صورة للقباب التي ميزت مدرسة عثمان باشا بطرابلس.
- **الملحق رقم 16**: صورة لموقع قلعة طرابلس توضح فيها توزيع الأبراج ومسجد القلعة والردهة القرمانلية.
- **الملحق رقم17**: صورة للمنظر الخارجي للمدرسة الصادقية.

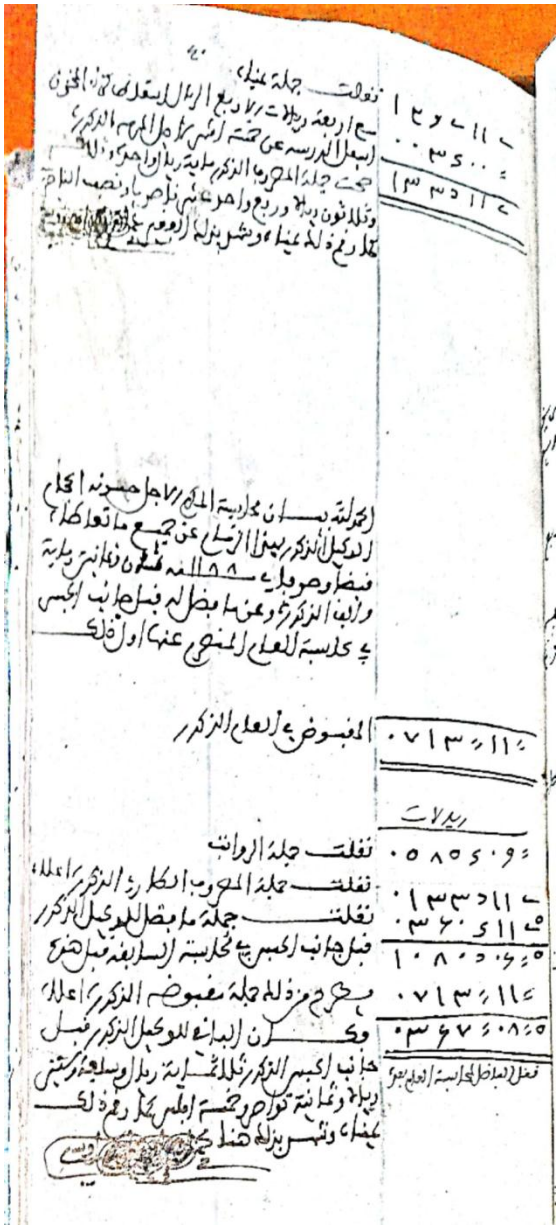
2- الوثائق الأرشيفية

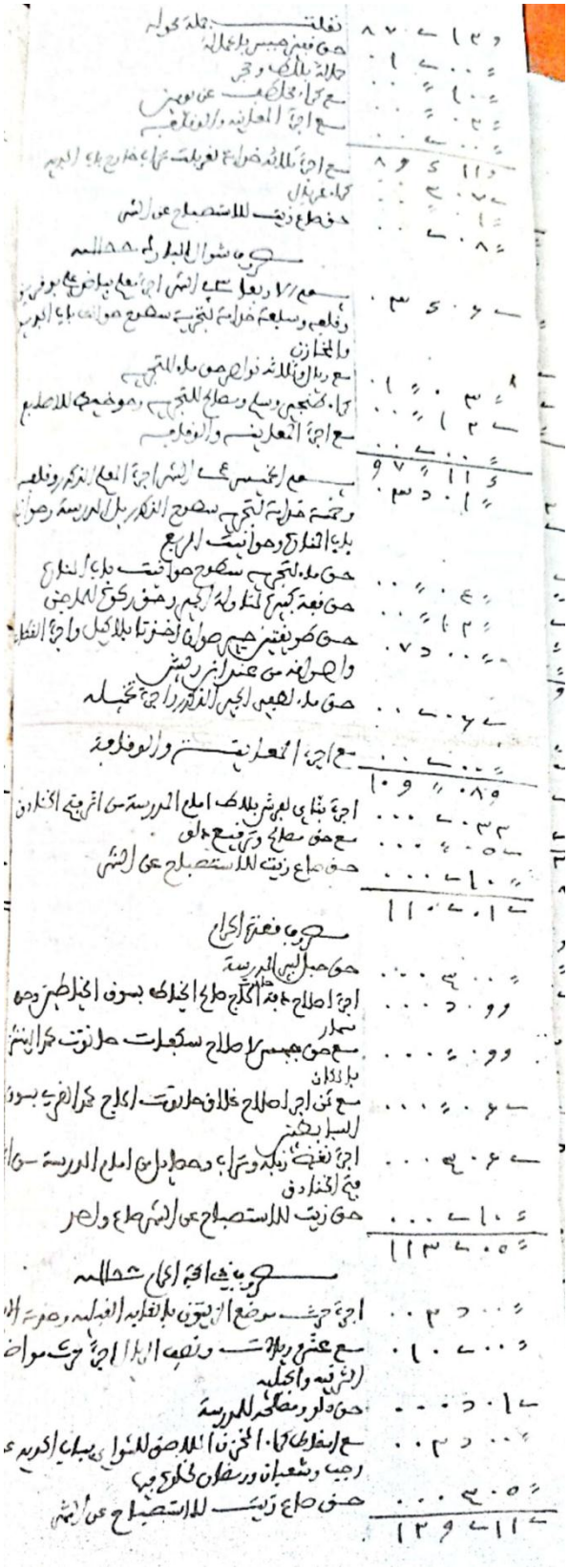
ملحق رقم: 01 أوقاف مدرسة الشماعين من سنة1182هـ إلى 1199هـ[1].



1 أ. و. ت، دفتر رقم 2304.

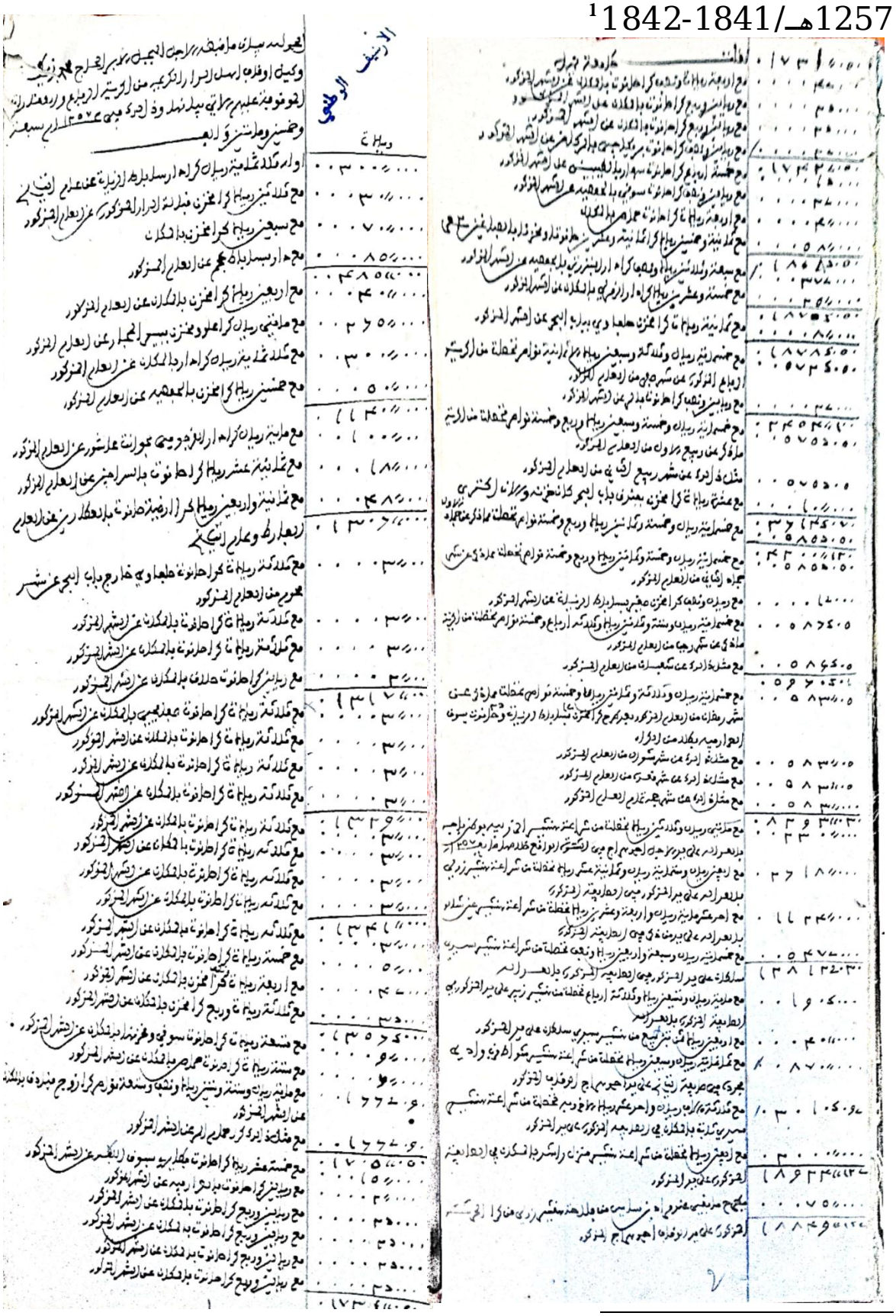
(تابع)[1]





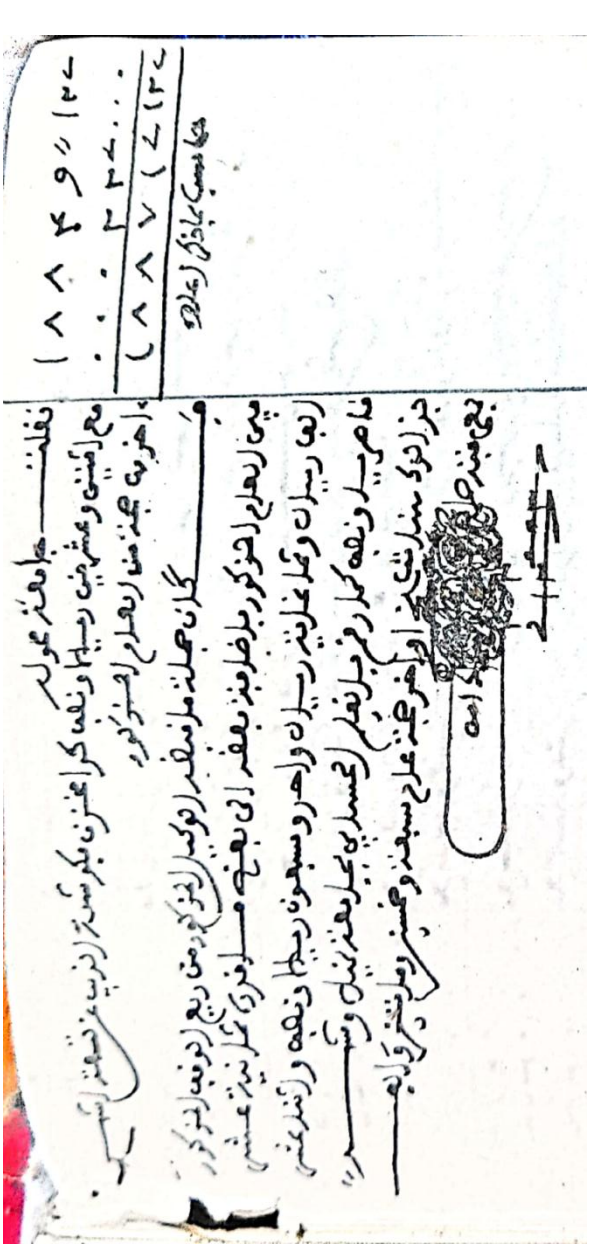
1 أ. و. ت، دفتر رقم 2304.

الملحق رقم:02، إيرادات الأوقاف العامة التي جمعها وكيل الأوقاف لسنة 1257هـ/1841-1842[1]



1 أ. و. ت، دفتر رقم 2310

(تابع)[1]



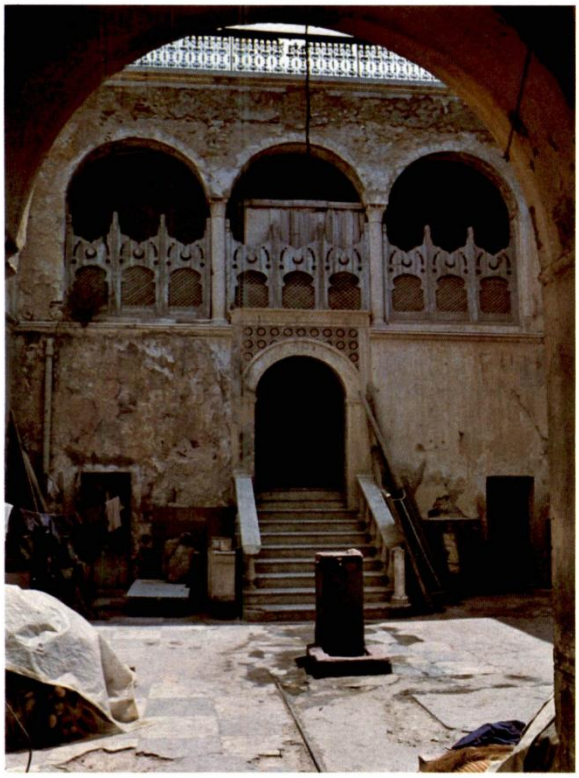


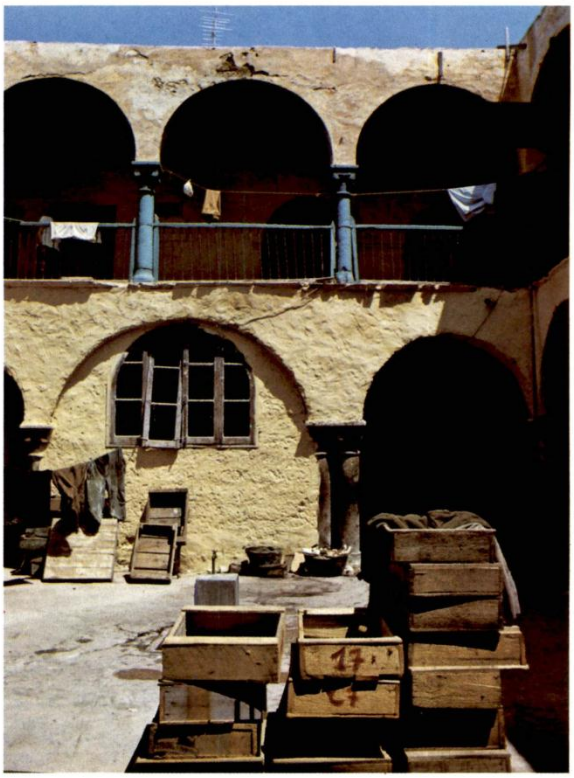
1أ. و. ت، دفتر رقم2310.

3- الصور

الملحق رقم: 03 نماذج عن الفنادق بطرابلس الغرب خلال العهد العثماني[1].







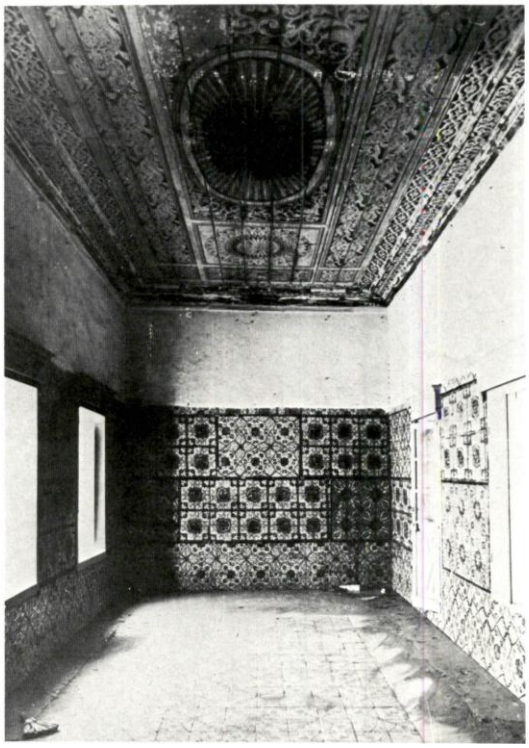
1 W.a, **The islamic art and architecture in libya**, the commitee for the exhibition , london, 1976, pp28 29.

الملحق رقم:04 المنازل الطرابلسية خلال العهد العثماني، بمميزاتها الهندسية والزخرفية[1].





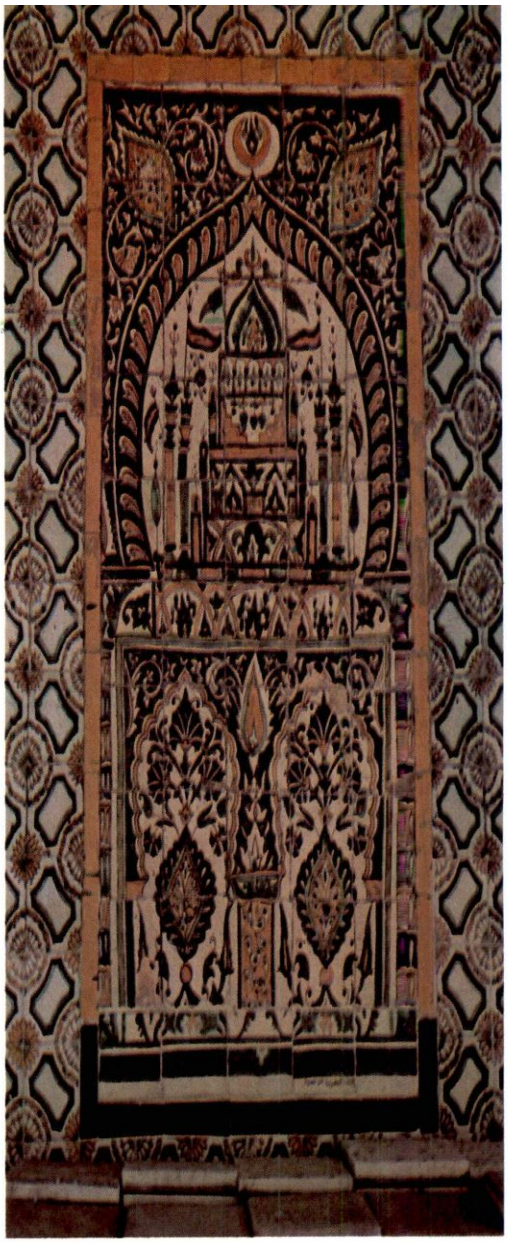




1 W.a, op cit, pp 26 27.

الملحق رقم:05 نماذج من الزخارف التي تزين جامع قرجي[1].

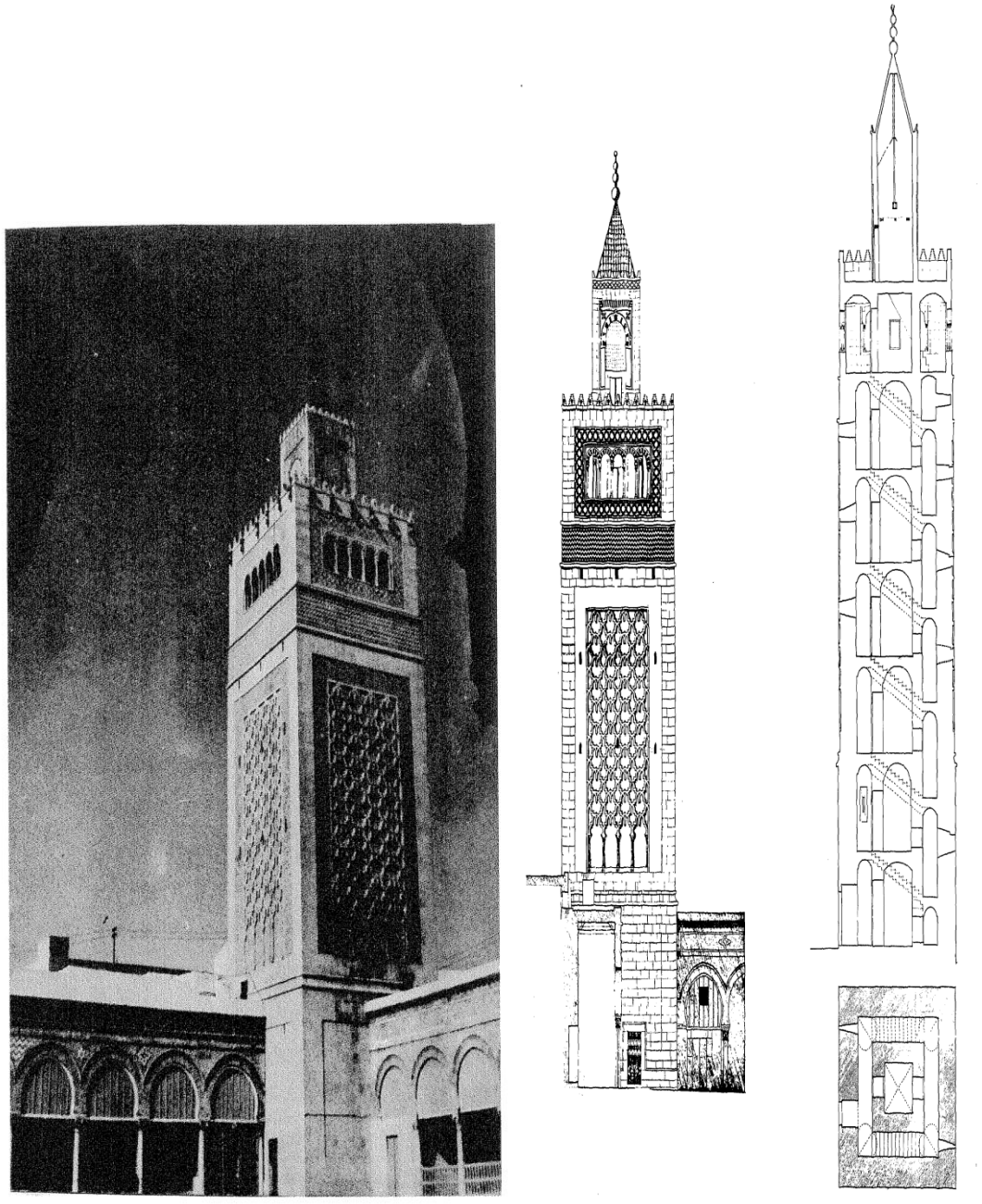






1 W,a, op cit, p21.

الملحق رقم: 06 مئذنة جامع الزيتونة بعد ترميمها[1].



1محمد عبد العزيز، مرجع سابق، ص35، ومحمد الخوجة، صفحات... ، مرجع سابق، ص287.

الملحق رقم:07 منظر لتوزيع الأعمدة داخل مسجد أحمد باشا القرمانلي بطرابلس الغرب[1].

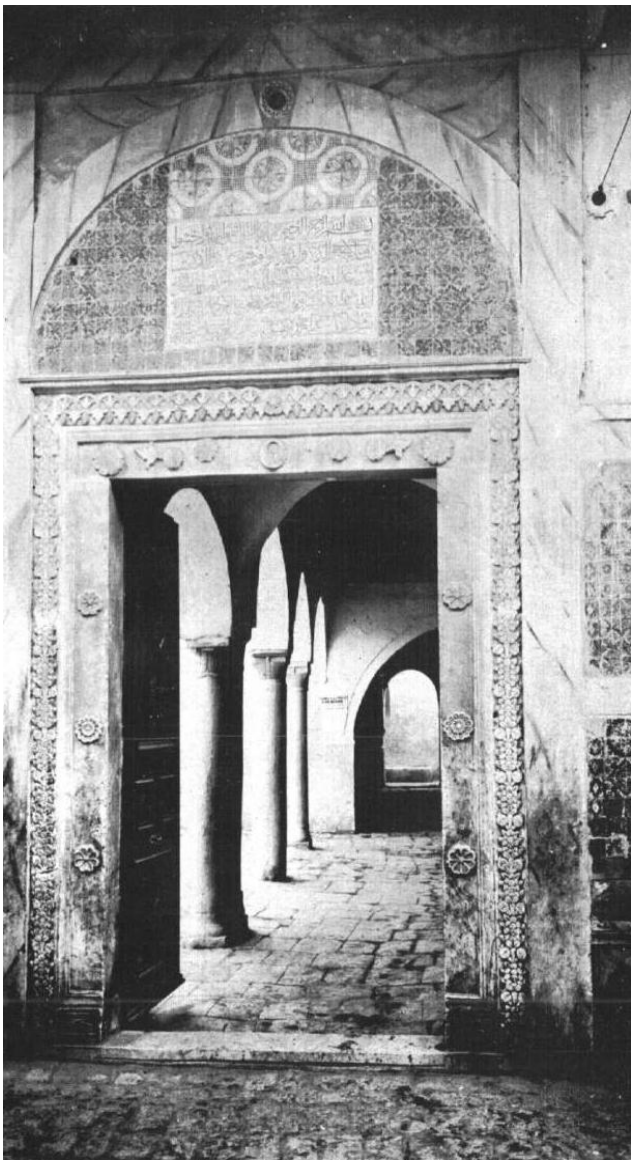




1ميسانا مرجع سابق، ص ص302، 304.

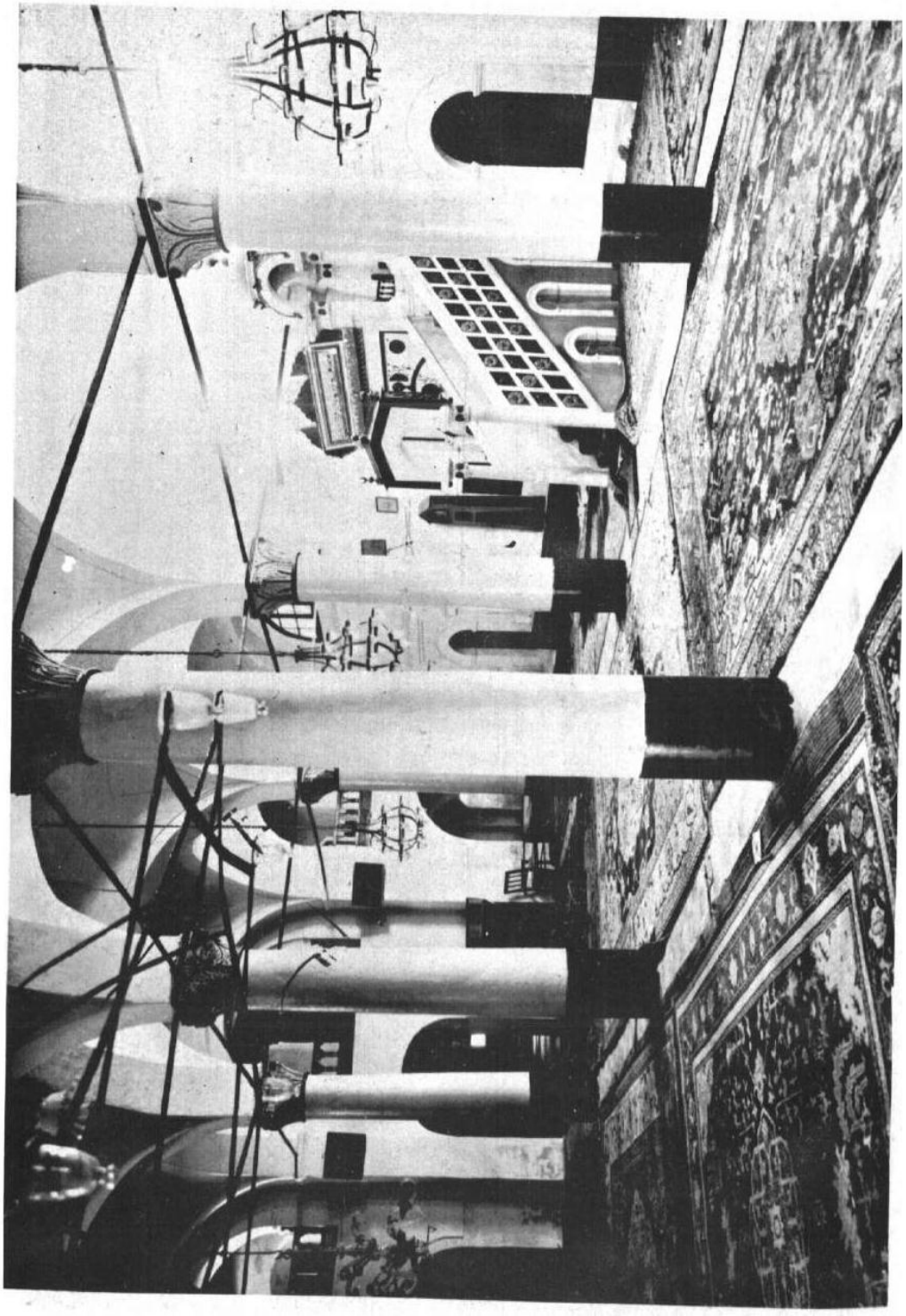
ملحق رقم:08 مدخل جامع محمد باشا (شائب العين) بطرابلس الغرب[1].





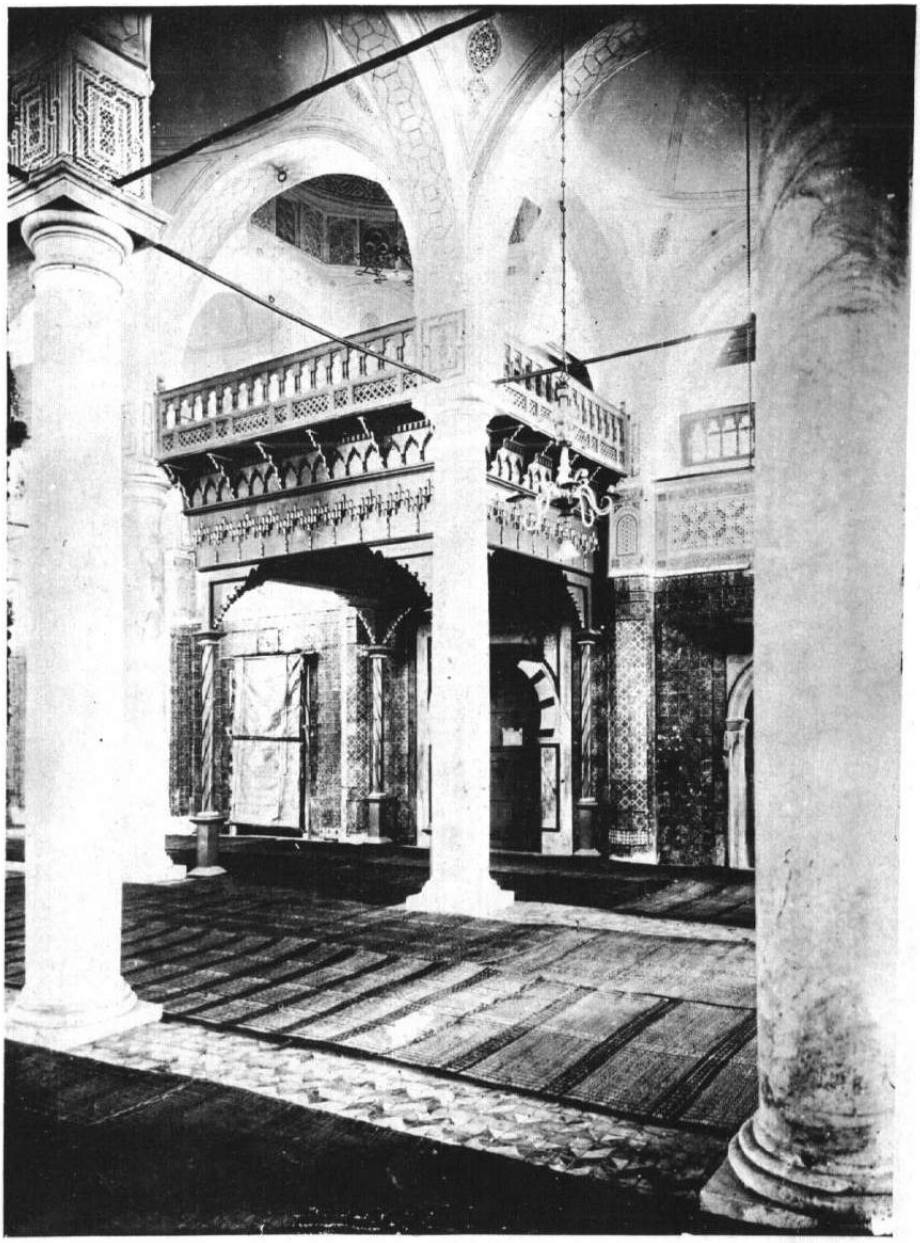
1ميسانا مرجع سابق، ص ص309، 310.

ملحق رقم:09 توزيع الأعمدة داخل بيت الصلاة والمنبر في جامع محمد باشا (شائب العين) بطرابلس الغرب[1].



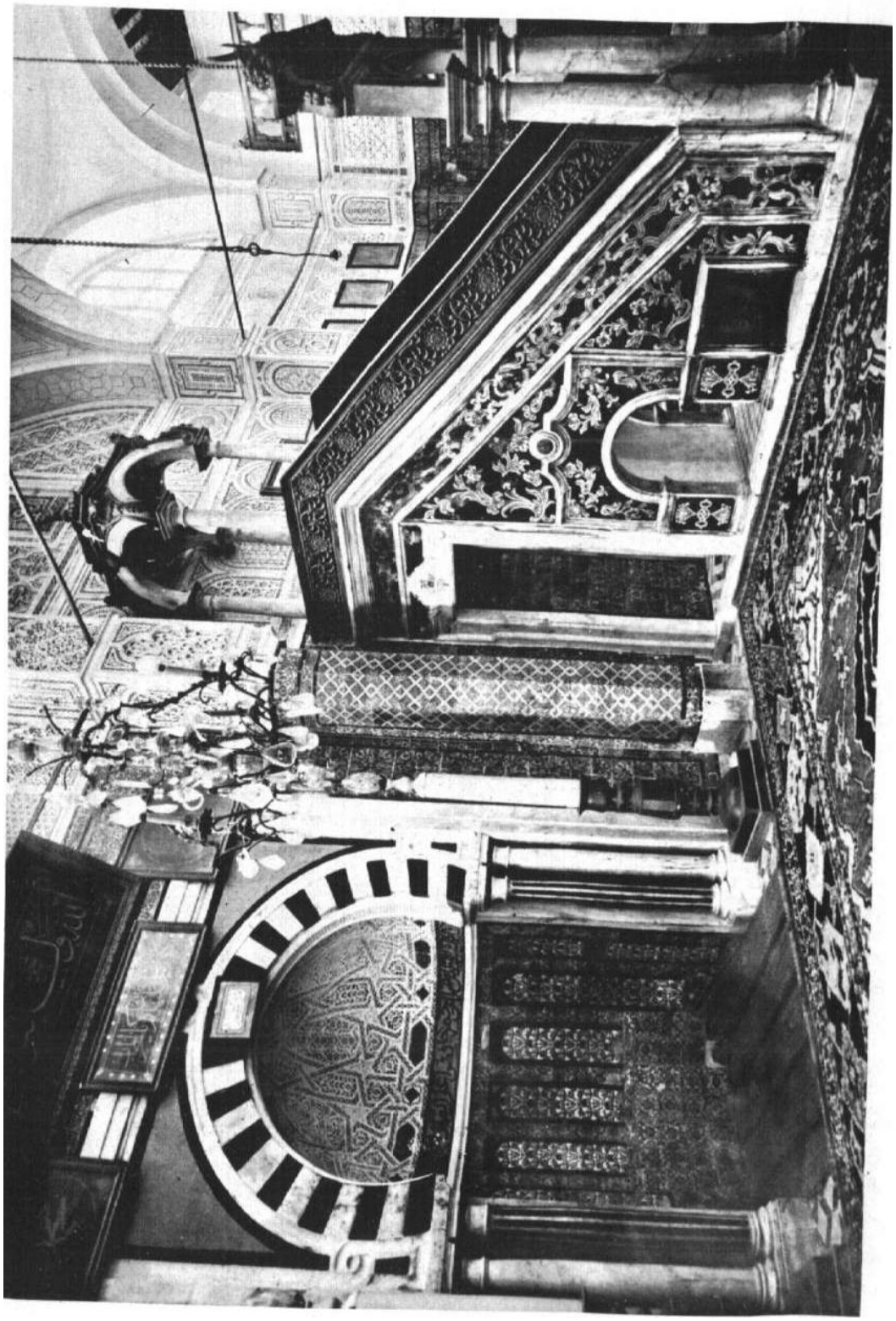
1ميسانا، مرجع سابق، ص311.

ملحق رقم:10 صورة للمحفل الذي وجد بجامع أحمد باشا القرمانلي[1].



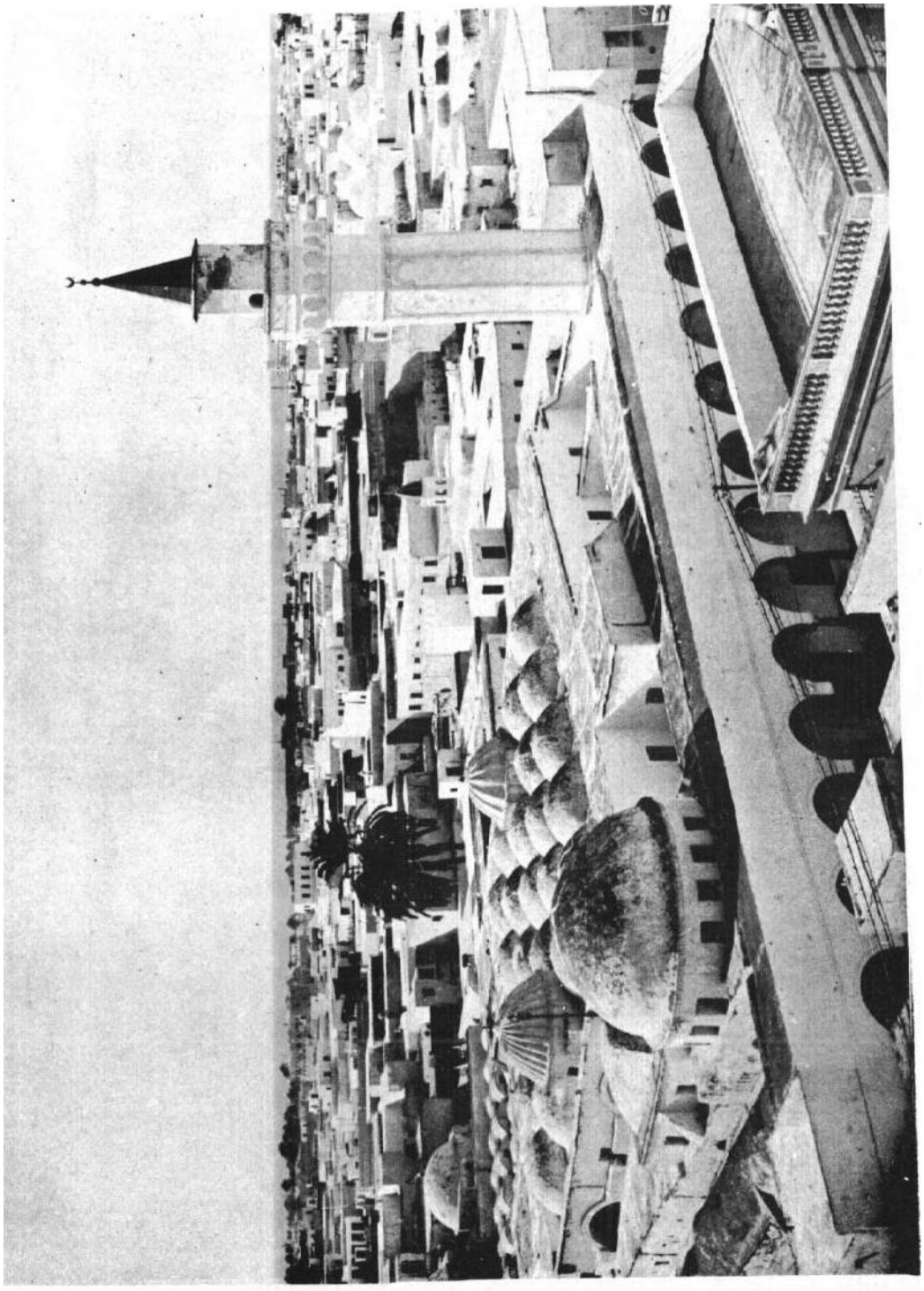
1ميسانا، مرجع سابق، ص313.

الملحق رقم:11 منبر ومحراب مسجد أحمد باشا القرمانلي بطـرابلس الغرب[1].



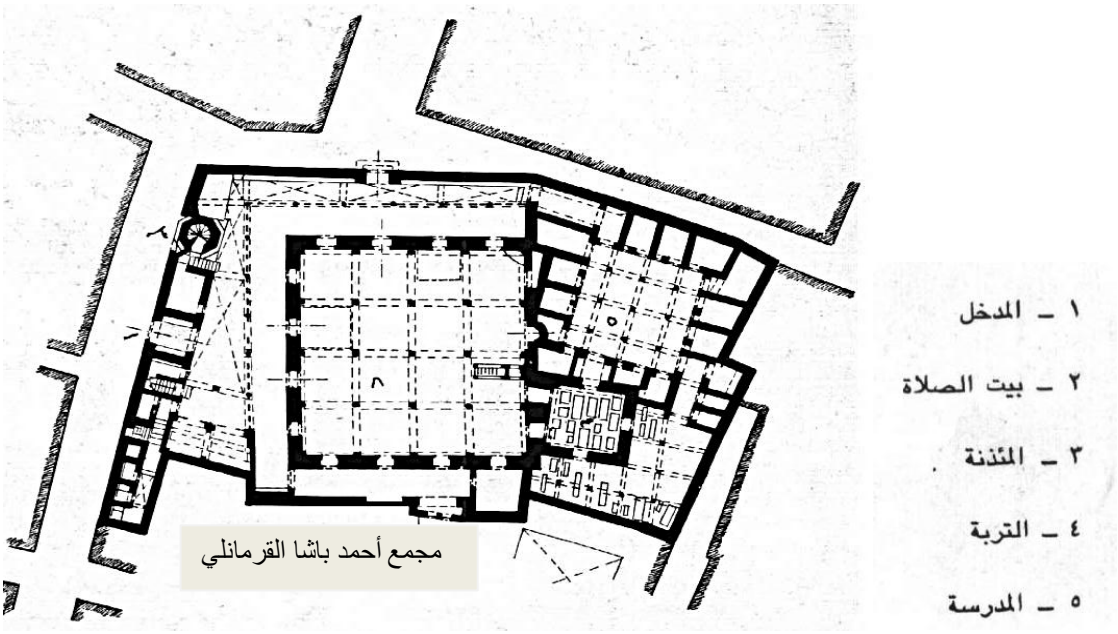
1ميسانا، مرجع سابق، ص315.

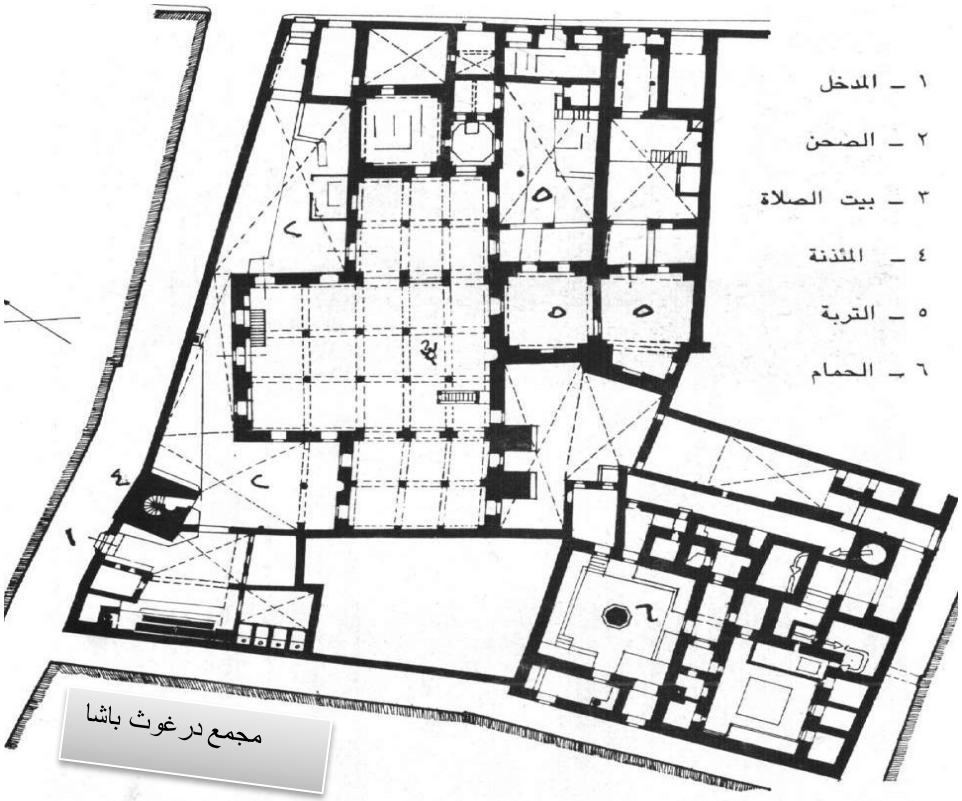
الملحق رقم:12 سقف ومئذنة جامع أحمد باشا القرمـانلي بطـرابلس الغرب[1].



1ميسانا، مرجع سابق، ص316.

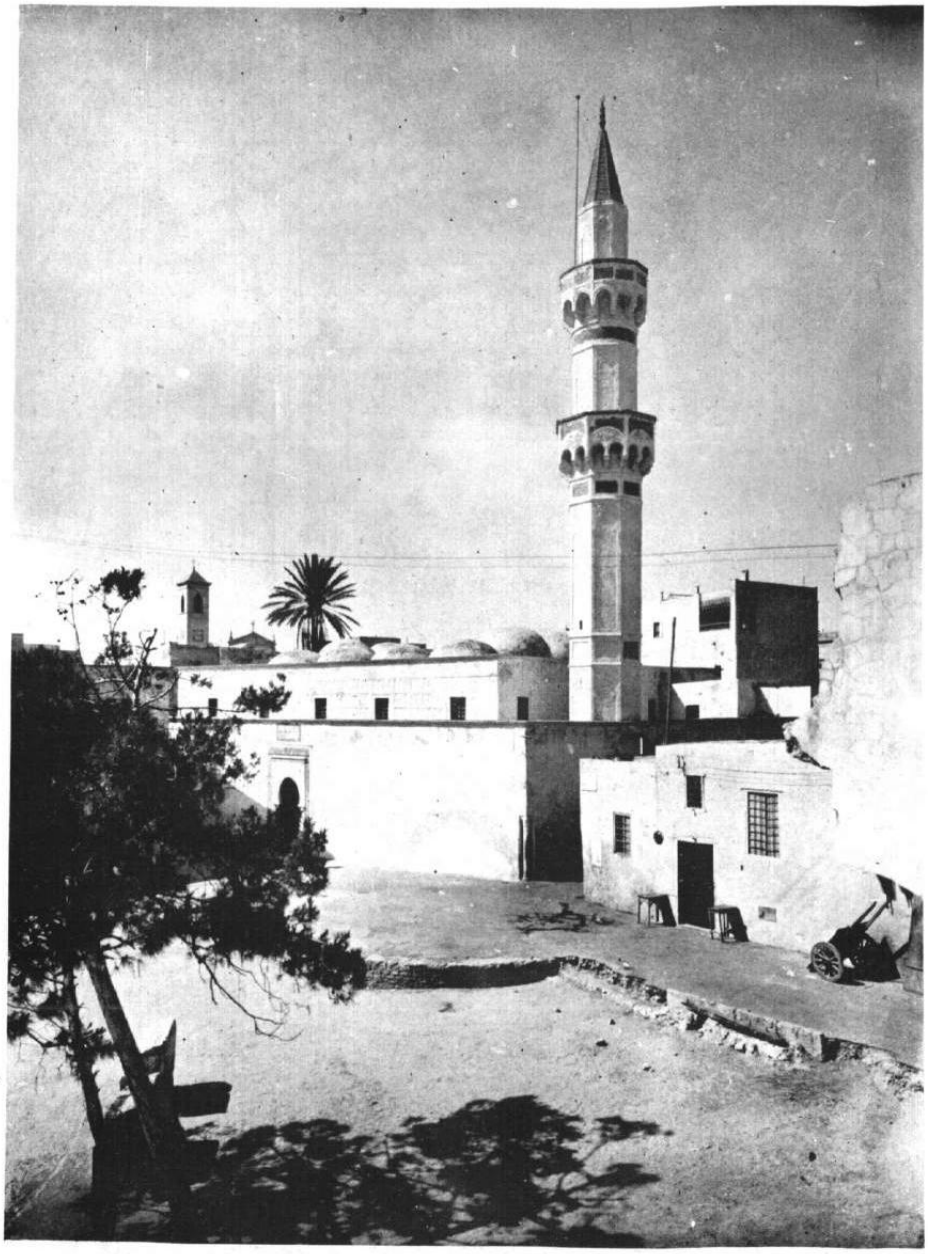
الملحق رقم:13مخطط لمجمع أحمد باشا القرمانلي، ومجمع درغـوث باشا بطرابلس الغرب[1].





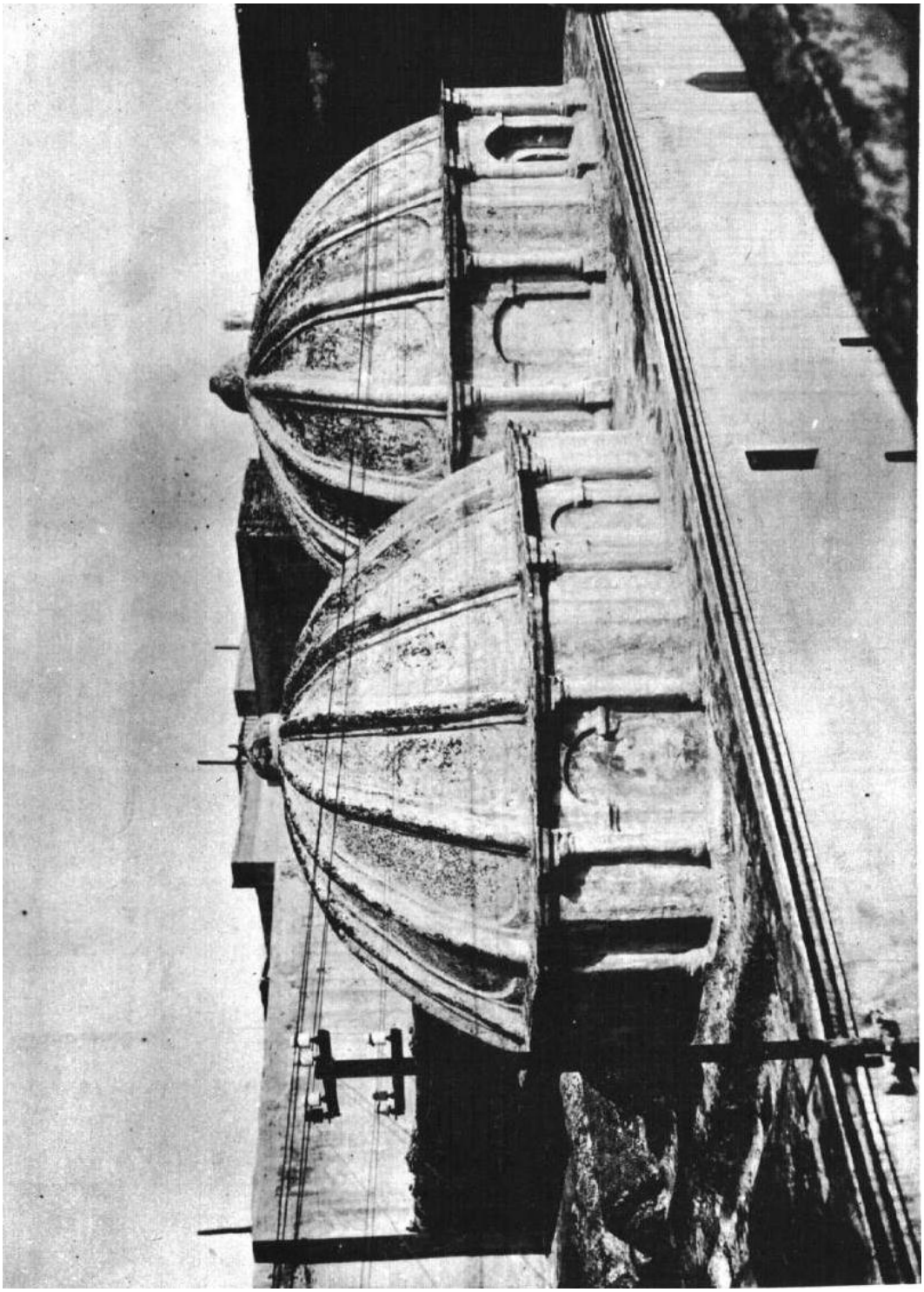
1ميسانا، مرجع سابق، ص ص302- 317.

الملحق رقم: 14 مئذنة جامع قرجي.[1]



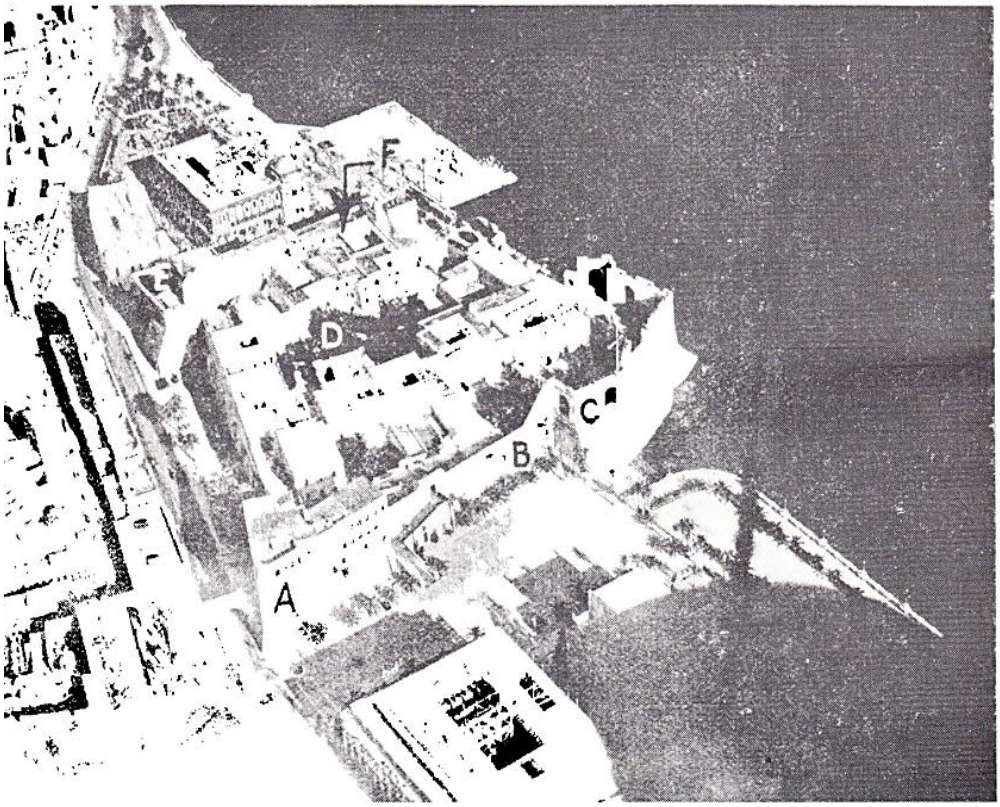
1ميسانا، مرجع سابق، ص318.

ملحق رقم:15 يبين قباب مدرسة عثمان باشا بطرابلس الغرب[1].



1ميسانا، مرجع سابق، ص332.

ملحق رقم:16 منظر عام على قلعة طرابلس[1].

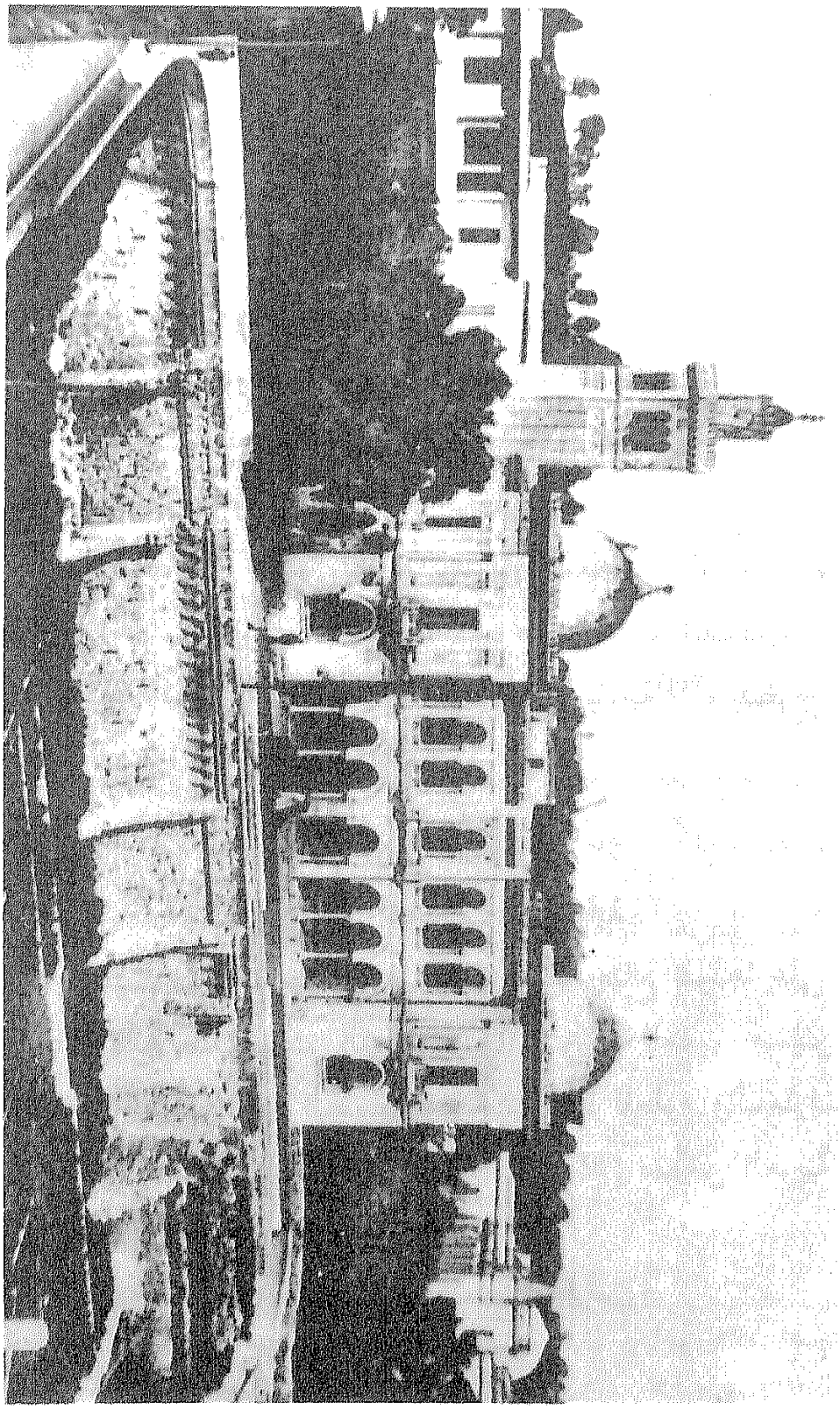


قلعــة طرابلس

A برج القديس جورج
B ساحة القديسة باربرة
C برج القديس جاكمو
D مسجد القلعة
E برج الجنوبي الغربي
F الردهة القرمانية

1محمد الطاهر عريبي، وثائق السراي الحمراء بمدينة طرابلس، الدار العربية للكتاب، 1977، طرابلس، ص17.

ملحق رقم:17 منظر خارجي للمدرسة الصادقية بتونس[1].



1ابن الخوجة ، مرجع سابق، ص318.

قائمة المصادر والمراجع

1- الوثائق الأرشيفية:

1. الأرشيف الوطني التونسي: دفتر رقم 2304، دفتر رقم 2310.

2-المصادر باللغة العربية:

1. الأنصاري أحمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ج1، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، د س ن.
2. بيرم الخامس محمد، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تح علي بن الطاهر الشنوفي، ج1، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 1999.
3. بيرم الخامس محمد، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تح علي بن الطاهر الشنوفي وآخرون، ج2، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 1999.
4. التازي عبد الهادي، أمير مغربي في طرابلس1143هـ/1731م أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، د م ن، د س ن.
5. التجاني أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، رحلة التجاني، د.ط، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981.
6. التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989.
7. التونسي خير الدين، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تح المنصف المرزوقي، مج1، شركة أوريبس للطباعة، تونس، 2000.
8. التونسي محمد بن عمر، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تح خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، الدار المصرية للتأليف والأنباء والنشر، القاهرة، 1965.
9. توللي، عشرة أعوام في طرابلس 1783-1793م، تر عبد الجليل الطاهر، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بغازي،1967.
10. جوزيف كاكيا انتوني، ليبيا في العهد العثماني الثاني(1835_1911)، تر يوسف حسن العسلي، دار احياء الكتب العربية، د.م.ن.
11. الحشائشي محمد بن عثمان، تاريخ جامع الزيتونة، ط1، دار الإمام المازري للنشر والتوزيع، تونس، 2021.

12. الحشائشي محمد بن عثمان، رحلة الحشائشي إلى ليبيا سنة1895، ط1، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1965.
13. حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، ج1، ط2، تح محمد الأسطى وعمار جحيدر، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، 2001.
14. د. م، تراتيب التدريس بجامع الزيتونة عام1330هـ، المطبعة الرسمية العربية، تونس، 1912.
15. د.م، الإخوان بيتشي والساحل الليبي، تر الهادي مصطفى أبو لقمة، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 1996.
16. د.م، جامع الزيتونة الأعظم (برنامج المكتبة العبدلية)، ج2، المطبعة الرسمية العربية بتونس، تونس، 1327.
17. السنوسي أبي عبد الله محمد بن عثمان، مسامرات الظريف بحسن التعريف، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994.
18. السنوسي محمد، الرحلة الحجازية، تح علي الشنوفي، ج1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1976.
19. السنوسي محمد، الرحلة الحجازية، تح علي الشنوفي، ج3، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978.
20. سميث كوينسي وبريستون لويد، مدينة طرابلس بمدخليها الغربي والشرقي في رسائل إلى الأهل، تر الهادي أبو لقمة، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، د س ن.
21. ابن الشماع ابو عبد الله محمد بن أحمد، الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1984.
22. ابن أبي الضياف أحمد، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، مج2، ج3، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999.
23. ابن أبي الضياف أحمد، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج7، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999.
24. ابن أبي الضياف أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، مج2، ج4، الدار العربية للكتاب، تونس، د س ن.
25. العبدري أبو عبد الله، رحلة العبدري، ط2، دار سعد الدين، دمشق، 2005.

26. العبدري البلنسي محمد، الرحلة المغربية، ط1، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007.
27. ابن غلبون أبي عبد الله محمد بن خليل، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، تص الطاهر أحمد الزاوي، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004.
28. الناصري أبي راس محمد بن أحمد، نبأ الإيوان بجمع الديوان في ذكر صلحاء مدينة القيروان، منشورات مركز الدراسات الاسلامية بالقيروان، القيروان، 2012.
29. الناصري أبي عبد الله محمد بن عبد السلام، الرحلة الناصرية الكبرى، تح المهدي الغالي، ط1، ج1، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، المغرب، 2013.

3-المصادر باللغة الأجنبية:

1. BERNARD Marius, Autour de la Méditerranée Les Cotes Barbaresques De Tripoli à Tunis, Librairie Renouard, Paris, 1981.

4-المراجع باللغة العربية:

1. الأشهب محمد الطيب بن أحمد ادريس، برقة العربية أمس واليوم، مطبعة الهواري، مصر، 1947.
2. آصلانآبا أوقطاي، فنون الترك وعمائرهم، تر أحمد محمد عيسى، ط1، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، استانبول، 1987.
3. إيليتش يروشين نيكولاي، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، تر عماد حاتم،ط2، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2001.
4. الباروني عمر محمد، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، د.ط، مطبعة ماجي، طرابلس، 1952.
5. الباشا عفاف أحمد، المؤرخون الليبيون في القرن التاسع عشر، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2008.

6. البلوشي علي مسعود، تاريخ معمار المسجد في ليبيا في العهدين العثماني والقرمانلي 1551-1911م، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 2007.
7. البهنسي صلاح أحمد، طرابلس الغرب دراسات في التراث المعماري الفني، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2004.
8. بنبلغيث الشيباني، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1859-1882م)، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، صفاقس، 1995.
9. بنبلغيث الشيباني، فصول في تاريخ الأوقاف من منتصف القرن التاسع عشر إلى1914، ط1، دار نهى للطباعة والنشر والتوزيع، صفاقس.
10. بوسعيدي نادية، مساجد مدينة تونس وربضيها خلال العهد العثماني، مركز النشر الجامعي، منوبة، 2019.
11. بوعلي لطفي، التحديث العسكري قراءة ميكرو- تاريخية في التجربة التونسية (1830-1881م)، ط1، سوتيميديا للنشر والتوزيع، تونس، 2019.
12. التلاتلي صلاح الدين، تونس الجديدة مشاكل ونظريات، دار بوسلامة للنشر، تونس، 1959.
13. التميمي عبد الجليل، دراسات في التاريخ العربي العثماني1453-1918، ط1، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، 1994.
14. تشايلد جود، بنغازي تاريخ مدينة، تر صالح جبريل، ط2، الإدارة العامة للسياحة، ليبيا، 1980.
15. الجمل سيار، العثمنة الجديدة القطيعة في التاريخ الموازي بين العرب والأتراك، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، 2015.
16. جحيدر عمار، آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1991.
17. جوليان شارل اندري، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج2، تر محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983.

18. الحداد الطاهر، التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1981.
19. حسين محمد الخضر، تونس وجامع الزيتونة، الدار الحسينية للكتاب، د.م.ن، 2000.
20. حمودة بن محمد بن عبد العزيز، الكتاب الباشي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970.
21. بن الخوجة محمد، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، المطبعة التونسية، تونس، 1939.
22. بن الخوجة محمد، صفحات من تاريخ تونس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
23. خفاجي محمد عبد المنعم، قصة الأدب في ليبيا العربية، ط1، دار الجيل، بيروت، 1992.
24. خليل أحمد ابراهيم، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916م، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، الموصل، 2005.
25. خوجة حسين، الذيل لكتاب بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان، المطبعة الرسمية العربية، تونس، 1908.
26. خوجة مصطفى، تاريخ فزان، تح حبيب وداعة الحسناوي، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، 1979.
27. د الدولاتي عبد العزيز، مدينة تونس تاريخها ومعالمها، تونس أعلام ومعالم، الوكالة القومية للتراث، تونس، 1997.
28. د. م، الزخارف على المداخل والأبواب والنوافذ، ط1، المطابع الدولية، بيروت، 1998.
29. د. م، المحمدية مدينة وتراث، الفيدرالية الوطنية للمدن التونسية، تونس، د.س.ن.
30. د.م، الزخارف الجصية، الكتاب السادس، ط1، مشروع تنظيم وإدارة المدينة القديمة إطرابلس، طرابلس، 1998.
31. الذويبي خليفة محمد، الأوضاع العسكرية في طرابلس الغرب قبيل الاحتلال الإيطالي 1881-1911م، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 1999.

32. رشدي راسم، طرابلس الغرب في الماضي والحاضر، ط1، دار النيل للطباعة، القاهرة، 1953.
33. روسو ألفونصو، الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، د ط، تر محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريوس، بنغازي، د س ن.
34. ريمون اندري، العواصم العربية عمارتها وعمرانها في الفترة العثمانية، ط1، تع قاسم طوير، دار المجد، دمشق، 1986.
35. زيدان جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج2، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2012.
36. زين العابدين محمود، عمارة المساجد العثمانية، ط1، بيروت، دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع، 2006.
37. السباعي مكي بن نسيب، مكتبات المساجد دراسة تاريخية، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 2006.
38. السميراني محجوب، الجيش التونسي(1831-1881م) رافد نهضة وإصلاح، ط1، سوتيميديا للنشر والتوزيع، تونس، 2017.
39. بن سحنون محمد، كتاب آداب المعلمين، ط2، تح محمد عبد المولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
40. بن سليم أحمد عمران، المقالة في ليبيا نشأتها وتطورها خلال العهد العثماني الثاني1866-1911، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، د س ن.
41. سعيدوني ناصر الدين، ولايات المغرب العثمانية الجزائر، تونس، طرابلس الغرب، ط2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2014.
42. الشريف عبد الله والطوير محمد أمحمد، تاريخ المكتبات والوثائق والمخطوطات الليبية، ط2، دار الماتقى للطباعة والنشر، بيروت، 1998.
43. الشريف محمد الهادي، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993.
44. الصلابي علي محمد، تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا، ط3، دار المعرفة، بيروت، 2009.

45. صالح الجابري محمد، الأدب التونسي الحديث والمعاصر: 1860_1920م، تاريخ الأدب التونسي الحديث والمعاصر، ط1،المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 1993.
46. ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ليبيا- تونس- صقلية، دار المعارف، القاهرة، 1992.
47. الطويلي أحمد، بناة الدولة التونسية الحديثة حمودة باشا وأحمد باي وخير الدين، ط1، المغاربية لطباعة واشهار الكتاب، تونس، 2019.
48. الطويلي أحمد، في الحضارة العربية التونسية، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، تزنس، د س ن.
49. ابن عاشور محمد العزيز، جامع الزيتونة المعلم ورجاله، دار سراس، تونس، 1991.
50. أبوعزة فتح الله محمد، جامع رشيد باشا بمدينة درنة دراسة في العمارة الإسلامية، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2008.
51. العبيدي ابراهيم التوزري، تاريخ التربية بتونس، ج1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د س ن.
52. العروسي المطوي محمد، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
53. العقاد صلاح، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر الجزائر- تونس- المغرب الأقصى، ط6، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1993.
54. بن عاشور محمد الفاضل، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، مطبعة دار الهنا، مصر، 1956.
55. عبد الرسول سمير، الصحف الليبية نشأتها وتطورها (1827-1897) دراسة تاريخية، مركز المنتصرية لدراسات العربية والدولية، الجامعة المستنصرية، د.س.ن.
56. عبد العزيز مرزوق محمد، الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه، مطبعة أسعد، بغداد، 1965.
57. عبد الله الهرامة عبد الحميد، فصول من تاريخ ليبيا الثقافي، أصالة للنشر والتوزيع، بيروت، 1998.

58. عبد المنعم خضري سمير، عمائر الصوفية في الجماهيرية الليبية (الزوايا والرباطات)، مؤسسة الإخلاص للطباعة والنشر، د م ن، 2008.
59. عبد الوهاب حسن حسني، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الفنون، تونس، 1954.
60. عريبي محمد الطاهر، وثائق السراي الحمراء بمدينة طرابلس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1977.
61. عفيفي محمد الصادق، الشعر والشعراء في ليبيا، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، د س ن.
62. علي بن إسماعيل عمر، انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا، 1795-1835م، ط1، مكتبة الفرجاني، بيروت، 1966.
63. عوض رمسيس، محاكم التفتيش، دار الهلال، مصر، 2001.
64. عوض عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864-1914م، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1969.
65. عيد عاطف، قصة وتاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم تونس والجزائر، edito-greps international ، بيروت، 1999.
66. غالب الكبير نجم الدين، مدينة طرابلس عبر التاريخ، ط2، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1978.
67. غنيمي الشيخ رأفت، في تاريخ العرب الحديث وجهاد الأندلسيين، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1992.
68. فارس المالكي قبيلة، تاريخ العمارة عبر العصور، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، 2011.
69. فكري أحمد، آثار تونس الإسلامية ومصادر الفن الإسلامي بإفريقية وتونس وليبيا، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، سوسة، 1988.
70. فيرو شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ط3، منشورات جامعة قاريوس، بنغازي، 1994.
71. القطعاني أحمد، القطب الأنور عبد السلام الأسمر881- 981ه، ط2، دار الكتاب الليبي، ليبيا، 1993.
72. القيرواني محمد بن أبي القاسم الرعيني، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286ه (1869م).

73. كربخال مارمول، افريقيا، ج3، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1989.
74. كولن صالح، سلاطين الدولة العثمانية، ط1، دار النيل، القاهرة، 2014.
75. لومس تود مابل، أسرار طرابلس، ط2، دار المحدودة، لندن، 1985.
76. الماجري حياة، مأسسة التعليم في تونس في القرن التاسع عشر، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2021.
77. المسعودي الباجي، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، ط1، تح محمد زينهم محمد عزب، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2012.
78. المصراتي علي مصطفى، أعلام من طرابلس، ط4، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، 1986.
79. المصراتي علي مصطفى، مؤرخون من ليبيا مؤلفاتهم ومناهجهم، ط2، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، مصراتة، 2002.
80. المهيدي محمد الصالح، تاريخ الطباعة والنشر بتونس، السلسلة الأولى، المطبعة الرسمية، تونس، 1965.
81. المهيدي محمد الصالح، تونس في تراجم أعلامها، ج1، د.ط، المركز الوطني للاتصال الثقافي، تونس، 2012.
82. المؤدب أنيس، حفريات في ذاكرة الموسيقى العسكرية التونسية من بداية القرن 17 إلى نهاية القرن19، ط1، سوتيميديا للنشر والتوزيع، تونس، 2016.
83. بن مسعود محمد، تاريخ ليبيا الحديثة، ط1، مطبعة ماحي، طرابلس، 1961.
84. بن ميلاد أحمد، الطب العربي التونسي في عشرة قرون، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.
85. محمد الطيب الفاسي، رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة، تح عارف أحمد عبد الغني، دار العراب ودار حوران للدراسات والنشر والترجمة، سوريا، 2014.
86. محمد جبران مفيدة، حوش حرملك حريم الباشا القرمانلي، ط1، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا، 2020.

87. محمد جبران مفيدة، فنادق مدينة طرابلس القديمة، ط2، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2010.
88. موسى عبده عبد الله كامل، دراسات في الحضارة والآثار الإسلامية، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2002.
89. موسى عبده عبد الله كامل، مدينة برقة وآثارها الإسلامية عبق التاريخ وطرز العمارة، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2001.
90. النيفر محمد، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم وأديب، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، مج1، 1966.
91. نصير الأبيض رجب، طرابلس الغرب في كتابات الرحالة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، ط2، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2009.
92. هاثاواي جين، البلاد العربية في ظل الحكم العثماني1516-1800، تر محمد شعبان صوان، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2018.
93. YILDIRIM Selahattin, المحدثون العثمانيون في القرن الثامن عشر ومؤلفاتهم ONDOKUZ MAYIS UNIVERSITESI ILAHIYAT DERGISI, 2015 SAYI39.

5-المراجع باللغة الأجنبية:

1. BEJI BEN MAMI Mohamed , la Mosquée M'hammed Bey un Exemple de la Présence Architecturale et Artistique Ottomane dans la Médina de Tunis, Africa Série ATP , Institut National de Patrimoine, Tunis, 1998.
2. GRASSET Daniel, L'instruction Publique, Revue Africaine Journal des Travaux de la Société Historique Algérienne, 1878
3. PIESSE Louis, Algérie et Tunisie, Libraire Hachette, Paris,1898.
4. REVEAULT jacques, Palais et Résidences d'été de la Région de Tunis (XVIem- XIXem Siècles) Paris, Editions du Centre national de la Recherche Scientifique, 1974.
5. W.a, The Islamic Art and Architecture in Libya, the Commitee fFr the Exhibition , London, 1976.

6-الرسائل الجامعية:

1. علي المهدي السعافي سكينة، العناصر الزخرفية في المساجد القرمانلية ومقارنتها بمساجد العهد العثماني الأول في المدينة

القديمة بطرابلس، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن، 2017.

2. محمد علي بن نافع حنان، العناصر الزخرفية المعمارية بمدينة طرابلس خلال العهد العثماني (1551_1911م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المرقب، ليبيا، 2006_2007.
3. منصور علي مفتاح ابراهيم، تاريخ ليبيا الثقافي والديني والاجتماعي من خلال الرحالين العرب والأوروبيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر 1700- 1900م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الجزائر، 2006-2007م.

7-المقالات باللغة العربية:

1. أبو عجيلة محمد الهادي، سياسة حكام الأسرة القرمانلية وأثرها في ظهور وتطور الحياة العلمية في إيالة طرابلس الغرب 1711-1835م، مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية، الجامعة الأسمرية الإسلامية بزليتن، ع11، 2007.
2. أحمد الماني أم السعد، مذهب المالكية في عهد الخلافة العثماني في ليبيا دراسة تاريخية، مجلة الجامعة الأسمرية، ع2، 2019.
3. أكرم الجميلي نغم، التعليم في ولاية طرابلس الغرب(1839-1911م)، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، الجامعة المستنصرية، ع4، 2012.
4. امحمد عطية محمد يحي، دور الجانب التعليمي في إثراء الحياة الاجتماعية بولاية طرابلس الغرب أثناء الحكم العثماني الثاني، مجلة العلوم الإنسانية والعلمية والاجتماعية، جامعة المرقب ليبيا، ع2، 2016.
5. بن ساسي علي الشايب، مدرسة عثمان باشا الساقزلي وتربته، مجلة السبيل، ع8، 2019.
6. الجبوري هيثم محي الدين طالب والجبوري زينب حسن عبد، أثر حركة الإصلاح العثماني في تطور الحركة الفكرية في الوطن العربي في العهد العثماني المتأخر، مجلة جامعة بابل، مج23، ع3، 2015.

7. جوابلية رمزي، دار التومي بربض باب السويقة من مدينة تونس دار كبرى على النمط المعماري التقليدي، مجلة السبيل، ع03، 2017.
8. حامد خليفة ربيع، بلاطات خزفية عثمانية في الجامع الجديد بمدينة تونس (1136_1139/1723_1727)، مجلة دراسات في آثار الوطن العربي، د.ع، د.س.ن.
9. حسن محمد يونس، الأوضاع الإدارية والاقتصادية والثقافية في ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني 1835-1911م، مجلة سبها للعلوم الإنسانية جامعة سبها، ليبيا، مج9، ع3، 2010.
10. الحمداني نهاية محمد صالح، نشاط يهود ليبيا في العهد العثماني 1551-1911م، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج8، ع23، 2012.
11. سعد الله أبو القاسم، تيارات اليقظة والإصلاح في المغرب العربي(1830-1956)، مجلة المصادر، ع8.
12. السعداوي أحمد، جوامع عثمانية في بلاد المغارب دراسة في صلة المركز بالأطراف في مجال العمارة والفنون، مجلة السبيل، ع3، 2017.
13. شعلان الطيار محمد، الأقواس والعقود في العمارة الإسلامية، مجلة التراث العربي، ع140_141، 2016.
14. صالح الشريف فوزي، دور الزوايا في الحياة الاجتماعية بالمجتمع الليبي، مجلة السراج في التربية وقضايا المجتمع، جامعة الزنتان، ع7، 2018.
15. عبد الرسول العبيدي سمير، تأسيس الحكم القرمنلي- دراسة في تاريخ طرابلس الغرب أثناء العهد العثماني، مجلة آداب المستنصرية، الجامعة المستنصرية، ع86، 2019.
16. عبيدي الحاج بية، برج يوسف داي بالبطان التأثيرات العثمانية في عمارة المنتزهات بأحواز مدينة تونس خلال القرن السابع عشر، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة2، ع45، 2016.

17. العريض وليد، إصلاح التعليم و فلسفته في الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر: قراءة في قوانين التنظيمات من عهد محمود الثاني إلى عبد الحميد الثاني 1824 – 1876م، مجلة التربية، جامعة الأزهر، ع146، ج2، 2011.
18. علي ابراهيم عبد الكريم، مجلس الإدارة في ليبيا في العهد العثماني، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ع01، س02، 1980.
19. فرج علي البركي مصطفى، جامعا رشيد باشا والعتيق بمدينة بنغازي1303ه/1885م_ 1312هـ/1894م "دراسة آثارية معمارية، دراسات في آثار الوطن العربي، ع16، د س ن.
20. فكري البنا سامح، العناصر المعمارية والزخرفية المملوكية وأثرها على مثيلاتها بالعصر العثماني في ضوء نماذج من مصر وتركيا، مجلة دراسات في آثار الوطن العربي ع18، د.م.ن، د.س.ن.
21. كامل عبد الله، الزوايا في العمارة الدينية الليبية خلال العصر العثماني دراسة حضارية أثرية، مجلة دراسات في آثار الوطن العربي، ع4، د.م.ن، د.س.ن.
22. كمون منى، دار الباي بمدينة القيروان بين القرن الثامن عشر والقرن العشرين، مجلة السبيل، ع2، 2016.
23. المبروك عيسى عفاف البشير، الإصلاحات العثمانية في ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني المجالس البلدية نموذجا، مجلة فكر وإبداع، ج97، د.ع، 2015.
24. محفوظ فوزي، أسواق صفاقس من خلال وثيقة مؤرخة من سنة 1652، مجلة السبيل، ع01، 2016.
25. محمد خيضر رابحة، دخول طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، مج6، ع2.
26. مزاحم هيثم، الفتح العثماني للأقطار العربية1516-1574(نيقولاي ايفانوف)، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، ع44، س11، 1999.

27. مـــزاحم هيـــثم، الفـــتح العثمـــاني للأقطـــار العربيـــة1516-1574(نيقولاي ايفانوف)، مجلـة الاجتهـاد، دار الاجتهـاد للأبحـاث والترجمة والنشر، بيروت، ع44، س11.
28. مصباح سراج، التأثيرات التركيـة فـي معمـار المسـاجد التونسـية وزخرفتها بالعصر الحديث، مجلة السبيل، ع02، 2016.
29. مصباح شراز، التـأثيرات التركيـة فـي معمـار المسـاجد التونسـية وزخرفتها بالعصر الحديث (جامع محمد بـاي المـرادي أنموذجـا)، مجلة السبيل، ع2، 2016.
30. المنصف الشربطي، الإحسانات الموزعة على الزوايا في القرن الثامن عشر الدلالات السياسية والإجتماعيـة والدينيـة، المجلـة التاريخيـة المغاربيـة، مؤسسـة التميمـي للبحـث العلمـي والمعلومـات، س27، ع99-100، زغوان، 2000.
31. النجار جميل موسى، السياسة التعليميـة العثمانيـة وانعكاسـها علـى ولاية طرابلس الغرب من عهد الوالي أحمد عـزت باشـا إلـى نهايـة الحكم العثماني1858-1911م، مجلة جامعة الملك سعود لـلآداب، كلية الآداب، مج14، ع1، 2002.
32. الويشي عطية بن فتحي، العثمانيون بطرابلس الغرب جدلية العلاقـة بـين المجتمـع والدولـة958-1330/ 1551- 1912م، المجلـة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مج35، ع140، 2017.

8-المقالات باللغة الأجنبية:

1. ABIDI-BELHADJ Baya, Dar el-Bey d'Hammam-lif aux XVIIIe-XIXe Siècles : Prémices L'architecture Thermale à Tunis, Al-sabil ; Revue d'histoire d'Archéologie et d'Architecture Maghrébines, N°2 ,Tunis, 2018.
2. DHIF Sofien, L'architecture Religieuse de Tripoli à L'époque kàràmànli(1711-1835) Genèse d'une Mosquée Hétéroclie, Al-sabil Revue d'histoire d'archéologie et d'architecture Maghrébines, n°5 , Tunis, 2018.
3. Féraud Charles, Correspondance Notes Sur un Voyage Entre Tunisie et Tripolitaine, Revue Africaine Journal Des Travaux de la Société Historique Algérienne, Année 1876.

4. SAADAOUI Ahmed, les Marbres dans L'architecture Religieuse de Tunis –XVIIe XVIIIe et XIXe siècles, Alsabil Revue d'histoire d'archéologie et d'architecture Maghrébines,n°5,2018.

9-أعمال الملتقيات:

1. البشير عيسى عفاف، الإصلاحات العثمانية وأثرها في تعليم الفتيات في العصر العثماني الثاني 1835-1911م دراسة تاريخية وثائقية، المؤتمر الدولي الخامس، العرب والترك عبر العصور، د م ن، د س ن.
2. خير الله جمال، التأثير العثماني على طرابلس الغرب من خلال أربعة نقوش كتابية محفوظة بمتحف السراي الحمراء، المؤتمر الدولي السابع" الحياة اليومية في العصور القديمة، مج2، جامعة عين شمس، 2016.
3. صلاح مخلوف ماجدة، احمد جودت باشا وتطوير المدرسة العثمانية، بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، مج1، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، 2000.
4. يونس علي السنوسي وأحميدة سالم حماد، الإمتداد الفكري للدعوة السنوسية (الشيخ فالح الظاهري وعبد العالي الإدريسي نموذجا)، أعمال الندوة العلمية الثانية المنعقدة بالجغبوب يومي 23-24ديسمبر2019م السنوسية من الزاوية إلى الدولة 1841-1969م، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2019.

10- الدوريات الأجنبية:

1. ROUSSEAU Alphonse, Annales Tunisiennes ou Aperçu Historique Sur la Régence de Tunis, Bastide Libraire-éditeur, Alger, 1864.

11- الموسوعات والمعاجم:

1. أبو حمدان سمير، موسوعة عصر النهضة خير الدين التونسي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1992.
2. جحيدر عمار محمد، معجم اليوميات الليبية، ج1، ط1، مجمع اللغة العربية، طرابلس، 2021.
3. رمضان شلغوف مسعود وآخرون، موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا، ج1، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1980.

4. الزيدي مفيد، موسوعة التاريخ الإسلامي العصر العثماني، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2009.
5. محمد رزق عاصم، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000.

فهرس

المحتويات

المقدمة 01

الفصل التمهيدي:

الأوضاع العامة في تونس وطرابلس الغرب قبيل الوجود العثماني.....10

I- الأوضاع العامة في تونس قبيل مجيئ العثمانيين 11

أولاً) الأوضاع السياسية..... 12

ثانيا) الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية..... 20

ثالثا) الأوضاع الثقافية..... 24

رابعا) الجوانب العمرانية..... 31

II- الأوضاع العامة في طرابلس الغرب قبيل مجيئ العثمانيين....36

أولاً) الأوضاع السياسية.....36

ثانيا) الأوضاع الاقتصادية والإجتماعية..... 47

ثالثا) الأوضاع الثقافية..... 49

رابعا) الجوانب العمرانية..... 51

الخلاصة.....55

الفصل الأول:

التراث العمراني العثماني في تونس وطرابلس الغرب 56

I- التراث العمراني بتونس..... 58

أولا) النسيج الحضري.... 59

1- دار التومي 65

2- دار الباي..... 66

3- مبنى المحمدية..... 69

4- مستشفى العزافين..... 71

5- مستشفى القرسطون 72

6- المستشفى الصادقي..... 73

ثانيا) المساجد 74

1- جامع حمودة باشا.....76
2- مسجد الفلاري.....78
3- جامع صاحب الطابع.....80
4- مسجد سيدي عبد الحق.....81
5- المسجد الحبيبي.....83
6- جامع محمد باي.....84
ثالثا) المدارس 86
رابعا) الفنادق.....88
II- التراث العمراني في طرابلس الغرب.....90
أولا) النسيج الحضري.....90
ثانيا) المساجد 94
1- جامع أحمد باشا القرمانلي.....95
2- جامع قورجي.....97
3- جامع رشيد باشا.....98
4- جامع درغوث باشا.....101
5- جامع شائب العين.....102
6- جامع محمود.....104
7- جامع السراي الحمراء.....105
8- مسجد ابن غلبون بمصراتة.....106
9- مسجد عبد السلام الأسمر بزليتن.....108
10- المسجد العتيق ببرقة.....110
11- جامع يوسف المكنى.....112
ثالثا) المدارس 114
1- مدرسة عثمان باشا الساقزلي.....114
2- مدرسة الكاتب.....117
رابعا) الفنادق.....118

1- الفندق الكبير.....119
2- فندق الدروز.....119
3- فندق القرمانلي.....120
4- فندق زميت الضفايري.....120
5- فندق مادي الحسان.....121
خامسا) القلاع والحصون.....123
1- قلعة السراي الحمراء.....123
2- حصن القيقب.....126
3- حصن براك الشاطئ.....127
4- حصن غات.....127
5- حصن القريات.....128
سادسا) الحمامات 129
1- حمام درغوث.....130
الخلاصة.....132
الفصل الثاني:
الحياة العلمية بتونس وطرابلس الغرب خلال العهد العثماني ...133
I- الحياة العلمية بتونس.....134
أولا) التعليم الديني.....135
ثانيا) التعليم الحديث.....139
1- المدرسة الحربية.....139
2- المدرسة الصادقية.....147
3- تحديث التعليم بالزيتونة.....151
ثالثا) جهود العثمانيين في تطوير التعليم بتونس.....160
II- الحياة العلمية بطرابلس الغرب.....168
أولا) التعليم الديني.....169
ثانيا) التعليم الحديث.....177

1- المدرسة العسكرية.....180
2- المدارس الرشدية.....184
3- المدارس الأوروبية.....188
4- تعليم المهن والصنائع.....189
ثالثا) جهود العثمانيين في تطوير التعليم بطرابلس الغرب.....192
الخلاصة.....201

الفصل الثالث:

الإنتاج الفكري وأعلامه في تونس وطرابلس الغرب خلال العهد العثماني.....204
I- حركة التأليف بتونس 205
أولا) طبيعة الكتابة الأدبية في تونس.....205
1-الكتابة النثرية.....208
2-الكتابة الشعرية.....210
3-الكتابة التاريخية.....213
ثانيا) أعلام الفكر في تونس.....227
ثالثا) دور المكتبات.....237
رابعا) دور المطبعة والصحافة.....241
II- حركة التأليف بطرابلس الغرب.....246
أولا) طبيعة الكتابة الأدبية في طرابلس الغرب.....246
1-الكتابة النثرية.....246
2-الكتابة الشعرية.....249
3-الكتابة التاريخية.....256
ثانيا) أعلام الفكر في طرابلس الغرب... 264
ثالثا) دور المكتبات.....269
رابعا) دور المطبعة والصحافة.....271
الخلاصة.....275

الفصل الرابع:

التأثير العمراني والفكري العثماني في تونس وطرابلس الغرب.....277
أولا - التأثير العمراني العثماني بتونس 279
1-الجانب الهندسي.....282
2-الجانب الزخرفي.....286
3-دور الوقف في الجوانب العمرانية والعلمية.....290
ثانيا- التأثير الفكري العثماني بتونس.....292
1-الجانب الأدبي.....294
2-الجانب العلمي.....297
3-تأثير الصحافة والطباعة.....303
ثالثا- التأثير العمراني العثماني بطرابلس الغرب.....306
1-الجانب الهندسي..... 309
2-الجانب الزخرفي.....317
3-دور الوقف في الجوانب العمرانية والعلمية.....323
رابعا- التأثير الفكري العثماني بطرابلس الغرب.....324
1-الجانب العلمي..... 324
2-الجانب الأدبي..... 330
3-تأثير الصحافة والطباعة..... 331
الخلاصة..... 335
الخاتمة..... 337
الملاحق..... 343
قائمة المصادر والمراجع..... 367
فهرس المحتويات..... 384